شرح
كتاب التوحيد
من صحيح البخاري

تأليف

عبد الله بن محمد الغنيمان

الجزء الثاني

الناشر

دار العليان للنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر

دار البيان للنشر والتوزيع

دمنهور ت : ٠٤٥-٣٢٠٨١٩-٢١٥١٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٦ ـــ قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث بن سعد ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون فى رؤيتهما » .

ثم قال : « ينادى منادٍ ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب .

ثم يؤتى بجهنم ، تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ، ولا ولد ، فما تريدون ؟

قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم .

ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟

فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون [فى جهنم] .

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟

فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا .

قال : فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟

فيقولون : الساق .

فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا .

ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة ، عليه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكة مفلطحة ، لها شوكة عقيفاء ، تكون بنجد ، يقال لها السعدان .

المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس فى نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار .

وإذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم ، يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا .

فيقول الله ــ تعالى ــ : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى ، فاقرأوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا ﴾[1] .

فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون .

فيقول الجبار جل جلاله . بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

فيخرج أقواما قد امتحشوا ، فيلقون فى نهر بأفواه الجنة ، يقال له ماء الحياة ، فينبتون فى حافتيه ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض .

فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فى رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة .

فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه . ولا خير قدموه .

فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » .

قوله : « قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » فى رواية مسلم : « أن ناسا فى زمن رسول الله ﷺ قالوا .... إلخ » . فما هنا تفسير لها .

قوله : « قال : هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا ؟ » فى رواية مسلم : « فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب » يعنى فى وقت خلو السماء من السحاب والقتر ، فقوله : « ليس معها سحاب » زيادة إيضاح لقوله : « صحوا » .

قوله : « ثم ينادى مناد ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون » تقدم فى حديث أبى هريرة قوله : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه » . فيكون المنادى هو الله تعالى ، ومعلوم أن النداء هو رفع الصوت بالكلام ، فما أبلغ هذا فى إثبات تكلم الله تعالى حقيقة .

قوله : « فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم » يعنى عباد الصليب ، وهم النصارى كما هو معلوم .

« والأوثان هى الأصنام ، وقد تطلق على كل معبود من دون الله تعالى .

قال ابن الأثير : « الفرق بين الوثن ، والصنم ، أن الوثن كل ماله جثة معمولة ، من جواهر الأرض ، أو من الخشب ، أو الحجارة ، كصورة الآدمى تعمل وتنصب ، فتعبد .

والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما ، وأطلقهما على المعنيين ، وقد يطلق الوثن على غير الصورة »[1] .

وقد جاء فى قصة عدى بن حاتم أنه قال : « قدمت على النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال لى : « ألق هذا الوثن عنك »[2] وهذا يدل على أن الوثن يطلق على كل ما عبد من دون الله ، وقد قال الأعشى :

تطــوف العفــاة بأبوابــه ... كطوف النصارى ببيت الوثن[3]

يريد بالوثن : الصليب .

قوله : « وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم » قال الله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَاكَانُواْ يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۞ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[4] والمقصود بأزواجهم نظراءهم وإخوانهم فى العمل .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[5] .

فالله تعالى يحشر كل عابد مع معبوده ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا يزعمون أن معبوداتهم من دون الله سوف تتولاهم ، وتشفع لهم وتنفعهم ، فجمعهم الله مع معبوداتهم ليظهر كذبهم وغرورهم ، وفقر كل من العباد والمعبود .

---

(١) النهاية جـ ٥ ص ١٥١ .
(٢) أخرج قصته أحمد جـ ٤ ص ٣٧٨ والترمذى رقم ٢٩٥٦ وابن هشام فى السيرة جـ ٢ ص ٥٧٨ .
(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٢٠٩ .
(٤) الآيات من ٢٢ ــ ٢٥ من سورة الصافات .
(٥) الآية ١٧ من سورة الفرقان .

وفى رواية عبد الله بن مسعود ، « يقول الله — تعالى — للناس فى ذلك الموقف أليس عدل منى أن أولى كل عابد ما كان يعبد » .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، وغبرات من أهل الكتاب » .

البر : هو المطيع لله ، المتبع لرسله ، والفاجر هو : الخارج عن الطاعة ، ولو فى بعض الأمور .

والغبرات جمع غبر ، بضم الغين وفتح الباء ، والمقصود ، بقايا من اليهود ، والنصارى قليلة ، وأما معظمهم وجلهم فقد ذهب بهم مع أوثانهم إلى جهنم .

قوله : « ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب » فى ذلك الموقف أمور عظام ومهولة وله أحوال متعددة ، وحقائقها لا تعلم إلا بالمعاينة ، ولكن الرسل ، ولا سيما خاتمهم جاؤا بما يكفى المؤمن فى الإيقان من أوصاف ذلك اليوم .

وفى هذا : « أن جهنم يؤتى بها كأنها سراب » وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[1] .

فيؤتى بجهنم بهذه الصفة تعرض على الناس فى ذلك الموقف ، وهناك ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَاهُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[2] .

والسراب : هو ما يرى فى الأرض الخالية المستوية وقت ما تشتد حرارة الشمس من أثر انعكاس أشعتها على الأرض ، فيرى فى القيعان كأنه ماء ، فإذا قرب إليه الرائى أبعد عنه ، فهو كما قال الله تعالى :

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٤٩

(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَاءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[1] .

قوله : « فيقال لليهود ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيرًا ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبه ولا ولد » السؤال لتبكيتهم ، وتقريرهم بما يستحقون به العذاب ، وهو عبادتهم لغير الله .

وفيه دليل على أن الناس فى ذلك اليوم يكونون على عقائدهم فى الدنيا لأن هؤلاء اليهود والنصارى لما سئلوا عما كانوا يعبدون قالوا عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله ، فهم لا يزالون يعتقدون أن عزيرًا ابن الله ، وكذلك النصارى يظنون ذلك فى المسيح .

والكذب الذى أضيف إليهم هو قولهم : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ولهذا قال : لم يكن لله صاحبة ولا ولد .

قوله : « فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم » فى ذلك الموقف يشتد الظمأ لتوالى الكربات ، وترادف الشدائد المهولات ، ولهذا صار أول مطلبهم الماء ، وقد مثلت لهم جهنم كأنها ماء كما سبق فى قوله : « كأنها سراب » فيقال لهم : اذهبوا إلى ما ترون ، وتظنونه ماء ، فاشربوا ، فيذهبون فيجدون جهنم يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون فيها ، ومثل ذلك يقال للنصارى بعدهم .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر » تقدم فى الحديث قبله : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » ، وما هنا أعم ، وتقدم الكلام عليه .

قوله : « فيقال لهم : ما يحبسكم ، وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ، ونحن أحوج منا إليه اليوم » الذى يخاطبهم بذلك هو رب العالمين ، كما هو واضح فى السياق .

والرواية التى ذكرها البخارى فى التفسير : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، أتاهم رب العالمين »[2] ، وهذا من الامتحان

---

(1) الآية ٣٩ من سورة النور .
(2) انظر البخارى جـ ٦ ص ٥٦ .

والابتلاء ، ليتبين ثباتهم وصدقهم ، ولذلك قالوا : فارقنا الناس فى الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وذلك لأنهم عصوا الله وخالفوا أمره وناصبوا من أطاعه العداوة ، فعاديناهم لذلك ، وزايلناهم بغضا لهم فى الله ، وإيثارا لطاعة ربنا ، كما قال إبراهيم عليه السلام ، والذين آمنوا معه : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[1] .

قوله : « إليه » قال مصححو الطبعة البولاقية : « هكذا فى جميع النسخ متنا وشرحا بضمير الإفراد ، وهو مخالف لما ذكره الشارح [يعنى القسطلانى] نقلا عن البرماوى والكرمانى والعينى ، حيث قال : « وكنا فى ذلك الوقت أحوج إليهم » وتقدم فى تفسير سورة النساء بضمير الجمع »[2] .

وقد أشار الحافظ إلى صحة الإفراد ، وأن عياضا رجحه ، وجعل الضمير عائدا إلى الله تعالى ، والمعنى : « فارقنا الناس فى معبوداتهم ، ولم نصاحبهم ، ونحن اليوم أحوج إلى ربنا من أى يوم كان ، أى إنا محتاجون إليه »[3] .

قوله : « وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا » يعنى أنهم امتثلوا قول المنادى ، وليسوا ممن يعبد تلك المعبودات التى أحضرت إلى عابديها ، ثم سيقوا معها إلى النار ، وقد علموا أن ربهم تعالى سيأتيهم .

قوله : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » قد تقدم الكلام فى الصورة بما يكفى ، وفى الرواية التى ذكرها فى التفسير : « أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها أول مرة » وهو لفظ

---

(١) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٢) حاشية البخارى طبعة بولاق جـ ٩ ص ١٥٩ .
(٣) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٤٥٠ .

رواية مسلم[1] ، وفى السنة لابن أبى عاصم : « ثم يتبدى الله لنا فى صورة غير صورته التى رأيناه فيها أول مرة » وفى رواية عنده أيضا « ثم يرفع برنا ومسيئنا ، وقد عاد لنا فى صورته التى رأيناه فيها أول مرة »[2] وقد تقدم .

وفى صحيح مسلم فى هذا الحديث : « ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا »[3] .

ففى هذه الألفاظ بيان صريح بأنهم قد رأوه فى صورة عرفوه فيها ، قبل أن يأتيهم هذه المرة ، وفى ذلك رد لما قاله الإمام أبو سعيد الدارمى رحمه الله حيث جعل معرفتهم إياه بصفاته التى تعرف بها إليهم فى الدنيا .

وكذلك قوله : « إن هذا التحول من صورة إلى صورة ، هو تمثيل يمثله الله فى أعينهم .

أما هو — تعالى — فلا يتحول من صورة إلى صورة ، وهذا خلاف ما صرحت به الأحاديث كما ذكرنا[4] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول أبى سعيد هذا ، ورده من وجوه عدة ، فقال بعد ما ذكر أقوال أهل التأويل ، من الجهمية ، والحلولية لحديث الصورة وإتيان الرب — تعالى — إلى أهل الموقف بصورته ، قال :

« وأقرب ما يكون عليه إتيان الله — تعالى — فى صورة بعد صورة — وإن كان تأويلا باطلا — أيضا ما ذكره بعض أهل الحديث ، مثل أبى عاصم

---

(١) انظر صحيح مسلم مع النووى جـ ٣ ص ٢٧ .
(٢) انظر السنة جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٩ رقم ٣٠٢ .
(٤) انظر الرد على المريسى ص ٤٢١ مجموعة عقائد السلف .

النبيل ، أنه كان يقول : ذلك تغيير يقع فى عيون الرائين ، كنحو ما يخيل إلى الإنسان الشىء بخلاف ما هو به ، فيتوهم الشىء على الحقيقة .

وقال عثمان بن سعيد فى نقضه على بشر المريسى : « وأما إنكارك على رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله يترائى لعباده المؤمنين يوم القيامة ، فى غير صورته ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، ثم يترائى فى صورته التى يعرفونها ، فيتبعونه ، فزعمت أن من أقر بهذا فهو مشرك .

فيقال لهم : أليس قد عرفتم ربكم فى الدنيا ، فكيف جهلتموه عند العيان ، وشككتم فيه ؟

وقد صح بهذا الخبر عن رسول الله ﷺ كأنك تسمعه يقوله من جودة إسناده .

ولو أن الله تجلى لهم أول مرة فى صورته التى عرفهم صفاتها فى الدنيا ، لاعترفوا بما عرفوا ، ولكنه يُرى نفسه فى أعينهم ، لقدرته ، ولطف ربوبيته فى صورة غير ما عرفهم الله صفاتها فى الدنيا ؛ ليمتحن الله بذلك إيمانهم ، ثانية فى الآخرة ، أنهم لايعترفون بالعبودية فى الدنيا والآخرة إلا للمعبود الذى عرفوه فى الدنيا بصفاته التى أخبرهم بها فى كتابه ، واستشعرتها قلوبهم حتى ماتوا على ذلك .

فإذا مثل فى أعينهم غير ما عرفوا من الصفة نفروا ، وأنكروا ، إيمانا منهم بصفة ربوبيته التى امتحن قلوبهم فى الدنيا بها ، من غير أن يتحول الله من صورة إلى صورة .

ولكن يمثل ذلك فى أعينهم ، كما مثل جبريل مع عظم صورته ، فى صورة دحية الكلبى ، وكما مثل لمريم بشرًا ، وكما شبه عيسى فى أعين اليهود »[1]

---

(١) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٤٢١ — ٤٢٣ وانظر نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٩٧ — ٤٠١ المخطوط .

وهذا باطل من وجوه :

أحدها : أن فى حديث أبى سعيد المتفق عليه « فيأتيهم فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » .

وفى لفظ : « فى أدنى صورة من التى رأوه فيها » ، وهذا يفسر قوله فى حديث أبى هريرة : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون » ، ويبين أن تلك المعرفة كانت لرؤية منهم متقدمة ، فى صورة غير الصورة التى أنكروه فيها .

وفى هذا التفسير قد جعل صورته التى يعرفون ، هى التى عرفهم صفاتها فى الدنيا ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه أخبر أنها الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، لا أنهم عرفوها بالنعت فى الدنيا .

ولفظ الرواية صريح فى ذلك ، وقد بينا أنه فى غير حديث ما يبين أنهم رأوه قبل هذه المرة .

الثانى : أنهم لا يعرفون فى الدنيا لله صورة ، ولم يروه فى الدنيا فى صورة ، فإن ما وصف الله — تعالى — به نفسه ، ووصفه به رسوله لا يوجب لهم معرفة صورة يعرفونه فيها ، ولهذا قال — تعالى — : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1] فلو أرادوا الصفات المخبر بها فى الدنيا لذكروا ذلك .

فعلم أنهم لم يطبقوا الصورة التى رأوه فيها أول مرة [على ما علموه فى الدنيا][2] .

وقد قال النبى ﷺ فى سدرة المنتهى : « فغشيها من أمر الله ما غشيها ، حتى لا يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها »[3] ، فالله أعظم من أن يستطيع

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٢) ليست من كلام الشيخ وإنما زدتها للإيضاح .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٦ الحديث رقم ٢٥٩ .

أحد أن ينعت صورته ، وهو سبحانه وصف نفسه لعباده بقدر ما تحتمله أفهامهم .

ومعلوم أن قدرتهم على معرفة الجنة بالصفات أيسر ، ومع هذا فقد قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١) فالخالق أن لا يكونوا يطيقون معرفة صفاته كلها أولى .

الوجه الثالث : أن فى حديث أبى سعيد : « فيرفعون رءوسهم وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة » فقوله : « لا يتحول من صورة إلى صورة ولكن يمثل ذلك فى أعينهم » مخالف لهذا النص .

الوجه الرابع : أن فى حديث ابن مسعود ، وأبى هريرة ، من طريق العلاء :

« أنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون » وفى لفظ « أشباه ما كانوا يعبدون » .

ثم قال : « ويبقى محمد وأمته ، فيتمثل لهم الرب - تبارك وتعالى - فيأتيهم فيقول : « ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا إلها ما رأيناه بعد » ، فقد أخبر أن الله ـــ تعالى ـــ هو الذى يتمثل لهم ، ولم يقل لهم كما قال فى معبودات المشركين ، وأهل الكتاب .

الوجه الخامس : أن فى عدة أحاديث ، كحديث أبى سعيد ، وابن مسعود : « قال هل بينكم وبينه علامة ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فيسجدون له » . وهذا بين أنهم لم يعرفوه بالصفة التى وصف لهم فى الدنيا ، بل بآية وعلامة عرفوها فى الموقف .

وكذلك فى حديث جابر : « قال : فيتجلى لنا يضحك » ، ومعلوم أنه وإن

---

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه وسيأتى ومسلم انظر جـ ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٤ .

وصف بالدنيا بالضحك فصورته لا تعرف بغير المعاينة .

الوجه السادس : أنه مثل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ ﴾[1] وبقوله : ﴿ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[2] ، وهذا غير مناسب لأن اليهود غلطوا فى الذى رأوه ، حيث ظنوه المسيح ، ولم يكن هو ، ولكن ألقى شبهه عليه ، وكذا الذى رأته مريم ، ومحمد ﷺ هو جبريل نفسه فى صورة آدمى ، فكيف يقاس ما رؤى هو نفسه فى صورة على ما لم ير ؟

وأما التقليل والتكثير فى أعينهم فهو فى المقدار ، ليس فى نفس المرئى ، ولكن فى صفته .

الوجه السابع : أن هذا المعنى كان مقيدا بالرائى ، لا بالمرئى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾[3] فقيد ذلك بأعين الرائين ، يقال : كان هذا فى عين فلان رجلا ، فظهر امرأة ، وكان كبيرا ، فظهر صغيرا ونحو ذلك .

لا يقال جاء فلان فى صورة كذا ، ثم تحول فى صورة كذا ، ويكون التصوير فى عين الرائى فقط »[4] .

قوله : « فيقولون : الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن » : الضمير فى قوله : « فيكشف عن ساقه » يعود إلى الله تعالى ، ففى ذلك إثبات الساق صفة لله تعالى ، ويكون هذا الحديث ونحوه تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .
(٢) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .
(٤) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٩٧ ـــ ٤٠٤ المخطوطة .

يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1] .

قال البخارى فى التفسير من صحيحه : « باب : « يوم يكشف عن ساق » :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد — رضى الله عنه — قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا حديث متفق على صحته ، وفيه التصريح فى أن الله تعالى يكشف عن ساقه ، وعند ذلك يسجد له المؤمنون .

ومن تأوله التأويلات المستكرهة ، فقد استدرك على رسول الله ﷺ و لم يرض بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى .

ومعلوم أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[1] ليس نصًّا فى أن الساق صفة لله تعالى لأنه جاء نكرة غير معرف بالإضافة إلى الله — تعالى — ، فيكون قابلا كونه صفة ، وكونه غير صفة ، وتعينه لواحد من ذلك يتوقف على الدليل وقد دل الدليل الصحيح على أنه صفة لله — تعالى — فلا يجوز تأويله بعد ذلك .

أما ما جاء عن ابن عباس ، وغيره أن ذلك : الشدة والكرب يوم القيامة ، فهذا بالنظر إلى لفظ الآية ، لأنها كما قلنا لم تدل على الصفة بلفظها ، وإنما الدليل هو الحديث المذكور ، مع أنه جاء عن أبى سعيد ، راوى الحديث وجاء عن غيره أيضا أنهم جعلوها دالة على الصفة .

قال شيخ الإسلام : « وقد طالعت التفاسير المنقولة ، عن الصحابة ،

---

(١) الآية ٤٢ من سورة ن .

رقم الإيداع ٥٥٨٦ / ٨٨

الحديث	الصفحة
٢٦ – حديث على بن أبى طالب أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة فقال : « ألا تصلون »	١٥١
٢٧ – حديث أبى هريرة : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع »	١٥٤
٢٨ – حديث ابن عمر : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم »	١٥٦
٢٩ – حديث عبادة فى المبايعة على أن لا يشركوا بالله شيئا »	١٥٨
٣٠ – حديث أبى هريرة أن نبى الله سليمان قال لأطوفن الليلة على نسائى »	١٦٢
٣١ – حديث ابن عباس : دخل على أعرابى يعوده فقال : « لا بأس »	١٦٤
٣٢ – حديث أبى قتادة : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء »	١٦٦
٣٣ – حديث أبى هريرة : « استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود » مكرر	١٦٨
٣٤ – حديث أنس : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة »	١٧٢
٣٥ – حديث أبى هريرة : « لكل نبى دعوة »	١٧٦
٣٦ – حديث أبى هريرة : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب فنزعت »	١٧٨
٣٧ – حديث أبى موسى : « اشفعوا فلتؤجروا »	١٨٣
٣٨ – حديث أبى هريرة : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت »	١٨٤
٣٩ – حديث ابن عباس فى قصة موسى والخضر	١٨٦

الحديث	الصفحة
٤٠ – حديث أبى هريرة : « ننزل غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة »	١٩٠
٤١ – حديث ابن عمر فى غزوة الطائف وقوله : « إنا قافلون غدا إن شاء الله »	١٩٣
٤٢ – حديث قول ابن مسعود إذا تكلم الله بالوحى .. الخ	١٩٨
٤٣ – حديث عبد الله بن أنيس : « يحشر العباد فيناديهم بصوت ... الخ »	١٩٩
٤٤ – حديث أبى هريرة : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة »	٢٠٩
٤٥ – حديث أبى هريرة : « ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى يتغنى بالقرآن »	٢١٠
٤٦ – حديث أبى سعيد : « يقول الله يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك ، فينادى بصوت »	٢١٤
٤٧ – حديث عائشة : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة	٢٢١
٤٨ – حديث أبى هريرة : « إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل »	٢٢٤
٤٩ – حديث أبى هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة »	٢٢٨
٥٠ – حديث أبى ذر : « أتانى جبريل فبشرنى ...الخ »	٢٢٩
٥١ – حديث البراء : « إذا آويت إلى فراشك فقل »	٢٣٤
٥٢ – حديث ابن أبى أوفى : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب »	٢٣٧
٥٣ – حديث ابن عباس أنزل قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ والنبى متوار	٢٤٠

الحديث	الصفحة
٥٤ – حديث أبي هريرة : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر » . مكرر	٢٤٣
٥٥ – حديث أبي هريرة : « يقول الله الصوم لي وأنا أجزى به »	٢٤٥
٥٦ – حديث أبي هريرة : « بينا أيوب يغتسل عريانا »	٢٤٧
٥٧ – حديث أبي هريرة : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة »	٢٤٨
٥٨ – حديث أبي هريرة : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »	٢٦٢
٥٩ – حديث أبي هريرة : هذه خديجة أتتك بإناء فيه طعام	٢٦٣
٦٠ – حديث أبي هريرة : « أعددت لعبادى الصالحين »	٢٦٤
٦١ – حديث ابن عباد كان إذا تهجد من الليل مكرر	٢٦٦
٦٢ – حديث عائشة في قصة الإفك	٢٦٧
٦٣ – حديث أبي هريرة : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة ... الخ »	٢٧٢
٦٤ – حديث أبي هريرة : « خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم »	٢٧٤
٦٥ – حديث زيد بن خالد : « أصبح من عبادى كافر بي ومؤمن »	٢٨٠
٦٦ – حديث أبي هريرة : « إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه »	٢٨٢
٦٧ – حديث أبي هريرة : « أنا عند ظن عبدى بي »	٢٨٥
٦٨ – حديث أبي هريرة : قال رجل إذا أنا مت فحرقونى . مكرر	٢٨٥
٦٩ – حديث أبي هريرة : « إن عبدا أصاب ذنبا فقال : رب أصبت ذنبا »	٢٨٩

الحديث	الصفحة
٧٠ – حديث أبى سعيد فى قصة الرجل الذى أمر أولاده أن يحرقوه	٢٩١
٧١ – قطعة من حديث أنس فى الشفاعة . مكرر	٢٩٧
٧٢ – حديث أنس فى الشفاعة . مكرر	٢٩٨
٧٣ – حديث أبن مسعود فى آخر من يدخل الجنة	٣٠٣
٧٤ – حديث عدى بن حاتم : ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه	٣٠٧
٧٥ – حديث ابن مسعود : جاء حبر من اليهود	٣٠٨
٧٦ – حديث ابن عمر فى النجوى	٣٠٩
٧٧ – حديث أبى هريرة فى محاجة موسى وآدم	٣٢٦
٧٨ – حديث أنس فى الشفاعة . مكرر	٣٣٣
٧٩ – حديث أنس فى قصة المعراج	٣٣٤
٨٠ – حديث أبى سعيد فى قول الله تعالى لأهل الجنة : هل رضيتم	٣٥٩
٨١ – حديث أبى هريرة فى الرجل الذى يطلب من ربه أن يأذن له فى الزرع فى الجنة	٣٦١
٨٢ – حديث ابن مسعود : « قلت أى الذنب أعظم »	٣٩١
٨٣ – حديث ابن مسعود : « اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشى »	٣٩٩
٨٤ – حديث ابن عباس : « كيف تسألون أهل الكتاب »	٤٠٧
٨٥ – حديث ابن عباس فى قوله : « لا تحرك به لسانك »	٤١٥
٨٦ – حديث ابن عباس فى قوله : « ولا تجهر بصلاتك » مكرر	٤٢٠

الحديث	الصفحة
٨٧ – حديث أبى هريرة : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . مكرر	٤٢١
٨٨ – حديث أبى هريرة : « لا تحاسد إلا فى اثنتين »	٤٢٥
٨٩ – حديث أبى سالم : « لا حسد إلا فى اثنتين »	٤٢٧
٩٠ – حديث المغيرة بن شعبة : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا »	٤٣٩
٩١ – حديث عائشة : من حدثك أن محمدًا كتم شيئا . مكرر	٤٤٠
٩٢ – حديث ابن مسعود : أى الذنب أعظم . مكرر	٤٤١
٩٣ – حديث ابن عمر : « إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم » مكرر	٤٥٨
٩٤ – حديث ابن مسعود : قلت أى الأعمال أفضل	٤٦١
٩٥ – حديث عمرو بن تغلب : أعطى قوما ومنع آخرين	٤٦٥
٩٦ – حديث أنس : إذا تقرب العبد إلى شبرا .. الخ . مكرر	٤٦٨
٩٧ – حديث أبى هريرة مثله	٤٧٠
٩٨ – حديث أبى هريرة : الصوم لى وأنا أجزى به . مكرر	٤٧٠
٩٩ – حديث ابن عباس : لا ينبغى لعبد أن يقول إنه خير من يونس	٤٧١
١٠٠ – حديث عبد الله بن المغفل فى الترجيع بالقراءة	٤٧٣
١٠١ – حديث أبى هريرة : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم	٤٧٨
١٠٢ – حديث ابن عمر فى اليهوديين اللذين زنيا	٤٨١
١٠٣ – حديث أبى هريرة فى التغنى بالقرآن . مكرر	٤٨٧

الحديث	الصفحة
١٠٤ – قطعة من حديث الإفك . مكرر	٤٨٨
١٠٥ – حديث البراء : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى العشاء	٤٩١
١٠٦ – حديث ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ مكرر	٤٩٢
١٠٧ – حديث أبى سعيد : إذا أذنت فارفع صوتك	٤٩٣
١٠٨ – حديث عائشة كان يقرأ القرآن ورأسه فى حجرى	٤٩٥
١٠٩ – حديث قصة عمر مع هشام بن حكيم واختلاف القراءة	٤٩٨
١١٠ – حديث عمران : كل ميسر لما خلق له	٥١٩
١١١ – حديث على أنه كان فى جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت به الأرض	٥٢٨
١١٢ – حديث أبى هريرة : لما قضى الله الخلق كتب . مكرر	٥٤٤
١١٣ – حديث أبى موسى وذهابه إلى النبى لطلب الحملان وقوله والله لا أحملكم	٥٦٢
١١٤ – حديث ابن عباس فى وفد عبد القيس	٥٦٦
١١٥ – حديث عائشة فى المصورين	٥٧١
١١٦ – حديث ابن عمر فيهم	٥٧١
١١٧ – حديث أبى هريرة فيهم	٥٧٣
١١٨ – حديث أبى موسى فى مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن	٥٨٠
١١٩ – حديث عائشة فى الكهان ، وأنهم ليسوا بشىء	٥٨٣
١٢٠ – حديث أبى سعيد فى الخوارج	٥٨٦
١٢١ – حديث أبى هريرة كلمتان حبيبتان إلى الرحمن	٥٩٣

الصفحة	الآيـة
٤٢٠	٤٤ – ﴿ يتخافتون ﴾ من الآية ١٠٣ طه والآية ٢٣ من سورة القلم
٤٢٤	٤٥ – ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ الآية ٢٢ من سورة الروم
٤٢٥	٤٦ – ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ من الآية ٧٧ من سورة الحج
٤٢٧	٤٧ – ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ من الآية ٦٧ من سورة المائدة
٤٣٣	٤٨ – ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ من الآية ٢٨ من سورة الجن
٤٣٤	٤٩ – ﴿ أبلغكم رسالات ربى ﴾ من الآيتين ٦٢ ، ٦٨ من سورة الأعراف
٤٣٤	٥٠ – ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ من الآية ٩٤ من سورة التوبة
٤٣٥	٥١ – ﴿ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ الآية ١٠٥ من سورة التوبة
٤٣٦	٥٢ – ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ... ﴿ هدى للمتقين ﴾ من الآية ٢ من سورة البقرة
٤٤٤	٥٣ – ﴿ قل فأتوا بالتوارة فاتلوها ﴾ الآية ٩٣ من سورة آل عمران
٤٦٣	٥٤ – ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ﴾ الآيات ١٨ – ٢٠ من سورة المعارج
٤٧٦	٥٥ – ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ الآية ٩٣ من سورة آل عمران

الآيــة	الصفحة
٥٦ - ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ من الآية ٢٠ من سورة المزمل	٤٩٧
٥٧ - ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ الآية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ من سورة القمر	٥١٧
٥٨ - ﴿ بل هو قرآن مجيد ◦ فى لوح محفوظ ﴾ الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج	٥٣٢
٥٩ - ﴿ والطور ◦ وكتاب مسطور ﴾ الآيتان ١ ، ٢ من سورة الطور	٥٣٣
٦٠ - ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ الآية ١٩ من سورة الأنعام	٥٤٣
٦١ - ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ الآية ٩٦ من سورة الصافات	٥٤٨
٦٢ - ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ الآية ٤٩ من سورة القمر	٥٥٢
٦٣ - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ الآية ٥٤ من سورة الأعراف	٥٥٤
٦٤ - ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ الآية ٤٧ من سورة الأنبياء	٥٨٩

فهرست للأحاديث المشروحة فى هذا الجزء

الحديث	الصفحة
١ – ومثله حديث أنس وفيه تعدد الشفاعة . وهو مكرر	٢٧
٢ – حديث أنس ، وفيه قول النبى ﷺ : « اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله »	٣٤
٣ – حديث ابن عباس : كان إذا تهجد يقول : « ربنا لك الحمد ... الخ » . وهو مكرر	٤٣
٤ – حديث عدى بن حاتم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه »	٤٤
٥ – حديث أبى موسى الأشعرى : « جنتان من فضة ... الخ »	٥٣
٦ – حديث ابن مسعود : « من اقتطع مال امرئ مسلم .. الخ »	٥٩
٧ – حديث أبى هريرة : « ثلاثة لا يكلمهم الله ... الخ »	٦١
٨ – حديث أبى بكرة : « الزمان قد استدار ... الخ »	٦٤
٩ – حديث أسامة بن زيد : « كان ابن لبعض بنات النبى يقضى » وهو مكرر	٨٢
١٠ – حديث أبى هريرة : « اختصمت الجنة والنار ... الخ »	٨٢
١١ – حديث أنس : « ليصيبن أقواما سفع من النار ... الخ »	٨٩
١٢ – حديث ابن مسعود : « جاء حبر فقال يا محمد إن الله	

الحديث	الصفحة
يضع السماوات على أصبع » . وهو مكرر	٩٢
١٣ – حديث ابن عباس : « بت فى بيت ميمونة لأنظر كيف يصلى ... الخ » مكرر	٩٩
١٤ – حديث أبى هريرة : « لما قضى الله الخلق كتب عنده ... الخ » مكرر	١٠٤
١٥ – حديث ابن مسعود : « إن خلق أحدكم يجمع ... الخ	١٠٥
١٦ – حديث ابن عباس : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا »	١١٦
١٧ – حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح . مكرر	١١٧
١٨ – حديث أبى هريرة : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله »	١٢٢
١٩ – حديث أبى موسى : « الرجل يقاتل حمية ... الخ »	١٢٤
٢٠ – حديث المغيرة : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين »	١٢٨
٢١ – حديث معاوية : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله »	١٣٠
٢٢ – حديث ابن عباس فى قصة مسيلمة وقول النبى له : « لو سألتنى هذه القطعة ...الخ »	١٣٤
٢٣ – حديث ابن مسعود فى الروح . مكرر	١٣٧
٢٤ – حديث أبى هريرة : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله » مكرر	١٤٢
٢٥ – حديث أنس : « إذا دعوتم الله فاعزموا فى الدعاء » . مكرر	١٥٠

فهرست الآيات التى استدل بها البخارى
حسب ترتيبه

الآيــة	الصفحة
١ - ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ الآية ٥٦ من سورة الأعراف	٧٩
٢ - ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ الآية ٤١ من سورة فاطر	٩٠
٣ - ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ الآية ١٧١ من سورة الصافات	١٠٢
٤ - ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ الآيــة ٤٠ من سورة النحل	١٢٥
٥ - ﴿ قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ الآية ١٠٩ من سورة الكهف	١٣٨
٦ - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض ﴾ الآية ٩٤ من سورة الأعراف	١٣٨
٧ - ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ الآية ٣٠ من سورة الإنسان	١٤٦
٨ - ﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾ جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران	١٤٦

الآيــة	الصفحة
٩ – ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ الآية ٢٣ من سورة الكهف	١٤٦
١٠ – ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ الآية ٥٦ من سورة القصص	١٤٦
١١ – ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ الآية ١٨٥ من سورة البقرة	١٤٦
١٢ – ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ الآية ٢٣ من سورة سبأ	١٩٤
١٣ – ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ الآية ٢٥٥ من سورة البقرة	١٩٧
١٤ – ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ الآية ٦ من سورة النمل	٢٢٣
١٥ – ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ الآية ٣٧ من سورة البقرة	٢٢٣
١٦ – ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء	٢٣١
١٧ – ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ جزء من الآية ١٢ من سورة الطلاق	٢٣٢
١٨ – ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ الآية ١٥ من سورة الفتح	٢٤١
١٩ – ﴿ إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ﴾ الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الطارق	٢٤١
٢٠ – ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ جزء من الآية ١٦٤ من سورة النساء	٣١٩

الآيــة	الصفحة
٢١ - ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ جزء من الآية ١٥٢ من سورة البقرة	٣٦٣
٢٢ - ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ۝ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يونس	٣٦٣
٢٣ - ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ الآية ٦ من سورة التوبة	٣٦٣
٢٤ - ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا ﴾ الآية ٢٢ من سورة البقرة	٣٧٧
٢٥ - ﴿ وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين ﴾ الآية ٩ من سورة فصلت	٣٧٧
٢٦ - ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـٰها آخر ﴾ بعض الآية ٦٨ من سورة الفرقان	٣٧٧
٢٧ - ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ۝ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة الزمر	٣٧٧
٢٨ - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ الآية ١٠٦ من سورة يوسف	٣٨٩
٢٩ - ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ الآية ٨٧ من سورة الزخرف	٣٨٩
٣٠ - ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ الآية ٣٨ من سورة الزمر	٣٨٩

الآيـــة	الصفحة
٣١ - ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ الآية ٢ من سورة الفرقان	٣٩٠
٣٢ - ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق ﴾ الآية ٨ من سورة الحجر	٣٩٠
٣٣ - ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ من الآية ٨ من سورة الأحزاب	٣٩٠
٣٤ - ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من الآية ٩ من سورة الحجر	٣٩٠
٣٥ - ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾ من الآية ٣٣ من سورة الزمر	٣٩١
٣٦ - ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون ﴾ الآية ٢٢ من سورة فصلت	٣٩٥
٣٧ - ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ الآية ٢٩ من سورة الرحمن	٣٩٩
٣٨ - ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ الآية ٢ من سورة الأنبياء	٣٩٩
٣٩ - ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ من الآية ١ من سورة الطلاق	٣٩٩
٤٠ - ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ الآية ١١ من سورة الشورى	٤٠٠
٤١ - ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ... ﴾ الآية ٢٣ من سورة سبأ	٤٠٤
٤٢ - ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ الآية ١٦ من سورة القيامة	٤٠٨
٤٣ - ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ه ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك	٤١٧

الموضوع	الصفحة
يوصف به	٣٩٩
التميز بين فعل العبد ، وما هو صفة لله فى مثل قراءة القرآن	٤٠٩
الله تعالى خالق أفعال العباد	٤١٧
قول النبى ﷺ : « رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به »	٤٢٣
معنى قوله تعالى : ﴿ يـٰأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ وما تدل عليه من إبطال البدع	٤٢٧
اللفظ غير الملفوظ به ، والتلاوة غير المتلو	٤٤٤
معنى قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾	٤٤٥
خلق الإنسان هلوعا	٤٦٣
قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس »	٤٧١
الترجمة غير الكلام المترجم	٤٨٠
كفر من رمى واحدة من أمهات المؤمنين بالفاحشة	٤٨٩
نزول القرآن على سبعة أحرف ، واختلاف العلماء فى معناه ، والقول الراجح	٤٩٨
قول الله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟ ودلالة ذلك على خلق أعمال العباد	٥١٧
كتابة الله لمقادير كل شىء فى الأزل لا تنافى الأمر والنهى ، والعمل	٥١٩
اختلاف العلماء فى المراد بالتحريف لكتب الله هل هو لألفاظها أو لمعانيها ؟	٥٣٦
معنى كون الكلام فى الكتاب	٥٤٥
الله الخالق لكل شىء ، فيدخل فى ذلك أعمال العباد	٥٤٨
دخول الأعمال فى مسمى الإيمان ، وأن أعمال العباد كلها مخلوقة	٥٦٠

الموضوع	الصفحة
شدة عذاب المصورين لأنهم تشبهوا بالله فى الخلق	٥٧١
من أدلة البخارى ـــ رحمه الله ـــ على خلق أعمال العباد ، أن قراءة المنافق والفاجر لا تجاوز حناجرهم	٥٧٩
معنى قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾	٥٨٩

ومنها ، ما يستند إلى التجربة ، والعادة ، فيستدل على الحادث ، بما وقع قبل ذلك ، وقد يكون ذلك بنوع من السحر ، أو بنوع يضاهي السحر ، مثل : الزجر ، والطرق ، والنظر في النجوم .

ومنها ، ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وقد يبتلى الله — تعالى — بهذا النوع ، بعض الناس ، فيقع له ماظنه ، فيكون ذلك فتنة له ، ولغيره مع كثرة الكذب فيه[1] .

قوله : « فقالوا : يا رسول الله . فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا » أي : إن الكهان يخبرون بالأمر ، فيقع مثل ما أخبروا به . فالحق : هو الخبر المطابق للواقع ، يعني : الصدق .

فقال النبي ﷺ جوابا عن هذا الإيراد : « تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجني » أي : أن الحق الذي يقع في خبر الكاهن ، يكون مما خطفه الجني ، الذي هو الشيطان مسترق السمع ، من الملائكة الذين يكونون في السحاب ، فيتحدثون بينهم فيما أوحاه الله إليهم ، فيخطف الجني الكلمة منهم .

« فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة » أي : يرددها مثل ترديد الدجاجة صوتها ، بترجيع ، وزمزمة ، ولهذا صارت أخبار الكهان كذلك .

وهو يرددها لتستقر في ذهنه ويحفظها ، هذا إذا لم يصبه الشهاب ، الذي يرسله الله عليه ، فأحيانا يقتله الشهاب ، وقد يذهب بعقله ، وقد يسلم .

وسمي الكاهن وليا للشيطان ؛ لأنه يطيعه ويتولاه ، أو أراد العموم في الكاهن والمنجم ، والعراف ، ونحوهم ممن يتولى الشياطين .

قال الخطابي : « بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانا ، إنما هي لأن الجني

---

(١) الفتح مع بعض التصرف جـ ١٠ ص ٢١٧ .

يلقى إليه الكلمة ، التي يسمعها استراقا من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب ، يقيسها على ما سمع ، فربما أصاب نادرا ، وخطؤه الغالب[1] .

« فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة » أى : الشياطين يخلطون مع الكلمة الواحدة من الحق ، التى سمعوها من الملائكة ، أكثر من مائة كذبة ، ومع ذلك يصدقهم الناس ، من أجل أنهم يصيبون فى واحد من أخبارهم ، البالغة أكثر من مائة ، والباقى كله كذب ، وهذا من العجائب ، ومما يدل على حب النفوس للباطل ، وإلا كيف يصدق ، وهو إذا صدق مرة واحدة ، كذب أكثر من مائة مرة ؟!

قال الحافظ : « والذى يظهر لى من مراد البخارى ، أن تلفظ المنافق بالقرآن كما يتلفظ به المؤمن ، فتختلف تلاوتهما ، والمتلو واحد ، فلو كان المتلوُّ عَيْنَ التلاوة ، لم يقع فيه تخالف ، وكذلك الكاهن ، فى تلفظه بالكلمة من الوحى ، التى يخبره بها الجنى ، مما يختطفه من الملك تلفظه بها ، وتلفظ الجنى مغاير لتلفظ الملك ؛ فتفاوتا »[2] .

قلت : هذا بعض ما أراده البخارى ــ رحمه الله ــ وتمامه ، أن هذا التفاوت المذكور بينهم ، يدل على أن التلفظ عمل لهم ، وهم وأعمالهم مخلوقون ، كما تقدم إيضاح ذلك . والله أعلم .

١٨٤ ــ قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا مهدِىُّ بن مَيْمُون ، سمعت محمد بن سيرين يحدث ، عن معبد بن سيرين ، عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « يَخرُج ناس من قبل المشرق ، ويقرءُون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يَمْرُقُون من

---

(١) الفتح جـ ١٠ ص ٢٢٠ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٦ .

الدين كما يمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » .

قيل : ما سيماهم ؟ قال : « سيماهم التَّحْليق ــ أو قال : التَّسْبِيد » .

هذا الحديث تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، وتقدم شرحه هناك ، إلا أن هذه الرواية فيها ما ليس فى تلك ، فنبين ما لم يتقدم ، فمن ذلك قوله : « يخرج ناس من قبل المشرق » . المراد : مشرق المدينة ، وهو العراق أو قربه ، وقد خرجوا فيه كما هو معلوم ، وقاتلهم على ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ وقتل معظمهم ، ولكنهم لم يزل يخرج منهم طوائف ، حتى صار لهم أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية .

ومن ذلك قوله : « ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » أى المكان الذى خرج منها لَمَّا رمى به ، ومعنى ذلك : أنهم لا يعودون إلى الإسلام أبدا ، وهذا شأن أهل الأهواء ، والبدع ، لأنهم يرون أن ماهم عليه هو الحق ، ومن عداهم فهو على الباطل ، فهم الذين زين لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة .

وقوله : « سيماهم التحليق » أى : علامتهم أنهم يحلقون رؤوسهم . « والتسبيد » : هو التحليق ، أو المبالغة فيه ، وقيل : هو ترك غسل الشعر ودهنه ، وقال الكرمانى هو : استئصال الشعر »[1] .

وقد ذكروا ، أن السلف لم يكونوا يحلقون رؤوسهم إلا فى النسك ، أو لحاجة .

ولا يلزم أن يكون الحلق علامة على الخوارج فى جميع الأزمنة ، فإن عادات

---

(١) انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٤٨ .

الناس تتغير ، وتختلف .

والمراد من الحديث : أن قراءة هؤلاء لا تجاوز تراقيهم — والتَّرْقُوَةَ : هى العظم الناتئ فى أعلى الصدر ، وأسفل الرقبة ، ولكل واحد ترقوتان .

والمعنى : أن القرآن لا يصل إلى قلوبهم ، فلا يفقهونه ، ولا يؤثر فيهم ، مع أنهم يحفظونه ، ويتلونه ، فتلاوتهم لا تنفعهم ، بخلاف المؤمنين المتقين ، فإنهم إذا تلوا آيات الله زادتهم إيمانا ، فهم يزدادون إيمانا بعملهم ، ثم يجزيهم الله على ذلك أفضل الجزاء ، لأن ذلك عملهم ، أما المذكورون فى هذا الحديث ، فلم ينتفعوا بفهم كتاب الله ، فيدخل الإيمان فى قلوبهم ، وإنما يتلونه بألسنتهم ولا يصل إلى القلوب ، فلم يتأثروا بآيات الله تقى ، ولا علما ولا إيمانا ، فعملهم مردود ؛ لأنه لا أثر له فى نفوسهم ، فلم يمتثلوا أمر الله وما أريد منهم ، ولم ينتفعوا بعملهم ، وهذا يدل على أن التلاوة التى انتفع بها المتقون ، ولم تنفع هؤلاء ، أنها عملهم الذى يجزون عليه ، وأعمالهم مخلوقة لله من سائر المخلوقات . وهذا المطلوب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وأن أعمال بنى آدم ، وقولهم يوزن » .

معنى وضع الموازين : إحضارها ، والقسط : العدل .

قال الكرمانى : « القسط : مصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، أى : الموازين العادلات . وجمع باعتبار العباد ، وأنواع الموزونات .

﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أى : فى يومها . وقال الزجاج : أى : نضع الموازين ذوات القسط ، وفائدة ذلك إظهار العدل ، والمبالغة فى الإنصاف ، والإلزام ، قطعا لأعذار العباد »(1) .

وقال الخازن : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ أى : « ذوات العدل ، وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما ، وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجرى على حد العدل »(2) .

« وقال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، والقسط العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط »(3) .

قال ابن كثير : « الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة »(4) .

قال الحافظ : « اختلف فى ذكر الميزان بلفظ الجمع ، هل المراد ، أن لكل شخص ميزانا ، أو لكل عمل ميزان ، فيكون الجمع على ظاهره ، أوليس هناك

---

(1) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٤٨ .
(2) تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٩٦ .
(3) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .
(4) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٩ .

إلا ميزان واحد ، والجمع باعتبار تعدد الأعمال ، والأشخاص ، والذى يترجح ، أنه ميزان واحد ، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال يوم القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا »[1] .

« قال أبو اسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان ، وكفتان ، ويميل بالأعمال .

وأنكرت المعتزلة الميزان . وقالوا : « هو عبارة عن العدل .

فخالفوا الكتاب ، والسنة ، لأن الله ــ تعالى ــ أخبر أنه يضع الموازين ، لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ، ليكونوا على أنفسهم شاهدين »[2] .

قلت : وإنكار المعتزلة ونحوهم للميزان ، وأن الأعمال توزن يوم القيامة ، هو سبب النص ، على وجوب الإيمان به ، فى عقائد أهل السنة ، وإلا فهو من جملة ما اشتمل عليه اليوم الآخر ، والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لا يتم لأحد إيمان إلا به .

قوله : « وأن أعمال بنى آدم وقولهم يوزن » يعنى : أن كل ما يصدر من بنى آدم ، ويترتب عليه الجزاء ، فهو يوزن ، لأنهم متعبدون لله مكلفون بما أراده منهم ، فراقبهم الله على ذلك ، فإذا حضروا لديه يوم القيامة ، جازاهم أتم الجزاء ، وأظهر عدله فى حكمه عليهم ، حتى يعذروا من أنفسهم .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن أعمال بنى آدم وأقوالهم ، مخلوقة لله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٧ ــ ٥٣٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .

تعالى ؛ فلهذا توزن ، فيجازون عليها ، ومن ذلك قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله — تعالى — بالتسبيح والتحميد والتهليل ، كما يأتى فى الحديث .

قال ابن المنير : « جمع البخارى فى هذه الترجمة بين فوائد : منها ، وصف الأعمال بالوزن .

ومنها ، ادراج الكلام فى الأعمال ، لأنه لما وصف الكلمتين بالخفة على اللسان والثقل فى الميزان ، دل أن الكلام عمل يوزن .

ومنها ، أنه ختم كتابه بهذا التسبيح ، وقد ورد فى الحديث مايدل على استحباب ختم المجالس بالتسبيح ، وأنه كفارة لما لعله يتفق فى أثناء الكلام ، مما ينبغى هجره ، وهذا نظير كونه بدأ كتابه بحديث « الأعمال بالنيات » ، فكأنه تأدب فى فاتحته وخاتمته ، بآداب السنة والحق .

فالأدب فى الابتداء : إخلاص القصد والنية ، وفى الانتهاء : مراقبة الخواطر ومناقشة النفس على الماضى ، والاعتماد فى تكفير ما لعله يحتاج إلى تكفير ، بما جعله الشرع مكفرا للهفوات[1] .

قال الحافظ : « الظاهر أن أعمال بنى آدم ، وأقوالهم كلها توزن ، لكن خص من ذلك طائفتان : الكفار الذين ليس لهم حسنات ، فهم يقعون فى النار من غير حساب ولا ميزان ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ .

الثانية : المؤمنون الذين لاسيئات لهم ، ولهم حسنات كثيرة ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب كما فى حديث السبعين ألفا ، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف أو كلمح البصر ، أو كالريح[3] .

---

(١) المتوارى ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٨ .

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » أنهما مخلوقتان ، وإنما المخلوق فعل العبد وعمله ، وكذا تلاوة التالى ، هى فعله وعمله يجازى عليها ، وتوضع فى الميزان ، أما المتلو ، فهو كتاب الله وكلامه ، وهو غير مخلوق .

فهاتان الكلمتان توزنان ، ويثقل بهما الميزان ، وهذا دليل واضح ، على أن تكلم العبد بالذكر وبالقرآن ، عمل له يثاب عليه ، ويوضع فى ميزانه ، ليعطيه الله أجره عليه وافرا غير منقوص ، ونحن نردد هذا المعنى ونكرره لأن المؤلف — رحمه الله — صنع ذلك كما سبق أن ذكرناه .

وقد أجمع السلف على أن أعمال العباد مخلوقة ، كما سبق ، وهذا هو المقصود من الحديث الذى أراده المؤلف ، لأن ما يوضع فى الميزان فهو مخلوق ، لأنه من عمل العبد ، وما يتلمس من مقاصد غير هذا ، هى تابعة لهذا ، وليست مقصودة لذاتها .

قوله : « ثقيلتان فى الميزان » قال الحافظ : « هو موضع الترجمة ، لأنه مطابق لقوله : « وأن أعمال بنى آدم توزن »[1] . وما يوزن ، فهو عمل للعبد وهو مخلوق .

« سبحان الله وبحمده » قال الأزهرى : « قال الليث : سبحان الله ، تنزيه لله ، عن كل ما لا ينبغى له أن يوصف به [ونصب على المصدر] . تقول : سبحت الله تسبيحا ، أى : نزهته تنزيها ، وكذلك روى عن النبى ﷺ .

قال الزجاج : سبحان فى اللغة : تنزيه لله — عز وجل — عن السوء .

قلت : وهذا قول سيبويه . يقال : سبحت الله تسبيحا وسبحانا بمعنى واحد ، فالمصدر تسبيح ، والأسم سبحان يقوم مقام المصدر .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٠ .

قلت : ومعنى تنزيه الله من السوء : تبعيده منه ، وكذلك تسبيحه : تبعيده ، من قولك : سبحت فى الأرض ، إذا أبعدت فيها . ومنه قوله ـــ جل وعز ـــ ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴾ هى النجوم تسبح فى الفلك ـــ أى تذهب فيه بسطا ، كما يسبح السابح فى الماء .

وكذلك السابح من الخيل ، يمد يديه فى الجرى سبحا ، كما يسبح السابح فى الماء . وجماع معناه : بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد ، أو ند »[1] .

وقال الحافظ : « معنى التسبيح : تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص .

فيلزم نفى الشريك ، والصاحبة ، والولد ، وجميع الرذائل ، ويطلق التسبيح ، ويراد به جميع ألفاظ الذكر .

ويطلق ، ويراد به صلاة النافلة . وسبحان : اسم مصدر منصوب على أنه واقع موقع المصدر ، لفعل محذوف ، تقديره : سبحت الله سبحانا ، كسبحت الله تسبيحا ، ولا يستعمل غالبا إلا مضافا »[2] .

قوله : « وبحمده » . قيل : الواو للحال ، والتقدير : أسبح الله متلبسا بحمدى له ، من أجل توفيقه . وقيل : عاطفة ، والتقدير : أسبح الله ، وأتلبس بحمده ، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم ، والتقدير : وأثنى عليه بحمده ، فتكون سبحان الله جملة مستقلة ، وبحمده ، جملة أخرى .

قال الخطابى فى حديث : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى : بقوتك

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٤ ص ٣٣٨ ـــ ٣٣٩ .

(٢) الفتح جـ ١١ ص ٢٠٦ .

التى هى نعمة ، توجب على حمدك ، سبحتك ، لا بحولى ، وقوتى »[1] .

قوله : « سبحان الله العظيم » أعاد التسبيح للتكرير والمبالغة فى تنزيهه تعالى ، والإكثار من ذكره تعالى ، وهو من أفضل الأعمال .

ووصفه بالعظمة ، ليستحضر أنه أهل التسبيح ومستحقه دائما ، وأن العبد لن يؤدى حقه ، مهما أكثر من تسبيحه ، وعبادته .

« قال ابن بطال : هذه الفضائل الواردة فى فضل الذكر ، إنما هى لأهل الشرف فى الدين ، والكمال ، كالطهارة من الحرام والمعاصى العظام ، فلا تظن أن من أدمن الذكر ، وأصر على ما شاءه من شهواته ، وانتهك دين الله تعالى وحرماته ، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ، ويبلغ منازلهم ، بكلام أجراه على لسانه ، ليس معه تقوى ، ولا عمل صالح »[2] .

قال الكرمانى : « هذا الكلام من جوامع الكلم ، وفيه امتثال لقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، وتفسير له ، ولما كان ذلك مندوبا إليه ، عند أواخر المجالس ، جعل البخارى — رحمه الله تعالى — كتابه كمجلس علم ؛ فختم به .

وذكر هذا الباب هنا ليس مقصودا بالذات ، بل هو لإرادة أن يكون آخر كلامه تسبيحا وتحميدا[3] .

قلت : بل الظاهر ، أنه مقصود بالذات ، مع ما أشار إليه الكرمانى ، وتقدم بيان ذلك .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤١ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤١ .
(٣) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٥١ .

قال الحافظ نقلا عن شيخه البلقيني : « لما كان أصل العصمة أولا وآخرا ، هو توحيد الله ـــ تعالى ـــ ختم بكتاب التوحيد ، وكان آخر الأمور ، التي يظهر بها المفلح من الخاسر ، ثقل الموازين وخفتها ، جعله آخر تراجم الكتاب ، فبدأ بحديث : « إنما الأعمال بالنيات » وذلك في الدنيا ، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة ، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ، ما كان بالنية الخالصة لله ـــ تعالى ـــ .

وفي الحديث الذي ذكره ، ترغيب وتخفيف ، وحث على الذكر المذكور ، لمحبة الرحمن له .

والخفة بالنسبة لما يتعلق بالفعل ، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب

وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم ، وهو أن حب الرب سابق ، وذكر العبد ، وخفة الذكر على لسانه تال ، ثم بين ما فيها من الثواب العظيم ، النافع يوم القيامة» انتهى[1] .

قال الحافظ : « والذي يظهر ، أنه قصد ختم كتابه ، بما دل على وزن الأعمال ، لأنه آخر آثار التكليف ، فإنه ليس بعد الوزن ، إلا الاستقرار في إحدى الدارين ، إلى أن يريد الله ـــ تعالى ـــ إخراج من قضى بتعذيبه من الموحدين ، فيخرجون من النار بالشفاعة ، كما تقدم .

قال الكرماني : وأشار أيضا ، إلى أنه وضع كتابه قسطاسا ، وميزانا يرجع إليه ، وأنه سهل على من يسره الله ـــ تعالى ـــ عليه .

وفيه إشعار ، بما كان عليه المؤلف في حالتيه ، أولًا وآخرا ، تقبل الله تعالى منه ، وجزاه أفضل الجزاء »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٢ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٤٢ .

قلت : كل هذه الأمور ، إن كانت مقصودة للبخارى ـ رحمه الله تعالى ـ فإنها جاءت تبعا لما ذكر ، من أن مراده ، بيان خلق أفعال العباد ، وأصواتهم وكلامهم ، فإنها توزن ، فيجازون عليها ، وأن تلفظهم بالقرآن ، والذكر والتسبيح ، من أعمالهم ، والعباد وأعمالهم من مخلوقات الله ـ تعالى ـ فإنه خالق كل شىء . والله أعلم . وصلَّى ٱللهُ وَسلَّمَ على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين .

انتهيت من تسويده بعد العصر ، من يوم الأحد ، الموافق التاسع ، من الحادى عشر ، من سنة سبع وأربعمائة وألف ١٤٠٧/١١/٩ هـ .

وانتهيت من تبييضه ، صبح يوم السبت ، الموافق السابع ، من الشهر الرابع ، من سنة ثمان وأربعمائة وألف ١٤٠٨/٤/٧ هـ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مناقشة شيخ الإسلام لأبى سعيد الدارمى فى حديث الموقف	١١
هل الذين يدخلون النار من الموحدين يموتون فيها ؟	٢٤
الإشكال فى حديث الشفاعة المشهور والجواب عنه	٣١
أقوال العلماء فى المقام المحمود وذكر القول الصحيح	٣٣
لقاء الله تعالى . يتضمن الرؤية	٣٦
إنكار أهل البدع حجاب الله تعالى ، وشبهتهم فى ذلك ، والرد عليهم	٤٧
حديث أبى موسى « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » إلخ وشرحه	٥٣
وصف الله ــ تعالى ــ بأن رداء الكبرياء على وجهه . وتخبط أهل التأويل فى معناه	٥٤
حديث ابن مسعود : « من اقتطع مال امرئ مسلم » . إلخ ، ودلالته على رؤية المؤمنين ربهم .	٥٩
حديث أبى هريرة : « ثلاثة لا يكلمهم الله » إلخ ودلالته على رؤية الله تعالى	٦١
حديث أبى بكرة : « الزمان قد استدار » إلخ ، ودلالته على الرؤية	٦٤
عظم حرمة دماء المسلمين ، وأموالهم ، وأعراضهم	٦٧
ذكر بعض شبه المنكرين للرؤية ، والرد عليها	٧١
الرحمة المضافة إلى الله تعالى ، تكون صفة له ، وتكون مفعولا له	٧٩
مراد البخارى بقوله تعالى :﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾	٨٠
حديث أبى هريرة : « اختصمت الجنة والنار » إلخ ، والكلام عليه	٨٣
حديث أنس : « ليصيبن أقواما سفع من النار » وشرحه	٨٩

الموضوع	الصفحة
معنى قوله تعالى : ﴿ أن يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ ومراد البخارى بذلك	٩٠
حديث ابن مسعود : « أن حبرا جاء إلى النبى ﷺ » إلخ	٩٢
كان رسول الله ﷺ يبلغ الناس صفات الله ويخطب بها ، ويذكر فى مجامع الناس	٩٥
الفرق بين فعل الله ــ تعالى ــ ومفعوله	٩٧
حديث ابن عباس فى مبيته عند خالته زوج النبى ﷺ ، والكلام عليه	٩٩
كلام الله ينقسم إلى قدرى ، وشرعى ، والفرق بينهما	١٠٢
حديث ابن مسعود : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه » إلخ ، والكلام عليه	١٠٥
الجمع بين حديث ابن مسعود فى التخليق وحديث حذيفة فيه	١٠٦
معنى قوله تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾	١١٦
حديث ابن مسعود فى السؤال عن الروح	١١٧
معنى قوله ﷺ : « تكفل الله لمن خرج فى سبيله » إلخ	١٢٢
معنى قوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه ﴾	١٢٥
قوله ﷺ : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين »	١٢٨
قول النبى ﷺ لمسيلمة الكذاب : « لن نعدو أمر الله فيك »	١٣٤
صفات الله لا تشبه صفات خلقه ، وبطلان قول من يقول : كلام الله مخلوق	١٣٨
إثبات مشيئة الله ، وإرادته ، والفرق بينهما	١٤٣
قوله : « إن الله قبض أرواحكم حيث شاء » لما ناموا عن صلاة الفجر	١٦٦

الموضوع	الصفحة
قوله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى »	١٦٨
رؤيا النبى ﷺ لخلافة أبى بكر وعمر ، وضرب المثل لذلك	١٧٨
إذا دعا فليعزم ، ولا يعلق المطلوب بالمشيئة	١٨٤
الخضر نبى مرسل ، والأنبياء يحتاجون إلى التنبيه من الله تعالى	١٨٨
تقاسم بنى كنانة على الكفر	١٩٠
إثبات كلام الله صفة له ، وأنه يسمعه من يشاء من خلقه	١٩٤
وصف الله تعالى بأنه ينادى بصوت يسمعة من بعد كما يسمعه من قرب	٢٠٠
معنى قوله : « ما أذن الله لشيء ، ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن »	٢١٠
معنى « لبيك » ، ونداء الله آدم بأن يخرج بعث النار من ذريته	٢١٥
قول عائشة رضى الله عنها : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة	٢٢١
كلام الله تعالى مع الملائكة	٢٢٣
معنى تبارك الله ، وتعالى	٢٢٥
القرآن كلام الله تعالى ـــ منزل منه ـــ كما قال تعالى : ﴿ أنزله بعلمه ﴾	٢٣١
الأرضون سبع كالسماوات فى العدد ، لا فى الانفصال والتباين	٢٣٢
قول الله تعالى : « يؤذينى ابن آدم بسب الدهر ، وأنا الدهر »	٢٤٣
فضل الصوم	٢٤٥
نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا آخر كل ليلة ، وإبطال قول المؤولة	٢٤٨
تفضيل خديجة رضى الله عنها بإرسال السلام مع جبريل من الله إليها	٢٦٣
كفر من يرمى زوج النبى ﷺ بالفاحشة ، وما له من عظيم	

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
العذاب	٢٦٨
إذا هم العبد بالحسنة كتبت له حسنة ، وأما السيئة فلا تكتب حتى يعملها	٢٧٢
قيام الرحم واستجارتها بالله من القطيعة ، ومعنى إضافة الحقو إلى الله تعالى	٢٧٥
من الكفر نسبة نزول المطر إلى الكواكب ونحوها	٢٨٠
حديث الرجل الذى أمر أولاده أن يحرقوه	٢٨٥، ٢٩١
التائب من الذنب كمن لا ذنب له	٢٩٠
كلام الله تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم	٢٩٦
آخر من يخرج من النار من الموحدين	٣٠٣
مناجاة الله تعالى لعبده يوم القيامة ، ودنوه منه ، ووضع كنفه عليه	٣٠٩
من أدلة ثبوت الكلام لله تعالى حقيقة كلامه لموسى بدون واسطة ولمحمد ليلة المعراج	٣١٩
احتجاج آدم وموسى ، وظهور آدم على موسى بالحجة	٣٢٦
حديث شريك في الإسراء والمعراج ، وذكر الجواب عما اعترض عليه فيه	٣٣٤
كلام الله تعالى مع أهل الجنة	٣٥٩
الفرق بين فعل الله تعالى وأفعال عباده ، والفرق بين اللفظ والملفوظ	٣٦٣
جعل الند لله تعالى يكون فى عبادته ، وفى أوصافه وأفعاله وخصائصه	٣٧٩
شهود أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة	٣٩٥
الله تعالى يحدث ما يشاء مما يريد إحداثه ، وذلك من فعله الذى	

فدنا حتى وضع يده على رأسه .

قال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المصور فى النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه فى جهنم »[1]

وفى روايه له « من صور صورة فى الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ » والأحاديث فى ذلك كثيرة شهيرة .

قوله : « ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » يقال لهم ذلك تعجيزا لهم وتعديبا ، يعنى : أوجدوا فيه الروح ، التى بها الحياة ، وليس ذلك بطاقة أحد غير الله — جل وعلا — وهذا لأنهم ذهبوا يتشبهون بالله تعالى فى التصوير والخلق ، فطغوا بذلك وجاوزوا حدَّهم ، لأن الله تعالى وحده ، هو المصور الذى يصور كل حى ، ويوجد فيه الروح ، فصار جزاء هؤلاء ، أن يعذبوا بما لا يطاق . ولا يستطاع نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

والمقصود من الحديث ، نسبة الخلق إليهم فى قوله : « أحيوا ما خلقتم » فالتصوير فعلهم وعملهم ، الذى استحقوا عليه العقاب ، لأنهم فعلوه بطوعهم ، واختيارهم ، فهو فعلهم حقيقة ، والله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، كما تقدم ، ومن أجل أن ذلك فعلهم حقيقة جوزوا عليه .

١٨١ — قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا ابن فُضَيل ، عن عُمارة ، عن أبى زُرْعة ، سمع أبا هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « قال الله — عز وجل — ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو شعيرة » .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٦٧١ الحديث رقم ٢١١٠ .

هذا من الأحاديث القدسية التى يرويها النبى ﷺ عن ربه ــ جل وعلا ــ عن طريق الإلهام ، أو المنام ، أو بواسطة الملك ، وهى مضافة إلى الله ــ تعالى ــ قولا له ، ويختلف عنها القرآن ، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ نزل به الروح الأمين ، المتحدى به ، أو بسورة منه ، المتعبد بتلاوته .

قوله : « ومن أظلم » يعنى : أن فاعل ذلك ، ظالم ظلما لم يبلغه أحد ، فهو استفهام يفيد كثرة الظلم ، وعظمه ، وإنكاره .

ومعنى « ذهب » : قصد وفعل ذلك .

وقوله : « كخلقى » يعنى : فى الصورة فقط ، وإلا فلا أحد من الخلق ، يقدر أن يوجد حياة فيما يصوره ، مهما أوتى من الفكر ، والإمكانيات المادية ، وغيرها فلن يستطيع ذلك ، ولهذا قال : « فليخلقوا ذرة » أى ليوجدوا فيها الحياة أو ليوجدوها من العدم ، وليجعلوا فيها روحا تحيا بها ، وليس هذا بمقدور الخلق ولو اجتمعوا له .

ثم انتقل بهم إلى ما هو أسهل من ذلك ، وهو الحبة التى تكون بها حياة النبات ، فإذا وضعت فى الأرض ، وسقيت بالماء نبتت بإذن الله ، ولن يستطيع المصورون أن يخلقوا تلك الحبة ، بل ذلك ليس فى مقدور الخلق كلهم .

ثم قال : « وليخلقوا شعيرة » ، والشعيرة أقل قيمة من الحبة ، ولكن فيها من الحياة ما فى الحبة ، فإذا كان المصورون ، وغيرهم الذين يضاهئون الله فى خلقه ، عاجزين عن خلق الحبة والشعيرة ، فضلا عما فيه روح ، فكيف يذهبون يصورون الصور التى فيها مضاهاة لخلق الله تعالى ؟ ولعظيم جرمهم ، استحقوا من العذاب ، ما لا يكون لسائر أهل الكبائر .

والمقصود بالأمر فى قوله : « فليخلقوا ذرة » إلى آخره ، التعجيز وإذلالهم بذلك ، وتعذيبهم .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ نسبة الخلق إليهم فعلا لهم حقيقة ، مع أنهم مخلوقون لله ــ تعالى ــ فالله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، ولكنه جعلهم فاعلين قادرين على فعلهم ، باختيارهم وقدرتهم التى خلقها الله فيهم ، ولهذا عذبهم على ذلك ، ولو لم يكن فعلا لهم حقيقة ما عذبوا عليه .

قال الحافظ : « الذى يظهر ، أن مناسبة ذكر حديث المصورين ، لترجمة هذا الباب ، من جهة أن من زعم أنه يخلق فعل نفسه ، لو صحت دعواه لما وقع الإنكار على هؤلاء ، فلما كان أمرهم بنفخ الروح فيما صوروه ، أمر تعجيز ، ونسبة الخلق إليهم ، إنما هى على سبيل التهكم والاستهزاء ، دل على فساد قول من نسب خلق فعله إليه استقلالا »[1] .

والصواب ما تقدمت الإشارة إليه من مراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن الأفعال المسندة إليهم ، أفعال لهم حقيقة ، وهى مخلوق لله ــ تعالى ــ فإن الله خالق كل فاعل وفعله ، وهو خالق كل شىء فلا يكون العباد خالقين لأفعالهم استقلالا وإيجادا ، وإنما هم فاعلون لها ، بجعل الله لهم فاعلين ، وإقداره لهم على ذلك ، فجعل القدرة لهم على فعلها ، وأوجد فيهم الإرادة لها والاختيار ، فصاروا فاعلين لها بذلك ، حيث باشروا الفعل بأنفسهم ، فهو فعلهم حقيقة ، ولذلك استحقوا عليها الثواب أو العقاب .

وقال الكرمانى : « لعل غرض البخارى ، فى تكثير هذا النوع ، فى هذا الباب وغيره ، بيان جواز ما نقل عنه أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق ــ إن صح عنه »[2] .

قال الحافظ : « قلت : قد صح عنه أنه تبرأ من هذا الإطلاق ، فقال :

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢٤٤ .

« كل من نقل عنى أنى قلت : لفظى بالقرآن مخلوق ، فقد كذب علىّ ، وإنما قلت : أفعال العباد مخلوقة . أخرج ذلك غنجار ، فى ترجمة البخارى ، من تاريخ بخارى بسند صحيح إلى محمد بن نصر المروزى ، الإمام ، المشهور ، أنه سمع البخارى يقول ذلك »[1] ومن طرق أخرى .

قال ابن القيم — بعد ما ذكر — ما ذكره البخارى : « وقال جابر بن عبد الله : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . يقول : « إذاهم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ، ولا أقدر ، وتعلم ، ولا أعلم ، وأنت علّام الغيوب .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فيسرّه لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : ويسمى حاجته » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[2] .

فقوله : « إذاهم أحدكم بالأمر » صريح فى أنه فى الفعل الاختيارى ، المتعلق بإرادة العبد ، وإذا علم ذلك ، فقوله : « أستقدرك بقدرتك » أى : أسألك أن تقدرنى على فعله ، بقدرتك ، ومعلوم أنه لم يسأله القدرة المصححة [للفعل] ، التى هى سلامة الأعضاء ، وصحة البنية . وإنما سأل القدرة التى توجب الفعل . فعلم أنها مقدورة لله ، ومخلوقة له .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) هو مخرج فى الصحيحين ، وتقدم فى هذا الكتاب .

وأكد ذلك بقوله : « فإنك تقدر ولا أقدر » أى : تقدر أن تجعلنى قادرا ، فاعلا ، ولا أقدر أن أجعل نفسى كذلك ، وكذلك قوله : « تعلم ولا أعلم » أى : حقيقة العلم بعواقب الأمور ، ومآلها ، والنافع منها والضار عندك ، وليس عندى .

وقوله : « يسره لى » أو « اصرفه عنى » ، فإنه طلب من الله تيسيره إن كان له فيه مصلحة ، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة ، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل فى القلب ، أو إلقاء داعية الترك فيه ، ومتى حصلت داعية الفعل ، حصل الفعل ، [وإذا حصل] داعية الترك امتنع الفعل .

وعند القدرية ، ترجيح فاعلية العبد على الترك ، ليس للرب فيه صنع ، ولا تأثير ، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم ، فإن تيسير الأسباب التى لا قدرة للعبد عليها موجودة ، ولو لم يسألها العبد .

وقوله : « ثم رضنى به » يدل على أن حصول الرضا ، وهو فعل اختيارى من أفعال القلوب ــ أمر مقدور للرب تعالى ــ وهو الذى يجعل نفسه راضية .

وقوله : « فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه » صريح فى أنه سبحانه هو الذى يصرف عبده عن فعله الاختيارى ، إذا شاء صرفه عنه ، كما قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ وصرف السوء والفحشاء : هو صرف دواعى القلب ، وميله ، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما .

وقوله : « واقدر لى الخير حيث كان » يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له .

فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير ، أمر مقدور لله ــ تعالى ــ إن لم يقدره الله لعبده ، لم يقع من العبد . .

ففى هذا الحديث الشفاء فى مسألة القدر ، وأمر النبى ﷺ الداعى به أن يقدم بين يدى هذا الدعاء ركعتين ، عبودية منه بين يدى نجواه ، وأن يكونا من غير الفريضة ، ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب .

ولما كان الفعل الاختيارى متوقفا على العلم ، والقدرة ، والإرادة ، لا يحصل إلا بها ، توسل الداعى إلى الله ــ تعالى ــ بعلمه ، وقدرته ، وإرادته التى يفعل بها من فضله .

وأكد هذا المعنى بتجرده ، وبراءته من ذلك . فقال : « إنك تعلم ، ولا أعلم وتقدر ، ولا أقدر » ، وأمر الداعى أن يعلق التيسير بالخير ، والصرف بالشر ، وهو علم الله سبحانه تحقيقا للتفويض إليه ، واعترافا بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه .

« ففى هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها ، وإعطاء الربوبية حقها ، والله المستعان »[1] .

---

(١) شفاء العليل ص ١١٠ ــ ١١١ .

قال : « باب قراءة الفاجر ، والمنافق ، وأصواتهم ، وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم » .

الفاجر هو الخارج عن الطاعة ، فيشمل الكافر والفاسق .

وأما المنافق ، فهو الذى يظهر خلاف ما يبطن ، وأعظم ذلك الكفر والتكذيب ، فمن أبطن الكفر والتكذيب ، فهو المنافق النفاق الأكبر ، وإن تنوع ذلك .

وقوله : « وتلاوتهم » مبتدأ ، وخبره جملة « لا تجاوز حناجرهم » والجملة من المبتدأ والخبر حال .

وهذا الباب كسابقه مما مر ذكره ، يريد به التفرقة بين التلاوة والمتلو ، وأن التلاوة من عمل التالى ، وعمل العباد متفاوت ، فمنه المقبول المرفوع إلى الله تعالى ، ومنه المردود الذى لا يجاوز فم قائله ، وعمل البر المتقى ليس كعمل الفاجر ، والمنافق ، وعمل الشيطان الذى يسترق السمع من الملائكة ، وأخيه الكاهن ليس كعمل الملك .

فهذا التفاوت يدل على أنه عملهم ، وعملهم كله مخلوق . ولهذا قال ــ رحمه الله ــ فى خلق أفعال العباد : « وذكر النبى ﷺ قراءة المنافقين والفجار ، فبين ما يتآكلون بقراءتهم . فلا يرتابن أحد فى خلق المنافقين وأصحاب الجحيم وأعمالهم .

حدثنا عبيد الله ــ هو أبو قدامة ــ ابن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، قال : من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر .

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنى بشير بن أبى عمرو الخولانى أن الوليد بن قيس التجيبى حدثه ، أنه سمع أبا سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخلف قوم من بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا .

ثم يكون خلف يقرءون القرآن ، لا يعدو تراقيهم . ويقرأ ثلاثة :

« مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » . فقال بشير : « فقلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال المنافق كافر به ، والفاجر يتآكل به ، والمؤمن يؤمن به » .

ثم قال : « ومما يدل على أصوات العباد[1] قول النبي ﷺ وأكثر منافقي أمتي قرآؤها » . فعد قراءة المعطلة ، والجهمية ، وأهل الأهواء ، وغيرهم .

وقال النبي ﷺ : « يقرأ القرآن رجال ، يمرقون من الدين ، لا يجاوز حلوقهم ، هم شر الخلق والخليقة » .

وقال : « يتعجلونه ، ولا يتأجلونه »[2] . وهذا يبين مراده من هذا الباب هنا .

قال الحافظ : « التلاوة متفاوتة بتفاوت التالي ، فيدل على أنها من عمله »[3] .

١٨٢ — قال : « حدثنا هُدبة بن خالد ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، حدثنا أنس ، عن أبي موسى — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترُجة طعمها طيب وريحها طيب ، والذي لا يقرأ كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن ، كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » .

---

(١) يعني أنها مخلوقة لله تعالى مثل سائر المخلوقات .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٦ .

ضرب الأمثال يراد به تقريب المعنى إلى الفهم .

والمقصود بالمثل هنا : الوصف والحال ، فالمؤمن طيب فى نفسه ، وما يصدر منه من عمل يكون طيبا ، فلهذا جعل ﷺ مذاقه طيبا ، ورائحته التى تتعدى إلى من حوله طيبة ، وإن كان المقصود بهذا الحديث من يحمل القرآن ويقرؤه ، فغير القراءة من الأعمال يلتحق بها .

فإذا كان حامل القرآن مؤمنا ، عاملا به ، صادف محلا قابلا ، فأثمر .

والأترجة ، تجمع طيب المذاق ، وطيب الرائحة ، وحسن المنظر ، وطيب نكهتها وجودة الهضم ، وفيها منافع أخرى فناسب تمثيل المؤمن القارئ للقرآن بها .

قال الحافظ : « وقع فى رواية شعبة ، عن قتادة « المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به » وهى زيادة مفسرة للمراد ، وأن التمثيل وقع بالذى يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ، ونهى . لا مطلق التلاوة »(١) .

قوله : « والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها » يعنى بالمؤمن الذى لا يقرأ القرآن هو الذى لا يحفظه ، ولا يتلوه ، فالإيمان بالله ورسله وما جاءت به طيب ، ومذاقه حلو ، ولكن إذا آمن بالقرآن ، وعمل به ، وهو لا يقرؤه فاتته الرائحة الطيبة ، والله تعالى يجمع الطيبين فيسكنهم دار الطيبات ، كما يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه فيجعله فى جهنم .

قال الحافظ : « قيل : خص صفة الإيمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح ، لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن ، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة »(٢) .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٦٧ .
(٢) الفتح جـ ٩ ص ٦٦ .

قوله : « ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر » .

الفاجر أصله ومذاقه مر خبيث ، وإذا قرأ القرآن كان ما يصدر منه من القراءة طيب ، ولكن مصدر القراءة خبيث ، ومثل القراءة بالرائحة التى يدركها من حوله فلما كان هذا العمل طيبا ، صار مثل الرائحة الطيبة ، الصادرة من محل خبيث مؤذ ، ضار ، وإن كان ينتفع برائحته .

قوله : « ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مر ، ولا ريح لها » يعنى : اجتمع فيه خبث الأصل ، وخبث العمل ، فلا نفع فيه لنفسه ولا لغيره ، بل هو ردىء مؤذ فى نفسه ، ولا عمل له ينتفع به .

قال النووى : « فيه فضيلة حافظ القرآن ، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد »[1] .

« والمقصود بقارىء القرآن ، مَن حفظه ، وتعاهده بكثرة التلاوة ، للوقوف على أسرار معانيه ، والعمل بأوامره ، والانتهاء عن مناهيه ، والاتعاظ بمواعظه ، والتأدب بآدابه ، لا بمجرد الحفظ والتلاوة .

وكلام الله تعالى له تأثير فى باطن العبد ، وظاهره ، إذا كان مؤمنا به ، والعباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك ، وهو المؤمن المتقى التالى له ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق ، ومن تأثر ظاهره دون باطنه فذلك المرائى »[2] .

والمراد منه للباب ، أن هذا التفاوت ، فى وصف المؤمن القارىء ، وغير القارىء والفاجر والمنافق ، يدل على أن ذلك عملهم ، تفاوت بالإيمان مع

---

(١) شرح مسلم جـ ٦ ص ٨٣ .
(٢) مكمل إكمال الإكمال ملخصا جـ ٢ ص ٤١٥ .

القراءة وعدمها ، وبالفجور والنفاق مع القراءة وعدمها ، فإذا كان ذلك بعملهم ، فأعمالهم كلها مخلوقة كما تقدم إيضاح ذلك .

١٨٣ ــ قال : « حدثنا على ، حدثنا هشام ، أُخبرنا معمر ، عن الزهرى . ح

وحدثنى أحمد بن صالح ، حدثنا عَنْبَة ، حدثنا يونس ، عن ابن شهاب أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضى الله عنها : سأل أناسٌ النبىَّ ﷺ عن الكهان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشىء » فقالوا : يا رسولَ الله ، فإنهم يحدِّثون بالشىء يكون حقا ، قال : فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنىُّ ، فيُقَرقِرُها فى أذن وليه ، كقَرْقَرة الدجاجة ، فيَخْلطون فيه أكثر من مائة كذبة » .

قوله : « سأل أناس النبى ﷺ عن الكهان » جاء فى صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشىء فنجده حقا قال : « تلك الكلمة الحق ، يخطفها الجنى ، فيقذفها فى أذن وليه ، ويزيد فيها مائة كذبة »[(١)] .

فالسؤال وقع عما يخبرون به ، فلهذا قال : « ليسوا بشىء » أى : أخبارهم باطلة وكذب ، ليست شيئا واقعا ، فلما قالوا : إنهم يصدقون أحيانا ، أخبر ، أن ذلك الصدق ، هو القليل الذى يخطفه الشيطان ، المسترق للسمع ، من الملك الذى يتكلم بالوحى ، فيلقيه فى أذن وليه من الإنس ، الذى هو الكاهن ، ويكذب معها مائة كذبة .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٧٥٠ رقم ٢٢٢٨ .

ويجوز أنهم سألوا عن حكمهم ، وعن إتيانهم ، كما فى صحيح مسلم ، أن معاوية ابن الحكم قال : يا رسول الله ، كنا نأتى الكهان قال : « فلا تأتوا الكهان »[1] .

والكهان : هم الذين يخبرون عن المستقبل غالبا ، استنادا إلى أسباب خفية ، من اتصالهم بالجن ، الذين يسترقون السمع من الملائكة ، وهو الأصل عندهم ، وقد تكون أخبارهم وهمية .

ويطلق اسم الكاهن على كل من يتعاطى علم الغيب ، أو يحكم بغير ما أنزل الله[2] .

وفى كليات أبى البقاء : « الكاهن : هو من يخبر بالأحوال الماضية ، والعرّاف : من يخبر بالأحوال المستقبلة »[3] .

وقال الخطابى : « الكهنة ، قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ؛ فألفتهم الشياطين ، لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم . وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية ، خصوصا فى العرب ، لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها ، ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن يركب بعضهم بعضا ، إلى أن يسمع أعلاهم شيئا من كلام الملائكة ، كما وصف ذلك فى الحديث ، وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا ، كما فى أخبار شق ، وسطيح ، وغيرهما من كبار الكهان ، وأما فى الإسلام ، فقد ندر ذلك جدا حتى يكاد يضمحل :

ومنها ، ما يخبر الجنى به من يواليه ، مما غاب عن غيره ، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه .

---

(١) المصدر المذكور جـ ٤ ص ١٧٤٩ رقم ٢٢٢٧ .

(٢) انظر الفتح جـ ١٠ ص ٢١٦ .

(٣) كليات أبى البقاء جـ ٤ ص ١٢٩ .

ثم انطلقنا ، قلنا ما صنعنا ؟ ! حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، تَغَفَّلْنَا رسولَ اللهِ ﷺ يمينه ، واللهِ لا نفلحُ أبدًا .

فرجعنا إليه ، فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكنَّ الله حملكم ، إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيتُ الذى هو خير ، وتحللتها » .

« زهدم » هو ابن مضرّب بتشديد الراء الجرمى ، نسبة إلى جَرْم بن زياد بطن من قضاعة ، « والأشعرى » نسبة إلى الأشعر بن سبأ ، أى قبيلة من اليمن .

« ود وإخاء » الود : صافى الحب ، وأما الإخاء : فمن الأخوة ، والمصاحبة ، المقتضية للعطف ، والود ، والنصرة . وهذا تعليل لقوله : « فكنا عند أبى موسى الأشعرى » ؛ لأن زهدم من جَرْم .

« فقُرب إليه الطعام » : يؤخذ منه ما كان عليه الصحابة ، ومن سلك طريقهم ، من عدم التكلف لمن يحضر مجالسهم ، وأنهم إذا حضر وقت طعامهم ، قدم على ما هو عليه ، سواء كثر الحضور أو قلوا ، وفيه تهيئة الطعام وإعداده لصاحب البيت ، وفيه دخول الرجل على صديقه ، وعرض الطعام على من حضره ، ولو كان قليلا .

« فيه لحم دجاج » قال الحافظ : « الدجاج : اسم جنس مثلث الدال ، والواحدة دجاجة ، دخلتها الهاء للوحدة ، قاله الجوهرى . سُمى بذلك لإسراعه فى الإقبال ، والإدبار »[1] .

وفيه جواز أكل الدجاج ، وأن الحيوان إذا كان فى جنسه ما يأكل الجلة ،

---

(١) من الفتح ملخصا جـ ٩ ص ٦٤٥ .

لم يلتفت إلى ذلك .

« وعنده رجل من بنى تيم الله ، كأنه من الموالى » بين الحافظ ، أن هذا الرجل هو زهدم ، وذكر رواية الترمذى ، وفيها : « عن زهدم ، قال دخلت على أبى موسى ، وهو يأكل دجاجا ، فقال : ادن فكُل ، فإنى رأيت رسول الله ﷺ يأكله » .

وفى رواية البيهقى ، عن زهدم ، قال : رأيت أبا موسى يأكل دجاجا ، فدعانى ، فقلت : إنى رأيته يأكل نتنا ، قال : ادن فكل »[1] .

ومن أجل ذلك ، جزم الحافظ بأنه زهدم الراوى ، لكن كيف يقول عن نفسه : « كأنه من الموالى » . ويعنى بذلك : العجم ، أطلق عليهم « موالى » ؛ لأن من أسلم على يديه أحد ، دعوه مولًى له ، وهم أسلموا على أيدى الصحابة — رضى الله عنهم — .

« فدعاه إليه » أى : إلى الأكل . « فقال الرجل : إنى رأيته يأكل شيئا فَقَذِرْتُه » أبهم المأكول لكراهة ذكره ، كما هى عادتهم فى ما هو مستقذر ، يكنون عنه .

ومعنى « قذرته » استقذرته ، فصار عندى قذرا .

« فحلفت لا آكله » أى : من أجل ما رأى ، لأنه كرهه .

« هلم فلأحدِّثك عن ذلك » هلم : أقبل ، وتعال ، أخبرك عن حلفك ، وأنه لا يمنع من أكله ، لأن الله — تعالى — جعل له كفارة ، تخرج بها من حرج اليمين .

« إنى أتيت النبى ﷺ فى نفر من الأشعريين » النفر : هم الجماعة من

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٦٤٨ ، ٦٤٧ .

الناس القليلة ، من الثلاثة إلى العشرة ، لا واحد له من لفظه .

« نستحمله » أى : نطلب منه أن يحملنا ، أى : يعطينا من الإبل ما يحملنا ، ويحمل متاعنا ، وذلك فى غزوة العُسْرة « غزوة تبوك » .

قال : « والله لا أحملكم ، وما عندى ما أحملكم » جاء فى رواية فى الصحيح : قال : « فوافقته وهو غضبان » ولهذا أخبره بأنه لا يحملهم ، وأكد ذلك بالقسم ، لأنه بنى على الحال التى هو فيها ، ولم يكن عنده شىء يحملهم عليه ، ولهذا قال : « وما عندى ما أحملكم » .

« فأتى النبى ﷺ بنهب إبل » النهب : الغنيمة ، وهو مصدر ، بمعنى المنهوب ، كالخلق بمعنى المخلوق .

« فسأل عنا ، فقال : « أين النفر الأشعريون » ؟ : فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ » الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر ، وهو لفظ مؤنث ، لا واحد له من لفظه .

« غر الذرى » أى : بيضُ الأَسْنِمَةِ ، فذروة البعير : سنامه ، لأنه أعلى ما فيه ، إما أنه أراد أنها سمان ، فى أسنمتها الشحم الأبيض ، أو أن شعور أسنمتها بيض .

« ثم انطلقنا ، فقلنا ما صنعنا ؟ حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، ثم حملنا » يعنى : أن صنعنا هذا ليس من البر ، بل هو مما يخاف عقباه ، حيث حَمَلْنا رسول الله ﷺ على مخالفة ما حلف عليه ، فأوقعناه فى الحنث ، ولهذا قال : « والله لا نفلح أبدا » أى : لا يحصل لنا الفلاح ، وهو الفوز بالخير والسعادة الدنيوية والأخروية .

« تغفلْنا رسول الله ﷺ يمينه » . أى : أخذنا ما أعطانا فى حالة غفلته عن يمينه ونسيانه لها .

« فرجعنا إليه فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكن الله حملكم » هذه الجملة من الحديث هى محل الشاهد ، فإن الله ـــ تعالى ـــ هو المتصرف فى عباده ، وعملهم يقع بخلقه ـــ تعالى ـــ ومشيئته ، فكما أنه ـــ تعالى ـــ خالق العبد ، فهو خالق أفعاله .

ولهذا أسند النبى ﷺ حملهم إلى الله ، مع أنه هو الذى أعطاهم الإبل لأن إعطاءهم إياها ، بعد إرادة الله وخلقه .

« قال الماوردى : معناه : أن الله ـــ تعالى ـــ آتانى ما أحملكم عليه ، ولولا ذلك لم يكن عندى ما أحملكم عليه[1] .

قال الحافظ : « المراد منه نسبة الحمل إلى الله ـــ تعالى ـــ وإن كان الذى باشر ذلك النبى ﷺ فهو كقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2] .

« إنى والله ، لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هو خير منه وتحللتها » ، فى هذا دلالة ، على أن من حلف على فعل شىء أو تركه ، فرأى أن مخالفة يمينه ، خيرٌ له فى دينه أو دنياه ، فإن المشروع فى حقه أن لا يمضى فى يمينه ، بل يفعل الذى هو خير ، ويكفر عن يمينه .

١٧٦ ـــ قال : « حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا قُرَّةُ بن خالد ، حدثنا أبو جمرة الضبعى ، قلت لابن عباس : فقال : قدم وفد عبد القيس ، على رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك المشركين من مُضَر ، وإنَّا لا نصل إليك إلا فى أشهر حُرُم ، فمُرْنا بجُمَل من الأمر ، إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعوا إليها مَن وراءنا ،

---

(١) شرح مسلم للنووى جـ ١١ ص ١١٠ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٤ .

قال : « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان ، وهل تدرون ما الإيمان ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : لا تشربوا فى الدُّبَّاءِ ، والنَّقِيرِ ، والظروف المُزَفَّتة ، والحنتمة » .

قوله : « قلت لابن عباس » لم يذكر مقول القول ، وقد بينه فى آخر المغازى فى باب وفد عبد القيس[1] وفيه « عن أبى جمرة ، قلت لابن عباس — رضى الله عنهما — : إن لى جرة ينتبذ لى نبيذ فأشربه حلوا فى جرة ، إن أكثرت منه فجالست القوم ، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح ، فقال : قدم » إلى آخره .

قال الحافظ : فى قوله : « خشيت أن أفتضح » أى : لأنى أصير فى مثل حال السكارى[2] .

ويجوز أنه يحدث له تسهيلا ، أو رياحا فى بطنه ، ويخشى أن يغلبه شيء من ذلك فيفتضح . والله أعلم .

والوفد : الجماعة المختارة للقاء العظماء ، وعبد القيس قبيلة كبيرة ، كانت مساكنهم فى شرق الجزيرة العربية ، قرب الأحساء ، والقطيف ، وكانت تسمى البحرين[3] قال الحافظ : « الذى تبين لنا ، أنه كان لعبد القيس وافدتان : أحدهما : قبل الفتح ، ولهذا قالوا : بيننا وبينك كفار مضر وكان ذلك إما فى سنة خمس أو قبلها ، وكان عددهم ثلاثة عشر رجلا

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣٨ .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٨٦ .

(٣) قال ياقوت : « البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر النهر بين البصرة وعمان » معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٧ .

وثانيهما : كانت سنة الوفود ، وكان عددهم أربعين رجلا[1] وذكر أدلة ذلك .

ومُضَرُ أبو القبيلة المشهورة ، وهو مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

« فقالوا : إن بيننا وبينك المشركينِ من مضر » يعنى : أن بلادهم بعيدة عن رسول الله ﷺ وفى طريقهم إليه ، المشركون الذين هم أعداء لهم ، فإذا تمكنوا منهم قتلوهم ، وهم بحاجة إلى التعلم من رسول الله ﷺ ولهذا قالوا : « فمرنا بجُمل من الأمر » وفى الرواية الأخرى « بأمر فَصْل » أى بين جامع ، لا نحتاج معه إلى غيره ، وفاصل بين الحق والباطل ، ولهذا قالوا : إن عملنا به دخلنا الجنة .

« وندعو إليها مَن وراءنا » أى : الأوامر التى تأمرنا بها ، نعمل بها ، وندعو قومنا إلى العمل بها .

« وإنا لا نصل إليك إلا فى أشهر حُرم » دليل على تعظيم الأشهر الحرم ، حتى عند المشركين ، حيث لا يتعرضون لأعدائهم فى الأشهر الحرم .

وقد نوه الله تعالى عن حرمتها فى كتابه حين قال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

« قال : آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع » أى : أربع جمل كما فى سؤالهم ، أو أربع خصال « آمركم بالإيمان بالله » ثم فسر ذلك بقوله : « وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة ألا إله إلا الله » أى : أن تشهدوا أن الله هو الإله الحق . المستحق أن يؤله ، ويعبد وحده ، وأن تفعلوا ذلك مخلصين له التأله ، وأن تشهدوا أن كل مألوه غيره باطل وضلال ، من توجه إليه بالعبادة ، فهو

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٨٥ .

من أصحاب النار ، الذين لا يخرجون منها أبدا ، إذا ماتوا على ذلك . هذه الكلمة أصل وأساس ما بعدها ، بل هى أصل الإسلام ، فلا يدخل الإسلام أحد إلا بها ، وبمعرفتها والعمل بها ، تتفاوت درجات الناس عند الله تعالى ، وهى تشمل معرفة القلب وعمله ، وعمل الجوارح ، ولهذا جعلها النبى ﷺ الإيمان ، وأما الإشكالات التى ذكرها الحافظ عن شراح هذا الحديث ، والتقديرات المبنية عليها[1] فهى غير واردة على الحديث أصلا .

ومن تلك الإيرادات ، أن ذكر الشهادة للتبرك ، وليست مرادة لنفسها ، وعليه فأول الخصال : الأمر بالصلاة ، وذلك أن القوم كانوا مؤمنين ، مقرين بالشهادتين ، فلا وجه لذكرها . وهذا من الكلام الباطل لمخالفته لنص الحديث ، والذى حملهم عليه ، مذهبهم بأن الإيمان مجرد التصديق والمعرفة ، وهو مخالف لنصوص الكتاب والسنة ، فإذا لم يقترن بالتصديق عمل صالح ، فلا اعتبار له فى الشرع ، كما أن الإيمان يتجدد ، ويزداد ، والأعمال من الإيمان ، بها يزيد ، وبتركها أو نقصها ينقص .

« وإقام الصلاة » أى : تصلون الصلوات الخمس مقيمين لها ، بأن تأتوا بها قائمة غير ناقصة ، بشرائطها ، وواجباتها ، وما يلزم لها .

« وإيتاء الزكاة » أى : أن تؤتوها مَن فرضها الله لهم ، ممتثلين أمر الله ، خائفين من عقابه لو منعتموها ، راجين ثوابه فى أدائها ، طيبة بها نفوسكم ، محبين لذلك مغتبطين به .

« وتعطوا من المغنم الخمس » أى : خمس ما غنمتم فإنه لله ورسوله ، وهو بمنزلة الزكاة فى الوجوب ، فتعطوه من هو له ، ممتثلين أمر الله فى ذلك ، كما فى الزكاة .

---

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٣٢ وما بعدها .

وهذه الأوامر الأربع : وهى الإيمان ، وفسره بشهادة أن لا إله إلا الله .

والثانية : إقام الصلاة ، والثالثة : إيتاء الزكاة ، والرابعة : إعطاء خمس المغنم .

وأما النواهي : فهى أن لا يشربوا فى الدُّبَّاء ، وهى ثمر اليقطين إذا يبس فإنه يكون كالجرار ، وإذا وضع فيه نبيذ التمر ، أو غيره أسرع إليه الغليان ، فيكون خمرا ، وكذلك بقية الأوعية المذكورة .

والنَّقِير : وعاء يتخذ من جذوع النخل ، ينقر وسطه حتى يصير شبه الجرة .

والمُزَفَّت : هو المطلى بالزفت ، وهو المُقَيَّر .

وأما الحَنْتَم فقال فى النهاية : هى جرار مدهونة خضر ، كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة ، ثم توضع فيها ، فقيل للخزف كله حنتم ، واحدتها حنتمة .

وإنما نهى عن الانتباذ فيها ؛ لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها .

وقيل : لأنها كانت تعمل من طين يعجن بالدم والشعر ، فنهى عنها ليمتنع من عملها ، والأول أوجه »[1] بل هو المتعين .

والمراد من الحديث قوله : « فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعو إليها مَنْ وراءنا ، قال آمركم بأربع » فعملهم الذى بسببه يدخلون الجنة ، هو فعل لهم ، يضاف إليهم حقيقة ، وهم يباشرونه ، ويعملونه حقيقة باختيارهم وإرادتهم ، ومع ذلك هو من خلق الله تعالى ، فهو داخل فى عموم خلقه ، وعموم إرادته ومشيئته ؛ لأنه تعالى هو خالقهم وخالق أعمالهم ، كما فى الحديث الذى رواه البخارى فى خلق أفعال العباد حيث قال : « فأما أفعال

---

(١) النهاية جـ ١ ص ٤٤٨ .

العباد : فحدثنا على بن عبد الله ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبو مالك ، عن ربعى بن خراش ، عن حذيفة — رضى الله عنه — قال : قال النبى ﷺ : « إن الله يصنع كل صانع وصنعته » فأخبر أن الصناعات ، وأهلها مخلوقة .

حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة — رضى الله عنه — « إن الله خلق كل صانع وصنعته ، إن الله خالق صانع الخُزُم ، وصنعته »(١) .

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : « العجز والكيس من القدر . وذكر أحاديث بهذا المعنى ثم قال : سمعت عبيد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة .

قال أبو عبد الله : حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو ، المبين ، المثبت فى المصحف ، فهو كلام الله ليس بخلق »(٢) .

١٧٩ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن نافع ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله ﷺ قال : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

١٨٠ — « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال النبى

---

(١) قال الأزهرى : قال ابن الأعرابى : الخُزُمُ : الخرازون . ثم ذكر هذا الحديث جـ ٧ ص ٢١٧ تهذيب اللغة .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤١ — ٤٢ .

ﷺ : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

قال فى اللسان : « فى أسماء الله الحسنى : « المصور » ، وهو الذى صور جميع الموجودات ورتبها ، فأعطى كل شىء منها صورة خاصة ، وهيئة مفردة بها ، على اختلافها وكثرتها ـــ قال : « والصورة فى الشكل »[1] .

وفى متن اللغة : « الصورة : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة »[2] .

وتقدم أن « المصوِّر » من أسماء الله الحسنى ، وأن التصوير ، بمعنى إعطاء كل شىء شكله ، الذى هو عليه ، من خصائص الله ـــ تعالى ـــ ولهذا من تشبه به تعالى فى ذلك ، وصور صور الأحياء ، فإن الله يعذبه أشد العذاب .

وقد تكاثرت النصوص الدالة على شدة عذاب المصورين ، كما فى هذين الحديثين .

قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ نزلت فى المصورين[3] .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »[4] وفى رواية لمسلم : « إن من أشد أهل النار ، يوم القيامة عذابا المصورين .

وروى مسلم إلى ابن عباس ، قال جاءه رجل ، فقال : إنى رجل أصور هذه الصور ، فأفتنى فيها ، فقال له : ادن منى ، فدنا منه ، ثم قال ادن منى ،

---

(١) لسان العرب جـ ٤ ص ٤٧٣ .

(٢) متن اللغة جـ ٤ ص ٥١٤ .

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره جـ ٢٢ ص ٤٤ .

(٤) انظر الفتح جـ ١٠ ص ٣٨٢ ومسلم جـ ٣ ص ١٦٧٠ رقم ٢١٠٩ .

وقال فى الصحيح : « باب من قال : إن الإيمان هو العمل ، لقول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال عدة من أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم ذكر حديث أبى هريرة الآتى .

وإطلاق العمل على الإيمان ، وكون الإيمان يشمل التصديق ، والقول ، والعمل ، الأدلة عليه كثيرة ، وكلام السلف فيه كثير واضح ، والخلاف فيه واقع من أهل البدع ، كالمرجئة من الجهمية وغيرهم .

قال : « قال أبو ذر ، وأبو هريرة : « سئل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » .

ذكر حديث أبى هريرة ، موصولا فى كتاب الإيمان[1] ، وفى كتاب الحج بأتم مما هنا ، وذكر حديث أبى ذر فى العتق ، ولفظه : « سألت النبى ﷺ أى العمل أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » ، قلت : « فأى الرقاب أفضل ؟ » قال : « أغلاها ثمنا » . وهو صريح ، فى أن الإيمان يسمى عملا ، لأنه صادر من العبد ، وعمل العبد مخلوق ، وهذا هو مراد البخارى ، وقد تقدم مرارا ، الفرق بين عمل العبد ، وكلام الله تعالى إذا قرأه العباد .

ولا يدل عطف الجهاد على الإيمان ، أن الجهاد ليس منه ، بل الأعمال الصالحة ، المعطوفة على الإيمان ، داخلة فيه ، وعطفها عليه ، إما من عطف الخاص على العام ، أو لأن الأعمال لازمة للإيمان ، فإذا لم يأت بها العبد ، دل ذلك على أنه ليس عنده إيمان ، لأن انتفاء اللازم ، يقتضى انتفاء الملزوم .

ولذلك صارت الأعمال ، فى عرف الشرع ، داخلة فى اسم الإيمان .

---

(١) انظر كتاب الإيمان من الصحيح جـ ١ ص ١٨ .

وأيضا فعطف الأعمال على الإيمان ، لرفع توهم أن مجرد الإيمان ، بدون الأعمال اللازمة له ، يوجب الثواب الموعود به فى الآخرة ، وهو الجنة بلا عذاب ، فعطفت عليه تخصيصا ، وتنصيصا ، ليعلم ذلك . هذا هو قول أهل السنة ، وهو الذى دلت عليه نصوص كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ .

بقى أن يقال : إذا كان الإيمان من عمل العباد ، وأعمال العباد مخلوقة ، كما تبين لنا ، فهل الإيمان مخلوق ؟

فالجواب : أنه لابد من التفصيل ، والبيان فى ذلك ؛ لأن هذا السؤال فيه إجمال وإيهام ، فإن أريد بالإيمان ، أعمال العباد ، وتصديقاتهم ، فأعمال العباد كلها مخلوقة .

وإن أُريد بالإيمان ، شيء من صفات الله وكلامه ، وشرعه الذى هو أمره ونهيه ، ووعده ، ووعيده ، وقدره الذى هو علمه ومشيئته وكلامه ، فهو غير مخلوق .

وأما الأفعال المأمور بها والمنهى عنها ، والمقدرات من الآجال ، والأرزاق والأعمال ، فهى مخلوقة محدثة .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال : الإيمان مخلوق ، أو غير مخلوق ؟ قيل له : ما تريد بالإيمان ؟ أتريد به شيئا من صفات الله وكلامه ، كقوله : لا إله إلا الله ، وإيمانه الذى دل عليه اسمه « المؤمن » ؟ فهو غير مخلوق . أو تريد شيئا من أفعال العباد ، وصفاتهم ؟ فالعباد كلهم مخلوقون ، وجميع أفعالهم ، وصفاتهم مخلوقة ، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق ، صفة قديمة غير مخلوقة ،

ولا يقول هذا من يتصور ما يقول ، فإذا حصل التفصيل ظهر الهدى ، وبان السبيل »[1] .

وقال أيضا : « الشرع الذى هو أمر الله ونهيه غير مخلوق ، وأما الأفعال المأمور بها ، والمنهى عنها ، فلا ريب أنها مخلوقة ، وكذلك القدر ، الذى هو علمه ومشيئته وكلامه غير مخلوق ، وأما المقدرات من الآجال ، والأرزاق ، والأعمال ، فكلها مخلوقة »[2] .

واتفق أئمة المسلمين ، على أن جميع أفعال العباد مخلوقة ، كما ذكر البخارى — رحمه الله — عن يحيى بن سعيد القطان ، قال : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة[3] .

قوله : وقال : « جزاء بما كانوا يعملون » .

العمل الذى جوزوا عليه الجنة ، يشمل الطاعات كلها ، واجتناب المناهى كلها ، فدخل فيه الإيمان ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والصلاة ، وأداء الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة .

و « ما » فى قوله : « بما » يجوز أن تكون موصولة ، أى : بالذى كنتم تعملونه ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : بعملكم .

والباء سببية ، أى : دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة ، وأما الحديث

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٧ ص ٦٦٤ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٧ ص ٦٦١ .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » فالباء فيه للعوض والمقابلة ، فالجنة ليست عوضا للعمل ، وإنما هى فضل من الله ، والأعمال الصالحة سبب لدخولها ، كما هو قول أهل السنة ، وكما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة ، خلافا للمعتزلة ، أهل القياس الفاسد ، فإنهم يرون الجنة عوضا للعمل .

والمقصود ، أن الآية تدل على أن العمل ، الذى أدخل المؤمنون بسببه الجنة ، فعل لهم يتعلق باختيارهم ، ولهذا جوزوا عليه ، والعباد وأعمالهم خلق لله تعالى .

قوله : « وقال وفد عبد القيس للنبى ﷺ مرنا بجمل من الأمر ، إن عملنا بها دخلنا الجنة ، فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . فجعل ذلك كله عملا » .

سيأتى الحديث بطوله ، والدلالة منه ظاهرة ، لأنهم قالوا : « نعمل بها » فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، إلى آخر ما ذكر ، فدل ، على أن المذكور كله عمل لهم ، ومعلوم أنهم مخلوقون ، فكذلك عملهم مخلوق ، وهو المراد .

۱۷۷ — قال : « حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، والقاسم التميمى ، عن زَهْدَم ، قال : كان بين هذا الحىّ من جُرم ، وبين الأشعريِّين وُدٌّ وإخاءٌ ، فكنا عند أبى موسى الأشعرى ، فَقُرِّبَ إليه الطعامُ ، فيه لحمُ دَجاج ، وعنده رجلٌ من بنى تَيْم الله ، كأنه من الموالى ، فدعاه إليه ، فقال الرجل : إنى رأيته يأكل شيئا فقَذِرْتُه ، فحلفتُ لا آكلُه ، فقال : هلم فلأحدِّثك عن ذلك ، إنى أتيتُ النبىَّ ﷺ فى نفر من الأشعريِّين نستَحْمله ، قال : والله لا أحْمِلكم ، وما عندى ما أحْمِلكم ، فأُتِىَ النبىُّ ﷺ بنهب إبل ، فسأل عنا ، فقال : أين النفرُ الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ عن ابن عباس ، ما يخالف ما ذكر هنا ، وهو تفسير ﴿ يُحَرِّفُونَ ﴾ بقوله : يزيلون .

وقال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ، فى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه قال : يقلبون ويغيرون .

وقال الراغب : « التحريف : الإمالة ، وتحريف الكلام : أن يجعله ، على حرف من الاحتمال ، بحيث يمكن حمله على وجهين ، فأكثر »[1] .

وقال : « صرح كثير من أصحابنا ، بأن اليهود ، والنصارى بدلوا التوراة ، والإنجيل .

وذكر بعض الشراح ، أن فى هذه المسألة ، أربعة أقوال :

أحدها : أنها بدلت كلها ، وينبغى حمل هذا الإطلاق على أكثرها ؛ لأن الآيات والأخبار الكثيرة ، تدل على بقاء شيء منها لم يبدل ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[2] ، ومنه قصة رجم اليهوديين ، وفيها وجود آية الرجم ، فى التوراة ، ويؤيد ذلك ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

الثانى : أن التبديل وقع فى معظمها ، وأدلة ذلك كثيرة ، وينبغى حمل القول الأول عليه .

الثالث : وقع التبديل فى اليسير منهما ، ومعظمهما باق على حاله ، قال : ونصره الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى الجواب الصحيح .

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٣ .

(2) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

الرابع : « إنما وقع التبديل والتغيير ، فى المعانى ، لا فى الألفاظ ، وهو ما ذكره البخارى هنا »[1] .

والصحيح ، أن التبديل والتحريف ، وقع فى كثير من ألفاظهما ومعانيهما ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[3] .

قال شيخ الإسلام : « علماء المسلمين ، وعلماء أهل الكتاب ، متفقون على وقوع التحريف ، فى معانى وتفسير الكتب السابقة ، وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظهما لم تبدل ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين ، وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها .

وهذا هو المشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه لم يصلب ، وإنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به القرآن فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ، ظنوا أنه هو المسيح ، أو تعمدوا الكذب .

ثم هؤلاء ، منهم : الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

---

(١) الفتح بتصرف جـ ١٣ ص ٥٢٣ ــ ٥٢٤ .
(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٤٦ من سورة النساء ، والآية ١٣ من سورة المائدة .

ومنهم : من يجعل المبدل من التوارة والإنجيل كثيرا منهما ، وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما ، لاسيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر ، وأظهر منه فى التوراة .

ومن هؤلاء ، من يسرف ، حتى يقول : إنه لا حرمة لشيء منهما ، بل يجوز الاستنجاء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه ، قليل منهما ، وهذا أظهر ، والتبديل فى الإنجيل أظهر ، بل كثير من الناس يقول : هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله ، إلا القليل ، والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح ، أن هذه التوراة ، والإنجيل ، الذى بأيدى أهل الكتاب ، فيه ما هو حكم الله ، وإن كان قد بدل ، وغير بعض ألفاظهما ، لقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾[1] فعلم ، أن التوراة التى كانت موجودة ، بعد خراب بيت المقدس ، بعد مجيىء بختنصر ، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليهما وسلم فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة ، على عهد رسول الله ﷺ وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة فى العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الاتباع ، حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة فى الغالب ، وإنما تختلف فى اليسير من ألفاظها .

---

(١) الآيات ٤١ ــ ٤٣ من سورة المائدة .

فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ ، بعد مبعث الرسول ﷺ ممكن ، لا يمكن أحدًا أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود ، والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم من الكتابين ، متفقة الألفاظ ؛ إذ لا سبيل إلى علم ذلك .

وذلك أن اليهود قبل مبعث النبى ﷺ وعلى عهده ، وبعده ، منتشرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكنا ، وواقعا ، لكان من الوقائع العظيمة ، التى تتوافر الدواعى على نقلها .

ومثل التوراة ، الإنجيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾(1) فعلم ، أن فى الإنجيل حكما ، أنزله الله ــ تعالى ــ لكن الحكم من باب الأمر والنهى ، ولا يمتنع أن يكون التغيير والتبديل فى باب الإخبار ، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا .

وأما الأحكام التى فى التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى ألفاظها(2) .

وبهذا يتبين ، أن ما ذكره البخارى ــ رحمه الله ــ أحد أقوال العلماء ، وهو أن ألفاظ كتب الله السابقة للقرآن ، لم تغير ولم تبدل ، وإنما حرفت معانيها ، وأولت على غير تأويلها ، فيكون معنى التحريف ، الذى ذكره الله ــ تعالى ــ عنهم : هو تحريف المعانى ، وصرفها عن مراد الله بها ، إلى ما تهوى نفوسهم ، وما يريدون حسب رغباتهم .

---

(1) الآية ٤٧ من سورة المائدة .

(2) الجواب الصحيح جـ ١ ص ٣٧٩ ــ ٣٨١ .

ولكن يبقى أن يقال : هل التوراة التى بأيدى اليهود ، والنصارى ، هى التى أنزل الله على موسى وعيسى ، لم يذهب منهما شىء ، ولم يزد عليهما شىء ؟ هذا الذى لا يستطيع أحد أن يجزم به ، فالصحيح ، أنه حصل فى ألفاظهما التبديل والتغيير ، وأن بعض ألفاظها أزيل ، ووضع بدله غيره ، لا كما يقول البخارى ــ رحمه الله ــ .

فإن كانت التوراة هذه ، الموجودة اليوم بأيدى الناس ، فلا شك فى تغيير وتبديل بعض ألفاظها حسب الترجمة العربية .

فقد جاء فى الإصحاح التاسع عشر ، من سفر التكوين ، من التوراة ، قوله : « صعد لوط من زغر ، وسكن فى الجبل ، وابنتاه معه إذ خاف من المقام فى زغر ، وسكن فى مغارة هو وابنتاه معه ، فقالت الكبيرة للصغيرة : أبونا شيخ ، وإنسان ، ليس فى الأرض للدخول علينا كسبيل كل الأرض . تعالى نسقى أبانا خمرا ونضجع معه ، ونبقى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة »[1] إلى آخر الكلام ، وهو باطل قطعا ، وقد نزه الله نبيه لوطا ــ عليه السلام ــ أن يقع على ابنتيه ، فتحبلان منه ، وإنما هذا من وضع اليهود أعداء الله تعالى .

فقوله : « وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ــ عز وجل ــ » غير مسلم ، بل بدل بعض ألفاظها ، كما سبق فى كلام شيخ الإسلام أنه الصحيح .

« قال الزركشى : اغتر بعض المتأخرين ، بما قاله البخارى ، فقال : إن فى تحريف التوراة خلافا ، هل هو فى اللفظ والمعنى ، أو فى المعنى فقط ، ومال إلى الثانى ، ورأى جواز مطالعتها ، وهو قول باطل ، ولا خلاف أنهم حرفوا ، وبدلوا

---

(١) انظر التوراة السامرية ص ٥٩ .

والاشتغال بنظرها ، وكتابتها ، لا يجوز بالإجماع ، وقد غضب النبى ﷺ حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة ، وقال : « لو كان موسى حيا ، ما وسعه إلا اتباعى » ولولا أنه معصية ما غضب .

ونظَّر الحافظ بهذا الكلام ، وقال : « الظاهر ، أنه مكروه كراهة تنزيه ، وقال : الأولى ، التفرقة بين من لم يتمكن ، ويصر من الراسخين من الإيمان ، فلا يجوز له النظر فى شيء من ذلك ، بخلاف الراسخين ، فيجوز لهم ، ولاسيما عند الاحتجاج ، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديما وحديثا من التوراة »[1] .

وتحريف معانيها وتفسيرها بغير المراد ، فهذا ظاهر جدا ، ولا ينبغى أن يكون فيه خلاف ، وكثير من آيات القرآن صريحة فى هذا ، وهو مراد البخارى بقوله : « ولكنهم يحرفونه : ويتأولونه عن غير تأويله » أى : يحرفون معانيه ، ويفسرونه بما لم يرده المتكلم ، اتباعا لأهوائهم .

قال ابن القيم : « التأويل : تفعيل من آل يؤول إلى كذا ، إذا صار إليه ، فالتأويل التصيير ، وأولته تأويلا ، إذا صيرته إليه »[2] .

وتسمى عاقبة الشيء تأويلا ؛ لأن الأمر يصير إليها ، وكذلك حقيقة الشيء المخبر به ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾[3] .

وعند المتأخرين ، التأويل : هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه ، إلى ما هو أخفى منه ، لدليل يقترن بذلك ، والدليل قد يكون عقليا ، وقد

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٥ .
(٢) انظر الصواعق جـ ١ ص ٧٧ .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

يكون شرعيا ، ويسمى التفسير تأويلا .

قوله : « دراستهم : تلاوتهم » .

قال الحافظ : وصله ابن أبي حاتم ، من طريق على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس[1] .

وهذا جزء من قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾[2] .

وفى اللسان : « درست الكتاب ، أدرسه ، درسا أى : ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه على »[3] ، والمقصود أن الدراسة هى التلاوة ، وهى فعل التالى .

قوله : « واعية : حافظة » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ والجارية ، هى السفينة ، التى صنعها نبى الله نوح ﷺ وهو أبو البشر الثانى ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ ، فتكون السفينة ، تذكرة لما وقع لقوم نوح ، لما عصوا رسولهم ، فيبتعد المتذكر عن معصية الله ؛ لئلا يصيبه ما أصابهم ، وهذه العظة والتذكرة تعيها الأذن الواعية ، المتيقظة ، المتنبهة .

ومراده ، أن الحفظ والفهم فعل العبد الذى يقرأ ويحفظ ، ويفهم

قوله : « وأوحى إلىَّ هذا القرآنُ لأنذركم به : يعنى أهلَ مكة ومن بلغ هذا القرآنُ ، فهو له نَذِيرٌ » .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٥ .
(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأنعام .
(٣) لسان العرب جـ ١ ص ٩٦٨ .

الوحى من الله ــ تعالى ــ وهو الإعلام بخفية ، والإنذار فعل الرسول ﷺ ، وإنذاره بالقرآن ، أن يقرأه على الناس ، وقراءته هى فعله ، وهو وفعله مخلوق ، وهذا وجه الاستدلال من الآية .

« ومن بلغ » أى : من بلغه هذا القرآن ، فهو له نذير ، والذى يبلغه ، يسمعه من المبلغ له بصوت ذلك المبلغ ، والصوت من فعل المبلغ ، وهو مخلوق ، والقرآن المبلغ بالصوت كلام الله تعالى غير مخلوق .

وقد أكثر البخارى ــ رحمه الله ــ من الاستدلال لهذه المسألة ، لأنه قد بلى بمن يقول : القراءة هى المقروء ، ونسب إليه ، أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق .

وهو برىء من ذلك .

قال الحافظ : « هذا الذى ذكره البخارى ، هو قول ابن عباس ، رواه ابن أبى حاتم عنه ، وقال أخرج ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية ، عن عبد الله بن داود الخرسى قال : ما فى القرآن آية أشد على أصحاب جهم من هذه الآية ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ . فمن بلغه القرآن ، فكأنما سمعه من الله تعالى »(١) .

١٧٦ ــ قال : « وقال لى خليفة بن خياط : حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده ، غلبت ــ أو قال : سبقت رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

« حدثنى محمد بن أبى غالب ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٢٦ .

معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا قتادة ، أن أبا رافع حدثه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

الكتابة ، هى إثبات الكلام المكتوب ، فى محل الكتابة ، والله سبحانه ، كتب ذلك الكتاب فى شيء تثبت فيه الكتابة ، ويثبت الكلام فى ذلك الشيء بالكتابة ، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره ، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام ، وأن كون الكلام فى الكتاب ، ليس ككون الماء فى الإناء ، والعرض بالجوهر ، والرجل فى البيت ، بل هو قسم غير هذا ، وهو معقول يدركه الناس ، ويفهمون معنى كون الكلام فى الكتاب ، وهذا الحديث تقدم شرحه ، وغرضه من الطريق الأخرى ، تصريح أبى رافع ، وقتادة بالتحديث ، فيزول احتمال التدليس .

وقوله : « قبل أن يخلق الخلق » لا يعارض قوله فى الرواية قبلها « لما قضى » لأنه يجوز أن يراد بالخلق ، التقدير والفراغ منه ، وهو غير الإيجاد ، ومعلوم أن خلق الله تعالى لا نهاية له .

وتبين ، أن مقصود البخارى ــ رحمه الله ــ بهذا الباب ، أن يبين معنى كون القرآن فى المصحف ؛ أنه مكتوب مسطور فيه ، مثل ما أن اسم الله فى المصحف ، فإن القرآن كلام الله ، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له ، قال شيخ الإسلام : ليس معنى قول السلف : القرآن كلام الله ، منه بدأ ، ومنه خرج ، أنه فارق ذاته ، وحل فى غيره ، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به ، لا يفارق ذاته ، ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فقد أخبر ، أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم[1] .

فالقرآن كلام الله ، ويحفظ فى القلوب ، كما يحفظ الكلام ، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب فى المصاحف ، والأوراق ، كما أن الكلام يكتب فى الكتاب والورق .

والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى ، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه .

ولا يجوز أن يقال : إن القرآن محفوظ ، كما أن الله معلوم ، وهو متلو ، كما أن الله مذكور ، ومكتوب ، كما أن الرسول مكتوب ، فهذا خطأ ، وضلال .

فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها ، كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها ، والفرق ظاهر بين قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فإن القرآن ، لم ينزل على نبى قبل محمد ﷺ وإنما الذى فى زبر الأولين ذكره ، والخبر عنه ، كما أن محمدا ﷺ مكتوب عندهم فى التوراة ، والإنجيل فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسنة مكتوب فى المصحف ، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا ، مكتوب عندهم ، وذلك ذكره والخبر عنه .

ولكن الذى فى المصحف عندنا ، هو نفس القرآن .

ولهذا يجب أن يفرق بين قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فإن كون الأعمال

---

(1) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥١٧ ــ ٥١٨ .

فى الزبر ، مثل كون القرآن ، والرسول محمد ﷺ فى زبر الأولين .

وأما الكتاب المسطور فى الرق المنشور ، فهو كما يكتب الكلام نفسه فى الكتاب .

فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء ، له فى الوجود أربع مراتب ، وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى الكتاب .

والكلام وجوده فى اللسان ، وليس بينه وبين المحل المكتوب فيه ، مرتبة أخرى ، بل نفس الكلام يثبت فى الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۞ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۞ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ .

وليس فى المصحف من الأعيان إلا ذكرها ، ووصفها ، والخبر عنها .

والكلام فى الكتاب ، ليس هو فيه ، كما تكون الصفة بالموصوف ، والعرض بالجوهر والجسم بالمكان ، وما هو بمنزلة الدليل على المدلول ، كالمخلوق الدال على الخالق . بل هو قسم آخر ، معقول بنفسه ، والناس بفطرهم ، يفهمون معنى كون كلام الله فى المصحف ، وأن كلامه الذى قام به لم يفارق ذاته ، ويحل فى غيره ، ويعلمون أن الذى فى المصحف ، ليس مجرد دليل ، على معنى قائم فى نفس الله ، بل الذى فى المصحف كلام الله ، مطابق للفظه ، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق لما فى الخارج ، وهو كلام الله حقيقة لا مجازا .

وهذه مسألة عظيمة ، ضل فيها طوائف من الناس ، والبخارى رحمه الله ممن ابتلى فيها بمن لم يفهم الحق فيها ؛ فارتكب شططا ، ونسب البخارى فيها

إلى الباطل ، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق ، ومنشأ الاختلاف فيها ، يعود إلى أصلين[1] :

أحدهما : مسألة تكلم الله تعالى بالقرآن ، وغيره .

والثانى : تكلم العباد بكلام الله ، وقد حاولت بيان الحق ، فى كلا المسألتين فيما سبق ، قدر ما أوتيت من بيان ، والله المستعان .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يريد رحمه الله بهذا الباب بيان أن الله ـــ تعالى ـــ هو الخالق لكل شيء ، وحده لا شريك له فى ذلك ، فيدخل فيه ، أعمال العباد وأفعالهم ، والآية نص فيه ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سواء كانت « ما » موصولة أو مصدرية ، فعلى التقديرين ، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة ؛ لأن آلهتهم التى يعبدونها صارت على شكل معين ، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم .

وقد أطالوا الكلام فى إعراب « ما » فى هذه الآية ، وادعى بعضهم إجماع أهل السنة على أنها مصدرية ، وشنعوا على المعتزلة ، فى دعواهم : أنها موصولة ، ظانين أنها إذا كانت موصولة ، صارت دليلا على أن العباد يخلقون أفعالهم .

والصواب ، أنها موصولة ، وأنها لا تدل على أن العباد يخلقون أفعالهم ، كما زعم القدرية من المعتزلة .

قال الإمام ابن جرير : « وفى قوله : « وما تعملون » وجهان : أحدهما : أن يكون « ما » بمعنى المصدر ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم وعملكم .

---

(١) لخصت هذا الفصل من المجلد الثانى عشر من مجموع الفتاوى .

والآخر : أن يكون بمعنى « الذى » ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم والذى تعملونه . وذكر عن قتادة أنه قال : والله خلقكم وما تعملون بأيديكم[1] فهذا يدل على أنها موصولة عنده .

وقال شيخ الإسلام : قال الله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « فما » بمعنى « الذى » ، ومن جعلها مصدرية ، فقد غلط ، ولكن إذ خلق [الله] المنحوت ، كما خلق المصنوع ، والملبوس ، والمبنى ، دل على أنه خالق كل صانع وصنعته[2] .

والمعنى ، أن الآية فيها التصريح ، بأن أصنامهم من مخلوقات الله ، وإن كان شكلها ، ووضعها ، على صفة معينة من صنعهم ، فإن الله هو الذى أقدرهم على ذلك ، ويسر لهم أسبابه ، ولهذا أخبر تعالى بأنه هو الذى خلق الفلك ، وهى مصنوعة لبنى آدم . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[4] وهذه كلها مصنوعة لبنى آدم ، وهذا يبين وجه دلالة الآية ، المترجم بها ، على أن الله هو خالق أفعال بنى آدم ، فهم وأفعالهم من خلق الله تعالى . وإن كانت « ما » فى الآية موصولة ، فلا داعى للتعسف والتكلف لجعلها مصدرية ، حتى لا يكون فيها متعلق ، للقدرية المعتزلة ، القائلين بأن العبد يخلق فعله بنفسه ، فهذا قول ظاهر البطلان ، وكل باطل لا يؤيده كتاب الله تعالى ، بل يدل على بطلانه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٣ ص ٧٥ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٨٩ .

(٣) الآية ٤٢ من سورة يس .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النحل .

فقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله تعالى كما ضل من قابلهم ، وقال : إن العباد مجبورون على أعمالهم ، فلا اختيار لهم ولا قدرة .

والحق وسط بين هاتين الضلالتين . وهو أن الله تعالى خلق العباد ، وخلق لهم قدرة ، واختيارا بهما يفعلون ما يريدون فعله ، ويتركون ما يريدون تركه .

وسبب الضلال فى هذه المسألة ، عدم التفريق بين خلق الله ومخلوقه .

« فخلق الله صفته التى يخلق بها الخلق . وأما مخلوقه فهو أثر الصفة ، وهو مفعوله ، وخلق الله ـــ تعالى ـــ لمخلوقاته ، ليس هو نفس مخلوقاته ، بل خلقه فعله المتصف به ، ومخلوقاته مفعولاته التى يفعلها ويوجدها إذا شاء ، وأفعال العباد مخلوقة له تعالى كسائر المخلوقات ، ومن جملة مفعولاته ، وليست هى نفس فعل الرب ، بل هى نفس فعل العبد ، فالكذب والظلم ، ونحوهما من القبائح ، يتصف بها من كانت فعلا له ، قائمة به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له ؛ لأنه ـــ تعالى ـــ جعلها صفة لغيره ، كما أنه ـــ تعالى ـــ لا يتصف بما خلقه فى غيره ، من الطعوم ، والألوان ، والروائح ، والأشكال ، وغير ذلك .

فإذا خلق الإنسان أبيض ، أو أسود ، لم يكن ذلك اللون وصفا له ، وكذلك إذا خلق هذا الشىء مرًّا ، أو حلوًا ، أو على صورة قبيحة مذمومة ، لم يكن تعالى متصفا بذلك ، بل المتصف بها من قامت به وفعلها[1] .

وقال أيضا : « القرآن دل على أن مفعولات العباد ، الخارجة عن أنفسهم ، مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعا لهم ، فهو من فعلهم ، ومقدورهم بالضرورة ، والاتفاق .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٢٣ بتصرف .

قال الله تعالى : لنوح عليه السلام : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾[2] ، وقد أخبر — تعالى — أن الفلك مخلوقة من مخلوقاته ، مع كونها مصنوعة لبنى آدم ، وجعلها من آياته ، فقال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . فجعل الأصنام معمولة لهم ، وأخبر أنه خالقهم ، وخالق معمولهم ، فإن « ما » ها هنا بمعنى الذى ، والمراد ، خلق ما يعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقا للمعمول ، وفيه أثر فعلهم ، دل على أنه خالق لأفعال العباد .

وأما قول من قال : إن « ما » مصدرية فضعيف جدا[6] .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تنبيه لعباد الأصنام ، على فساد ما صاروا إليه من عبادتها ، مع نحتهم إياها بأيديهم ، فكيف تعبدون أصناما تعملونها بأيديكم ؟ والله خالقكم وما تعملونه ، فأوجدكم ، بعد أن لم تكونوا شيئا ، وخلق لكم ما تصلح به حياتكم ، وخلق ما تنحتونه ، فهو الخالق لكل شيء ، فالواجب عليكم أن تعبدوه ، وحده لا شريك له ، فهو المتفرد بالخلق ، والمالك لكل شيء ، فمن

---

(١) الآية ٣٧ من سورة هود عليه السلام .
(٢) الآية ٣٨ من سورة هود عليه السلام .
(٣) الآية ٤١ من سورة يس .
(٤) الآية ٦٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ١٢ من سورة الزخرف .
(٦) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٦ — ١٧ .

السفاهة ، أن تعبدوا تلك الصور ، التى تنحتوها بأيديكم ، ثم سميتموها كذبا وبهتانا آلهة ، وقد علمتم ، أنها ما صارت صورا ، إلا بنحتكم إياها وعملكم ، والله هو الذى أقدركم على عملها ، ومكنكم من ذلك ، فهو الخالق لكم ولما تعملونه بأيديكم .

قال ابن القيم : ما المصدرية وما الموصولة ، يتعاقبان غالبا ، ويصلح أحدهما فى الموضع الذى يصلح فيه الآخر ، وربما احتملهما كلام واحد ، ولا يميز بينهما إلا بنظر وتأمل ، فإذا قلت : يعجبنى ما صنعت ، فهى صالحة لأن تكون مصدرية ، أو موصولة ، وكذلك : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فتأمله تجده كذلك .

ولدخول إحداهما على الأخرى ؛ ظن كثير من الناس ؛ أن قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنها مصدرية ، واحتجوا بها على خلق الأعمال ، وليست مصدرية ، وإنما هى موصولة .

والمعنى : والله خلقكم ، وخلق الذى تعملونه ، وتنحتونه من الأصنام ، فكيف تعبدونها ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ؟

ولو كانت مصدرية ، لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم[1] أقرب من أن يكون حجة عليهم ؛ إذ يكون المعنى : أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وخلق عبادتكم لها ، فأى معنى فى هذا ؟ وأى حجة عليهم ؟[2] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

يخبر تعالى عباده ، أن كل شىء خلقه ، وحده لا شريك له ، فلا خالق

---

(١) أى : القدرية الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد .

(٢) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٢ .

غيره ، وأنه خلقه ، بقدر قدره وقضاه ، فلا يتعداه ولا يقصر دونه ، فيدخل في هذا العموم أفعال العباد ، فهي داخلة في خلقه وتقديره .

قال ابن جرير : « يقول ــ تعالى ذكره ــ إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه ، وفي هذا بيان ، أن الله ــ جل ثناؤه ــ توعد هؤلاء المجرمين ، على تكذيبهم بالقدر ، مع كفرهم به . ثم روى عن ابن عباس أنه كان يقول : إني أجد في كتاب الله قوما يسحبون في النار على وجوههم ، يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر ، وإني لا أراهم ، فلا أدري ، أشيء كان قبلنا ، أم شيء فيما بقي ؟[1] .

وذكر آثارا بهذا المعنى .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وكقوله : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أى قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة ، أئمة السنة على إثبات قدر الله ، السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية ، وبما شاكلها من الآيات ، وماورد في معناها ، من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة »[2] ثم ذكر جملة من الأحاديث المثبتة للقدر ، والتي فيها وعيد من أنكره .

قوله : « ويقال للمصوِّرين : أحيوا ما خلقتم » .

يقال لهم ذلك يوم القيامة ، تبكيتا وتعذيبا لهم ، بتكليفهم ما لا يقدرون عليه ، حيث كانوا في الدنيا ، يضاهئون الله فيما يختص به ، وهو الخلق

---

(١) تفسير الطبري جـ ٢٧ ص ١١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٢ .

والتصوير — وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

المقصود من الآية هنا ، التفرقة بين الخلق والأمر ، فإن الخلق هو أثر الأمر ، الكائن به الخلق ، فإن الله — تعالى — إذا أراد شيئا ، قال له كن ، فيكون ، فالقول وصفه — تعالى — والخلق الذى هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فعطف الأمر على الخلق ؛ لأنه غيره ، وهو — تعالى — مختص بذلك وحده ، فلا أحد يشاركه فيهما ، وكلاهما عام شامل ، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق ، ومن ذلك أفعال العباد .

وأمره — تعالى — يتناول الأمر القدرى ، والأمر الدينى الشرعى .

قال ابن كثير — رحمه الله تعالى — « يخبر — تعالى — بأنه خلق هذا العالم : سماواته ، وأرضه ، وما بين ذلك ، فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن .

والستة الأيام هى : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم .

قوله : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أى : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أى : سريعا ، لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٢ .

فالليل بأثر النهار ، والنهار يطرد الليل دائما ، حتى يأذن الله بانقضاء هذا العالم ، وهناك يبدأ اختلال توازنه ، بطلوع الشمس من مغربها .

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : أنها مخلوقة لله ، مقهورة مسخرة ، لا تخالف أمر خالقها ، الذى سخرها لكم ، فاعبدوه ، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه ، وهو الذى له الخلق والأمر وحده .

﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « تبارك » فيه قولان : أحدهما : أن معناه : تقدس ، أى تطهر ، والقدس عند العرب : الطهر ، والماء المقدس : هو ماء المطر ، والقدوس : الذى طهر من الأولاد ، والشركاء ، والصاحبة .

والثانى : تفاعل من البركة ، أى : البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه تعالى[1] .

وقال الأزهرى : « أخبرنى المنذرى ، عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع .

وقال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة ، كذلك يقول أهل اللغة .

وقال : تبارك : تعالى وتعاظم . وقال ابن الأنبارى : تبارك الله ، أى : يتبرك باسمه فى كل أمر . ومعنى تبارك : تقدس ، أى : تطهر ، والمقدس : المطهر .

وقال الليث : تبارك : تمجيد وتعظيم »[2] .

وهذه الأقوال متقاربة ، وكلها حق ، يدل عليها هذا اللفظ ، فهو — تعالى — عالٍ على خلقه ، فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وهو القدوس المتنزه عن كل عيب ، أو نقص يلحق خلقه ، أو لا يليق بعظمته ، وكبريائه ،

---

(١) الزاهر جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٣٠ .

وهو الذى يبارك على ما يشاء من خلقه ، فيجعله مباركا ، وبذكر اسمه يكثر الخير ، وتحل البركة ، وهو أهل المجد والتعظيم .

قوله : « قال ابن عيينة : بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ .

قال الحافظ : « روى هذا الأثر ابن أبى حاتم ، موصولا ، فى الرد على الجهمية .

ولفظه : قال : كنا عند سفيان بن عيينة ، فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فالخلق : هو المخلوقات ، والأمر : هو الكلام .

وفى رواية من طريق حماد بن نعيم : « سمعت سفيان بن عيينة ، وسئل عن القرآن : أمخلوق هو ؟ فقال : يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ألا ترى كيف فرق بين الخلق ، والأمر ، فالأمر : كلامه ، فلو كان كلامه مخلوقا لم يفرق »(1) .

وقال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق لقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ فبين أن الخلائق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ . قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ، فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾(2) وكقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(3) .

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٥٣٢ ــ ٥٣٣ .

(2) الآية ٤ من سورة الروم .

(3) الآية ٨٢ من سورة يس .

وكقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1] ، ولم يقل بخلقه »[2] .

والأدلة كثيرة ، فى التفرقة بين الخلق والأمر ، والمخلوقات وجدت بالأمر ، كما أشار إلى ذلك الإمام البخارى ، بما استدل به من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ . فبين أن تكوين الأشياء وإيجادها ، بقوله ﴿ كُن ﴾ ، وأنه يوجد عقب قوله ﴿ كُن ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ . فالسماء والأرض ، مخلوقات بأمره ، الذى هو قوله لها « كونى » ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[3] ، وكل شيء غير الله ، مخلوق بقوله ــ تعالى ــ ومن ذلك أفعال العباد ، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله ، فقد ضل وأشرك فى ربوبية الله تعالى .

قال عبد العزيز الكنانى : « قال الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[5] فدل ــ عز وجل ــ بهذه الأخبار ، وأشباهٍ لها فى القرآن كثيرة ، على أن كلامه ، ليس كالأشياء ، وأنه غير الأشياء ، وأنه خارج عن الأشياء ، وأنه يكوِّن الأشياء ، ثم أنزل ــ عز وجل ــ خبرا مفردا ، ذكر فيه خلق الأشياء كلها ، فلم يدع منها شيئا ، إلا ذكره ، وأدخله فى خلقه ،

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الروم .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٣٧ ــ ٣٨ .
(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٥) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق ، وفصله منها ، ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة ، وخارج عنها ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الآية .

فجمع فى قوله ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ جميع ما خلق ، فلم يدع شيئا ، ثم قال : ﴿ وَٱلْأَمْرُ ﴾ . يعنى : والأمر ، الذى كان به الخلق خلقا ، فرقا بين خلقه ، وأمره ، فجعل الخلق خلقا ، والأمر أمرا ، وجعل هذا غير هذا »[1] .

قوله : « وسمى النبى ﷺ الإيمان عملا » .

يعنى ، فى جوابه ﷺ السائل : « أى الأعمال أفضل ؟ » فقال : « إيمان بالله » كما سيأتى ، فالإيمان ، هو عمل القلب وتصديقه ، وقول اللسان ، والعمل بالبدن التابع لذلك من الصلاة ، والحج ، والصوم ، والجهاد فى سبيل الله ، وامتثال أوامر الله ــ تعالى ــ والانتهاء عما نهى عنه ، فهذا كله هو الإيمان بالله ، وهو عمل الجوارح الباطنة والظاهرة .

قال فى خلق أفعال العباد : « وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان قال : « تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله » . قال : « فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ » قال : « نعم » . ثم قال : « ما الإسلام ؟ » قال : « تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » .... فذكره قال : « إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ » قال : « نعم » .

فسمى الإيمان والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها ، من حركات الركوع والسجود ، فعلا للعبد »[2] .

---

(١) الحيدة ص ٢٦ ــ ٢٧ .

(٢) ص ٦٠ .

إن ما ذكره الله فى القرآن من الجن ، والأنس ، والملائكة والمدائن ، ومكة ، والمدينة ، وغيرها ، وإبليس ، وفرعون ، وجنودهما ، والجنة والنار ، عاينتهم بأعيانهم فى المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من ذلك ، حين تقول : الله فى المصحف ، وهذا أمر بين لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هو قرآن ، فالقرآن قول الله ــ عز وجل ــ والقراءة ، والكتابة ، والحفظ للقرآن هو فعل المخلوق ، لقوله ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ .

والقراءة فعل الخلق ، وهى طاعة الله ، والقرآن ليس هو بطاعة ، إنما هو الأمر بالطاعة ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾(1) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾(2) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(3) ، وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والصلاة بجملتها طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهومكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور مقروء على اللسان .

والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس

---

(1) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .
(2) الآية ٢٩ من سورة فاطر .
(3) الآية ١٧ من سور القمر .

بمخلوق ، ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه ، والخالق الله بصفته(١) .

١٧٥ ــ قال : « حدثني محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، والأعمش ، سمعا سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن ، عن علي ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ « أنه كان في جنازة ، فأخذ عودا فجعل ينكت في الأرض ، فقال : ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة ، أو من النار ، قالوا : ألا نتكل ؟ قال : اعملوا ، فكل ميسر ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ الآية .

« أنه كان في جنازة » قال الأزهري : « قال أبو العباس : الجنازة بالكسر السرير ، وبالفتح الميت ، وقال الليث : الإنسان الميت ، والشيء الذي قد ثقل على قوم ، واغتموا به ، هو جنازة ، وعن الأصمعي : الجنازة بالكسر هو الميت نفسه »(٢) .

وفي المصباح : « جنزت الشيء أجنزه ، من باب ضرب ، سترته ، ومنه اشتقاق الجنازة ، وهي بالفتح والكسر ، والكسر أفصح ، وقال الأصمعي وابن الأعرابي : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السرير ، وروى أبو عمر الزاهد ،

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٨ ــ ١٩٠ .

(٢) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٦٢٢ .

الأعرابى : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السرير ، وروى أبو عمر الزاهد ، عن ثعلب عكس هذا فقال : بالكسر السرير ، وبالفتح الميت نفسه »[1] .

« فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض » أى يضرب فيها بذلك العود ، ويكون ذلك عادة من فعل المفكر المهموم .

« فقال : ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار » الخطاب وإن كان موجها إلى الحاضرين ، فالمقصود به عموم الخلق من الإنس والجن .

ومعنى كتابة مقعده : أن الله علم مصيره ، ومستقره فى الجنة أو فى النار وكتبه ، وذلك قبل وجوده ، كما سبقت الإشارة إليه .

« قالوا : ألا نتكل ؟ » أى ندع العمل اعتمادا على ما كتب لنا ، وقدر ، فإننا لابد صائرين إليه ، فلا يكون فى العمل تغيير لما كتب ، وهذا الإشكال يعرض لكثير من الناس ، وقد أزاله رسول الله ﷺ بقوله : « اعملوا فكل ميسر » أى ميسر لما خلق له من الجنة أو النار ، فإن كان العبد خلق للجنة والسعادة ، فسوف يهيء الله له من أسباب السعادة ، وييسرها له ويسهلها عليه حتى يتمكن من العمل الذى يكون سببا لذلك ، وإن كان من أهل الشقاء ، فلا بد أن يقبض له من الأسباب ما يتمكن به من العمل للشقاء .

فالله ــ تعالى ــ لا يظلم أحدا ، وقد حرم الظلم على نفسه ــ تعالى ــ وجعله بين عباده محرما ، ولكن لكمال قدرته خلق العبد فاعلا مختارا ، فإما

---

(١) المصباح المنير جـ ١ ص ١٥٣ .

أن يختار طريق الهدى ، أو طريق الردى ، وكل واحد من الفريقين يجد نفسه غير مدفوع إلى ذلك ، بل يفعله عن رغبة منه ، واختيار ، ولو حيل بينه وبين ما يريده لربما قاتل من يحاول أن يصده عن مراده ، والله ـــ تعالى ـــ ييسر للعبد من العمل ما يستحق به ما كتب عليه وقدر ، قبل أن يخلق ، ولهذا قرأ النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

وتقدم وجه الدلالة من الحديث لمراد البخارى فى الحديث الذى قبله ، وهو أن التيسير يدل على أن العبد الذى يسر له العمل عامل حقيقة ، ويدخل فى ذلك قراءة القرآن ، فهى عمل القارئ ، وأما المقروء فهو كتاب الله تعالى كما سبق .

قال ابن المنير : « ما ذكره البخارى فى هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة بالتيسير ، وهذا يدل على أنها فعل [العبد] ، ويشهد [له] قوله : كل ميسر لما خلق له ، ومما خلق له التلاوة ، والله أعلم »[1] .

قوله : « ومما خلق له التلاوة » يعنى أنها عمل الإنسان الذى يترتب عليه مصيره الذى كتب له ، كما مر فى الحديث .

ذكر شيخ الإسلام أن الجهمية افترقت على ثلاث فرق ، فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرق تقول : كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : الفاظنا

---

(١) المتوارى ص ٤٣٢ .

وتلاوتنا للقرآن مخلوقة .

وحقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد مخلوق لم يتكلم الله به ، وشبهتهم أن أفعالنا ، وأصواتنا مخلوقة ، ونحن إنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا .

ثم قابل هؤلاء قوم أرادوا ، رد باطلهم ، فوقعوا فى باطل آخر ، حيث قالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة[1] لأن هذا هو القرآن ، وهو غير مخلوق .

ولم يفرقوا بين الاسم المطلق ، والاسم المقيد بالدلالة ، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء وبدعهم ، وأحمد ، وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شىء من كلام الله مخلوقا ، حروفه أو معانيه ، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، كما ينكرون على من يجعل شيئا من أفعال العباد ، أو أصواتهم غير مخلوق .

وكلام أحمد فى مسألة التلاوة ، والقراءة ، والإيمان من نمط واحد ، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ، لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضا إطلاق القول بأنه غير مخلوق ، لما فيه من البدعة والضلال .

وذلك أن التلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ ، قراءة ، ولفظ ، يلفظ ، لفظا ، ومسمى المصدر هو فعل العبد ، وحركاته ، وذلك مخلوق ، ليس هو القول المسموع المتلو .

وقد يراد بالتلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، المتلو ، المقروء ، المتلفظ به ، وهو المسموع ، وهذا هو كلام الله ــ تعالى ــ ليس بمخلوق .

---

(١) ممن يقول بذلك محمد بن داود المصيصى ، وأبو حاتم الرازى ، وأبو عبد الله بن حامد ، وأبو نصر السجزى ، وأبو عبد الله بن منده ، وأبو إسماعيل الهروى وأبو العلاء الهمدانى ، وأبو الفرج المقدسى انظر مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٦١ .

وقد يراد مجموع الأمرين ، فلا يجوز إطلاق القول بأنه مخلوق ، ولا نفى الخلق عن الجميع[1] .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

أى : ليس الأمر ، كما قال المكذبون لرسول الله ﷺ أن ما يقوله شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين اكتتبها ، ليس الأمر كذلك ، بل هو قرآن مجيد » قال البغوى : كريم ، شريف ، كثير الخير ، ليس كما زعم المشركون ، أنه شعر ، أو كهانة .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ نافع بالرفع ، على أنه نعت للقرآن ، فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير ، والتحريف ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وقرأ الباقون بالجر ، على أنه نعت للوح ، وهو الذى يعرف باللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب ، محفوظ من الشياطين ، ومن الزيادة فيه ، والنقصان »[2] .

و « المجيد » الكريم ، واسع الخير ، كثير الصفات الحميدة .

قال ابن القيم : « المجد مستلزم للعظمة ، والسعة والجلال ، كما يدل عليه موضوعه فى اللغة ، فهو دال على صفات العظمة والجلال »[3] .

والقرآن عظيم ، واسع المعانى ، وكثير الخير ، وفيه الهدى والنور ، وهو جليل القدر ؛ إذ هو كلام رب العالمين .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٥٩ ــ ٣٧٤ ملخصا .

(٢) تفسير البغوى على هامش الخازن جـ ٧ ص ٢٣٢ .

(٣) جلال الأفهام ص ٢١٦ .

قوله : « ﴿ وَٱلطُّورِ ۞ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ ، قال قتادة : مكتوب » .

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : « يقسم تعالى بمخلوقاته ، الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له عنهم ، فالطور : هو الجبل ، الذى يكون فيه أشجار ، مثل الذى كلم الله عليه موسى ، وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر ، لا يسمى طورا ، وإنما يقال له جبل .

﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال قتادة : مكتوب ، قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة ، التى تقرأ على الناس ، جهارًا ، ولهذا قال : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[1] .

قال البخارى ــ رحمه الله ــ : « وقال إسحاق بن إبراهيم : فأما الأوعية ، فمن يشك فى خلقها ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ذكر أنه يحفظ ، ويسطر . قال : ﴿ وما يسطرون ﴾ .

ثم روى عن قتادة قال : ﴿ وَٱلطُّورِ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال : المسطور : المكتوب ، ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وهو الكتاب ، وروى عن مجاهد : ﴿ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وصحف مكتوبة ، ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فى صحف »[2] .

« قال أبو عبد الله : فأما المداد ، والرق ، ونحوه ، فإنه خلق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله فى ذاته هو الخالق ، وخطك واكتسابك من فعلك خلق ؛ لأن كل شىء ، دون الله ، صفة ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٣ .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[1] .

قوله : « ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ يخطون » .

تفسير لقوله تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم ، الذى يكتب به ، كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ، فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه ، على ما أنعم به عليهم ، من تعليم الكتابة ، التى بها تنال العلوم .

ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون ، وقال أبو الضحى : عن ابن عباس ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : وما يعملون ، وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة ، وما تكتب من عمل العباد »[2] .

قوله : « فى أم الكتاب ، جملة الكتاب وأصله » .

قال ابن كثير : « قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ يبين شرفه ، فى الملأ الأعلى ، ليشرفه ويعظمه ، ويتبعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن ﴿ فِى أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أى : اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى : عندنا ، قاله قتادة وغيره ، ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ أى : ذو مكانة عظيمة ، وشرف ، وفضل ، قاله قتادة .

﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى : محكم ، برىء من اللبس والزيغ ، وهذا كله ، تنبيه على شرفه وفضله »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .
(٣) المصدر المذكور جـ ٧ ص ٢٠٥ .

« ما يلفظ من قول ، ما يتكلمُ من شيء إلا كُتِبَ عليه ، وقال ابن عباس : يُكتَبُ الخير والشر » .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(1) . قال ابن كثير : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعنى : الملائكة ، أقرب إلى الإنسان ، من حبل وريده ، ومن تأوله على العلم ؛ فإنما فر لئلا يلزم حلول ، أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، كما قال فى المحتضر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ . يعنى : ملائكته ، وكما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر ، وهو القرآن ، بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة ، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله لهم على ذلك .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعنى : الملكين ، اللذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى : واحد عن يمينه ، والآخر عن شماله ، مترصد لما يقوله أو يفعله .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أى : ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ، « إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا ولها من يراقبها ، معتد لذلك فيكتبها ، ولا يترك له كلمة ، ولا حركة إلا كتبها »(2) .

وقول ابن عباس ، يفيد أنهما لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات ، وظاهر

---

(1) الآيات من ١٦ — ١٨ من سورة ق .
(2) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧٦ .

الآية أنهما يكتبان ، كل ما نطق به الإنسان أو عمله ، لأنه قال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ .

قال مجاهد : الذى يكتب الحسنات عن يمينه ، والذى يكتب السيئات عن شماله .

وقال أيضا : مع كل إنسان ملكان ، ملك عن يمينه ، وملك عن يساره .

قال : « فأما الذى عن يمينه ، فيكتب الخير ، وأما الذى عن يساره ، فيكتب الشر » .

وقال قتادة : تلا الحسن : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ فقال : يابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك ، فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك ، فيحفظ سيئاتك ، فاعمل بما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت ، طويت صحيفتك ، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فيقال لك : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، عدل والله فيك من جعلك ، حسيب نفسك »[1] .

« يحرِّفُونَ » يُزيلون ، وليس أحدٌ يزيلُ لفظَ كتابٍ من كتب الله ــ عز وجلَّ ــ ولكنَّهم يُحرِّفونه : يتأولونه عن غير تأويله » .

قال الحافظ : « لم أر هذا موصولا من كلام ابن عباس ، من وجه ثابت ، مع أن الذى قبله ، من كلامه ، وكذا الذى بعده ، وهو قوله : « دراستُهم : تلاوتهم » ، وما بعده ، وأخرج ذلك ابن أبى حاتم ، وتقدم فى باب قوله

---

(١) روى هذه الآثار ابن جرير فى تفسيره جـ ٢٦ ص ١٥٩ .

لأنها فى نفسها أقل قدرا من أن تتطلع إلى هذا الأمر العظيم .

فأنزل الله — عز وجل — فى براءتها بضعة عشر آية .

والمقصود قولها : « والله ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى » ، فبينت أن التلاوة غير المتلو المنزل ، فالتلاوة فعل العباد ، والإنزال والإيحاء والتكلم فعل الله وصفته ، كما قال المؤلف فى خلق أفعال العباد : « فبينت بقولها « ما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى » إن الإنزال من الله ، وإن الناس يتلونه »[1] .

قال العينى : « مطابقته للترجمة فى قوله : « بأمر يتلى » أى بالأصوات فى المحاريب والمحافل »[2] وتقدم شرح الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ .

١٦٩ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا مسعر ، عن عدى بن ثابت ، أراه عن البراء ، سمعت النبى ﷺ يقرأ فى العشاء : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فما سمعت أحدا أحسن صوتا — أو قراءة منه » .

ذكر هذا الحديث فى كتاب الصلاة ، وفيه أنه كان فى سفر ، وذكر الحافظ فى شرحه أن فى رواية النسائى ، أنها فى الركعة الأولى ، وذكر فى تفسير سورة ﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ أن فى كتاب الصحابة لأبى على ابن السكن فى ترجمة زرعة بن خليفة ، رجل من أهل اليمامة ، أنه قال : سمعنا بالنبى ﷺ فأتيناه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وأسهم لنا ، وقرأ فى الصلاة بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ و ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٦ .

(٢) عمدة القارى جـ ٢٥ ص ١٩٣ وأخذه من الكرمانى انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٣٤ .

ثم قال : « فيمكن أن تكون هى الصلاة التى عين البراء بن عازب أنها العشاء ، ويقوى ذلك أنا لا نعرف فى خبر أنه قرأ بالتين ، إلا فى حديث البراء ابن عازب ، ثم حديث زرعة المذكور »[1] .

وفيه أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الصلاة أحيانا بقصار المفصل .

وفيه استحباب تحسين الصوت بالقرآن فى الصلاة وغيرها .

والمقصود قوله : « فما سمعت أحدا أحسن صوتا ــ أو قراءة منه » فجعل الصوت والقراءة له ، فدل على أن الصوت ، والقراءة ليست هى المصوت به ، المقروء ، وهو واضح ، والإمام البخارى رحمه الله يكرر ذلك ، وينوع عليه الأدلة ، لأنه قد خفى على بعض العلماء ، ولأنه قد ابتلى بمن يقول : إن القراءة هى المقروء ، والتلاوة هى المتلو ، ونسب إليه زورًا أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق ، وهو برىء من ذلك .

١٧٠ ــ قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا هشيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان النبى ﷺ متوار بمكة ، وكان يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به ، فقال الله ــ عز جل ــ لنبيه : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

تقدم شرح هذا الحديث ، والشاهد منه هنا قوله : « يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن » وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ ويعنى بالصلاة القراءة ، فالصوت له ــ أى للقارىء ــ ورفعه وخفضه وصف للصوت ، وهو الذى إن شاء رفعه ، وإن

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٢٥٠ وجـ ٨ ص ٧١٣ ــ ٧١٤ .

شاء خفضه ، فذلك فعله ، وهو وفعله مخلوق ، أما القرآن الذى يسر به صوته ، أو يخافت به ، أو يبتغى به بين ذلك سبيلا ، فهو كلام ربه غير مخلوق ، بل هو وصف له .

١٧١ ـــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، عن أبيه ، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ قال له : إنى أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك ، أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ » .

« تحب الغنم والبادية » محبته للبادية تابعة لمحبة الغنم ، لطلب المراعى لها وذلك لا يكون إلا فى البادية غالبا ، والبادية خلاف الحاضرة التى فيها البناء والمدن .

وهى مأخوذة من البدو والظهور ، لأنها ليس فيها ما يسترها من المبانى والحيطان فهى صحراء ، لا عمارة فيها .

« فأذنت للصلاة » الأذان : هو الإعلام بدخول وقت الصلاة ، وطلب حضور المصلين لأدائها جماعة ، ولا يسمى أذانا إلا إذا كان برفع الصوت .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾[2] ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ

(١) الآية ٧٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الحج .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[1] أمر رسول الله ﷺ برفع الصوت بهذه البراءة فى ذلك اليوم ، قال أبو هريرة : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فكنا ننادى : أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله — أو أمده — إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك ، قال : فكنت أنادى حتى صحل صوتى «[2] . أى بحح صوته لشدة رفعه .

« فارفع صوتك بالنداء » أى اجتهد فى رفع صوتك ، ولا تألوا ، وإلا فأصل الأذان لا يكون إلا برفع الصوت .

قال الحافظ : « فيه إشعار بأن أذان من أراد الصلاة كان متقررا عندهم ، لاقتصاره على الأمر بالرفع دون أصل التأذين .

واستدل به الرافعى على استحباب الأذان للمنفرد ، وهوالراجح عند الشافعية «[3] .

« فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ، ولا إنس ، ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » .

مدى الصوت نهايته ، وأقصى ما يبلغه ، والمعنى أن كل من سمع صوته من عاقل وغيره ، من البهائم والجمادات — فإن لها سماعا يعلمه الله تعالى — فإنها تشهد للمؤذن بالتوحيد عند الله يوم القيامة ، وهذه فضيلة عظيمة

---

(١) الآية ٣ من سورة براءة .

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) الفتح جـ ٢ ص ٨٨ .

للأذان ، فينبغى أن يحافظ على ذلك ويحرص عليه .

وفى سنن أبى داود ، والنسائى عن أبى هريرة : « المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس » ، قال الخطابى : « المعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه فى رفع الصوت ، فيبلغ الغاية من المغفرة ، إذا بلغ الغاية من الصوت ، وقيل المعنى : لو قدر أن المكان الذى يصل إليه صوته لو كان له ذنوب تملؤه لغفرت »[1] .

« وقال النوربشتى : المراد من هذه الشهادة ، اشتهار المشهود له يوم القيامة بالفضل وعلو الدرجة ، كما يفضح بالشهادة قوما ، فكذلك يكرم بالشهادة آخرين »[2] .

وقال الكرمانى : « رفع الصوت بالقرآن ، أحق بالشهادة ، وأولى »[3] .

يعنى أن ذلك مراد البخارى من الحديث .

والظاهر أن مراده : أن أصوات العباد من أفعالهم التى يثابون عليها . أو يعاقبون ، ومن ذلك القراءة ، والتلاوة ، فهى فعل التالى الذى يثاب عليها .

١٧٢ ــ قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن أمه ، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كان النبى ﷺ يقرأ القرآن ، ورأسه فى حجرى ، وأنا حائض » . ترجم لهذا الحديث فى الحيض : باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض . وكان أبو وائل يرسل خادمه ، وهى حائض إلى أبى رزين فتأتيه بالمصحف ، فتمسكه بعلاقته ، ثم ذكر الحديث بلفظ : « كان يتكىء فى حجرى ، وأنا

---

(١) معالم السنن جـ ١ ص ٣٥٤ والنسائى جـ ٢ ص ١٣ .
(٢) الفتح جـ ٢ ص ٨٩ .
(٣) انظر شرحه للبخارى جـ ٢٥ ص ٢٣٥ .

والثانى : « فاقرأوا ما تيسر منه » أى فصلوا ما تيسر عليكم ، والصلاة تسمى قرآنا ، كقوله : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أى صلاة الفجر(١) .

١٧٣ ـــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثنى عروة أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه ، أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ . قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت ، أقرأنيها على غير ما قرأت .

فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرأ يا عمر » ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه » .

هشام بن حكيم بن حزام الأسدى ، هو وأبوه صحابيان ، ممن أسلم يوم الفتح له فضائل جمة ، وكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فلذلك كان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٩ ص ٥٣ ـــ ٥٤ .

عمر رضى الله عنهما إذا بلغه الشىء لمكروه يقول : أما ما عشت أنا وهشام فلا يكون ذلك .

قال الحافظ : « تأخر موته إلى خلافة على بن أبى طالب ، ووهم من زعم أنه استشهد فى خلافة أبى بكر ، وتوفى قبل والده رضى الله عنهما ، وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ[1] قال ابن سعد توفى أول خلافة معاوية »[2] .

قوله : « فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة » إلخ ، يعنى أن قراءة هشام تختلف عما قرأه عمر عن رسول الله ﷺ فى ألفاظ كثيرة ، فلذلك ظن عمر رضى الله عنه أن ذلك غلط من هشام .

« فكدت أساوره » بالسين المهملة ، أى أواثبه وأجرره قال النابغة :

« فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع »

أى واثبتنى ، وفى رواية مالك · « أن أعجل عليه » .

ومعنى كدت : قربت من أن أفعل فيه ذلك .

« فتصبرت » أى حملت نفسى على الصبر ، حتى ينتهى من صلاته ، وفى رواية مالك : « ثم أمهلت حتى انصرف » يعنى من صلاته كما قال هنا : « حتى سلم » .

« فلببته بردائه » أى أدرت رداءه على رقبته ، وجمعت طرفيه عند لبته وأمسكته خشية أن ينفلت ، ولهذا قال : « فانطلقت به أقوده » يعنى بردائه « فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ » ظن عمر — رضى الله

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٥٢ وانظر الاستيعاب ص ١٥٣٨ والإصابة الترجمة رقم ٨٩٦٥ وأسد الغابة جـ ٥ ص ٣٩٨ .

عنه ـــ أن هشاما أخذ هذه السورة عن غير رسول الله ﷺ فأخطأ الذى أقرأه ، أو أنه لم يتقنها فوقع فى مخالفة ما تلقاه عمر من رسول الله ﷺ ، ولهذا لما قال هشام أقرأنيها رسول الله ﷺ قال له عمر : كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت » وكان عمر رضى الله عنه شديدا فى أمر الله تعالى ، ولهذا ذهب به يقوده بردائه حتى دخل به على رسول الله ﷺ فقال له : « إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان » إلى آخره ، وقد علم أن من قرأ القرآن على غير ما أنزله الله تعالى فقد ارتكب جرما يستحق العقاب عليه ، وهذا هو الذى حمل عمر على ما فعله رضى الله عنه .

« فقال : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته » يؤخذ من هذا مشروعية التثبت فى الأمور ، ووقوف الحاكم بنفسه على الحقائق ، وإن كان المخبر موثوقا به .

« فقال رسول الله ﷺ : « كذلك أنزلت » يعنى أنزلت من عند الله على ما قرأه هشام ، ولم يكن مخطئا كما ظنه عمر رضى الله عنه .

« ثم قال رسول الله ﷺ اقرأ يا عمر ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت » يعنى أن الله أنزل هذه السورة على ما قرأه عمر ، فعمر وهشام كلاهما مصيب فى قراءته ، لأن القرآن نزل على أكثر من حرف ، بل على سبعة أحرف .

وأما قول الحافظ : « وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله ﷺ قديما ثم لم يسمع ما أنزل فيها . بخلاف ما حفظه وشاهده .

ولأن هشاما من مسلمة الفتح ، فكان النبى ﷺ أقرأه ما نزل أخيرًا فنشأ اختلافهما من ذلك »[1] . ففيه نظر إذ لو كان الأمر على ما ذكره لقال

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٢٦ .

الرسول ﷺ لعمر : إن هذه الأحرف التي سمعتها من هشام نزلت بعد ما قرأت هذه السورة ، ولكنه قال بعد ما سمع قراءة كل واحد منهما كذلك أنزلت ، فتبين أن كلا من الحروف التي قرأها هشام ، والحروف التي قرأها عمر نزلت من عند الله .

وليس فى قراءة هشام زيادة عما عند عمر فى الآيات ، وإنما هناك اختلاف فى الحروف فقط ، ومن أجل ذلك قال لكل واحد منهما بعد ما سمع قراءته « كذلك أنزلت » ويوضح ذلك قوله « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » أى لا تتكلفوا التزام حرف واحد ، فإن الله تعالى قد أوسع عليكم ، ويسر لكم قراءة القرآن على سبعة أحرف ، رحمة منه وفضلا فله الحمد والمنة .

قال الجزرى : « نزل القرآن على سبعة أحرف للتخفيف على هذه الأمة واليسر بها ، والتهوين عليها شرفا لها وتوسعة ورحمة ، لأن العرب الذين نزل القرآن بلغاتهم ، لغاتهم مختلفة ، ويعسر على أحدهم انتقاله من لغته إلى غيرها ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج ، لاسيما الشيخ والمرأة الكبيران ، ومن لا يقرأ كتابا ، كما أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفانى ، والعجوز الكبيرة »[1] .

ومعنى الحرف كما قال أهل اللغة : حرف كل شيء طرفه وحافته ، وأحد حروف التهجى كأنه قطعة من الكلمة[2] .

وقد اختلف العلماء فى تعيين الحروف السبعة اختلافا كثيرا ، وأشكل ذلك على كثير من العلماء .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧١ ـــ ٧٢ ملخصا .

(٢) سيأتى معنى الحرف أيضا فى كلام ابن قتيبة .

فقيل الحروف السبعة : سبع لغات من لغات العرب مفرقة فى القرآن ، ورد هذا القول ابن جرير ، وابن عبد البر ، وغيرهما ، ودل على عدم صحتة هذا الحديث ، لأن هشاما وعمر كلاهما قرشى ، فلغتهما واحدة ، ولا يعقل أن الرسول ﷺ يعلم الرجل القرآن بغير لغته .

وقيل المراد بها : تأدية المعنى الواحد باللفظ المرادف ، ولو كان من لغة واحدة ، لأن هشاما وعمر لغتهما واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما .

اختار هذا القول ابن جرير الطبرى ، وابن عبد البر ، وقال : إنه قول أكثر العلماء وهذا هو الصواب كما يأتى بيانه .

« وقال الدانى : معنى نزول القرآن على سبعة أحرف يحتمل وجهين ، أحدهما أنه نزل على سبعة أوجه من اللغات متغايرة فى القرآن » .

الثانى أنها قراءات سميت أحرفا لعادة العرب فى تسمية الشىء باسم ما هو منه .

وقد أجمع العلماء على أنه لم يقصد أن كل حرف يقرأ على سبعة أوجه إذ لا يوجد ذلك إلا فى كلمات معدودة نحو « أف » و « جبريل » و « أرجه » و « هيهات » و « هيت » .

كما أجمعوا أنه ليس المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة الذين اشتهروا بذلك ، لأن أول من جمع قراءاتهم ابن مجاهد فى أثناء المائة الرابعة .

وأكثر العلماء على أنها لغات ، كما قال أبو عبيد إنها سبع لغات متفرقة فى القرآن[1] .

وهذا خلاف ما قاله ابن عبد البر إن أكثر أهل العلم على أن المراد تأدية

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧٤ ــ ٧٥ ملخصا .

المعنى الواحد بألفاظ مترادفة ، وإن كان ذلك فى لغة واحدة كما سبق قريبا ، وتقدم أن هذا الحديث يؤيد صحة هذا القول ، ويرد ما قاله الدانى إنه قول أكثر العلماء .

قال الجزرى ـــ رحمه الله ـــ « مازلت أستشكل هذا الحديث ، وأفكر فيه ، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله تعالى .

وذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها وشاذها ، وضعيفها ، ومنكرها فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف ، لا يخرج عنها .

(١) إما فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو « البخل » بأربعة ، و « يحسب » بوجهين .

(٢) أو بتغير فى المعنى فقط ، نحو ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ ﴾[١] ، ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ و « أمه »[٢] .

(٣) وإما فى الحروف بتغير المعنى ، لا الصورة نحو « تبلوا » و « تتلوا » ﴿ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[٣] .

(٤) أو عكس ذلك [أى بتغير الحروف مع اتفاق المعنى] نحو « بصطة » و « بسطة » و « الصراط » و « السراط » .

(٥) أو بتغيرهما نحو « أشد منكم » و « أشد منهم » ، و « يأتل » و « يتأل » و ﴿ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) يعنى بنصب آدم ورفع كلمات عكس القراءة المشهورة .

(٢) بالتاء المربوطة ، وبالهاء .

(٣) الأولى بالحاء المهملة ، والثانية بالجيم المشددة .

(٦) أو بالتقديم والتأخير نحو ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و ﴿ ويُقْتَلُونَ فَيَقْتُلُونَ ﴾ و ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ و ﴿ جَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِالْمَوْتِ ﴾ .

(٧) أو فى الزيادة والنقصان نحو « وأوصى » و « وصى » و ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ و « والذكر والأنثى » .

وأما اختلاف الإظهار ، والإدغام ، والروم والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق والمد والقصر ، والإمالة والفتح ، والتخفيف والتسهيل ، والإبدال والنقل ، ونحو ذلك مما يعبر عنه بالأصول ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى[١] .

وقال ابن قتيبة — رحمه الله — « وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم ، فقالوا : السبعة الأحرف : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

وقال آخرون : هى سبع لغات فى الكلمة ، وليس شيء من ذلك لهذا الحديث بتأويل .

ومن قال : فلان يقرأ بحرف « أبى عمرو »[٢] أو بحرف « عاصم »[٣] ، فإنه لا يريد شيئا مما ذكر ، وليس يوجد فى كتاب الله تعالى حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم .

وإنما تأويل قوله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . على سبعة أوجه من اللغات ، متفرقة فى القرآن ، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ :

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازنى المقرى أحد الأئمة السّبعة توفى سنة ١٥٤ هـ .

(٣) هو عاصم بن أبى النجود المقرى المشهور توفى سنة ١٢٧ هـ .

« فاقرءوا كيف شئتم » ، وقصة عمر مع هشام ، وقوله ﷺ : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » .

فمن قرأه ، قراءة عبد الله بن مسعود ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى بن كعب ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد بن ثابت ، فقد قرأ بحرفه .

والحرف يطلق على أحد حروف المعجم . وعلى الكلمة الواحدة ، وعلى الكلام المؤلف فى معنى ، أو معان كثيرة ، كما يقال : قال الشاعر فى كلمته — يعنى قصيدته .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾[3] ، أراد سبحانه وتعالى من يعبد الله على الخير يصبه ، من تثمير المال ، وعافية البدن ، وإعطائه السؤال ، فهو مطمئن مادام ذلك له .

وإن امتحنه الله تعالى باللأواء فى عيشه ، والضراء فى بدنه وماله ، كفر به .

فهذا عبد الله على وجه واحد ، وهو معنى الحرف ، ولو عبد الله على الشكر للنعمة ، والصبر للمصيبة ، والرضا بالقضاء ، لم يكن عبد الله على حرف .

وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات ، فوجدتها سبعة أوجه .

أولها : الاختلاف فى إعراب الكلمة ، أو فى حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ

---

(1) الآية ٧٤ من سورة التوبة .
(2) الآية ٢٦ من سورة الفتح .
(3) الآية ١١ من سورة الحج .

أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ و ﴿ أَطْهَرَ لَكُمْ ﴾[1] ﴿ وهَلْ نُجَٰزِى ٱلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ﴿ وهَلْ يُجَازَى إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ، و ﴿ يَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ و البَخَلِ[2] ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ « وميسُرة »[3] .

الوجوه الثانى : أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة ، وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها فى الكتابة ، نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ و « ربُّنا باعَدَ بين أسفارنا »[4] وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ وتَلِقُونَه[5] و ﴿ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وبعد أمه[6] .

الوجه الثالث : أن يكون الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ وننشرها ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ وفرغ .

الوجه الرابع : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وقوله : « الازقية واحدة » وقوله : ﴿ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ و « كالصوف المنقوش » .

الوجه الخامس : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يزيل صورتها ، ومعناها ، نحو قوله : « وطلع منضود » فى موضع و ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فى موضع آخر .

---

(١) الثانية بنصب الراء .
(٢) بفتح الخاء .
(٣) بضم السين .
(٤) الأولى بفتح الباء على صورة الدعاء ، والثانية بضم الباء وفتح العين والدال خبر .
(٥) بفتح التاء ، وكسر اللام ، وضم القاف من الولق ، وهو الكذب .
(٦) أى بعد نسيان له .

الوجه السادس : أن يكون الاختلاف فى التقديم ، والتأخير ، نحو ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ وفى موضع آخر « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

الوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزيادة ، والنقصان ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ و « إن [الله] الغنى الحميد » .

وكل هذه الحروف كلام الله تعالى أنزل به الروح الأمين ، على رسوله ﷺ وكان يعارضه فى كل سنة ، فى شهر رمضان ، وفى السنة التى توف فيها رسول الله ﷺ عارضه مرتين ، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، وييسر على عباده ما يشاء ، فكان من تيسيره أن أمره أن يقرئ كل قوم من العرب بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم .

فالهذلى يقرأ « عتى حين » يريد ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، لأنه هكذا ينطق بها .

والأسدى يقرأ « تِعْلمون » و « تِعلم » و « يَسْوَدُّ وجوه » و « الم إِعْهَدْ إليكم » .

والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز ، فلو أمر كل واحد أن يلتزم لغة غيره لصعب عليه مفارقة ما جرت عليه عادته ، وما نشأ عليه ، ولم يمكنه ذلك إلا بمشقة ، وبعد رياضة طويلة .

فأراد الله رحمة منه ، ولطفا بعباده أن يجعل لهم متسعا فى لغاتهم يناسب تيسيره عليهم فى الدين .

فإن قيل : أليس هذا اختلافا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

قيل : الاختلاف نوعان : اختلاف تضاد ، وهو الذى نفاه الله تعالى عن

كتابه ، مثل أن ينهى عن شى ، ويأمر به فى مكان آخر ، أو ينفى الشىء ، ويثبته فى مكان آخر ، ونحو ذلك ، وهذا لا وجود له فى كتاب الله تعالى .

الثانى : اختلاف تنوع وتغاير ، وهو جائز فى الكلام ، وكثير ، لأن كل واحد لا ينافى الآخر ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بفتح التاء من « علمت » وضمها ، لأن موسى عليه السلام خاطب فرعون بهذا ، وهذا ، فأنزل الله المعنيين جميعا .

ومثلها قوله تعالى : « ننشرها » و « ننشزها » فالانتشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فزع عن قلوبهم » و « فرغ » ، لأن فزع : خفف عنها الفزع ، وفرغ أزيل ، وأخليت منه ، وكل ما فى القرآن من تقديم وتأخير ، أو زيادة ، أو نقصان فعلى مثل هذه السبيل .

فإن قيل : هل يجوز أن نقرأ بجميع هذه الأوجه ؟

قيل : كل ما كان منها موافقا لرسم المصحف [وقرأ به الأئمة ، ونقل نقلا متواترا] جاز لنا أن نقرأ به ، لأن الصحابة قد أجمعوا على ما فعله أمير المؤمنين ، وحرقوا ما خالف المصحف الإمام ، فلا يجوز لأحد أن يخالف المصحف الذى أجمع عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كما لا يجوز أن نكتب مصحفًا مخالفا له[1] .

وقال الحافظ : « اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة ، أبلغها أبو حاتم ابن حبان إلى خمسة وثلاثين قولا .

وقوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، يدل على التوسعة فى القراءة ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣٤ ـــ ٤٢ ببعض التصرف والتلخيص .

والتيسير ، وهذا يقوى قول من يقول : المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفص المرادف ، ولو كان من لغة واحدة لأن هشاما ، وعمر لغتهما واحدة ، ونقل ابن عبد البر عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة .

وذهب أبو عبيد ، وآخرون إلى أن المراد اختلاف اللغات ، واتفقوا على أنه ليس المقصود أن كل كلمة تقرأ بسبع لغات .

ولا يقصد أن التوسعة فى القراءة تقع بالتشهى حسب مراد المتكلم ، إذا أراد أن يغير الكلمة بمرادفها ، بل لابد فى ذلك من السماع من الرسول ﷺ . ولهذا جاء أن كل واحد من المختلفين الذين على عهد النبى ﷺ يقول : أقرأنى النبى ﷺ ، وإن كان وجد من كان يقرأ بذلك وإن لم يكن مسموعا من النبى ﷺ مثل قراءة ابن مسعود ﴿ عَتَّى حِينٍ ﴾ بلغة هديل ، وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ وكتب إليه : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وهذا قبل أن يجمع أمير المؤمنين عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ الناس على مصحف واحد ، بقراءة واحدة .

وحاصل ذلك أن معنى قوله : « انزل القرآن على سبعة أحرف » أنه أنزل موسعا على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه ، بأن يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من الآخر ، وذلك لتسهيل قراءته ، إذ لو أخذوا بأن يقرأوه على حرف واحد لشق عليهم »[1] .

وقال ابن عبد البر : « وفى حديث عمر مع هشام رد لقول من قال : إنها سبع لغات لأن عمر قرشى عدوى ، وهشام بن حكيم بن حزام قرشى أسدى ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، كما أنه محال أن يقرئ رسول الله ﷺ واحدا

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ .

منهما بغير ما يعرفه من لغته .

والأحاديث الصحاح المرفوعة كلها تدل على نحو ما يدل عليه حديث عمر هذا .

وقالوا : إنما معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من المعانى ، المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل ، وتعال ، وهلم ، وعلىَّ . وعلى هذا الكثير من أهل العلم »[1] .

وهذا هو الصحيح والأخبار الصحيحة ، والآثار عن علماء الأمصار تدل على صحة هذا القول ، وأنه الصواب ، مثل ما رواه الإمام أحمد ، وابن جرير ، وابن عبد البر ، عن أبى بكرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : قال جبريل : اقرأوا القرآن على حرف ، فقال مكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، أو أية رحمة بعذاب ، كقولك : هلم ، وتعال ، وفى رواية ابن عبد البر : « فقال مكائيل استزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ، فقال : اقرأه فكل شاف كاف ، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، وعلى نحو : هلم ، وتعال ، وأقبل ، واذهب ، وأسرع ، وعجل »[2] .

وروى الإمام أحمد ، والطبرى من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، غفورا رحيما ، عزيزا حكيما ، عليما حكيما ، وربما قال : « سميعا بصيرا »[3] . قال ابن عبد البر :

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٨١ .

(٢) المسند جـ ٥ ص ٥١ والطبرى جـ ١ ص ٢٣ والتمهيد جـ ٨ ص ٢٩٠ .

(٣) المسند جـ ٢ ص ٣٣٢ وتفسير الطبرى جـ ١ ص ٢٢ .

« وقوله : سميعا عليما ، وغفورا رحيما ، وعليما حكيما ، أراد به ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها لا يكون فى شىء منها معنى ، وضده ، وما أشبه ذلك ، وهذا كله يعضد قول من قال : إن معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من الكلام المتفق معناه ، المختلف لفظه ، نحو هلم ، وتعال ، وعجل ، وأسرع ، وانظر ، وأخر »[1] .

وذكر عن الزهرى أنه قال : « إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ، ليس تختلف فى حلال ، ولا حرام »[2] .

وذكر عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ « مروا فيه ، سعوا فيه » كل هذه الأحرف كان يقرؤها أبى بن كعب ، فهذا معنى الحروف المراد بهذا الحديث[3] .

وروى ابن جرير أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا ﴾ فقال بعض القوم : يا أبا حمزة إنما هى « وأَقْوَمُ » فقال : أقوم ، وأصوب وأهيأ واحد »[4] .

وروى عن سعيد بن المسيب : أن الذى ذكر الله ـــ تعالى ذكره ـــ أنه قال : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ إنما افتتن أنه كان يكتب الوحى ، فكان يملى عليه رسول الله ﷺ : سميع عليم ، أو عزيز حكيم ، أو غير ذلك من خواتم الآى ، ثم يشتغل عنه رسول الله ﷺ وهو على الوحى فيستفهم رسول الله ﷺ ؟

فيقول : أعزيز حكيم ؟أو سميع عليم ؟ أو عزيز عليم ؟ فيقول له رسول الله

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٨٤ .
(٢) التمهيد جـ ٨ ص ٢٩١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٢ .

ﷺ أى ذلك كتبت ، فهو كذلك ، ففتنه ذلك ، فقال : إن محمدا وكل ذلك إلىّ فاكتب ما شئت ، وهو الذى ذكر لى سعيد بن المسيب من الحروف السبعة[1] .

ومما يسئل عنه ، هل هذه الحروف السبعة موجودة فى المصحف الذى بين أيدى المسلمين ؟ أو إنها كانت زمن الرسول ﷺ ، والخليفتين بعده ، وصدرا من خلافة عثمان — رضى الله عنهم — ثم لما جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، تركت تلك الحروف الستة ، أو بعضها ؟

قال الحافظ : « قال أبو شامة : وقد اختلف السلف فى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، هل هى مجموعة فى المصحف الذى بأيدى الناس اليوم ، أو ليس فيه إلا حرف واحد منها ؟

مال ابن الباقلانى إلى الأول ، وصرح الطبرى ، وجماعة بالثانى ، وهو المعتمد .

وقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف ، عن أبى الطاهر بن أبى السرح ، قال : سألت ابن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل ، أى ذلك قلت أجزاك » قال : وقال لى ابن وهب مثله .

والحق أن الذى جمع فى المصحف هو المتفق على إنزاله ، المقطوع به ، المكتوب بأمر النبى ﷺ وفيه بعض الأحرف التى اختلف فيها من الأحرف السبعة ، لا جميعها ، كما وقع فى المصحف المكى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ ﴾ فى آخر براءة ، وفى غيره بحذف « من » .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٤ تحقيق محمود شاكر .

وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار فى عدة واوات ، ونحو ذلك وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معا ، وأمر النبى ﷺ بكتابته لواحد ، أو اثنين ، [وعلمه بعض الصحابة] ، وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جائزة به توسعة على الناس ، وتسهيلا ، فلما آل الأمر إلى ما وقع من الاختلاف فى زمن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ وكفر بعضهم بعضا ، اختار الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ الاقتصار على اللفظ المأذون فى كتابته ، وتركوا الباقى .

قال : الطبرى : وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار على حرف واحد ، كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة ، لم يكن على سبيل الإيجاب ، بل على سبيل الرخصة .

قلت : ويدل عليه قوله ﷺ فى حديث الباب ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقال أبو العباس ابن عمار : أصح ما عليه الحذاق أن الذى يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون فى قراءتها ، لا كلها ، [فما وافق رسم المصحف من تلك الحروف جازت القراءة به مع التواتر] ، وما خالفه مثل : « أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ، ومثل : « إذا جاء فتح الله والنصر » فهو من تلك القراءات التى تركت ، إن صح سندها ، ولا يكفى صحة سندها فى إثبات كونها قرآنا ، ولا سيما والكثير منها مما يحتمل أن يكون من التفسير الذى قرن إلى التنزيل ، فصار يظن أنه منه »[1] .

وقال البغوى فى شرح السنة : « المصحف الذى استقر عليه الأمر هو آخر العرض على رسول الله ﷺ فأمر عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ بنسخه فى المصاحف وجمع الناس عليه ، وأذهب ما سوى ذلك قطعا لمادة الخلاف ،

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ .

فصار ما يخالف خط المصحف فى حكم المنسوخ ، والمرفوع ، كسائر ما نسخ ، ورفع ، فليس لأحد أن يعدو فى اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم »[1] .

قال ابن عبد البر : المصحف الذى بأيدى الناس اليوم هو منها حرف واحد وعليه أهل العلم .

ثم ذكر عن مالك أنه سئل عمن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب ، « فامضوا إلى ذكر الله ؟ » فقال : ذلك جائز ، قال رسول الله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقرءوا منه ما تيسر » ، مثل « تعلمون ، ويعلمون لا أرى فى اختلافهم فى مثل هذا بأسا .

ثم قال : قال ابن وهب : أخبرنى مالك بن أنس ، قال : أقرأ عبد الله بن مسعود رجلا : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ فجعل الرجل يقول : طعام اليتيم ، فقال له ابن مسعود : طعام الفاجر ، فقلت لمالك : أترى أن يقرأ كذلك ؟

قال : نعم ، أرى ذلك واسعا .

قال : معناه عندى أن يقرأ به فى غير الصلاة[2] ، وإنما ذكرنا ذلك عن مالك تفسيرا لمعنى الحديث ، وإنما لم نجز القراءة به فى الصلاة ، لأن ما عدا مصحف عثمان فلا يقطع عليه ، وإنما يجرى مجرى السنن ، التى نقلها الآحاد ، لكن لا يقدم أحد على القطع فى رده .

وذكر عن ابن القاسم أنه قال : أرى أن على الإمام أن يمنع من يبيع مصحف ابن مسعود ، وأن يضرب من قرأ به ، ويمنعه .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠ وانظر شرح السنة جـ ٤ ص ٥١١ وقد تصرف الحافظ فيه .
(٢) الظاهر أن ابن مسعود أراد أن يفسر الأثيم ويبين معناه له .

وقد قال مالك : من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود ، أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف ، لم يصل وراءه .

وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك ، إلا قومًا شذوا ، لا يعرج عليهم .

وهذا كله يدلك على أن السبعة الأحرف التى أشير إليها فى الحديث ليس بأيدى الناس منها إلا حرف زيد بن ثابت الذى جمع عليه عثمان ــ رضى الله عنه ــ المصحف .

وذكر بسنده إلى أبى الطاهر ، قال سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين هل تدخل فى السبعة الأحرف ؟ فقال : لا . وإنما السبعة الأحرف كقولهم : هلم ، أقبل ، تعال ، أى ذلك قلت أجزاك .

قال أبو طاهر : وقاله ابن وهب .

قال أبو بكر محمد بن عبد الله الأصبهانى المقرئ : ومعنى قول سفيان هذا أن اختلاف العراقيين ، والمدنيين ، حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، وبه قال محمد بن جرير الطبرى .

وقال أبو جعفر الطحاوى : كانت هذه السبعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها ، لأنهم كانوا أميين ، لا يكتبون إلا القليل منهم ، فكان يشق على كل ذى لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له ، إلا بمشقة عظيمة ، فوسع لهم فى اختلاف الألفاظ ، إذا كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر من يكتب منهم ، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ فقرأوا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها .

وبان بما ذكرناه أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة

الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد »[1] .

فإن قيل : هذه الأحرف أنزلها الله ، وعلمها الرسول ﷺ الصحابة فثبتت لديهم من كلام الله ، وتركها ، وعدم الاعتناء بها وحفظها ونقلها يكون تفريطا من الأمة بما كلفت بحفظه .

قيل : الأمر كذلك أن الله أنزلها قرآنا ، والرسول ﷺ علمها الصحابة ، وحفظهم إياها ، ولكن الأمة لم تفرط بحفظها ، ولم تضيع ما كلفت به ، وإنما جعل الأمر إليها ، فخيرت فى قراءة القرآن بأى حرف من الأحرف السبعة شاءت ، مثل تخييرها فى كفارة اليمين بين ثلاثة الأشياء ، المذكورة فى الآية ، إما عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، فلو أجمعوا على التكفير بواحدة من الثلاث دون حضر التكفير بأى واحدة من الثلاث شاء المكفر لكان ذلك صوابا ، مؤديا للواجب من حق الله تعالى فكذلك مسألة الأحرف السبعة ، فإن الله خيرهم فيها توسعة لهم وتسهيلا عليهم ، فإذا رأت الأمة الاقتصار على حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، لأمر أوجب ذلك ، من خوف الاختلاف ، والكفر الذى قد يكون من بعضهم لبعض بسبب القراءة بالأحرف السبعة . كان الصواب ، بل الواجب هو الاقتصار على حرف واحد منها ، مع أمن الاختلاف ، والتفرق . وهذا ما أدركه الخليفة الثالث ، ووافقه عليه أصحاب الرسول ﷺ فكان فيه الخير ، والرشد ، والهدى وقد أوضح ذلك الإمام ابن جرير فى مقدمة التفسير[2] .

ومقصد البخارى قوله : ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ فأسند القراءة إليهم مما يدل على أنها فعلهم ، ولما فيها من وصف التيسير ، فإنهم يختلفون فى ذلك ،

---

(١) التمهيد جـ ٨ ص ٢٩١ — ٢٩٤ .

(٢) انظر جـ ١ ص ٥٨ بتحقيق محمود شاكر .

فمنهم من يسر له أكثر مما يسر لغيره ، ولما فيه من اختلاف قراءتهم ، فكل واحد منهم قرأ بغير قراءة الأخر ، فالاختلاف وصف لقراءتهم ، لا للقرآن ، وهذا كله يدل على أن ذلك فعلهم ، وهو المقصود .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « كل ميسر لما خلق له » . يقال : ميسر : مهيأ .

وقال مجاهد : يَسَّرْنَا القرآن بلسانك ، هَوَّنَّا قراءته عليك .

وقال مطر الوراق : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال : « هل من طالب علم فيعان عليه » . قال العيني : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي سهلناه للادكار والاتعاظ .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ ، وأصل « مدكر » مفتعل من الذكر ، قلبت التاء دالا ثم أدغمت في الأخرى[1] .

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ولقد سهلنا القرآن ، بيناه ، وفصلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ، ويعتبر ، ويتعظ ، وهوناه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال : هوناه ، وعن ابن زيد ، قال : بيناه .

ثم قال : وقال بعضهم : هل من طالب علم ، أو خير فيعان ، وهو قريب المعنى مما قلناه »[2] .

وقال ابن كثير : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، لمن أراده ليتذكر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ

---

(١) عمدة القاري جـ ٢٥ ص ١٩٥ .

(٢) تفسير الطبري جـ ٢٧ ص ٩٦ .

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[2] ، وقال مجاهد : يعنى هونا قراءته .

وقال السدى : يسرنا تلاوته على الألسن .

وقال الضحاك : عن ابن عباس : « لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ـــ عز وجل »[3] .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ استفهام أريد به الحض على التذكر ، ولابد قبل التذكر من التعلم ، فالله تعالى قد سهل طريق حفظ القرآن ، وفهمه ، وثمرة ذلك العمل به ، والاتعاظ بمواعظه .

قال ابن كثير ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن الذى يسر الله حفظه ومعناه ، وقال محمد بن كعب القرظى : فهل من منزجر عن المعاصى ؟[4] .

وقال القسطلانى : « ولقد سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ، ويروى أن كتب أهل الأديان كالتوارة والإنجيل ، لا يتلوها أهلها إلا نظرا ، ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن »[5] .

وقول مجاهد ، تقدم أن ابن جرير رواه بسنده عنه ، وقال الحافظ : رواه الفريابى فى تفسيره بسنده .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة ص .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٤٦٩ .

وقوله : « هونا قراءته عليك » لا يريد اختصاص النبى ﷺ بذلك ، فإن ظاهر الآية يدل على العموم ، ولهذا قال : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، وإنما يريد تهوين قراءته على كل من أقبل عليه صادقا ، ويدخل فى ذلك فهم معانيه ، فإن الله تعالى قد يسرها لمن تدبره .

وقول مطر الوراق ، سبق أن ابن جرير رواه بسنده ، وقال : إنه قريب المعنى مما قلناه ، يعنى فصلناه ، وبيناه ، لمن أراد الفهم والتذكر ، والاتعاظ ، وذلك لما فى لفظ التيسير مما يدل على التسهيل ، والإعانة ، وما يدل عليه الاستفهام من إرادة ذلك ، والله أعلم .

ومقصود البخارى أن حفظ كتاب الله ، وفهمه ، والتذكر به والاتعاظ ، وكذلك تلاوته وقراءته كل ذلك عمل العبد الذى يطلب من ربه أن يعينه عليه ، ويسهله له ، وقد وعد بذلك جل وعلا .

أما المفهوم المحفوظ المتلو فهو غير فعل العبد المخلوق ، بل هو كلام الله وصفته .

١٧٤ ــ قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا يزيد ، حدثنى مطرف بن عبد الله ، عن عمران ، قال : قلت : يا رسول الله فيما يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » .

هذا السؤال تكرر لرسول الله ﷺ من عدد من أصحابه ، فبين لهم أن الله تعالى قد علم أهل الجنة وأهل النار قبل وجودهم ، وأنه تعالى قد كتب ذلك فى الأزل ، ونهاهم ﷺ أن يتكلوا على ذلك الكتاب ، ويدعوا العمل . وكأنه عرض لهم إنه إذا كان أهل الجنة قد علموا ، وكتبوا وكذلك أهل

---

(١) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٤٦٩ .

النار ، فلا فائدة فى العمل والاجتهاد ، فإنه لابد من حصول المكتوب فأجابهم عن ذلك بقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، يعنى أن الذى كتب من أهل الجنة سوف يهيىء الله له أسباب عمل أهل الجنة ، وييسرها له فيعملها ، فتكون سببا لدخوله الجنة .

وكذلك الذى كتب من أهل النار ، لابد أن يعمل عملا يستحق به دخول النار ، وقد أوضح ذلك النبى ﷺ إيضاحا تاما .

ففي سنن أبي داود ، والترمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إن الله ــ عز وجل ــ خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون .

فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ــ عز وجل ــ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار »(1) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين

---

(1) انظر السنن لأبى داود جـ ٥ ص ٧٩ ــ ٨٠ ، والترمذى جـ ٥ ص ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥ وقال : حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر . ورواه الإمام أحمد فى المسند جـ ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، وابن وهب فى كتاب القدر ص ٧٣ .

ألف سنة ، قال : وكان عرشه على الماء »[1] .

وفيه أيضا عن أبي الأسود الدِّئَلِيّ ، قال : قال لي عمران بن الحصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق ؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟

فقلت : بل شيء قضى عليهم ، ومضى عليهم .

قال : فقال : أفلا يكون ظلما .

قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا ، وقلت : كل شيء خلق الله ، وملك يده فلا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

فقال لي : يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك ، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟

فقال : لا بل شيء قضى عليهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك في كتاب الله — عز وجل — ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2] .

وروى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال : « هل تدرون ما هذان الكتابان ؟ » فقلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله ، فقال : للذي بيده اليمنى ، « هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبدا .

---

(١) انظر جـ ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤١ رقم ٢٦٥٠ .

ثم قال للذى فى شماله : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا .

فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان الأمر قد فرغ منه ؟

فقال رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أى عمل .

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه ، فنبذهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير »[1] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ففى ذلك أن الله تعالى علم أهل الجنة ، وكتبهم وأرادهم كونا من أهلها ، وكذلك أهل النار ، قبل وجودهم بزمن طويل جدا وقبل أن يعملوا ما يستحقون عليه دخول الجنة أو النار ، وهذا من كمال علم الله تعالى ، وهو مما يجب الإيمان به ، وقد نص الأئمة على كفر من جحده .

قال اللالكائى : « روى عن مالك بن أنس ، والأوزاعى ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا .

وعن سعيد بن جبير : القدرية يهود ، وعن الشعبى : القدرية نصارى .

وعن نافع مولى ابن عمر : القدرية يقتلون ، وحكى المزنى عن الشافعى : أنه كفرهم ، وعن إبراهيم بن طهمان : القدرية كفار .

---

(١) رواه الترمذى جـ ٤ ص ٢٤٩ ، وابن وهب فى كتاب القدر ص ٨٣ ــ ٨٧ والآجرى فى الشريعة ص ١٧٣ ، وابن جرير فى التفسير من طريق ابن وهب جـ ٢٥ ص ٩ ، وهذان الكتابان اللذان أخذهما رسول الله ﷺ ليسا هما الكتابان اللذان كتب الله فيهما أسماء أهل الجنة وأهل النار ، وإنما ذلك تمثيل من رسول الله ﷺ وتقريب إلى أفهام الناس بأن الله تعالى علم كل شيء مما سيكون وما يصير إليه العباد وكتبه تأكيدا لعلمه تعالى ، فلا يتغير ولا يتبدل .

وعن أحمد بن حنبل مثل قول مالك »[1] .

وفي هذه الأحاديث بيان أن كل أحد لابد له من عمل يكون سببا لدخوله الجنة أو النار .

فالنبي ﷺ بين أن الله ــ تعالى ــ علم أهل الجنة ، وأهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهى الناس أن يتكلوا على ما سبق في الكتاب عليهم ، ويدعوا العمل ، كما يفعله الملحدون ، وقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأهل السعادة سوف تتهيأ لهم من الأسباب ما تمكنهم من عمل أهل السعادة .

وكذلك أهل الشقاء ، لابد أن يعملوا الأعمال التي يشقون بها ، ويستحقون النار عليها .

فالله ــ تعالى ــ يعلم كل شيء على ما هو عليه ، وقد جعل لكل شيء سببا ، وجعل العبد قادرا على العمل الذي كتب عليه ، فيفعله مختارا ، راغبا ، غير مجبر عليه ، ولا ملزم به .

ولهذا يجب على العبد ، مع الإيمان بالقدر ، الاجتهاد في العمل ، والأخذ بأسباب النجاة ، والالتجاء إلى الله تعالى بأن ييسر له أسباب السعادة ، وأن يعينه عليها .

والله ــ تعالى ــ مع غناه عن الخلق كلهم ، خلقهم ، وأرسل إليهم الرسل تبين لهم ما يسعدهم ، وما فيه شقاؤهم ، وهدى عباده المؤمنين لما خلقوا له ، وهداهم لما اختلف فيه من الحق ، فمنَّ عليهم أن حبب إليهم الإيمان ، والعمل الصالح ، ويسر ذلك لهم ، وأعانهم عليه ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم ضده من الكفر والمعاصي ، والفسوق ، وجعلهم راشدين ، وكل ذلك فضل منه

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ ٢ ص ٧٠٦ ــ ٧٠٧ .

وكرم من غير استحقاق لهم عليه ، فإيجادهم من العدم فضل منه ، وإرسال الرسل إليهم تدلهم على الحق فضل منه ، وهدايته لهم فضل منه ، وجميع ما ينالون به الخير من قواهم وغيرها بفضله ، وكذلك إثابته لهم على أعمالهم الصالحة فضل منه وكرم ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه ، كما حرم على نفسه الظلم قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو واجب بإيجابه ووعده ، وهو لا يخلف وعده . وكل ذلك بفضله ومنته والخلق لا يوجبون على الله شيئا ، ولا يحرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك ، وأقل .

فكل ما يصيب الخلق من النعم فهي من فضل الله ، وكرمه ، وكل ما يصيبهم من النقم فهي بعدل ، وهم يستحقونها جزاءً لأعمالهم ويعفو الله عن كثير .

ولابد للعبد أن يجمع بين أمر الله وقدره ، ووعده ، ووعيده ، لأن من أعرض عن الأمر والنهى والوعد والوعيد معتمدا على القدر ، فهو ضال ، ومن حاول القيام بالأمر والنهى ، وأعرض عن القدر ، فهو أيضا ضال ، ولهذا أمر الله عباده أن يعبدوه مستعينين به على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فيعبدونه اتباعا لأمره ، ويستعينونه إيمانا بالقدر ، وذلك أنه لا يقع شيء إلا بعد مشيئته ، وهو الخالق لكل شيء ومن ذلك أفعال العباد ، وإن كانت تقع باختيارهم ، وقدرتهم فهو الخالق لها ، ولا تقع إلا إذا شاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] وإذا لم يعن الله العبد على الفعل لم يستطعه .

---

(١) الآية آخر سورة التكوير .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته كما تزعم القدرية المجوسية فهو جاحد لقدرة الله التامة ، ومشيئته الشاملة لكل شيء ، وخلقه لكل شيء .

ومن ظن أنه إذا أعين على ما يريد ، ويسر له ذلك كان محمودا ، محبوبا ، سواء وافق ذلك الأمر الشرعي أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب كتبه ورسله ، ووعده ، ووعيده ، واستوجب غضب الله وعقابه ، وصار من الذين قال الله عنهم : ﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[1] .

قوله : « فيم يعمل العاملون ؟ » أى أعمال العباد ، هل قدرها الله عليهم وسبق علم الله بها ، وكتابته لها ، فهم يعملون فى أشياء قضاها الله وفرغ منها ، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما قدره ، وقضاه ؟ وهذا هو الواقع .

أو أنهم يعملون فى شيء لم يقدر ، ولم يكتب عليهم ، بل هو موكول إليهم ؟

وذكر هذا الحديث فى القدر بلفظ : « قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم ، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له ، أو لما ييسر له »[2] .

فقوله : « فيم يعمل العاملون » ، مرتب على قول النبى ﷺ أنه قد علم أهل الجنة ، من أهل النار ، فكأنه وقع فى نفسه أنه مادام قد فرغ من ما يصير إليه العباد ، وعلم الله أهل السعادة ، وأهل الشقاء قبل وجودهم ، فلماذا العمل ، والإنسان لابد أن يصير إلى ما كتب عليه ، فهى أمور منتهية ، ولابد من حصولها .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) البخارى جـ ٨ ص ١٠٤ .

فأجابه النبى ﷺ بما أزال هذا الإشكال بقوله : « كل يعمل لما خلق له » يعنى أن أهل الجنة لابد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول الجنة ، وأهل النار لابد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول النار .

وقد علم الله أن من يكون من أهل الجنة يعمل عملهم ، وييسر ذلك له ، ويتفضل عليه فيحبب إليه الإيمان ، ويزينه فى قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ويجعله راشدا مطيعا مهتديًا ، وهذا كله فضل الله ومنته ، وهو معنى تيسره لليسرى ، وأما أهل النار فقد علم الله — تعالى — أنهم يكفرون ، ويبغضون الإيمان ، ويأبونه ويفعلون ذلك اختيارا منهم ، وحبا له بعكس أهل الإيمان ، وهو معنى تيسيرهم للعسرى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ وهو معنى قوله ﷺ « كل ميسر لما خلق له » .

ووجه الاستدلال من الحديث أن قوله : « كل ميسر لما خلق له » يدل على أن العبد له عمل ييسر له فيعمله ، فيستحق عليه الجزاء ، وذلك الجزاء هو الذى خلق العبد له ، إما الجنة وإما النار ، فالعبد فاعل على الحقيقة ، فهو المؤمن ، والمصلى ، والعامل حقيقة ، وهو الكافر ، والمنافق ، والعاصى ، والسارق ، والزانى حقيقة ، ولذلك استحق العذاب ، أو الثواب .

وكذلك هو القارئ إذا قرأ كتاب الله تعالى ، فالقراءة فعله ، وكسبه ، وعمله ، والمقروء كتاب الله وصفته التى تكلم به ، وقاله ، وأنزله على رسوله ﷺ ، وقد يسر الله القرآن للذكر ، فإذا تذكره العبد ، وقرأه ، وعمل به فذلك عمله ، يضاف إليه ، ويجزى عليه .

قال الإمام البخارى رحمه الله : « ويقال لمن زعم أنى لا أقول القرآن مكتوب فى المصحف ، ولكن القرآن بعينه فى المصحف ، يلزمك أن تقول :

والمقصود أن تبليغ الرسالة عمل الرسول ، ونقل قول المرسل إلى المرسل إليه فلذلك قال : « أتؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » فحديثه إياهم عن رسول الله ﷺ هو إبلاغهم الرسالة ، وهو ما فيه أمره ونهيه مما هو شرع لله الذى كلف العباد به .

والله تعالى كلف رسله إبلاغ قومهم ، وعلى ذلك يجزيهم ما يستحقون من الأجر ، والجزاء يكون على عمل العامل .

١٥٥ ــ قال : « حدثنا أبو الفضل بن يعقوب ، حدثنا عبد الله ابن جعفر الرقى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الثقفى ، حدثنا بكر بن عبد الله المزنى ، وزياد بن جبير بن حية ، عن جبير بن حية ، قال المغيرة : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا ، أنه من قتل منا صار إلى الجنة » .

هذا قطعة من حديث طويل يخاطب به المغيرة بن شعبة ــ رضى الله عنه ــ ترجمان عامل كسرى ، لما سأله : ما أنتم ؟ قال : « نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد ، وبلاء شديد ، نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينا نحن كذلك ، إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين ــ تعالى ذكره وجلت عظمته ــ إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا ، رسول ربنا أن نقاتلكم ، حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة ، فى نعيم لم ير مثلها ، ومن بقى منا ملك رقابكم »[1] .

والمقصود قوله : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا » ، فهذا من الإبلاغ الذى

---

(١) انظر الصحيح جـ ٤ ص ١١٨ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب .

أبلغهم ، وكل ما أخبرهم به من أمر ، أونهى ، أو وعد ، أو وعيد ، أو قصص ، عن الأنبياء وأممهم ، أو غيرهم ، وغير ذلك ، فإنه من إبلاغ الرسالة التى أرسل بها .

ودل قوله : « عن رسالة ربنا » أن الرسالة تكون بالكلام الذى يخاطب به المرسل الرسول ، وإبلاغ المرسل إليهم ذلك الكلام هو إبلاغ الرسالة ، وإبلاغ الرسالة فعل الرسول وقوله وعمله ، وهو غير الرسالة ، وهو مخلوق .

فالرسالة قول المرسل ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وإخباره عن جزائه وغير ذلك ، وهذا ليس فعلا للرسول ، بل كلام الله بأمره ونهيه .

١٥٦ ـــ قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا .

ـــ وقال محمد : حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا شعبة ، عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : من حدثك أن النبى ﷺ كتم شيئا من الوحى ، فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

هذا الحديث تقدم بعضه فى باب قوله تعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ .

وقولها « فلا تصدقه » يعنى أن من زعم ذلك فهو كاذب ، ولا يكفى أنه لا يصدق بل لا يصح إسلامه ، ويجب تعريفه أن الرسول ﷺ بلغ رسالة ربه فإن اعترف بذلك وآمن به وإلا قتل مرتدا .

ومقصودها ـــ رضى الله عنها ـــ أن الرسول ﷺ بلغ جميع ما يلزم الأمة فى دينها ، وما يصلحها وينفعها ، ولم يترك شيئا مما ينبغى العمل به أو علمه

واعتقاده إلا وأخبر به وبلغه كما أمر .

فكل ما لم يخبر به أو يأمر به أمته فليس من رسالته ، وهو بدعة منكرة .

فيجب الوقوف مع ما جاء به من الكتاب والسنة ، ولابد أنه ﷺ امتثل ما أمره الله به من إبلاغ الرسالة قولا وعملا ، فبلغها على الوجه الأتم الأكمل .

وسبق أن إبلاغ الرسالة من فعله وقوله وعمله وفعله وعمله مخلوق فلا يلتبس ذلك بقول الله وكلامه الذى هو الرسالة ، فهذا صفة الله والإبلاغ فعل الرسول ، وهذا التفريق هو ما قصده الإمام البخارى رحمه الله .

١٥٧ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، قال : قال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله تعالى ؟ قال : أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، قال : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك .

فأنزل الله تصديقها : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الآية .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، ومقصوده هنا أن ما بلغه الرسول ﷺ أمته سواء كان من قوله الذى هو سنته ، أو مما أنزله الله عليه قولا لله تعالى فإن ذلك كله من تبليغ الرسالة ، فحين أخبر السائل بما هو أعظم الذنوب ، أنزل الله عليه تصديق ما قاله من كلام الله الذى تعبد عباده بتلاوته ، مع أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وإنما عن الوحى الذى يوحيه الله إليه .

قال الحافظ[1] : « مناسبة هذا الحديث للترجمة أن التبليغ على نوعين .

أحدهما ، وهو الأصل أن يبلغه بعينه ، وهو خاص بما يتعبد بتلاوته ، وهو القرآن .

وثانيهما : أن يبلغ ما يستنبط من أصول ما تقدم إنزاله ، فينزل عليه موافقته فيما استنبطه ، إما بنصه ، وإما بما يدل على موافقته بطريق الأولى ، كهذه الآية ، فإنها اشتملت على الوعيد الشديد فى حق من أشرك ، وهى مطابقة للنص ، وفى حق من قتل النفس بغير حق ، وهى مطابقة للحديث بطريق الأولى ، لأن القتل بغير حقٍ وإن كان عظيما لكن قتل الولد أشد قبحا من قتل من ليس بولد للقاتل ، وكذا القول فى الزناة ، فإن الزنا بحليلة الجار أعظم قبحا من مطلق الزنا .

ويحتمل أن يكون نزول هذه الآية سابقا على إخباره ﷺ بما أخبر به لكن لم يسمعها الصحابى إلا بعد ذلك .

ويحتمل أن يكون كل من الأمور الثلاثة[2] نزل تعظيم الإثم فيه سابقا ولكن اختصت هذه الآية بمجموع الثلاثة فى سياق واحد مع الاقتصار عليها ، فيكون المراد بالتصديق الموافقة فى الاقتصار عليها .

فعلى هذا فمطابقة الحديث للترجمة ظاهرة جدا والله أعلم[3] .

« واستدل أبو المظفر ابن السمعانى بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة المتكلمين فى تقسيم الأشياء إلى جسم وجوهر وعرض ، وقالوا : الجسم ما اجتمع من الافتراق ، والجوهر : ما حمل العرض ، والعرض مالايقوم

---

(١) أصل الكلام للكرمانى انظر شرحه جـ ٢٥ ص ٢٢٤ ولكن الحافظ تصرف فيه .

(٢) يعنى المذكورة فى الحديث ، وهى الشرك وقتل الولد خشية الفقر والزنا بحليلة الجار .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٧ .

بنفسه ، وجعلوا الروح من الأعراض ، وردوا الأخبار فى خلق الروح قبل الجسد ، والعقل قبل الخلق[1] ، واعتمدوا على حدسهم ، وما يؤدى إليه نظرهم ، ثم يعرضون عليه النصوص ، فما وافقه قبلوه ، وما خالفه ردوه ، ثم ساق الآيات ونظائرها مما فيه الأمر بالتبليغ .

قال : وكان مما أمر بتبليغه التوحيد ، بل هو أصل ما أمر به ، فلم يترك شيئا من أمور الدين أصوله ، وقواعده ، وشرائعه إلا بلغه ، ثم لم يدع إلى الاستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض ، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرف واحد فما فوقه .

فعرف بذلك أنهم ذهبوا خلاف مذهبهم ، وسلكوا غير سبيلهم ، بطريق محدث مخترع ، لم يكن عليه رسول الله ﷺ ، ولا أصحابه رضى الله عنهم .

ويلزم من سلوكه العود على السلف بالطعن ، والقدح ، ونسبتهم إلى قلة المعرفة ، واشتباه الطرق .

فالحذر من الاشتغال بكلامهم ، والاكتراث بمقالاتهم ، فإنها سريعة التهافت ، كثيرة التناقض ، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجد لخصومهم عليه كلاما يوازنه ، أو يقاربه ، فكل بكل مقابل ، وبعض ببعض معارض ، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أنا إذا جرينا على ما قالوه ، وألزمنا الناس بما ذكروه ، لزم من ذلك تكفير العوام جميعا لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد .

ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم ، فضلا عن أن يصير منهم صاحب نظر .

---

(١) لم يصح بذلك خبر عن رسول الله ﷺ بل الأخبار تدل على نقيضه .

وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه أئمتهم فى عقائد الدين والعض عليها بالنواجذ ، والمواظبة على وظائف العبادات ، وملازمة الأذكار ، بقلوب سليمة طاهرة عن الشبه والشكوك .

فتراهم لا يحيدون عما اعتقدوه ، ولو قطعوا إربا إربا ، فهنيئا لهم هذا اليقين ، وطوبى لهم هذه السلامة .

فإذا كفر هؤلاء ، وهم السواد الأعظم ، وجمهور الأمة فما هذا إلا طى بساط الإسلام ، وهدم منار الدين ، والله المستعان »[1] .

وتقدم بعض ما يتعلق بذلك فى أول الكتاب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ .

وقول النبى ﷺ : « أعطى أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها ، وأعطى أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به ، وأعطيتم القرآن ، فعملتم به » .

قال الحافظ : « مراده بهذه الترجمة أن يبين أن المراد بالتلاوة : القراءة ، وقد فسرت التلاوة بالعمل ، والعمل من فعل العامل »[2] .

أقول : مراده بيان أن التلاوة والقراءة فعل العباد ، وأن المتلو غير التلاوة ، والمقروء غير القراءة ، كما سبق بيانه .

وهو ينوع الأدلة على ذلك ويكررها ليتضح الأمر ، ويتبين الحق لأنه ــ رحمه الله ــ قد ابتلى بمن يقول : التلاوة هى المتلو ، والقراءة هى المقروء ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٧ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٨ .

وذلك غير مخلوق ، ورمى بأنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق . وقد صرح بأن ذلك كذب عليه .

قال شيخ الإسلام : « إذا قرأ الناس كلام الله ، فالكلام فى نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله ، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئًا ، أمرا يأمر به ، أو خبرا يخبره ، وليس هو كلام المبلغ له عن غيره ، إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين .

وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله ، فيقال : هذا كلام الله ، مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشار إلى نفس صفة العبد ، كحركته ، وصوته ، وقد يشار إليهما .

فالمشار إليه الأول غير مخلوق ، لأنه كلام الله ، والمشار إليه الثانى مخلوق ، لأنه صفة العبد ، والمشار إليه الثالث منه ما هو مخلوق ، ومنه ما ليس بمخلوق .

وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا ، هو نظير صفة العبد ، لا نظير صفة الرب .

وإذا قال قائل : القاف فى قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى ﴾ كالقاف فى قول الشاعر « قفا نبك من ذكرى حبيب ؟ » .

قيل : ما تكلم الله به ، وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين .

ولكن إذا بلغنا كلام الله ، فإنما نبلغه بصفاتنا ، وصفاتنا مخلوقة والمخلوق يماثل المخلوق .

وكلام المتكلم فى نفسه واحد ، فإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فإذا أنشد منشد قول لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد .

وكذلك من روى حديث النبي ﷺ بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » كان هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ، وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول .

فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القراء فإنما يقرءونه بأصواتهم .

ولهذا قال الإمام أحمد ، وغيره من أئمة السنة : من قال : اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا ، وذلك فعل العبد ويراد به القول الذى يلفظ به اللافظ ، وذلك كلام الله ، لا كلام القارئ فمن قال : إنه مخلوق فقد قال : إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذى يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله .

ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرح أحمد وغيره أن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل قط : إن من قال صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي وإنما قال : من قال : لفظي بالقرآن ، والفرق بينهما واضح .

والفرق بين لفظ الكلام ، وصوت مبلغه فرق واضح .

فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الغير ، فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه ، لا بصوت ذلك الغير .

واللفظ ، والقراءة ، والتلاوة ، والكتابة ، ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذى هو حركات العباد ، وما يحدث عنها من أصواتهم ، وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذى يقرأه التالي ، ويتلوه ، ويلفظ به ، ويكتبه منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات الذى يقتضي جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل

صفات العباد ومدادهم غير مخلوق »[1] .

ومما يدل على أن التلاوة فعل التالي ، وأنها غير المتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[2] . أي وأمرت أن أتلو القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾[3] وغير ذلك من الآيات فقد أمر الله عبده ورسوله بالتلاوة ، كما أمره بالعبادة ، فدل ذلك على أن التلاوة من العبادة التي يفعلها العبد ، وتضاف إليه فعلا له ، ويثاب عليها ، والأدلة على أن التلاوة غير المتلو كثيرة قد ذكر المؤلف رحمه الله جملة كبيرة منها في كتابه خلق أفعال العباد ، بالإضافة إلى ما ذكره في هذا الكتاب .

فمن ذلك قوله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »[4] وتقدم .

وحديث البراء بن عازب ، سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء « بالتين والزيتون » ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ، أو قراءة منه » .

فالقارئ يكون حسن الصوت وقبيح الصوت ، لأنه فعله ، وقد جعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم من الآيات الدالة عليه — تعالى — وعلى وجوب عبادته وحده ، ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز الحلف بكلام أحد من الخلق ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، وكلامهم مخلوق .

قال البخاري رحمه الله تعالى : « وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين ، ولا بأعمالهم ولا بكلامهم ، ولا كلام الكفار والمنافقين ، ولا بقول إبليس .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٧١ — ٧٥ ملخصا .
(٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النمل .
(٣) الآية ٢٧ من سورة الكهف .
(٤) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ١٥٩ — ١٦٠ .

فمن حلف بقول المجوس أو نحوهم لم يلزمه حنث .

وإنما يذكر عن ابن مسعود ، وإبراهيم ، وعن النبي ﷺ مرسلا « من حلف بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها كفارة » ، فأما أصوات المخلوقين فليس فيها كفارة »[1] .

وقال : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما كان فى خاتم رسول الله ﷺ : « محمد رسول الله » .

وقد كتب النبى ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر ، على قيصر وأصحابه .

ولا نشك فى قراءة الكفار ، وأهل الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء فهو كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق ، فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله ، لقول النبى ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله » .

وليس لأحد أن يحلف بالخواتيم ، والدراهم البيض[2] ، وألواح الصبيان التى يكتبونها ، ثم يمحونها مرة بعد مرة ، وإن حلف ، فلا يمين عليه ، لقوله عز وجل : « فلا تجعلوا لله أندادا »[3] .

وقال : « فإن احتج محتج فقال : قد روى « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . قيل له : لو صح هذا الخبر لم يكن لك فيه حجة ، لأنه قال : « كلام الله » ، ولم يقل : قول العباد المؤمنين والمنافقين ، وأهل الكتاب الذين يقرءون بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا واضح بين عند من كان عنده أدنى معرفة ، أن القرآن غير المقروء .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٦ عقائد السلف .
(٢) يعنى التى كتب عليها اسم الله أو شيء من القرآن .
(٣) خلق أفعال العباد ١٩٧ عقائد السلف .

وليس لكلام الفجرة وغيرهم فضل على كلام غيرهم ، كفضل الخالق على المخلوق وتبارك ربنا وتعالى ، وعز وجل عن صفة المخلوقين .

وإن قال قائل : فقد روى عن النبى ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه » .

قيل له : أليس القرآن خرج منه ، فخروجه منه ليس كخروجه منك ، إن كنت تفهم ، مع أن هذا الخبر لا يصح ، لإرساله وانقطاعه .

فإن قال : فإن لم يكن الذى يتكلم به العبد قرآنا ، لِمَ تُجْزِهِ صلاته ؟

قيل له : قال النبى ﷺ : « لا صلاة إلا بقراءة » .

وقال أبو الدرداء : سئل النبى ﷺ : أفى كل صلاة قراءة ؟

فقال : « نعم » .

والقراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « اقرءوا إن شئتم ، يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » يقول الله — عز وجل — : « أثنى علىّ عبدى » ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » يقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، يقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

وسئل النبى ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » .

فذكر النبى ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف ، وأن بعضهم يزيد على بعض فى القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس فى القرآن زيادة ولا نقصان ، وأما التلاوة فإنهم يتفاضلون فى الكثرة والقلة ، والزيادة

والنقصان ، وقد يقال : فلان حسن القراءة ، أو ردىء القراءة ، ولا يقال حسن القرآن ، أو ردىء القرآن ، وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الله عز وجل ، والقراءة فعل العبد ، ولا يخفى هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه[1] .

قال : « وأما قوله : « فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به »[2] فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام الله ؟ قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله ، تقول : الله ، وليس قولك : الله هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه ، كالواصف الذى يصف بكلام غير الله وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله »[3] .

يعنى أن الذى يقرأ كلام الله ، فما يلفظ به هو كلام الله ، وليس هو كلام القارئ وإنما للقارئ حركة لسانه وشفتيه وصوته ، وذلك فعله .

وإذا قرأ صفة الله فى القرآن التى وصف الله بها نفسه ، فليس القارئ هو الواصف لله ـــ تعالى ـــ وإنما يتلفظ بصفة الله التى قالها الله ـــ تعالى ـــ واصفا بها نفسه .

« قال الضحاك : لم يحرم الله على بنى إسرائيل طعاما ، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه لله ـــ عز وجل ـــ فكذبهم الله ـــ تعالى ـــ فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَىٰةِ ﴾ أى قل يا محمد لهم : ائتوا بالتوارة ، التى فيها التحريم والتحليل ﴿ فَاتْلُوهَا ﴾ أى فاقرءوها حتى يتبين

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٩ ـــ ٢٠٠ .

(٢) يعنى المحتج بقوله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه والعبد لا يرجع إلى الله إلا بعمله ، فيكون لفظه بالقرآن عمله » .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٠٤ .

ما قلتم ، ﴿ إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فيما ادعيتم ، فلم يأتوا بها خوفا من الفضيحة »[1] .

فالتلاوة فى هذه الآية هى القراءة ، وهى فعل العبد وعمله ، والمتلو كتاب الله وكلامه .

قوله : « وقول النبى ﷺ : « أعطى أهل التوراة التوراة » إلى آخره معنى أعطى هنا : أنزل عليهم ، أى أنزل الله التوراة على موسى ، فعمل بها قومه ، باتباعها وتلاوتها للتفهم والتعبد .

وأنزل الله الإنجيل على عيسى ، فعمل به من شاء الله أن يعمل من النصارى بأن آمنوا به واتبعوه ، وقرءوه للفهم والعبادة .

ومثل ذلك أهل القرآن ، ففى ذلك دليل على أن التلاوة من عمل العباد ، وكسبهم ، وأنها غير المتلو ، كما تقدم إيضاح ذلك .

قوله : « وقال أبو رزين : يتلونه حق تلاوته : يعملون به حق عمله » .

أبو رزين هو مسعود بن مالك الأسدى الكوفى ، من كبار التابعين .

ومعنى ذلك أن التلاوة ، يراد بها القراءة كما سبق ، ويراد بها الاتباع والعمل .

قال الراغب : « التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة ، تارة بالقراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى ، وترغيب وترهيب ، وهو أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة »[2] .

---

(١) تفسير الخازن جـ ١ ص ٣٨٢ .
(٢) المفردات ص ٧٥ .

وقال الأزهرى : « قال الليث : يقال : تلا يتلو ، يعنى قرأ ، قراءة ، وتلا إذا تبع ، فهو تال أى تابع »[1] .

« وقال أبو زيد فى قوله ـــ عز وجل ـــ يتلونه حق تلاوته » قال : يتبعونه حق اتباعه .

وقال مجاهد : يعملون به حق عمله .

وقال ابن عباس : يتبعونه حق اتباعه ، فيعملون به حق عمله .

وقال أبو عبيدة فى قوله : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ قال : ما تتكلم به ، كقولك : يتلو فلان كتاب الله أى يقرؤه ، ويتكلم به .

وقال عطاء : ﴿ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ : ما تحدث ، وما تقص »[2] .

فتبين بهذا أن التلاوة تطلق على القراءة ، وعلى الاتباع ، وإذا قيل : تلاه حق تلاوته ـــ يكون المعنى ـــ عمل به حق عمله ـــ يعنى ـــ العمل الكامل والاتباع فى كل ما جاء به .

قوله : « يقال : يتلى : يقرأ » هذا تفسير لقوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقرأ عليهم .

قال ابن جرير : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم ، وذكر بسنده إلى يحيى بن جعدة أن ناسا من المسلمين ، أتوا نبى الله ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما نظر فيها ألقاها ، ثم قال : « كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، إلى قوم غيرهم » فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٤ ص ٣١٦ .

(٢) المصدر المذكور جـ ١٤ ص ٣١٩ .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، والذى يتلى عليهم هو آيات الفرائض من المواريث وغيرها .

قال الحافظ : « هذا الذى ذكر البخارى هو كلام أبى عبيدة فى كتاب مجاز القرآن . ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ ما كنت تقرأ كتابا قبل القرآن »[2] .

أقول : الآية التى ذكرها البخارى لم يتكلم عليها أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن وهذه التى ذكرها غير تلك ، فكيف يقال إن ما ذكره البخارى هو كلام أبى عبيدة ، وإن كان نظيرا له فليس هو[3] .

قوله : « **حسن التلاوة : حسن القراءة للقرآن** » ، يعنى أن التلاوة فعل العباد وليس هى المتلو ، ولهذا يوصف التالى بأنه حسن التلاوة ، أو سيئها ، ولا يجوز أن يوصف القرآن بذلك .

قال البخارى ــ رحمه الله ــ : « القراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبى ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ثم ذكر ما تقدم قريبا[4] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٧ وقال السيوطى : أخرجه الدارمى ، وأبو داود فى المراسيل وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والإسماعيلى . انظر الدر المنثور جـ ٦ ص ٤٧١ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

(٣) انظر مجاز القرآن جـ ٢ ص ١١٦ .

(٤) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٦ تحقيق بدر .

قوله : « لا يمسه » لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا الموقن ، لقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(1) .

يعنى أن الطهارة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هى الطهارة من الشرك ، والكفر ، والغفلة والإعراض ، ويتبع ذلك الذنوب .

قال الفراء : « ويقال : لا يمسه : لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون ، من آمن به »(2) .

« وهذا من باب الاعتبار والقياس ، لأنه إذا كان ورق المصحف لا يمسه إلا المطهرون ، فمعانيه لا يهتدى بها إلا القلوب ، الطاهرة .

ومثل هذا قول النبى ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » فإذا كان الملك لا يدخل البيت الذى فيه كلب ، فكذلك المعانى التى تحبها الملائكة لا تدخل القلب الذى فيه أخلاق الكلاب »(3) .

قال الحافظ : « حاصل هذا التفسير ، أن معنى : لا يمس القرآن . لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، وأيقن بأنه من عند الله ، فهو المطهر من الكفر ، ولا يحمله بحقه إلا المطهر من الجهل والشك . لا الغافل عنه الذى لا يعمل [به] فيكون كالحمار الذى يحمل ما لا يدريه »(4) .

« وعلى القول بأن المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هو

---

(1) الآية ٥ من سورة الجمعة .
(2) معانى القرآن جـ ٣ ص ١٣٠ .
(3) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٥١ ــ ٥٥٢ بتصرف .
(4) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

اللوح المحفوظ ، أو المصحف ، فكما أن اللوح المحفوظ الذى كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر ، فكذلك معانى القرآن لا يذوقها إلا القلب الطاهر ، وهو قلب المتقى . وهذا قول طائفة من السلف »[1] .

« والصحيح أنه يجب الوضوء لمس المصحف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة لما فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ لعمرو بن حزم ، وفيه « وأن لا يمس القرآن إلا طاهر » . قال الإمام أحمد : لا شك أن النبى ﷺ كتبه له . وهذا هو المعروف عن الصحابة ، سعد ، وسلمان ، وابن عمر »[2] .

واختلفت أقوال السلف فى المراد بالكتاب ، وبالمطهرين . فقيل : الكتاب هو ما بأيدى الملائكة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۞ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۞ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ ، وهذا اختيار الإمام مالك ، فعلى هذا يكون المراد بالمطهرين الملائكة .

وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى كتب فيه القرآن . قال القرطبى : وهو الأظهر ، واستدل بما فى كتابه ﷺ لعمرو بن حزم ، وبحديث ابن عمر : أن النبى ﷺ قال : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » ، وبقول أخت عمر له ، لما دعا بالصحيفة قبل أن يسلم : « لا يمسه إلا المطهرون »[3] .

وقال ابن كثير : « وقال آخرون : ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الجنابة والحدث فلفظ الآية خبر ، ومعناها الطلب » .

والمراد بالقرآن ها هنا : المصحف . كما روى مسلم ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو » . واحتجوا

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٣ ص ٢٤٢ .
(٢) المرجع قبله جـ ٢١ ص ٢٨٨ و ٢٦٦ ببعض التصرف .
(٣) انظر تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

بما فى كتاب عمرو بن حزم ، وبما روى أبو داود فى المراسيل من حديث الزهرى ، قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمس القرآن إلا طاهر » . وهذه وجادة جيدة ، ومثل هذا ينبغى الأخذ به .

وقد أسنده الدارقطنى ، عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان ابن أبى العاص ، ، وفى إسناد كل منها نظر »[1] .

« قال ابن عبد البر : كتاب ابن حزم روى مسندا من وجه صالح ، وهو كتاب مشهور عنـد أهل السير ، معروف عند أهل العلم ، معرفة يستغنى بها فى شهرتها عن الإسناد »[2] .

قوله : « وسمى النبى ﷺ : الإسلام والإيمان ، والصلاة عملا » .

قال الحافظ : « أما تسمية الإسلام عملا ، فاستنبطه من حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام ، فقال النبى ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، وقال عن الإسلام : أن تسلم وجهك لله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » الحديث .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها من حركات الركوع والسجود فعلا »[3] .

قلت : الظاهر أن مراده ما ذكره فى خلق أفعال العباد ، حيث قال :

حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سئل النبى ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢ ملخصا .
(٢) انظر الموطأ جـ ١ ص ١٩٩ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٩ .

قال : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » ورواه فى الصحيح من حديث أبى ذر فى العتق فى باب أى الرقاب أفضل ، ورواه فى كتاب الإيمان : باب من قال : إن الإيمان هو العمل لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفى أماكن أخر وسيأتى فى آخر الكتاب .

وقال بعد ما ذكره فى خلق أفعال العباد : « فجعل النبى ﷺ الإيمان والتصديق ، والجهاد ، والخير عملا »[1] .

وهذا واضح جدا ، ولم يختلف فيه أهل السنة ، وهو دليل على أن القراءة ليست هى المقروء ، لأنها من عمل القارىء الذى يؤجر عليه .

وإذا ثبت أن الإيمان من عمل المؤمن ، فمثله الإسلام ، لأن الرسول ﷺ جعل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت .

وأما كون الصلاة عملا فهو ظاهر جدا .

قوله : « وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ لبلال : « أخبرنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ؟ قال : ما عملت عملا أرجى عندى أنى لم أتطهر إلا صليت » . ذكر هذا الحديث بسنده موصولا فى مناقب بلال ، ووجه الدلالة منه أنه سمى الصلاة عملا ، مع ما فيها من القراءة والتكبير ، والتسبيح والتحميد ، وغير ذلك .

قوله : « وسئل : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد ، ثم حج مبرور » تقدم قريبا ، والاستدلال به واضح ، فإنه جعل الإيمان والجهاد والحج عملا .

---

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ٤٨ ــ ٥٣ .

١٥٨ ــ قال : « حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى سالم ، عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتى أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتى أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به حتى صليت العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتاب : هؤلاء أقل منا عملا ، وأكثر أجرا ؟ قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . فقال : فهو فضلى أوتيه من أشاء » .

تقدم هذا الحديث فى باب المشيئة والإرادة ، ومعنى قوله : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم » أن بقاء هذه الأمة فى الدنيا كنسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم .

فالمعنى : أن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى من سبقها من الأمم قليلة .

وإذا كان مدة مجموع الأمة قليلة لزم أن يكون عمر كل فرد منها قصيرا ، وكأن الحديث قصد به الإخبار بقلة بقاء هذه الأمة فى الدنيا ، وبكثرة أجرها ، وفضلها ، ولذلك ضرب المثل لها ولأهل الكتاب ، لأن اليهود والنصارى ، وهذه الأمة كلهم أعطوا كتبا جاءتهم من الله ليعملوا بها ، ورواية الترمذى توضح ذلك ونصها :

« إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس ، وإنما مثلكم ، ومثل اليهود والنصارى ، كرجل استعمل عمالا ، فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود ، على قيراط قيراط .

ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر أعمالا ، وأقل عطاء ؟

قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنه فضلى أوتيه من أشاء » هذا حديث حسن صحيح »[1] .

ففى هذا أنه ﷺ أخبر عن شيئين : أحدهما : مدة بقاء هذه الأمة فى الدنيا بالنسبة لمن سبقها من الأمم ، وأنه مثل نسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم الكامل .

والثانى مَثَلُ هذه الأمة ، ومثل اليهود والنصارى . « فعلى هذا لا يكون قوله : أوتى أهل التوراة » إلى آخره شرح ، وتفصيل لما تقدم كما قاله الحافظ ، وإنما هو كلام مستأنف ، أريد به بيان فضل هذه الأمة على اليهود والنصارى ، وكثرة أجورها .

قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم عجزوا » كأنه أريد منهم أن يعملوا جميع النهار ، ولهذا قال : « ثم عجزوا » أى عن العمل بقية النهار .

قوله : « فأعطوا قيراطا قيراطا » أى كل فرد منهم أعطى قيراطا .

قوله : « ثم أوتى أهل الإنجيل » إلى آخره ، مثل سابقه .

« ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس » أى أن هذه الأمة أكملت العمل الذى طلب من اليهود والنصارى فعجزوا عن أدائه ، فلذلك أعطوا ضعفى ما أعطى من قبلهم من الأجر .

ويفهم منه أن هذه الأمة يستمر عملها بالقرآن إلى قيام الساعة ، لأنه

---

(١) جامع الترمذى جـ ٥ ص ١٥٣ .

قال : « فعملتم به حتى غربت الشمس » . كما يدل على حسد اليهود والنصارى للمسلمين على ما هم عليه من الحق ، ويدل على عظم فضل الله على هذه الأمة .

والمقصود منه فى هذا الباب قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة » إلى آخره .

فإنه يدل على أن العمل فعل العباد ، ومن ذلك قراءة الكتاب الذى أوتوه ، وتلاوته ، وأن ما يعطيه الله العبد غير عمله ، بل هو جزاء عمله .

وكذلك الكتاب الذى آتاه الله اليهود والنصارى ، والمسلمين ليس هو عملهم وتلاوتهم ، فالذى أوتوه وحى أنزله الله على رسله إليهم ، وعملهم به هو فعلهم من تلاوته ، وامتثال أوامره ، والانتهاء عن مناهيه .

قال فى خلق أفعال العباد : « باب قول الله عز وجل : ﴿ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان وهو كلام العباد ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » .

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا »[1] .

معنى قيام العبد بالكتاب هو فعل العبد الذى يجازى عليه ، وليس هو الكتاب وبهذا يتضح مراده بهذه النصوص .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٥ ـــ ١٩٧ ملخصا .

قال : « باب : وسمى النبى ﷺ الصلاة عملا . وقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

يعنى أن الصلاة فعل من أفعال العباد ، وفيها قراءة القرآن ، وأقل ذلك قراءة الفاتحة ، لأن الصلاة لا تصح بدون قراءة الفاتحة ، فتبين بذلك أن القراءة ليست هى المقروء ، وإنما هى عمل العبد وفعله وكسبه ، فالقراءة من جملة الصلاة ، وقد سمى النبى ﷺ الصلاة كلها عملا .

١٥٩ — قال : « حدثنى سليمان ، حدثنا شعبة ، عن الوليد .

وحدثنى عباد بن يعقوب الأسدى ، أخبرنا عباد بن العوام ، عن الشيبانى ، عن الوليد بن العيزار ، عن أبى عمرو الشيبانى ، عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أن رجلا سأل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله » .

الرجل السائل هو ابن مسعود كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وهو يدل على حرص الصحابة على فعل الأفضل ، وتحريهم الأعمال الفاضلة فى التقديم ، لأن عمر الإنسان قصير ، وربما شغل عن كثير من العمل ، وفى كثير من الأوقات .

قال ابن دقيق العيد : « سؤاله عن أفضل الأعمال طلبا لمعرفة ما ينبغى تقديمه ، وحرصا على معرفة الأصل ليتأكد القصد إليه ، وتشتد المحافظة عليه ، ولعله أراد بالأعمال هنا ، الأعمال البدنية ، كما قال الفقهاء : « أفضل عبادات البدن الصلاة » ، فلا تكون أعمال القلوب داخلة فيه ، فعلى هذا لا تعارض بينه وبين حديث أبى هريرة ، أفضل الأعمال إيمان بالله »[1] .

---

(١) شرح العمدة جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢ ملخصا .

وقال الحافظ : « محصل ما أجاب به العلماء عن الأحاديث التى اختلفت فيها الأجوبة ، بأن كل واحد منها أفضل الأعمال ، أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم .

أوكان الاختلاف ، باختلاف الأوقات ، بأن يكون العمل فى وقت أفضل منه فى غيره ، فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال ، أو أن « أفضل » ليست على بابها ، بل المراد بها الفضل المطلق »(١) .

« الصلاة لوقتها » يعنى فى الوقت الذى عينه الشارع ، وهو وقت الاختيار .

وبر الوالدين : التوسع فى الإحسان إليهما ، وضده العقوق .

ويراد بالبر أيضا التوسع فى فعل الطاعة كما فى قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ إلى آخر الآية(٢) .

والجهاد : استفراغ الوسع وبذل الجهد فى قتال العدو ومدافعته وهو ثلاثة أنواع : جهاد العدو الظاهر من الكفار وغيرهم .

وجهاد العدو الخفى ، وهو الشيطان ، وجهاد النفس ، وكلها يشملها الحديث ، وتدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وغير ذلك من النصوص الآمرة بالجهاد .

والمقصود من الحديث هنا : تسمية الصلاة عملا ، حيث أجاب النبى ﷺ

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٩ ملخصا .
(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

السائل الذى قال : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها »فجعلها عملا ، ومعلوم أن الصلاة فيها قراءة القرآن ، فدل على أن القراءة من عمل العبد لأنها فعل القارئ كما سبق .

وتقدم نقل كلام البخارى فى هذا وقوله : « قد بين النبى ﷺ أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

والقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه »[1] .

يعنى أنه جعل القراءة إلى إرادة المخاطبين فى قوله : « إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين » قال الله حمدنى عبدى ، وقول العبد : الحمد لله » إلخ هى قراءته فهو يقرأ الفاتحة ، وهى من كلام الله تعالى .

وقوله : « وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه » يعنى جنس الكلام لأن الكلام هو الذى يوجد به الخلق عندما يقول الله له كن يكون موجودا ولا يدل ذلك على أن القرآن قديم كما يقوله أهل البدع ، فالله تكلم بالقرآن ثم أنزله على رسوله ﷺ .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ .

قال ابن جرير : « الهلع : شدة الجزع ، مع شدة الحرص والضجر ، وروى بسنده عن ابن عباس : الهلوع هو الجزوع الحريص ، وعن سعيد بن جبير : هلوعا : شحيحا جزوعا .

---

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٤ .

وعن عكرمة : ضجورا ، وقال الضحاك : بخيل منوع للخير ، جزوع إذا نزل به البلاء »[1] .

وقال الفراء : « الهلوع : الضجور ، وصفته كما قال الله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فهذه صفة الهلوع . ويقال منه : هلع ، يهلع هلعا مثل جزع ، يجزع جزعا »[2] .

وقال المبرد : « الهلع : من الجبن عند ملاقاة الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الهلع . ويقال : رجل هلوع ، إذا كان لا يصبر على خير ، ولا شر ، حتى يفعل فى كل واحد منهما غير الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[3] .

وكل هذه الأقوال متفقة فى المعنى ، والمعنى : أن هذه الأوصاف المذكورة خلقت فى الإنسان ، ولكنها فعله الذى يصدر منه عن إرادته فيلام عليها أو يثنى عليه بها ، فهو ضجور غير ثابت ، قليل الصبر ، ومنوع هلوع ، فإذا أصابه الخير منع ، وإذا وقع فى شدة جزع ، وذلك كله فعله المضاف إليه فعلا له على الحقيقة ، والله خلقه على ذلك ، فدل هذا على أن الله تعالى خالق أفعال الإنسان كما أنه خالقه .

قال الحافظ : « مقصود البخارى : أن الصفات المذكورة بخلق الله تعالى فى الإنسان ، لا أن الإنسان يخلقها بفعله »[4] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٧٨ .
(٢) معانى القرآن جـ ٣ ص ١٨٥ .
(٣) الكامل جـ ٣ ص ١٠٩٢ .
(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٥١١ .

١٦٠ ـــ قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا جرير بن حازم ، عن الحسن ، حدثنا عمرو بن تغلب ، قال : أتى النبى ﷺ مال فأعطى قوما ، ومنع آخرين فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : إنى أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ، أعطى أقواما لما فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب ، فقال عمرو : ماأحب أن لى بكلمة النبى ﷺ حمر النعم » .

عمرو بن تغلب ، النمرى ، من النمر بن قاسط ، ويقال : العبدى من عبد القيس من أهل جوثا ، قرية من قرى البحرين ، صحابى جليل القدر

روى عنه الحسن البصرى ، ولم يرو عنه غيره فيما قاله غير واحد

وقال ابن عبد البر : روى عنه أيضا الحكم بن الأعرج ، وعداده فى أهل البصرة وهو كغيره من كثير من الصحابة الذين لم تعرف أخبارهم ، ولم تدون مآثرهم ، فعليهم رضوان الله ورحمته أجمعهم »[1] .

قوله : « أتى النبى ﷺ مال » إلخ هذا المال إما من الخمس الذى أفاءه الله على رسوله ، أو من الغنائم ، أو من الزكاة .

وفى الرواية التى ذكرها البخارى فى الجمعة : « أتى بمال ـــ أو سبى »[2] .

وكانت سنته ﷺ أنه إذا جاءه شيء من المال وزعه فى مصالح الإسلام ولا يدخر شيئا ، ومن المصالح إعطاؤه من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم فيؤثروا

---

(١) انظر تهذيب الكمال جـ ٢ ص ١٠٢٧ مخطوط ، ورجال البخارى للكلاباذى جـ ٢ ص ٥٣٧ .
(٢) انظر الفتح جـ ٢ ص ٤٠٣ .

الآخرة على الدنيا – يعطيهم خوفا عليهم من الجزع ، وعدم الصبر ، فيتزعزع إيمانهم ، فهذا الذى جعله يعطى قوما ، ويمنع آخرين ، يمنع كُمَّلَ الإيمان الذين ذاقوا طعمه وحلاوته ، التى لا تعادلها الدنيا بأسرها ، بل ولا شيئا منه ، ولهذا قال : ﷺ : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » .

« فبلغه أنهم عتبوا » . قال الأزهرى : « قال ابن شميل ، وابن المظفر : العتب : الموجدة ، تقول : عتب فلان على فلان ، إذا وجد عليه »[1] .

والمعنى : أنه صار فى نفوسهم عليه شيء بسبب منعهم من هذا المال ، لأنهم يرون أنهم أحق من غيرهم ، وذلك لخفاء الأمر عليهم ، وإلا فالمتعين الرضا بما يفعله الرسول ﷺ والتسليم لأمره وفعله ، وهذا شأن الصحابة رضوان الله عليهم غالبا .

« فقال : إنى أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى » إلخ .

يعنى أن تخصيصه بعض الناس بالعطاء ليس دليلا على أنه ﷺ يحب المعطى أكثر من غيره ، بل يعطيه خوفا عليه من الجزع ، وعدم الصبر على بلوى الإعواز ، وقلة ذات اليد ، فإذا لم يحصل لهؤلاء ما يتطلعون إليه من العطاء كان ذلك عونا للشيطان عليهم ، فى إرجاعهم عن الإسلام ، أو اعتراضهم على النبى ﷺ فيكون فى ذلك هلاكهم .

أما الذين أودع الله فى قلوبهم الخير والغنى بالإسلام ومحبته والرغبة فيه ، والرجاء لما أعد الله لهم فى الآخرة ، فإنهم أحب إلى رسول الله ﷺ ممن أعطاهم من ذلك المال وغيره ، ولم يثنه عن عطائهم إلا ما علمه من الغنى فى قلوبهم ، وثقتهم بوعد الله لهم ، وإيمانهم الذى لايتزعزع ، وحبهم لله ورسوله ، بحيث يحبون ما أحبه الله ورسوله ، فلا يرون أن غير ما فعله أحسن مما فعله .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ٢٧٧ .

قال الحافظ : « وفيه أن الرزق فى الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق فى الآخرة ، ففى الدنيا تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية ، فكان ﷺ يعطى من يخشى عليه الجزع ، والهلع لو منع ، ويمنع من يثق بصبره واحتماله ، وقناعته عنه بثواب الآخرة .

وفيه أن البشر جبلوا على حب العطاء ، وبغض المنع ، والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة فى عاقبته إلا من شاء الله .

وفيه أن المنع قد يكون خيرا للممنوع ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، ومن ثم قال الصحابى : « ما أحب أن لى بتلك الكلمة حمر النعم » ، والباء فى قوله : « بتلك » للبدلية ، أى ما أحب أن لى بدل كلمته [النوق الحمر] لأن الصفة المذكورة تدل على قوة إيمانه المفضى به إلى دخول الجنة ، وثواب الآخرة خير وأبقى .

وفيه استئلاف من يخشى جزعه ، أو يرجى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه ، والاعتذار إلى من ظن ظنا ، والأمر بخلافه »[1]

والمقصود من الحديث قوله ﷺ : « لما فى قلوبهم من الجزع ، والهلع » ، وقوله : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » ، فإن الهلع والجزع ، وكذلك غنى القلب والإيمان ، كل ذلك وصف للإنسان ، وهو فعله وعمله ، والله خالقه .

فإن الله خلق الإنسان وخلق أفعاله ، وجعله فاعلا لهذه الأشياء .

قال الكرمانى : « الغرض من هذا الباب إثبات أن أخلاق الإنسان ، من الهلع ، وضده ، والضجر ، وعدمه ، والانقياد ، والامتناع وغيرهما بخلق الله تعالى »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥١١ .
(٢) انظر شرح الكرمانى جـ ٢٤ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

قال : « باب ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه » .

قال العينى : « أى هذا باب فى ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه – أى بدون واسطة جبريل ﷺ – ويسمى بالحديث القدسى »[1] .

وكذا قال أكثر الشراح .

وقال الحافظ : « يحتمل أن تكون الجملة الأولى محذوفة المفعول ، والتقدير : ذكر النبى ﷺ ربه عز وجل .

ويحتمل أن يكون ضمّن الذكر معنى التحديث ، فعداه بعن ، فيكون قوله : « عن ربه » متعلق بالذكر والرواية معًا ، وقد ترجم هذا فى كتاب خلق أفعال العباد بلفظ : ما كان النبى ﷺ يذكر ويروى عن ربه » . وهو أوضح »[2] .

وأقول : إن مراده أن الرسول ﷺ يروى عن ربه ما قاله – تعالى – وأنزل عليه ، فالرسول ﷺ يذكر بلفظه الذى هو فعله كلام ربه تعالى وكلام الله تعالى غير فعل الرسول ولفظه ، فاللفظ للرسول والملفوظ به هو كلام الله ، فهذا الباب كسابقه مما فيه التفريق بين فعل العبد المخلوق ، وبين ما هو وصف لله غير مخلوق ، وهذا هو الذى تتفق معه الأحاديث التى ذكرها ، والله أعلم .

١٦١ – قال : « حدثنى محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع الهروى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ يرويه عن ربه عز وجل : « قال : إذا تقرب العبد إلىّ شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلىّ ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتانى مشيًا أتيته هرولة » .

---

(١) عمدة القارى جـ ٢٥ ص ١٨٨ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٢ .

قال شيخ الإسلام : « ظاهر الخطاب أن أحد التقديرين من جنس الآخر ، وكلاهما مذكور بلفظ المساحة .

فلا يخلو إما أن يكون ظاهر اللفظ فى تقرب العبد إلى ربه هو تقرب بالمساحة المذكورة ، أو لا يكون .

فإن كان ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ ، فإما أن يكون ممكنا ، أو لا يكون .

فإن كان ممكنا ، فالآخر أيضا ممكن . ولا يكون فى ذلك مخالفة للظاهر

فإن لم يكن ممكنا فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه ، فيكون قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه .

وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك ، فيكون الآخر أيضا ظاهرا فى الخطاب ، فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع ، بل ظاهره هو المعنى الحق .

ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله بحركة بدنه شبرا ، وذراعا ، ومشيا وهرولة »[1] .

وبهذا يظهر معنى الحديث ، وأنه ليس المراد منه التقرب إلى الله تعالى بحركة البدن بهذه المقادير ، والهيئة ، وإنما المقصود التقرب إلى الله تعالى بالإنابة والرجوع وإقبال القلب ، وفعل الطاعات التى تقرب العبد إلى ربه ، وقد قال الرسول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[2] .

وتقدم أن قرب الله تعالى ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم خلوه من فوق عرشه ، بل يقرب إلى من يشاء من عباده وهو فوق عرشه ، لا يكون

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢١ — ٩٢ مخطوط .
(٢) سبق تخريجه فى الجزء الأول ص ٢٦٨ .

شيء من خلقه فوقه أبدا ، ولما قرب كليمه موسى إليه نجيا كان — جل وعلا — فوق عرشه ، وكذلك غير موسى إذا قربه إليه ، فإنه يقرب إليه وهو فوق عرشه — تعالى وتقدس — ، وسبق الكلام على هذا الحديث[1] .

والشاهد من الحديث قوله : « يرويه عن ربه — عز وجل — قال إذا تقرب » إلى آخره فالرسول ﷺ يروى عن ربه هذا الكلام ، الذى تكلم الله به فرواه عنه ، سواء كان ذلك بواسطة جبريل — وهو الظاهر — أو بغير واسطة والصحابة سمعوا هذا الكلام بلفظ الرسول ﷺ وصدقوا بأنه كلام الله رواه رسوله عنه .

١٦٠ — قال : « حدثنا مسدد ، عن يحيى ، عن التيمى ، عن أنس بن مالك ، عن أبى هريرة قال : « ربما ذكر النبى ﷺ » قال : « إذا تقرب العبد منى شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، أو بوعا » .

الباع معروف ، وهو قدر مد اليدين ، من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى ، والبوع بفتح الباء مصدر باع ، وبالضم جمع باع .

قوله : « وقال معتمر : سمعت أبى ، سمعت أنسا ، عن أبى هريرة ، عن ربه — عز وجل — قصده التصريح بأنه مرفوع ، وأن النبى ﷺ رواه عن ربه عز وجل .

١٦٢ — قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا محمد بن زياد ، قال : سمعت أبا هريرة ، عن النبى ﷺ يرويه عن ربكم ، قال لكل عمل كفارة ، والصوم لى ، وأنا أجزى به ، ولخلوف فم

---

(١) يراجع الجزء الأول ص ٢٦٧ .

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

قوله : « لكل عمل كفارة » يعنى جزاء وثوابا معينا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ولكن الصوم يضاعف بدون حساب .

والسبب أنه يكون خالصا لأنه سر بين العبد وربه ، فإنه يمكنه أن يظهر للناس أنه صائم وهو يأكل فى الخفاء ، فإذا التزم العبد الصوم دل على خوفه من الله ، ورجائه لثوابه . وتقدم شرح الحديث والمقصود منه ظاهر ، وهو كالذى قبله .

١٦٣ ـــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ح .

وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ، قال : « لا ينبغى لعبد أن يقول : إنه خير من يونس بن متى » ، ونسبه إلى أبيه » .

يونس بن متى ، هو نبى كريم من أنبياء الله ـــ تعالى ـــ الذين جاءوا بالهدى والنور لإخراج الناس به من الظلمات .

« قال العلماء : إنما قال ﷺ ذلك تواضعا إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق ، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال .

وقيل : خص يونس عليه السلام بهذا القول لما يخشى على من سمع قصته أن يقع فى نفسه تنقص له ، فبالغ ﷺ فى ذكر فضله لسد هذه الذريعة .

وقد روى قصته السدى بأسانيده ، عن ابن مسعود وغيره : أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى ـــ وهى من أرض الموصل ـــ فكذبوه ، فوعدهم بنزول

العذاب فى وقت معين ، وخرج عنهم مغاضبا لهم ، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا لله ، وتضرعوا ، وآمنوا ، فرحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ، وذهب يونس ، وركب سفينة فلجّت به ، فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثا ، فطرحوه ، فالتقمه الحوت »[1] ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فاستجاب الله له ، وأمر الحوت بطرحه على ساحل البحر ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظله » والظلمات هى ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل .

وما ذكره من أنه خص بالذكر إلى آخره هو المناسب لما جاء من النهى عن المفاضلة بين الأنبياء لئلا يفضى ذلك إلى تنقص أحد منهم .

ولهذا جاء فى رواية لهذا الحديث ذكرها البخارى فى الأنبياء . بلفظ « ما ينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس » .

وفى أخرى : « لا يقولن أحدكم : إنى خير من يونس »[2] .

قال الحافظ : « وعند الطبرانى : « لا ينبغى لأحد أن يقول » إلى آخره .

وفى أخرى : « عنده ما ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس » . وهذا يؤيد أن المراد تفضيله على النبى ﷺ »[3] .

وهذا يدل على أن المقصود النهى عن المفاضلة بين أنبياء الله ، لئلا يكون ذلك طريقا إلى تنقص أحد منهم .

والمراد من الحديث قوله : « فيما يرويه عن ربه » فهذا لفظ الرسول ﷺ يروى هذا الكلام عن ربه ، يعنى أن الله تكلم به فرواه لنا عنه رسوله ﷺ بلفظه الذى هو فعله ، وهو مخلوق ، وما رواه فهو كلام الله غير مخلوق .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٥٢ .
(٢) الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .
(٣) الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .

« ونسبه إلى أبيه » يعنى أن « متى » هو أبوه وليس ذلك اسم أمه ، وأراد به الرد على من زعم أن « متى » اسم أمه كما روى عن كعب الأحبار .

١٦٤ ــ قال : « حدثنا أحمد بن أبى سريج ، أخبرنا شبابة ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة المزنى ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح ــ أو من سورة الفتح ، قال : فرجع فيها .

قال : ثم قرأ معاوية يحكى قراءة ابن مغفل ، وقال لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكى النبى ﷺ ، فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : آ آ آ ثلاث مرات » .

عبد الله بن مغفل بن عبد غنم المزنى أبو سعيد ، ذكر البخارى عن يحيى ابن معين أنه كان يكنى أبا زياد ، وهو من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم وهو أحد البكائين فى غزوة تبوك ، أسفا على فوت تلك الغزوة عليهم ، وشهد بيعة الرضوان وهو أحد العشرة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليفقهوا الناس بالبصرة وهو أول من دخل من باب مدينة تستر ، توفى فى البصرة سنة تسع وخمسين أو سنة ستين ، أو إحدى وستين رضى الله عنه ، وعن جميع إخوانه صحابة رسول الله ﷺ(١) .

« يوم الفتح » هو فتح مكة ، وكان فى رمضان ، من سنة ثمان من الهجرة .

وسورة الفتح نزلت فى غزوة الحديبية ، وكانت فى ذى القعدة سنة ست فى قول الجمهور ، نزلت فى مرجعه منها ، والفتح المذكور فى السورة هو صلح الحديبية على قول أكثر المفسرين من الصحابة وغيرهم ، ولا ينافى ذلك دخول

---

(١) انظر الإصابة جـ ٤ ص ٢٤٢ ، والاستيعاب جـ ٣ ص ٩٩٦ .

فتح مكة فيه وقراءته ﷺ سورة الفتح فى ذلك اليوم يدل على أن فتح مكة داخل فى قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ .

« فرجع فيها » بتشديد الجيم ، أى ردد الصوت فى حلقه ، وجهر به مكررا بعد إخفائه .

قال المؤلف فى فضائل القرآن : « باب الترجيع ، ثم ذكر هذا الحديث — وفيه — قال : رأيت النبى ﷺ يقرأ ، وهو على ناقته — أو جمله — وهى تسير به وهو يقرأ سورة الفتح — أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع »[1] .

قال الحافظ ابن كثير : الترجيع : هو الترديد فى الصوت ، كما جاء أنه يقول : آ آ آ ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته ، فدل على جواز التلاوة عليها ، وإن أفضى إلى ذلك ، ولا يكون ذلك من باب الزيادة فى الحروف ، بل هو مغتفر للحاجة ، كما يصلى على الدابة حيث توجهت به مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة »[2] والصواب أنه قصد الترجيع وليس ذلك من حركة الدابة كما زعم ابن كثير ، وكثيرا ما كان ﷺ يقرأ فى أسفاره ، ولم يذكر ذلك عنه إلا فى هذه الواقعة ، فدل على قصده ذلك .

قال الحافظ : « الترجيع : هو تقارب ضروب الحركات فى القراءة ، وأصله الترديد وترجيع الصوت ، ترديده فى الحلق ، وقد فسره بقوله : آء آء آء ثلاث مرات » بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ، ثم همزة أخرى .

قالوا : يحتمل أمرين : احدهما أن ذلك حدث من هز الناقة .

والآخر أنه أشبع المد فى موضعه فحدث ذلك ، وهذا أقرب ، لأنه قال :

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٩٢ و جـ ١٣ ص ٥١٥ .

(٢) فضائل القرآن فى آخر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص

« لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت » .

وقد ثبت الترجيع فى غير هذا الموضع ، كما فى الشمائل للترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى داود ، واللفظ له من حديث أم هانئ « كنت أسمع صوت النبى ﷺ وهو يقرأ ، وأنا نائمة على فراشى يرجع القرآن » .

والذى يظهر أن فى الترجيع قدرًا زائدا على الترتيل ، فعند ابن أبى داود عن علقمة ، قال : بت مع عبد الله بن مسعود فى داره ، فنام ، ثم قام ، فكان يقرأ قراءة الرجل فى مسجد حيه ، لا يرفع صوته ، ويسمع من حوله ، ويرتل ولا يرجع .

قال ابن أبى جمرة : معنى الترجيع تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء ، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافى الخشوع الذى هو مقصود التلاوة .

قال : « وفى الحديث : ملازمته ﷺ للعبادة ، لأنه حالة ركوبه وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة ، وفى جهره فى ذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون فى بعض المواضع أفضل من الإسرار ، مثل إرادة التعليم ، وإيقاظ الغافل ، ونحو ذلك »[1] .

والمقصود أن الترجيع فعل الرسول ﷺ بحركة لسانه وشفتيه يرجع كلام ربه الذى أبلغه الأمة عن الله تعالى .

فالمسموع بصوته هو كلام الله ، والصوت هو صوت المبلغ ، ولهذا يرفعه إن شاء ، ويخفضه ، ويرجعه إن شاء ولا يرجعه ، لأنه فعله يتعلق بإرادته ، وهو يبلغ كلام الله بأى وجه كان من أوجه التبليغ بصوته الذى يؤدى به

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٩٢ ببعض التصرف .

عن الله سواء رجع الكلام ، أو لم يرجع ، فلا يخرجه ذلك عن كونه كلام الله ، أبلغه إلى أمته عن ربه بصوته وروايته ولكن هو يتصرف بصوته فيرفعه تارة ، ويخفضه أخرى ، ويرجع الكلام مرة ، ويترك الترجيع أخرى إذ ذلك فعله الذى يفعله إذا شاء .

قال : « باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه الآية ، ومراده أن التفسير والإيضاح والتفهيم لكلام الله من فعل المفسر ، والمبين الموضح لمن لا يفهم ذلك الكلام ، وهذا كله فعل العباد وهو مخلوق ، كما أن القراءة ، والكتابة ، والحفظ فعل العبد وهو مخلوق .

وأما المكتوب المقروء والمحفوظ إذا كان من كتب الله ، فهو كلام الله .

وكذلك التفسير ، والتبليغ ، والتبيين ، فعل العبد المفسر المبين ، وهو مخلوق وأما المفسر المبين المبلغ فهو كلام الله .

ومثل ذلك الترجمة من لغة إلى أخرى ، فإن الترجمة فعل المترجم ، ولهذا استدل فى كتابه خلق أفعال العباد ، على أن كلام العباد مخلوق ، وهو من أفعالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ ثم قال : « فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد »[1] .

وروى عن حماد بن زيد أنه قال : « من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر »[2] .

---

(١) انظر ص ١٩٦ .

(٢) المصدر ص ١٩٣ .

وقال أيضا : « وقد كتب النبى ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر ، على قيصر وأصحابه ، ولا نشك فى قراءة الكفار ، وأهل الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء ، فهو كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله ، لقول النبى ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله »(١) .

يعنى أن الصوت الذى تكون به القراءة ونحوها فعل ذلك المصوت ، وفعل العبد مخلوق .

قال الحافظ : « وجه الدلالة من الآية ، أن التوراة بالعبرانية ، وقد أمر الله تعالى أن تتلى على العرب ، وهم لا يعرفون العبرانية ، فقضية ذلك الإذن بالتعبير عنها بالعربية »(٢) . وتقدم وجه مراده بالباب .

قوله : « وقال ابن عباس : أخبرنى أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ثم دعا بكتاب النبى ﷺ فقرأه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل ، و ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية .

أبو سفيان كنية ، ويكنى أيضا بأبى حنظلة ، واسمه صخر بن حرب بن أمية مشهور باسمه وكنيته ، أسلم عام الفتح وكان رئيسا لقومه قبل ذلك ، وشهد مع النبى ﷺ حنينا والطائف ، وروى أن عينه أصيبت يوم الطائف ، فقال له رسول الله ﷺ إن شئت دعوتُ فردت عليك ، وإن شئت فالجنة ، قال : الجنة ، مات فى خلافة عثمان سنة أربع وثلاثين ، وقيل غير ذلك ، رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله جميعا(٣) .

هرقل : هو ملك الروم : هذا اسمه وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٦ .
(٣) انظر الإصابة جـ ٣ ص ٤١٢ والاستيعاب جـ ٢ ص ٧١٤ .

القاف ، ولقبه قيصر ، وهو لكل من ملك الروم كما أن كسرى لقب لمن ملك الفرس .

وهذا جزء من الحديث الطويل المذكور فى بدء الوحى وغيره .

قال الحافظ : « ووجه الدلالة منه أن النبى ﷺ كتب إلى هرقل باللسان العربى ، ولسان هرقل رومى ، ففيه إشعار بأنه اعتمد فى إبلاغه ما فى الكتاب على من يترجم عنه بلسان المبعوث إليه ليفهمه ، والمترجم المذكور هو الترجمان » .

واستدل فى خلق أفعال العباد بقصة هرقل على أن القراءة فعل القارئ .

فقال : قد كتب النبى ﷺ إلى قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه ، ولا يشك فى قراءة الكفار أنها أعمالهم ، وأما المقروء فهو كلام الله — تعالى — ليس بمخلوق ، ومن حلف بأصوات الكفار ونداء المشركين لم يكن عليه يمين ، بخلاف ما لو حلف بالقرآن »[1] .

وتقدم نقل هذا ، والحافظ تصرف فيه .

وفيه دليل على جواز إرسال الكتب التى فيها شىء من القرآن إلى الكفار ، وفيه كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول الكتب ، وبداءة صاحب الكتابة بنفسه ، وفيه قرن العبودية بالرسالة .

١٦٥ — قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عمر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٦ .

ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، و ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾ الآية .

المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود ، والعبرانية لغتهم التى أنزلت التوراة بها ، وقد أخبر الله تعالى أنهم تعمدوا تحريفها ، والزيادة فيها والنقصان منها ، لتتفق مع أهوائهم ، وما يريدون ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يوثق بترجمتهم وتفسيرهم لها ، مع أن الله تعالى قد أغنانا عما فى أيديهم بما أنزل علينا من كتابه المهيمن على جميع الكتب قبله ، وبما جاء به نبينا ﷺ من الحكمة التى تفسر القرآن وتبينه .

روى الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة من حديث جابر أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » قال الحافظ : « رجاله موثقون إلا أن مجالدا فيه ضعف »[1] .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] .

وكان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقرأ هذه الآية ﴿ قُولُوٓاْ آمَنَّا ﴾ والآية التى فى سورة آل عمران ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٤ .
(٢) الآيتان ١٣٦ و ١٣٧ من سورة البقرة .

الآية[1] فى ركعتى الفجر .

وفى الدر المنثور : « أخرج ابن أبى حاتم ، عن معقل بن يسار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »[2] .

قوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » . قال الحافظ : أى إذا كان ما يخبرونكم به محتملا ، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقا ، فتكذبوه ، أو كذبا فتصدقوه فتقعوا فى الحرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله .

ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض فى المشكلات ، والجزم فيها بما يقع فى الظن ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك »[3] .

والمقصود أن الترجمة والتفسير ليست هى ذلك الكتاب المترجم أو المفسر ، ولا تسمى الترجمة أو التفسير قرآنا ، أو إنجيلا ، أو توراة .

« بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير ، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره ، وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم ، وتجويز إقامة الترجمة مقامه فى بعض الأحكام لا يقتضى تناول اسمه لها ، كما أن القيمة فى الزكاة إذا أخرجت عن الإبل أو البقر أو الغنم لم تسم إبلا ولا بقرًا ، ولا غنمًا ، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت »[4] .

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران .
(٢) جـ ١ ص ٣٣٨ .
(٣) الفتح جـ ٨ ص ١٧٠ .
(٤) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٤٢ .

« مع أن أكثر المنتسبين إلى العلم من المسلمين لا يستطيعون القيام بترجمة معانى القرآن ، وتفسيره ، وبيانه ، فلأن يعجز اليهود عن ترجمة ما عندهم ، وبيانه أولى .

لأن عقل المسلمين أكمل ، وكتابهم أقوم قيلا ، وأحسن حديثا ، ولغتهم أوسع ، لا سيما إذا كانت تلك المعانى غير محققة بل فيها باطل كثير ، فإن ترجمة المعانى الباطلة وتصويرها صعب ، لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه »[1] .

والمقصود أنه إذا ترجم كتاب الله من لغة إلى أخرى فإن الترجمة ليست هى كلام الله ، وإنما هى ترجمة لكلامه تعالى ، وهى غير المترجم بل هى عمل المترجم ، ومعلوم أن عمل الإنسان مخلوق مثله .

وليس الأمر كما تقوله الأشعرية إن كلام الله لا يختلف باختلاف اللغات ، فبأى لسان قرئ فهو كلام الله .

بل إذا ترجم من لغة إلى أخرى ، لم يكن هو كلام الله تعالى ، وهذا هو ما أراد البخارى بيانه فيما يظهر والله أعلم .

١٦٦ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا إسماعيل ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أتى النبى ﷺ برجل ، وإمرأة من اليهود ، قد زنيا ، فقال : ما تصنعون بهما ؟ قالوا : نسخم وجوههما ، ونخزيهما ، قال : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فجاءوا فقالوا لرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليه ، قال : ارفع يدك فإذا

(١) المرجع جـ ٤ ص ١١٧ .

فيه آية الرجم تلوح ، فقال : يا محمد : إن عليهما الرجم ، ولكننا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما فرجما ، فرأيته يجانئ عليهما الحجارة » .

قد أمر الله نبيه أن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه أو أن يعرض عنهم ، فإنهم لا يضرونه شيئا .

وأخبر تعالى أنهم إذا جاءوه ليحكم بينهم ليس قصدهم حكم الله ، فإنهم يعلمونه فى كتابهم ، وإنما يحكمونه رجاء أن يحكم بينهم بما يهوونه ، قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

فنهى الله ــ تعالى ــ رسوله أن يحزن على المسارعين فى الكفر من أهل الكتاب وأهل النفاق ، الخارجين عن طاعة الله ، وطاعة رسله ، المقدمين لآرائهم وأهوائهم على شرائع الله تعالى ، ومن الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خاوية منه منطوية على الكفر بالله ورسله وعبادة الشهوات ، وهم ما بين يهودى قد نصب العداء لله ولدينه ومن اتبعه ، فهو يجهد نفسه فى محاربته ، أو زنديق كره الحق ومن جاء به ومن اتبعه ، وكل منهم قد أكل قلبه الحقد على هذا الدين ، وعلى من اتبعه ، وكل منهم سماع للكذب يقوله ،

---

(١) الآيات ٤١ ــ ٤٣ من سورة المائدة .

وينميه ، ويسمعه ويقبله ، وأكال للسحت غير مبال بعاقبته ، وهم مع ذلك أهل تحريف ، وتزييف اتباعا لأهوائهم وبعدا عن الحق ، ومحاربة له ، يوصى بعضهم بعضا بعدم قبول ما يخالف أهواءهم وأنظمتهم التى وضعوها ، ووفق ما يشتهون ، وما توحيه إليهم شياطينهم أولئك الذين أراد الله تعالى فتنتهم ، فلا أحد يملك هدايتهم ، لأن قلوبهم نجسة فلا تقبل طهارة الإيمان ، وإنما هى محل للكفر وكل خلق خبيث .

وقد خير الله رسوله بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم ، وأمره إن حكم أن يحكم بينهم بالعدل ، وإن كانوا أعداء لله ورسوله ، فإن الله حكم عدل يحب العدل وأهله .

وأخبر تعالى أن أمر هؤلاء عجيب ، كيف يحكمونك وعندهم كتاب الله التوراة فيها حكمه واضح لهم ، ولكنهم يعرضون عنه طلبا لما يهوونه ، وليس هذا شأن المؤمنين ، ولكنه نهج الكافرين .

روى أبو داود من حديث أبى هريرة قال : « زنى رجل من اليهود ، وامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبى ، فإنه نبى بعث بالتخفيف ، فإن أفتانا بفتيًا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، قلنا : فتيا نبى من أنبيائك .

قال : فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم ، فقام على الباب ، فقال : « أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ قالوا : يحمم ويجبه — والتجبيه : أن يحمل الزانيان على حمار ، وتقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما —

قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى ﷺ سكت ألظ به النشدة ، فقال : اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم .

فقال النبى ﷺ : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟

قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخر عنه الرجم ، ثم زنى رجل فى أمرة من الناس ، فأراد رجمه ، فحال قومه دونه ، وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجئ بصاحبك فترجمه ، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم .

فقال النبى ﷺ : « فإنى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما .

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ كان النبى ﷺ منهم »[1] .

فهذه القصة تبين سبب مجيئهم إلى النبى ﷺ وأن الذى جاء بالزانيين هم اليهود ، رجاء أن يحكم عليهما بغير ما أتى فى التوراة من الرجم ، ولكنه ﷺ أحيا حكم الله فيها بعد ما أماتوه .

قوله : « ما تصنعون بهما ؟ » يعنى ما هو حكم الله فيهما الذى فى كتابكم ، فكتموه ، وقالوا : « نسخم وجوههما ، ونخزيهما » أى نسود وجوههما بالفحم ، ويركبان على حمار يطاف بهما فى الطرق ، قفا كل واحد إلى قفا الثانى ، وهذا هو الخزى الذى يفعلونه بهما .

فقال لهم النبى ﷺ : ﴿ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن ما ذكرتم هو حكم الله فيهما الذى فى التوراة .

ومعلوم أنهم ينقلون ما فيها بالعربية كما هو ظاهر لأن الرسول ﷺ لا يعرف العبرانية .

« فقالوا لرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه » يرضون ـــ يعنى يثقون به ، وأنه موافق لهم على كتمان

---

(١) السنن جـ ٤ ص ٥٩٨ رقم ٤٤٥٠ وفيه رجل مجهول .

آية الرجم ، ويحتمل أن الكتاب الذى يقرأ بغير العربية ، وأنه يقرأه ويترجمه ، ويحتمل أنه قد ترجم إلى العربية ، فعلى الأول وضعه يده على الموضع الذى فيه آية الرجم لإخفائها عمن يعرف لغتهم ممن أسلم ، أو لا يوافقهم ، وعلى الثانى ظاهر .

قوله : « ارفع يدك » ، قيل : إن القائل عبد الله بن سلام ، كما فى بعض الروايات ، وهذا يؤيد الاحتمال الأول .

« تلوح » يعنى أنها واضحة لمن يقرأ ذلك الكتاب .

« نتكاتمه فيما بيننا » يعنى يتواطئون على كتمانه ، وعدم إظهاره لأحد .

« يجانئ عليها الحجارة » يعنى أنه يقيها بنفسه عن الحجارة .

والمقصود أن الأمر بتلاوة التوراة على من لا يعرف اللغة التى كتبت بها لابد أن يكون ذلك عن ترجمة لها ، ثم اعتماد تلك الترجمة مما يقتضى الاكتفاء بترجمة المترجم وإن كان واحدا .

والترجمة ليست هى المترجم ، وإنما هى فعل المترجم وعمله .

وفعله وعمله مخلوق ، وهذا هو المراد بالاستدلال بهذه القصة .

وفيه دلالة ظاهرة فى أن اليهود كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها . وأنهم يعرفون الحق ، ولا يتبعونه ، بل يتعمدون تركه .

قال : « باب قول النبى ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » .

قصد البخارى ــ رحمه الله ــ بهذا الباب زيادة إيضاح ما سبق فى الأبواب قبل هذا ، من أن التلاوة فعل التالى ، فهى داخلة فى أفعال العباد ، ولهذا

توصف بالمهارة ، وهى جودة الحفظ ، وعدم التردد فى التلاوة ، وتوصف بالحسن والمد ، والترتيل ، والتطريب ، وتحسين الصوت ، وبأضداد ذلك ، كما سبق وصفها بالترجيع ، والخفض ، والرفع ، ومد الصوت .

وهذا كله يحقق أن التلاوة فعل القارئ الذى يقرأ القرآن .

قوله : « الماهر » قال الأزهرى : « الماهر : الحاذق بكل شيء ، وأكثر ما يوصف به السابح ، يقال مهرت بهذا الأمر أمهر به مهارة ، إذا صرت به حاذقا »[1] .

قال الحافظ : « الماهر : هو الحاذق ، والمراد به هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ .

والمراد بالسفرة : الكتبة جمع سافر ، مثل كاتب وزنه ومعناه ، وهم هنا الذين ينقلون من اللوح المحفوظ[2] وصفوا بالكرام لكثرة طاعتهم ، وبعدهم عما يشين .

والبررة : المكثرون فى الطاعة ، المبالغون فيها .

وقال الحافظ : « المطيعون ، المطهرون من الذنوب ، والكرام : المكرمين عند الله »[3] .

ومعلوم أن إكرام الله لهم لطاعتهم ، وبرهم .

ورواية مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران »[4] .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٦ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥١٨ .
(٣) المصدر المذكور .
(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ٥٤٩ — ٥٥٠ رقم ٧٩٨ .

فالمهارة بالقرآن : جودة الحفظ ، وجودة التلاوة ، من غير تردد فيه ، لأن الله تعالى يسره عليه كما يسره على الملائكة الكرام البررة ، فكان مثلهم فى قراءة القرآن ومعهم فى الدرجة عند الله تعالى .

وتقدم الكلام على معنى قوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ، وأن المراد به تحسين الصوت حتى يجذب المستمع إلى الإصغاء إليه ، ويجد به لذة ، وينفتح له قلبه وتحسين الصوت فعل العبد ، ووصفه ، ولهذا قال فى خلق أفعال العبد :

« فبين النبى ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراستهم وتعليمهم ، وألسنتهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت وأرتل ، وأعلى ، وألحن ، وأخف ، وأغض ، وأخشع ، قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ، وأجهر ، وأخفى ، وأمهر ، وأمد ، وألين ، وأخفض من بعض ، ثم ذكر بسنده عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يشتد عليه له أجران »[1] .

١٦٧ ــ قال : « حدثنى إبراهيم بن حمزة ، حدثنى ابن أبى حازم ، عن يزيد ، عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : « ما أذن الله لشىء ، ما أذن لنبى حسن الصوت بالقرآن ، يجهر به » .

رواية مسلم : « ما أذن الله لشىء ، ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »[2] .

وكأن قوله « يجهر به مدرج فى الحديث ، ومعنى « ما أذن » ما استمع

---

(١) خلق أفعال العباد ، ص ٩٣ ــ ٩٤ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٤٥ .

لشيء كاستماعه لنبي حسن الصوت ، يتغنى بالقرآن ، فالله تعالى يحب حسن الصوت فيمن يتلو كتابه ويستمع لذلك الصوت أكثر من غيره ، وإلا فهو تعالى لا يفوت سمعه صوت .

والقرآن هنا اسم جنس لكل كتاب أنزله الله تعالى على نبي من أنبيائه .

وقوله يجهر به تفسير لقوله يتغنى به ، وهو كلام لأحد رواة الحديث وتقدم شرح هذا الحديث في باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ .

والمقصود منه هنا قوله : « ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن » فأضاف حسن الصوت إلى النبي ، لأنه فعله وعمله ، وبين أنه مطلوب منه ، ومحبوب لله تعالى فتبين بهذا أن التلاوة وتحسين الصوت بها ، والجهر بها وخفض الصوت كله فعل العبد ، والعبد وأفعاله مخلوق .

وأما القرآن الذي يحسن صوته به ، ويرفعه أو يخفضه ، فهو كلام الله غير مخلوق .

١٦٨ ـــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكل حدثني طائفة من الحديث قالت : فاضطجعت على فراشي ، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيًا يتلى ، ولشاني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ عشر الآيات كلها » .

« الإفك » هو الكذب الظاهر البين ، وهو من عظائم الذنوب .

« طائفة من الحديث » أى قطعة منه ، وهو جمع حديثهم ، ولم يكونوا متفقين على جميعه ، والقائل هو ابن شهاب الزهرى .

« وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة » يعنى أن ما قاله أهل الإفك بعيد عنها ، وليست من أهله ، فهى أعلم بنفسها ، وعلى يقين من أن الله سيظهر براءتها لنبيه وعباده ويجزى الأفاكين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ وأهله والمؤمنين .

قال أبو بكر ابن العربى : « كل من سب عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ بما برأها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كـذب الله ، فهو كافر ، وهذا قول مالك ، وهو أمر واضح لأهل البصائر »[1] .

وقال القاضى أبو يعلى : « من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر ، بلا خلاف .

وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد ، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم .

فروى عن مالك : من سب أبا بكر جلد ، ومن سب عائشة قتل ، قيل له : لم ؟ قال : من رماها فقد خالف القرآن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري : سمعت القاسم بن محمد يقول : لإسماعيل بن إسحاق : أتى أمير المؤمنين بالرقة برجلين شتم أحدهما فاطمة ، والآخر عائشة فأمر بقتل الذى شتم فاطمة ، وترك الآخر ، فقال إسماعيل : ما حكمهما إلا أن يقتلا ، لأن الذى شتم عائشة رد القرآن ، وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقة والعلم ، من أهل البيت وغيرهم .

---

(١) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١٣٥ .

وقال أبو السائب القاضى : كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الداعى ، وكان بحضرته رجل ، فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة ، فقال : يا غلام اضرب عنقه ، فقال له العلويون : هذا رجل من شيعتنا ، فقال : معاذ الله هذا رجل طعن على النبى ﷺ قال الله تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبى ﷺ خبيث ، فهو كافر فاضربوا عنقه ، فضربوا عنقه وأنا حاضر ، رواه اللالكائى ، وروى عن محمد بن زيد ، أخى الحسن بن زيد ، أنه قدم عليه رجل من العراق ، فذكر عائشة بسوء ، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله ، فقيل له : هذا من شيعتنا ، ومن بنى الآباء ، فقال : هذا سمى جدى — يعنى رسول الله ﷺ — قرنان[1] ومن سمى جدى قرنان استحق القتل فقتله .

وأما سب غير عائشة من أزواج النبى ﷺ ففيه قولان : أحدهما أنه كساب غيرهن من الصحابة .

والثانى وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين ، فهو كقذف عائشة رضى الله عنها .

وذلك لأن هذا فيه عضاضة على رسول الله ﷺ وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده ، وهذا ظاهر[2] .

« وأن الله يبرئنى » أى أنها على علم ويقين بأن الله تعالى سيظهر براءتها لنبيه ، بأمر يطلعه عليه إما رؤيا يريها إياه ، أو غير ذلك ، غير أنها ما كانت تنتظر أن ينزل فى شأنها وحيا من كلامه تعالى يتلى إلى يوم القيامة كما وقع

---

(١) قال الليث : القرنان نعت سوء فى الرجل ، الذى لا غيرة له ، قال الأزهرى : هذا من كلام حاضرة العراق ، ولم أر البوادى لفظوا به ، ولا عرفوه » تهذيب اللغة جـ ٩ ص ٩٣ .

(٢) من الصارم المسلول ص ٥٦٥ — ٥٦٧ .

يدعوه ، ويتضرعوا إليه ، ويفعلوا ما أمرهم به ، ودعاؤهم بذكر أسمائه وصفاته وثناؤهم عليه بها .

وكذلك القيام بإبلاغ رسالته ، التى أرسل بها رسله .

قوله : « لقوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال الحسن : اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى » . وقال سعيد بن جبير : « اذكرونى بطاعتى ، أذكركم بمغفرتى » وفى رواية « برحمتى »[1] .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اذكر لقومك ، وقص عليهم خبر نبى الله نوح ﷺ حين قال لقومه يبلغهم رسالة ربه إليهم ، وذلك من ذكره لربه ، إن كان عظم عليكم ، وشق بكم قيامى فيكم أذكركم بنعم الله وأخوفكم نقمه ، وأدعوكم إلى طاعته وتوحيده بالعبادة والطاعة ، إن كان ذلك عظم عليكم فتهيئوا واستعدوا لما تريدون أن تصنعوه بى ، فإنى توكلت على الله لا على غيره فسوف يكفينى ويحمينى ، أما أنتم فأجمعوا قوتكم ، واستعينوا بمعبوداتكم من دون الله ، واحذروا أن يكون أمركم عليكم وبالًا وعذابًا ونكالًا ، وهمًّا وضيقًا ، لأنكم تحاربون الله ورسوله ومن كان حربا لله ورسوله ، فهو مخذول ، ومرذول ومقهور .

﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى عجلوا إلى بما تريدون أن تصنعونه بى ، ولا تؤخرونى ساعة ، فهو ﷺ يتحداهم بذلك لأنه واثق بالله تمام الثقة ، فلم يستطيعوا أن ينالوه ، وهذا من علامات نبوته ، كيف رجل واحد ، لا جنود معه ولا سلطة ، يقف أمام هذه الأمة العظيمة يتحداهم بأن ينزلوا به كل ما يستطيعون من عذاب ، ويستحثهم على ذلك فلا يستطيعون أن يصلوا إليه بأذى مع عداوتهم الشديدة له .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٦ .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أى إن أعرضتم عما أدعوكم إليه ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ولم أطلب منكم على ذلك شيئا من أموالكم ، ولكن أجرى على ربى ، فهو الذى سيجزينى على إبلاغ رسالته إليكم ، وهذا كله من ذكر نوح عليه السلام لربه .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى أمرنى ربى أن أسلم له وأنقاد لأمره ، مذعنا ، خائفا من عذابه ، راجيا ثوابه ، وهذا من ذكر الله تعالى لعبده ورسوله نوح عليه السلام .

« افرق » اقض . كلمة افرق فى آية أخرى ، ولكن عادة البخارى رحمه الله أنه يذكر النظير مع نظيره ، لاجتماعهما فى المعنى ، ولهذا ذكر قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لمناسبته مع قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ .

وما ذكره عن مجاهد فى الآية واضح ، ومراده أن المستجير يسمع كلام الله من المبلغ بصوت المبلغ ، ونطقه ، وصوته ونطقه من فعله ، وهو مخلوق ، أما المبلغ المنطوق به ، فهو كلام الله ـــ تعالى ـــ وصفته ، كما تقدم بيان ذلك من كلام البخارى ـــ رحمه الله .

وقوله : « صوابا : حقا فى الدنيا وعمل به » . قال ابن بطال : « يريد قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى حقا فى الدنيا وعمل به ، فهو الذى يؤذن له فى الكلام ، بين يدى الله بالشفاعة لمن أذن له .

قلت[1] : وهذا وصله الفريابى ، عن مجاهد ، بالسند المذكور .

قال الكرمانى : عادة البخارى أنه إذا ذكر آية لمناسبة الترجمة يذكر معها ما يتعلق بتلك السورة ، التى فيها تلك الآية مما ثبت عنده من تفسير ، ونحوه على سبيل التبعية ، وكأنه لم يظهر له وجه مناسبة هذه الآية الأخيرة بالترجمة .

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .

والذى يظهر فى مناسبتها أن تفسير قوله ﴿ صَوَابًا ﴾ يقول الحق والعمل به فى الدنيا يشمل ذكر الله باللسان ، والقلب مجتمعين ، ومنفردين ، فناسب قوله : « ذكر العباد بالدعاء والتضرع » انتهى[1] .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ فَلا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ وقوله جل ذكره : ﴿ وتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ﴾ .

قال فى اللسان : « الند بالكسر : المثل والنظير ، وهو مثل الشىء الذى يضاده فى أموره ، ويناده ـــ أى يخالفه .

قال الأخفش : الند : الضد ، والشبه ، وقوله : « يجعلون لله أندادًا » أى أضدادا ، وأشباها ، قال : حسان :

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

أى لست له بمثل فى شىء من معانيه »[2] .

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ : الأنداد جمع ند ، والند العدل ، والمثل ، كما قال حسان ، ثم ذكر البيت . ثم قال : يعنى بقوله : ولست له بند : لست له بمثل ، ولا عدل ، وكل شىء كان نظيرا لشىء وشبيها فهو له ند ، ثم ذكر بسنده إلى قتادة ، قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى عدلاء ، وعن مجاهد : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى عدلاء .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٠ .
(٢) اللسان جـ ٣ ص ٦٠٧ المرتب .

وعن ابن عباس وابن مسعود : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله .

وعن ابن أبى زيد : الأنداد : الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له ، وعن ابن عباس : أشباها .

وعن عكرمة : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أى تقولوا : لولا كلبنا لدخل علينا اللص الدار ، ولولا كلبنا صاح فى الدار ، ونحو ذلك ، فنهاهم الله — تعالى — أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندا ، وعدلا فى الطاعة ، فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم ، وفى رزقكم الذى أرزقكم ، وملكى إياكم ، ونعمتى التى أنعمتها عليكم ، فكذلك فأفردوا لى الطاعة ، وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندا من خلقى ، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم منى »[1] .

وفى الدر المنثور : « أخرج الطستى ، عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق . قال له : أخبرنى عن قول الله — عز وجل — ﴿ أَندَادًا ﴾ ؟ قال : الأشباه والأمثال ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

أحمد الله فلا ند له   بيديه الخير ماشا فعل

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن ماجه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال : قال رجل للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : جعلتنى لله ندا ، ما شاء الله وحده .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ تحقيق محمود شاكر .

والبيهقى عن حذيفة بن اليمان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وفلان ، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » وذكر أحاديث فى ذلك[1] .

وهذا يدل على أن جعل الند لله عام فى الأفعال ، والأقوال ، والنيات ، ويكون فى الشرك الأكبر ، والأصغر ، كما فى الرواية عن عكرمة : هو قول الرجل : لولا كلبنا لدخل علينا اللصوص .

وكذلك فى كل ما هو لله فشرك المخلوق فيه ، مثل أن يجعل كلامه تعالى ككلام عباده ، أو صفة من صفاته ، كصفة عباده ، فيكون بذلك جعل لله ندا ، وهذا مراد البخارى رحمه الله من الاستدلال بهذه الآيات التى ذكرها هنا .

قال ابن كثير : « وقال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه ، وهكذا قال قتادة .

ثم ذكر عن ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ .

قال : الأنداد : هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتى ، ويقول : لولا كلبة هذا ، لأتانا اللصوص ، البارحة ، ولولا البط فى الدار ، لأتى اللصوص .

وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : « لولا الله

---

(١) الدر المنثور جـ ١ ص ٨٧ — ٨٨ .

وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك »[1] .

وهذا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعظم ، وذلك أن الشرك أن يجعل المخلوق مشاركا لله فى شيء من خصائص الله مطلقا ، كما سبق قريبا فالحلف بغير الله شرك ، سواء كان المخلوف به معظما كالنبى والكعبة ، أو غير معظم ، ويدخل فى ذلك مراد البخارى كما أشرت إليه .

« قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب ، إثبات نسبة الأفعال كلها لله ـــ تعالى ـــ سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهى لله ـــ تعالى ـــ خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله ـــ تعالى ـــ فيكون شريكا وندا ، ومساويا له .

وقال الكرمانى : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفى الشريك عن الله سبحانه ـــ تعالى ـــ فكان المناسب ذكره فى أوائل كتاب التوحيد .

لكن ليس المقصود هنا ذلك ، بل المراد بيان كون أفعال العباد بخلق الله ـــ تعالى ـــ إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله ، وشركاء له فى الخلق ولهذا عطف ما ذكر .

وتضمن الرد على الجهمية فى قولهم : لا قدرة للعبد أصلا ، وعلى المعتزلة ، حيث قالوا : لا دخل لقدرة الله ـــ تعالى ـــ فيها .

والمذهب الحق : « أن لا جبر ولا قدر ، بل أمر بين أمرين »[2] .

يعنى لا جبر كما تقوله الجهمية الذين جعلوا العبد كالآلة ، لا قدرة له ولا اختيار .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧ ـــ ٥٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩١ .

ولا ينفى تقدير الله تعالى لأفعال العباد فى الأزل ، وخلقها ، كما تقوله المعتزلة ، بل الحق إثبات قدرة العبد ، وأنه يفعل باختياره ، وإرادته لا أحد يجبره على الفعل ، والله — جل وعلا — خلقه وخلق أفعاله ، وقدر عليه كل ما يجرى عليه قبل إيجاده ، وكتب ذلك ، وعلمه تعالى محيط بكل شيء ونفس فعل العبد ، وإن كان الله خالقه ، فالعبد هو الفاعل لفعله حقيقة فهو المتحرك بالأفعال ، باختياره ، وبه قامت أفعاله ، ومنه صدرت والله خالقه ، وخالق أفعاله .

قال الحافظ : « غرضه هنا الرد على من لم يفرق بين التلاوة والمتلو ، ولذلك أتبع هذا الباب بالتراجم المتعلقة بذلك مثل باب : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وباب ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ ﴾ ، وغيرهما .

وهذه المسألة هى المشهورة بمسألة اللفظ ، ويقال لأصحابها اللفظية .

وقد ظن بعضهم أن البخارى خالف أحمد — فيها ، وليس كذلك — بل من تأمل كلامه لم يجد فيه خلافا معنويا .

لكن العالم من شأنه إذ ابتلى فى رد بدعة يكون أكثر كلامه فى ردها ، دون ما يقابلها .

فلما ابتلى أحمد بمن يقول : القرآن مخلوق ، كان أكثر كلامه فى الرد عليهم حتى بالغ ، فانكر على من يقف ، ولا يقول : مخلوق ، ولا غير مخلوق ، وعلى من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، لئلا يتذرع بذلك من يقول : القرآن بلفظى مخلوق ، مع أن الفرق بينهما واضح لا يخفى عليه ، لكنه قد يخفى على البعض[1] .

---

(١) قوله : « حتى بالغ فأنكر على من يقف » إلى آخر كلامه عن أحمد ، كلام غير سديد ، بل إنكار أحمد رحمه الله ذلك ، لأن الواقف لم يفرق بين الحق والباطل ، والواجب أن يعرف الحق ويقول به ، ولا يقف مترددا ، لأن وقوفه يوهم باطلا . =

وأما البخارى ، فابتلى بمن يقول : أصوات العباد غير مخلوقة ، حتى بالغ بعضهم ، فقال : والمداد ، والورق بعد الكتابة .

فكان أكثر كلامه فى الرد عليهم ، وبالغ فى الاستدلال بأن أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث ، وأطنب فى ذلك حتى نسب أنه من اللفظية »[1] .

وقال أبو بكر الضبعى : « لم يزل الله متكلما ، ولا مثل لكلامه ، لأنه نفى المثل عن صفاته ، كما نفى المثل عن ذاته ، ونفى النفاد عن كلامه ، كما نفى الهلاك عن نفسه ، فقال : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى ﴾ وقال : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[2] .

فيجب التفرقة بين ما هو لله صفة وفعلا ، وبين ما هو للمخلوق صفة وفعلا وأن يوحد الله فى خصائصه وحقوقه ، وأن لا يجعل لأحد من الخلق شركة فى صفات الله وأفعاله ، ومن ذلك الفرق بين أفعال التالى لكتاب الله ، وما هو صفة لله وهو كلامه المتلو .

ومذهب أهل السنة أن الله خالق كل شىء . وهو ربه ومالكه ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه خلق العبد هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا .

وإن العبد فاعل لأفعاله حقيقة ، وله مشيئة وقدرة حقيقة كما قال تعالى :

= وكذلك قوله : لفظى بالقرآن مخلوق ، أو غير مخلوق ، يوهم باطلا ، لأنه قد يراد باللفظ ، الملفوظ وهو القرآن ، وإذا قال غير مخلوق : يدخل فيه فعل القارئ من حركات لسانه ، وصوته ، وفعل القارئ مخلوق ، فهذا هو مراد أحمد رحمه الله ، ولدقته قال البخارى رحمه الله : أنهم لم يفهموا كلام أحمد ، ولذلك أنكره ابن قتيبة .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢) فبين تعالى أن العباد لهم مشيئة يفعلون بها إذا شاؤا ، وأنها تابعة لمشيئة الله لأنه المالك لكل شيء المتصرف فيه .

وزعمت المعتزلة أن أفعال العباد القبيحة ، من الكفر والمعاصى غير داخلة فى مشيئة الله ، وتقديره ، لأن الله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين .

وقالت الجبرية : ليس للعبد فعل فى الحقيقة ، والأفعال كلها لله ، والعبد كاسب لا فاعل ، وقدرة العبد لا تأثير لها فى حدوث مقدورها ، غير أن الله — تعالى — أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من الله ، وإبداعا وإحداثا منه تعالى ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته ، والعبد ليس محدثا لأفعاله ، ولا موجدا لها ، وهذا قول الأشعرية . ومع ذلك ينكرون أن يكونوا جبرية ، لأنهم يقولون : نحن نثبت للعبد قدرة حادثة ، والجبرية لا تثبت ذلك .

وفرقوا بين الكسب الذى أثبتوه للعبد ، وبين الخلق الثابت لله بأن الكسب : عبارة عن اقتران قدرة العبد الحادثة بالمقدور ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة .

وبأن الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه .

وهذا فرق لا حقيقة له ، فإن كون المقدور فى محل القدرة ، أو خارجا

---

(١) الآيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة التكوير .
(٢) الآيتان ٢٩ و ٣٠ من سورة الإنسان .

عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه .

والصواب أنه لا فرق بين كون العبد فاعلا الفعل ، أو كاسبا له ، فإن الكسب مرادف للفعل والعمل ، فيقال : فعل وعمل ، وكسب وأوجد ، وأحدث ، وصنع كلها بمعنى واحد .

وعمل العبد ، وصنعه ، وإحداثه ، وكسبه ، مقدور له بقدرته الحادثة وهو قائم فى محل القدرة .

والاقتران الذى ذكروه ، لا يكون كسبا ، ولا فعلا ، وإنما هو تخيل لا حقيقة له .

وأصل خطئهم من عدم التفريق بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول وزعمهم أن الله ــ تعالى ــ ليس له أفعال تقوم به ، وأن فعله للشىء هو عين المفعول .

ومن المستقر فى الفطر والعقول أن فاعل الإيمان هو العبد المؤمن ، وفاعل الكفر هو العبد الكافر ، وفاعل الصدق هو الصادق ، وفاعل الكذب هو الكاذب ، وفاعل الظلم هو الظالم ، كما أن فاعل الأكل هو الآكل وفاعل الشرب هو الشارب .

وهكذا كل فعل لابد أن يقوم بالفاعل ، كما أن العالم من قام به العلم والحى من قامت به الحياة ، وكل صفة تقوم بالمتصف بها .

والقرآن مملوء بما يدل على هذا كقوله ــ تعالى ــ ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(1) .

وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾(2) وقوله : ﴿ إِنَّ

(1) الآية ١٧ من سورة السجدة .
(2) الآية ١٠٥ من سورة التوبة .

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[1] وأمثالها كثير جدا .

واتفق العقل مع الشرع على أن العبد يحمد ، ويذم على فعله .

قال شيخ الإسلام : « قول القائل هذا فعل هذا ، وعمل هذا ، لفظ فيه إجمال ، فإنه تارة يراد بالعمل نفس الفعل ، وتارة يراد مسمى المصدر ، فيقول : فعلت هذا ، أفعله فعلا ، وعملت هذا أعمله عملا ، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذى هو مسمى المصدر ، كصلاة الإنسان ، وصيامه ، ونحو ذلك ، فالعمل هنا هو المعمول ، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل .

وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب ، وبناء الدار ، ونحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول ، قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾[2] فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإنه فى أصح القولين « ما » بمعنى الذى ، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] أى والله خلقكم ، وخلق الأصنام التى تنحتونها ، ومنه حديث حذيفة ، عن النبى ﷺ : « إن الله خالق كل صانع وصنعته »[4] .

لكن قد يستدل بالآية على أن الله خالق أفعال العباد من وجه آخر ، فيقال : إذا كان خالقا لما يعملون من المنحوتات ، لزم أن يكون هو الخالق لتأليف

---

(١) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٣ من سورة سبأ .
(٣) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .
(٤) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٣٩ .

الذى أحدثوه فيها ، فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف ، وإلا فهى بدون ذلك ليست معمولة لهم .

وإذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم .

والمقصود أن لفظ الفعل ، والعمل ، والصنع ، وأنواع ذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة ، تقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى المفعول .

وكذلك لفظ التلاوة والقراءة ، والكلام ، والقول ، يقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول ، والكلام .

فيراد بالتلاوة ، والقراءة نفس القرآن ، المقروء المتلو ، كما يراد به مسمى المصدر ، فإذا قال القائل : هذه التصرفات فعل الله ، أو فعل العبد ، فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر ، فهذا باطل باتفاق المسلمين ، وبصريح العقل ، وإن أراد أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات ، فهذا حق »[1] .

فالذين أنكروا أن يكون لله تعالى فعل يقوم به ، لم يفرقوا بين فعله ومفعوله ، وخلقه ، ومخلوقه .

والفرق واضح ، فأعمال العباد مخلوقة لله ـــ تعالى ـــ مفعولة له ، ليست هى نفس فعله ، وإنما هى فعل العباد ، قائمة بهم ، وهى أيضا مفعولة لهم إذا أريد بالفعل المفعول .

وخلق الله تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته كما تقدم التنبيه على ذلك .

فأفعال العباد مخلوقة لله كسائر مخلوقاته ، ومفعولة له ، وهى فعل العباد حقيقة ، وقائمة بهم حقيقة .

فالكفر ، والكذب ، والظلم ، ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من قامت

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٢١ ـــ ١٢٢ .

به وفعلها ، ولا يتصف بها من خلقها ، وجعلها صفة لغيره .

فكما أن الله ــ تعالى ــ لا يكون متصفا بما خلقه فى خلقه من الألوان والروائح ، والطعوم ، فكذلك لا يكون متصفا بالفعل الذى خلقه فى عباده ، وجعله وصفا لهم .

وبهذا تزول شبهة المعتزلة ومن وافقهم ، فى نفيهم الأفعال القبيحة أن تدخل تحت مشيئة الله وخلقه محتجين بأنه تعالى منزه عن القبيح والله أعلم .

قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أول الآية : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

ينكر تعالى على المشركين الكافرين به ، الذين يعبدون معه غيره ، من الأوثان التى لا تملك لهم ، ولا لنفسها نفعا ، ولا ضرا ، ومع ذلك يجعلونها نظراء وشبهاء لله رب العالمين ، فى التوجه إليها بالعبادة ، يطلبون منها أن تتوسط لهم عند الله وتشفع لهم ، وهى ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء .

والمقصود من الآية أن من سوى المخلوق بالله فى صفة من الصفات ، أو فعل من الأفعال ، أو فى ما يجب له من الحق فقد جعل لله ندا ، وأشرك بالله غيره .

فقول الله ، وكلامه ، لا يشبه قول عباده وكلامهم ، فمن زعم أن قول العباد يشبه قول الله فقد جعل لله ندا ، وكذلك سائر أوصافه .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

---

(١) الآية ٩ من سورة فصلت .

قال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت ليحبطن عملك يقول : لئن أشركت بالله شيئا يا محمد ليبطلن عملك ، ولا تنال به ثوابا ، ولا تدرك به جزاء إلا جزاء من أشرك بالله .

وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم أى أوحى إلى الذين من قبلك من الرسل مثل الذى أوحى إليك ، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك[1] .

وفى هذه الآية تعظيم أمر الشرك لأن الله تعالى وجه الخطاب إلى رسوله ﷺ بأنه لو أشرك لحبط عمله ، وأصبح من الخاسرين ، فكيف بغيره من سائر الناس ، ومثلها قوله ــ تعالى ــ بعد ما ذكر فضل الأنبياء ونعمته عليهم : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ووجه الاستدلال بالآية التحذير من الوقوع فى أى نوع من أنواع الشرك مثل أن يعتقد أن صفة الله كصفات الخلق ، أو كلامه ككلامهم ، فمن وقع فى ذلك ، فقد وقع فى الشرك المحبط للأعمال ، وصاحبه من الخاسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ هذه الآية فى سياق ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين يخشونه ، ولا يخشون أحدا غيره ، ويتجهون إليه بالدعاء والعبادة وحده ، ويبيتون ليلهم سجدا لله وقياما ، رجاء ثوابه ، وخوفا من عقابه .

وهذه الآية بمعنى الحديث الآتى ، وقد جاء فى رواية ، أن ابن مسعود لما ذكر الحديث عن النبى ﷺ قال : فنزل تصديق ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الآية .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ١٦ طبعة بولاق .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الأنعام .

والمقصود الثناء على المؤمنين الذين لا يدعون مع الله إلها آخر غيره ، ومثل ذلك الابتعاد عن القول بأن شيئا من أوصاف الله وأفعاله يكون مثل أوصاف المخلوقين وأفعالهم ، تعالى الله وتقدس .

فمن ابتعد عن الشرك كله بأنواعه ، فهو المستحق لثناء الله ، وهو عبد الله المستوجب لوعده بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1] .

ولكون الشرك يقع من الناس كثيرا ، وأكثرهم يجهل أنواعه ، ذكر قول عكرمة : « ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ ، و ﴿ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، فذلك إيمانهم ، وهم يعبدون غيره » . يعني أن إيمانهم هو إقرارهم بتوحيد الربوبية وعلمهم بأن الله هو المتفرد بالخلق .

روى ابن جرير ، عن عكرمة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال : هو قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، فإذا سئلوا عن الله ، وعن صفته ، وصفوه بغير صفته ، وجعلوا له ولدا ، وأشركوا به »[2] .

قوله : « وما ذكر فى خلق أفعال العباد وأكسابهم » يعنى أن أفعالهم ، وأكسابهم مخلوقة لله تعالى ، وإن كانت فعلا لهم حقيقة ، ولا فرق بين الفعل ، والكسب كما قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ فالكسب هو العمل .

والذين يجعلون أفعال العباد ، وأكسابهم فعلا لله تعالى مشركون ،

---

(١) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٢٨٧ تحقيق محمود شاكر .

لأنهم جعلوا له ما للمخلوق .

كما أن الفريق الضال الآخر الذين يجعلون العباد خالقين لأفعالهم ، وموجدين لها مشركون بذلك . وهذا وجه إيراد البخارى رحمه الله للآيات التى سبق ذكرها . وتقدم الكلام على أفعال العباد .

ثم استدل على دخول أفعال العباد فى مخلوقات الله — تعالى — بقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فدخلت أفعالهم فى عموم ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، ودل قوله : ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ على أنه تعالى : أتقن ذلك ، غاية الإتقان حيث خلقها وجعلها مفعولة للعباد ، واقعة منهم ، بإراداتهم ، واختيارهم ، لم يرغموا عليها ، بل فعلوها راغبين فى فعلها ، مختارين لها ، ولذلك استحقوا عليها الثواب ، والعقاب .

قوله : « وقال مجاهد : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى بالرسالة ، والعذاب .

يعنى أن تنزل الملائكة هو فعلهم بأمر الله تعالى لهم طائعين ممتثلين أمر ربهم فالنزول منهم فعل لهم يستوجبون به الثناء من الله لأنهم أطاعوه بذلك فأفعالهم قائمة بهم يفعلونها باختيارهم ، كبنى آدم .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فهو فعل الله ، والضمير فى ﴿ لَهُ ﴾ عائد إلى الذكر . فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ .

وقوله : ﴿ عِندَنَا ﴾ أراد به بيان أن هذا فعل الله الخاص به .

وبين ذلك بقوله : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ « المبلغين المؤدين من الرسل »أى المؤدين الرسالة ، كما أمرهم الله .

فالصدق : فعل الصادقين ، والصادق ، هو المتصف بالصدق ، الذى قام به الصدق فعلا له ، فالصدق فعلهم وعملهم ، والله تعالى يسألهم عن عملهم .

والسؤال من الله فعله ـــ تعالى ـــ وقوله ، يسأل به الرسل ، عن تبليغهم ما أمرهم بإبلاغه لعباده ، وزاد ذلك إيضاحا بقوله :

﴿ وَٱلَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ القرآن : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ المؤمن ، يقول يوم القيامة : « هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه » .

فبين أن القرآن ـــ الذى فسر به الصدق ـــ غير التصديق ، بل التصديق فعل المصدق ـــ وهو المؤمن ، أو الرسول ـــ وهو عمله الذى يثاب عليه .

ولهذا يجيب ربه إذا سأله يوم القيامة : « ماذا عملت بما علمت ؟ » قائلا : هذا الذى أعطيتنى ـــ يعنى القرآن ـــ عملت بما فيه ، فتبين أن القرآن غير عمل القارئ ، فتحريك اللسان ، والشفتين ، والصوت ، ورفعه ، وخفضه ، هو عمل الرجل الذى يقرأ ، وأما المقروء المتلفظ به . فهو القرآن كلام الله ، وكلام الله غير عمل القارئ ، ولهذا قال : هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه مجيبا ربه .

١٤٦ ـــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، عن عبد الله ، قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك » ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى بحليلة جارك » .

الذنوب تتفاوت فى العظم ، فبعضها أعظم من بعض ، فيكون ما يترتب عليها من العقوبات كذلك .

وأعظم الذنوب الشرك بالله تعالى ، قال تعالى عن لقمان : ﴿ يَـٰبُنَىَّ

لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] فالشرك أعظم الذنوب عند الله ، فلذلك حرم على صاحبه الجنة ، وأخبر أن مأواه النار ، وأنه لا يخرج منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[4] .

فلذلك يتعين على المرء أن يجتهد غاية وسعه فى التعرف على أنواع الشرك ، حتى يجتنبها ، لأنه إذا لم يعرفها يوشك أن يقع فيها وهو لا يشعر ، فيكون فى ذلك هلاكه الأبدى . وتقدم القول فى الند .

قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » أسند الجعل إلى العبد لأنه فعله ولهذا استحق عليه عقاب الله وعذابه .

وقوله : « وهو خلقك » يعنى أن الدلائل على وجوب عبادة الله وحده ، وإخلاص العبادة له واضحة جلية ، مثل كونه تعالى هو المتفرد بالخلق ، والإيجاد من العدم وبالرزق ، فهو المستحق للعبادة وحده .

وقول عبد الله : « إن ذلك لعظيم » يعنى أن عظمه وقبحه مستقر فى نفوس العقلاء ، والناظرين فى شرع الله ، ودلائل وجوب عبادته .

قوله : « قلت : ثم أى ؟ » يعنى ما هو الذنب الذى يلى الشرك فى العظم عند الله .

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٢) جزء من الآية ١٦٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١١٦ من سورة النساء .

« قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » . قتل النفس بغير حق عمدا عظيم جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1] .

وفى الحديث الذى رواه أبو داود ، عن عبادة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بَلَّحَ »[2] أى لا يزال مسرعا فى سيره إلى الله ، وإنما يحبسه ويمنعه من السير إصابته الدم الحرام ، ومعنى « بلح » انقطع من العجز والإعياء ، فلم يستطع المشى . وهذا جزء من حديث طويل ، ولفظه :

« عن أم الدرداء ، قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا من مات مشركا ، أو مؤمن قتل مؤمنا متعمدا » .

فقال هانى بن كلثوم سمعت محمود بن الربيع يحدث ، عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قتل مؤمنا فاعتبط بقتله ، لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » ، قال لنا خالد : ثم حدثنى ابن أبى زكريا عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بلَّح »[3] .

وعن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٦٤ .

(٣) انظر السنن جـ ٤ ص ٤٦٣ ــ ٤٦٤ رقم ٤٢٧٠ .

على الله من قتل مؤمن بغير حق »(1) ، والأحاديث فى هذا فيها كثرة .

والقتل مع عظمه يتفاوت ، فبعضه أعظم من بعض ، وأعظمه أن يقتل الرجل ولده ، لأن الله جعل له من الشفقة ، والحنو ، والحب ما لا ينكر ، وأمر الله تعالى بمراعاة حقه ، فإذا بدل مكان الإحسان الواجب له أعظم إساءة وهى القتل استحق على ذلك أعظم العقوبة ، فكيف إذا كان الباعث على القتل خوف الفقر ، وأن يشاركه فى مأكله ، فإنه ينضاف إليه بذلك جرائم أخرى قوله : « قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، الزنا جريمة نكراء ويتفاوت جرمه حسب قرب المزنى بها وبعدها عنه ، وحسب الحقوق التى تجب مراعاتها أكثر فى الشرع .

فإذا كانت ذات قرابة من جهة النسب فالزنا بها أعظم ، وكذلك إذا كانت زوجة قريب منه ، أو زوجة من له حق الجوار ، فإن جريمة ذلك أعظم مما لو زنا بمن هى بعيدة عنه قرابة وجوارا .

قوله : « أن تزانى » يدل على المفاعلة ، ومعنى ذلك أن تطاوعه المرأة على الفاحشة ، وفى ذلك دليل على أنها إذا لم تطاوعه فالذنب أعظم .

والحليلة : هى التى يحل وطؤها ، وتحل معه فى فراش واحد .

والشاهد من الحديث قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

فالإنسان هو الذى يجعل الند ، ويفعل ذا حقيقة ، فهو فعله الذى يباشره ويقوم به ، ويتصف به ، فإذا فعل ذلك فهو المشرك ، ولذلك استحق العذاب العظيم ، وأضيف إليه الذنب لأنه صدر منه .

---

(1) رواه ابن ماجه فى السنن جـ ٢ ص ٨٧٤ رقم ٢٦١٩ قال المنذرى : إسناده حسن ورواه النسائى رقم ٣٩٨٧ .

فتبين الفرق بين قول الله ــ تعالى ــ وفعله ، وبين قول العبد وفعله ، وهو ما أراده المؤلف .

فإذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التى لا تماثل صوت الرب تعالى ، وما نقرؤه من القرآن فهو كلام الله ــ تعالى ــ مبلغا عنه ، لا مسموعا منه ، وإنما سمعه منه جبريل ، ونحن نقرؤه بحركاتنا ، وأصواتنا .

فالكلام كلام البارى ، والصوت صوت القارئ . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، فهو يسمع كلامه ممن يقرؤه عليه ويبلغه إياه ، لا من الله تعالى .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ » .

روى مسلم ، عن أنس ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : « أتدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب : ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال : لأركانه انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام قال : فيقول : بعدًا لكُنَّ ، وسحقا ، فعنكن كنت أناضل »[1] .

« قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب إثبات السمع لله ، وأطال فى تقرير ذلك وتقدم فى أوائل التوحيد فى قوله : ﴿ وَكَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

والذى أقول : أن غرضه فى هذا الباب إثبات ما ذهب إليه أن الله يتكلم

---

(١) مسلم جـ ٨ ص ٢١٧ .

متى شاء »[1] .

والظاهر أن غرضه فى هذا الباب قريب من الذى قبله ، وهو بيان أن أعمال العباد واقعة بفعلهم ، وأن الكلام يكون صفة لمن تكلم به ، فالأعضاء حين تشهد على صاحبها تنطق بكلام لها حقيقة ، مضاف إليها على الحقيقة فهو صفة لها لأنه قام بها ، فكذلك كل متكلم فكلامه فعله ووصفه .

وهذا يدل على أن المتكلم بكلام لغيره لا يكون ذلك الكلام مضافا إليه وصفا له ، بل هو ناقل أو مبلغ ، وأما حركة لسانه وشفتيه ، وتصويته به فهى أفعاله ، والمصوت به الذى تحرك اللسان والشفتان به هو كلام ذلك الغير ، كما تقدم .

وأعمال العباد كلها مخلوقة محدثة .

قال البخارى رحمه الله : « وكل من لم يعرف الله بكلامه ، أنه غير مخلوق فإنه يُعَلَّمُ ، ويُرَدُّ جهله إلى الكتاب والسنة ، فمن أبى بعد العلم به كان معاندا ، لقوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] .

فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد[3] ، ويدعيه كل لنفسه ، فليس بثابت كثير من أخبارهم ، وربما لم يفهموا دقة مذهبه ، بل المعروف عن أحمد ، وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق ، وما سواه مخلوق ، وأنهم كرهوا البحث ، والتنقيب عن الأشياء الغامضة ، وتجنبوا أهل الكلام ، والخوض ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٦ .

(٢) الآية ١١٥ من سورة النساء .

(٣) يعنى : الذين يقولون : ألفاظنا ، وتلاوتنا للقرآن مخلوقة ، فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن مخلوق ، والفريق الثانى الذين يقولون : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة .

والتنازع ، إلا فيما جاء فيه العلم ، وبينه رسول الله ﷺ .

حدثنا إسحاق ، أنبأنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال : سمع النبي ﷺ قوما يتدارءون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه بعضا ، ما علمتم منه فقولوا وما لا ، فكلوه إلى عالمه » .

وكل من اشتبه عليه شيء فأولى أن يكله إلى عالمه ، كما قال عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ ولا يدخل فى المتشابهات إلا ما بين له .

حدثنا أحمد بن أشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ثم ذكر حديث ابن مسعود الآتى .

ثم قال : حدثنا موسى ، عن وهيب ، عن داود ، عن الشعبى ، فى بيع المصاحف « أنه لا يبيع كتاب الله ، وإنما يبيع عمل يديه » .

ثم ذكر آثارا فى ذلك ، وذكر قول النبى ﷺ فى أبى موسى : « أوتى مزمارا من مزامير آل داود » ، وقوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ثم قال :

« وعامة هذه الأخبار مستفيضة عند أهل العلم ، ولا ريب فى تخليق مزامير آل داود ، وندائهم ، لقوله عز وجل : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ، ثم قال : « فبين أن التلاوة من النبى ﷺ وأصحابه ، وأن الوحى من الرب » . ثم ذكر أحاديث وآيات وآثارا كثيرة ، ثم قال : « ومما يقوى قول الشعبى فى بيع المصاحف أنه إنما يبيع عمل يديه ، قول زياد بن لبيد — رضى الله عنه — للنبى ﷺ :

« كيف يرفع العلم وقد ثبت ووعته القلوب »[1] فهذا الذى ذكره يبين ما أراده هنا ، وهو ظاهر من الآية التى ترجم بها ، عند التأمل ، لأنها فى سياق ما ذكره الله عن أهل النار ، من كلام أعضائهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « أى تقول لهم الأعضاء والجلود ، حين يلومونها على الشهادة عليهم : « ما كنتم تكتمون منا الذى كنتم تفعلون ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر ، والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم »[2] .

وبهذا يتبين أن هذا قول الأعضاء ذكره الله عنها على ما سيقع يوم القيامة .

ولهذا لا يقال : إن هذا ليس كلام الله ، بل هو كلام الأعضاء حكاه الله عنها ، لأن الأعضاء لم تتكلم إلى الآن ، وإنما ستتكلم يوم القيامة ، والله عز وجل علم ما سيكون وما تتكلم به ، فذكره لعباده ليحذروا الوقوع فيما يوجب شهادة الأعضاء عليهم ، فهو كلام الله تكلم به ، وأخبر به عما سيقع وحتى الكلام الذى وقع وذكره تعالى عمن قاله ، فإن ذلك يكون كلامه كما حكى عن الأنبياء وقومهم وغيره .

والمقصود أن الاستدلال بالآية المذكورة على أن أعمال الإنسان وأقواله — ومن ذلك قول الأعضاء — تقع منهم على الحقيقة ، وتقوم بهم ، وعليها

---

(١) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص ٧٠ ــ ١٠٥ تحقيق بدر .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٩٦ طبعة الحلبى .

يستحقون الجزاء ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأن أعمال العبد مخلوقة لله تعالى لأن الله هو الخالق وحده ، وجعلهم عاملين لها حقيقة ، وتقدم بيان ذلك .

١٤٧ـــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن مجاهد ، عن أبى معمر ، عن عبد الله ـــ رضى الله عنه ـــ قال : اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشى ، أو قرشيان وثقفى ـــ كثيرة شحم بطونهم ، قليلة فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إذا جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا ، فإنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ الآية .

قوله : « كثيرة شحم بطونهم » كثيرة صفة لشحم وأنثه لأن شحم مضاف إلى البطون ، وكذا صفة القلوب ، والمعنى أن هؤلاء كبار الجسوم لكن فقههم قليل ، ولهذا صدرت منهم تلك المقالة الدالة على قلة فهمهم .

والشاهد من الآية لمقالتهم هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كما فى قول أحدهم : إن جهرنا سمع ، وإن أخفينا لم يسمع ، والآخر الذى هو أفقه من هذا علق علم الله بذلك بقوله : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فهو شاك فى ذلك ، ولهذا وصفهم عبد الله ـــ رضى الله عنه ـــ بقلة الفقه ، وتقدم وجه استدلال المؤلف بذلك .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

وقال ابن مسعود عن النبى ﷺ : « إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » .

يريد بهذا بيان أن الله ـــ تعالى ـــ يحدث ما يريد إحداثه ، فى أى وقت أراد ، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التى هى أوصاف له ، فيحدث الأمر من أمره ـــ تعالى ـــ والكلام ويطلق عليه أنه حدث ، ومحدث ، لأنه وجد بعد ما قبله ويسمى كلامه حديثا ، ويطلق عليه أنه حادث ، ومحدث بمعنى الجديد الذى تكلم به بعد كتبه السابقة له ، ولهذا قال : وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين .

فمن ذلك كلامه ، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه ، وأمره لمن يأمره ، ونهيه ، وإجابته لمن يدعوه ، وإحياؤه لمن يريد حياته وإماتته لمن يريد أن يميته ، وإذلال من يريد ذله ، وإعزاز من يشاء ، وهدايته من يشاء ، وإضلال من يشاء ، وتصرفه فى خلقه وملكه كيف يشاء .

« قال عبيد بن عمير : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال : من شأنه أن يجيب داعيا ، ويعطى سائلا ، أو يفك عانيا ، أو يشفى سقيما » .

وقال مجاهد : « كل يوم يجيب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبا » .

وقال قتادة : « لا يستغنى عنه أهل السماوات ، والأرض ، يحيى حيا ، ويميت ميتا ، ويربى صغيرا ، ويفك أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم » .

وقال سويد بن جبلة : إن ربكم كل يوم فى شأن ، فيعتق رقابا ، ويعطى

رغابا ، ويقحم عقابا »[1] .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن مثيب الأزدى ، قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فقلنا : يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ويضع آخرين »[2] وعلقه البخارى جازما به ، عن أبى الدرداء ، موقوفا »[3] ، ورواه ابن ماجة مرفوعًا[4] .

ونقل الحافظ فى كلامه على هذه الترجمة قول ابن بطال ، وقول الكرمانى وغيرهما ، وأطال فيما هو بعيد عن مراد البخارى ، لأنهم يحاولون شرح ما ذكره على ما يتفق مع عقيدة الأشاعرة ، مع أنه مباين لها .

قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ قيل هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى دنت القيامة وقربت ، والناس عنها غافلون لا هون فى دنياهم .

وإذا جاءهم ذكر من الله جديد ، قريب العهد بالله ، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم ، وفيه عظتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة استمعوه سماع غافل لاه لاعب .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحى الذى أنزل الله على رسوله . فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أى جديد إنزاله »[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٧٠ طبعة الشعب .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٧٩ .
(٣) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٨١ .
(٤) انظر السنن جـ ١ ص ٧٣ رقم ٢٠٢ ورواه ابن حبان فى صحيحه ، عن أبى الدرداء ، مرفوعا قال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » الإحسان جـ ٢ ص ٣٨ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٢٥ .

وقال أبو جعفر بن جرير ـــ رحمه الله ـــ « يقول ـــ تعالى ذكره ـــ : ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ، ويذكرهم به ، ويعظهم إلا استمعوه ، وهم يلعبون »[1] .

وقوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » لما ذكر الله ـــ جل وعلا ـــ حكمه في المطلقة ، وأمره بأن تطلق لعدتها ، وأمر بإحصائها ، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها ، مادامت في العدة ، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة ، وأخبر ـــ تعالى ـــ أن هذا من حدوده التي حدها ، ونهى عن تعديها ، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه . بعد ذلك قال تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ .

يعني يحدث للزوجين حالا غير ما كانا عليه وقت الطلاق ، بأن تتبدل الكراهية رغبة ، والبغض حبا ، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه ، والزوجة كذلك .

قال ابن جرير : « ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ : يقول ـــ جل ثناؤه ـــ : لا تدري ما الذي يحدث ، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة »[2] .

والمقصود الذي أراده المؤلف ـــ رحمه الله ـــ من هاتين الآيتين ، أن الله تعالى يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه ، ويأمر ، وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور ، وذلك المنهي عنه بعينه لمن وجه إليه الأمر والنهي ، وهذا هو معنى الحدث الذي أراد بيانه ، وهو الفعل المتجدد الذي يتعلق بمشيئته تعالى سواء كان كلاما ، أو أمرا ، أو نهيا ، أو إحياء لميت ، أو إماتة لحي ، أو هداية ضال ، أو ضلال غاوٍ ، أو تغيرا لحكم شرعه قبل

---

(1) جـ ١٧ ص ٢ .
(2) تفسير الطبري جـ ١٢ ص ٨٧ .

ذلك ، أو أذن به ، أو تغيير ما فى نفوس بعض خلقه ، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده — جل وعلا — ، كما تقدم فى معنى قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ . قال شيخ الإسلام : « هذا يدل على أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ، لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتينى من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ، ونحو ذلك .

ويعلم أن المحدث فى الآيتين ليس هو المخلوق ، الذى يقوله الجهمية .

ولكنه الذى أنزل جديدا ، فإن الله كان ينزل من القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم فى لغة العرب ، كما قال : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ وقال : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾[1] .

ومراد الإمام البخارى — رحمه الله — من هاتين الآيتين الرد على من ينكر أفعال الله تعالى من القول ، والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته ، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية ، والمعتزلة ومن تشعب عنهما ظانين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات وجود الخالق له — تعالى — إلا بإثبات حدوث الأجسام ، ولا يمكن إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة ، التى يسمونها الحوادث ، فلذلك قالوا : كل من قامت به الحوادث أو كان محلا لها فهو حادث .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٢٢ .

وهذا الذى حدا بهم إلى إنكار صفات الله ، وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته .

وعليهم توجه رد الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ فى هذا الكتاب ، كما قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق ، وهو فعل الرب ، وأمره ، فالرب ــ تعالى ــ بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون ، غير المخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه ، فهو مفعول مكون مخلوق » .

ثم بعد ذلك قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم » .

ثم ذكر قول عبد الله بن مسعود : « إذا تكلم الله بالوحى » إلى آخره ، وذكر حديث عبد الله بن أنيس وفيه : « فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » .

وذكر حديث أبى هريرة : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها » إلى آخره ، وحديث أبى سعيد الخدرى : « يقول الله يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » إلى آخر ما ذكره من الأبواب التى من تدبرها ، وتأمل ما تحتها من النصوص تبين له دقة فهمه رحمه الله ، وتبين له بطلان مذهب أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

ولكن المشكلة أننا لم نعثر على شرح لكتابه ، على نهجه ، يوضح مراده ويبسط حججه ، ويبينها إلى الآن ، بل كل الشروح التى وصلت إلينا تقرر عكس مراده ، والله المستعان .

والمقصود أن الإمام البخارى رحمه الله يرى أن الله تعالى يوصف بأنه يحدث

ما يشاء من القول ، والأمر ، والفعل ، وهذا ما دل عليه العقل والفطرة وكتب الله ، ولهذا قال : « وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ » .

فكما أنه تعالى لا مثل له فى ذاته ، كذلك فى أفعاله ، وأوصافه وأحداثه التى يحدثها مما يتعلق بمشيئته ، وهَى أفعاله ، وهذا هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

قوله : « وقال ابن مسعود ، عن النبى ﷺ إن الله عز وجل يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » .

هذا طرف من حديث رواه أبو داود ، وأحمد ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه وصححه ، من طريق عاصم بن أبى النَجود ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، قال :

« كنا نسلم فى الصلاة ، ونأمر بحاجتنا ، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو يصلى ، فسلمت عليه فلم يرد على السلام ، فأخذنى ما قدم وما حدث ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « إن الله — عز وجل — يحدث من أمره ما يشاء ، وإن الله — تعالى — قد أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة ، فرد على السلام »(١) .

وفى رواية النسائى : « وإن مما أحدث » ، وأصل القصة فى الصحيحين .

فقوله ﷺ : « إن الله يحدث ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » موافق لقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ ولا يصف الله — أعلم منه — تعالى — ولا أعلم من رسوله بعده ، ومن لم يرض بما قاله الله ورسوله فبعدا له .

١٤٨ — قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا حاتم بن

---

(١) انظر سنن أبى داود جـ ١ ص ٢١٢ باب رد السلام فى الصلاة وانظر المسند جـ ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ وانظر الإحسان جـ ٤ ص ٧ وانظر النسائى جـ ٣ ص ١٩ رقم ١٢٢١ .

وردان ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله ، تقرءونه محضا لم يشب » .

يعنى أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم ﷺ فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التى قضى الله — تعالى — أن تنزل إلى الأرض من عنده ، فهو أحدثها بالله ، وأقربها عهدا به ، وقد وصل إلينا خالصا ، ليس فيه ما يداخله من غيره ، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود ، أو النصارى عما فى أيديهم من كتبهم .

وقد أعلمنا الله — تعالى — أنهم حرفوها ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا : هذا من عند الله ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] إلى غير ذلك مما ذكره الله تعالى عنهم من الكذب ،

---

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٧١ من سورة آل عمران .

والتزوير ، وتحريف كلام الله عن مواضعه ، وتغييره وتبديله .

والشاهد فيه قوله : « وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله » . وهذا معنى كونه محدثا ، يعنى أنه قريب عهده بالله تعالى بأن تكلم به وأنزله بعد الكتب السابقة ، بل تكلم به تعالى فى مناسبات تعرفون كثيرا منها .

ومعنى قوله : « محضا لم يشب » : يعنى أنه لم يخالطه شىء من غيره .

١٤٩ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله ، أن عبد الله بن عباس قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله ، وغيروا فكتبوا بأيديهم ، قالوا : هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنا قليلا ، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

هذا يدل على أنه كان من المسلمين فى عهد ابن عباس من يسأل أهل الكتاب ويكتب أخبارهم وذلك فى آخر عهد الصحابة ، وكان الصحابة ينهون عن ذلك ، ويحذرون منه ، لأنهم يعرفون كذبهم ، وتحريفهم لكتاب الله ، ولاستغنائهم بما جاء به نبيهم ﷺ .

وقد روى البخارى أن أمير المؤمنين معاوية ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين ، الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب »[1] أى نجرب عليه الكذب فى أخباره .

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٣ .

« روى الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة من حديث جابر ، أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل ، فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » ورجاله ثقات إلا أن مجالدا فيه ضعف »[1] .

ولهذا نهى ابن عباس عن سؤالهم ، وبين أنه ليس هناك ما يدعو إلى سؤالهم وقد أغنى الله المسلمين بكتابه الذى تولى حفظه بنفسه ، فلا يقدر أحد على تغييره وتبديله ، وهو أيضا آخر الكتب نزولا من عند الله فهو أحدثها به نزل عليكم بعد كل الكتب التى يحدثونكم عنها .

مع أن الذى عندهم قد اختلط الحق فيه بالباطل ، فلا يتميز ، وما كان فيه من حق فهو منسوخ بالقرآن الذى جاء به خاتم النبيين ﷺ .

ومما يدل على أن أهل الكتاب لا يريدون الحق كونهم لا يسألون المسلمين عما جاء به نبيهم ، وهذا مما يمنع من سؤالهم . وقد سبق ذكر بعض الآيات التى تنص على تحريفهم وتبديلهم الكتاب بما يكذبونه ليشتروا به من حطام الدنيا ما استطاعوا ، فمثل هؤلاء حرام سؤالهم ، لأنهم يضلون من سألهم .
والشاهد قوله : « وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله » ، والحديث هو الجديد ، ضد القديم ، وهذا معنى قوله فى الآية ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أى جديد وقوله : « محضا لم يشب » أى خالصا ، لم يخالطه شيء من غيره .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ وفعل النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحى » .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٣٤ .

يقصد بهذا التمييز بين فعل العبد ، وفعل الرب تعالى وصفاته .

فتحريك النبى ﷺ لسانه بالوحى هو فعله ، ولكن المحرك به اللسان هو كلام الله وصفته ، ولهذا قال :

« وفعل النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحى ، يعنى أنه كما قال ابن عباس : يعالج من الوحى شدة ، وكان يحرك شفتيه بالقرآن ، وذلك عندما يتلوه عليه جبريل ، فيحرك لسانه وشفتيه بما يقرؤه جبريل خوفا من أن يفوته شيء منه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك حيث يقول :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى تستعجل بحفظه مخافة أن يفوتك فلا تحفظه .

وتكفل الله له بأن يحفظه إياه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يقول تعالى لنبيه : لا تستعجل إذا سمعت جبريل يقرأ عليك القرآن فتحرك به لسانك وشفتيك مخافة أن لا تحفظه ، بل أنصت ، واستمع لما يقرأه جبريل ، فنحن نجمعه ، فلا يذهب منه شيء .

و « قرآنه » يعنى قراءته التى يقرؤها عليك جبريل ، فإذا قرأه فاتبع قرآنه » فكان ﷺ يستمع لما يقرؤه عليه جبريل ، فإذا انتهى قرأه النبى ﷺ .

وهذا الذى كان النبى ﷺ يفعله من تحريك شفتيه ولسانه وما يعالج من الشدة ، كل ذلك فعله وعمله ، وهو مخلوق .

أما ما يحرك به لسانه وشفتيه ، فهو كلام ربه جل وعلا ، ومثل ذلك جبريل .

قال المؤلف فى بدء الوحى ـــ بسنده عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل

شدة ، وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾ قال : جمعه لك فى صدرك ، وتقرأه . ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ قال : فاستمع له وأنصت . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما قرأه »[1] ، وسيأتى قريبا .

وقال فى خلق أفعال العباد : « سمعت عبد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : مازلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة ، — يعنى حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المبين المثبت فى المصاحف ، المسطور ، المكتوب ، الموعى فى القلوب ، فهو كلام الله ، ليس بمخلوق ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ، فذكر أنه يحفظ ويسطر »[2] .

وقال أيضا : « فأما المداد ، والرق ، ونحوه فإنه مخلوق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله فى ذاته هو الخالق ، وخطك ، واكتسابك من فعلك خلق ، لأن كل شىء دون الله بصنعه ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[5] .

وقال أيضا : « وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان ، قال : أن

---

(١) البخارى جـ ١ ص ٤ .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٧ .
(٣) الآية ٢ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٤ من سورة الزخرف .
(٥) خلق أفعال العباد ص ٤٩ .

تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟

قال : نعم ، ثم قال : ما الإسلام ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله .

فذكره ، قال : إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها وما فيها من حركات الركوع ، والسجود فعلا للعبد »[1] .

وقال : « قال الله عز وجل : ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، ولكنه كلام الله تلفظ به العباد ، والملائكة ، وبَيَّنَ ذلك ما حدثنى به عبد العزيز ابن عبد الله ــ وذكر سنده ــ إلى النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدا ، نادى جبريل : يا جبريل أحب فلانا ، فينوه بها جبريل فى حملة العرش ، فيحبه أهل العرش ، فيسمع أهل السماء السابعة لغط أهل العرش ــ وذكره »[2] .

فحب جبريل ، ونداؤه لأهل العرش وأهل السماوات هو فعل جبريل ، وهو مخلوق .

وأما حب الله للعبد ونداؤه لجبريل فهو فعله تعالى .

وقال أيضا : « قال معاوية : لو شئت أن أحكى لكم قراءة رسول الله ﷺ لفعلت .

وسئل النبى ﷺ : أى الناس أحسن قراءة ؟ قال : « الذى إذا سمعته.رأيت عليه أنه يخشى الله عز وجل » .

---

(١) المصدر ص ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢ ــ ٧٣ .

ويذكر عن سعد ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ خير الذكر الخفى .

وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[2] .

وسمع معاذا قارئا يرفع صوته بالقرآن ، فقال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ .

حدثنا مسدد ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، سمعت أبا عثمان يقول : ما سمعت صنجا قط ، ولا بربطا ، ولا مزمارًا أحسن صوتا من أبى موسى ، إلا فلانا ، إن كان ليصلى بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته .

ويذكر عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ أنه قال : يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ، ويكتب علينا ؟ قال : وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم » .

فبين النبى ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراستهم وتعليمهم ، وألسنتهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت ، وأرتل ، وألحن ، وأعلى ، وأخف ، وأغض ، وأخشع .

وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[3] ، وأجهر ، وأخفى ، وأمد ، وأمهر ، وألين ، وأخفض من بعض »[4] .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠٨ من سورة طه .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٢ ـــ ٧٣ .

قوله : « وقال أبو هريرة : عن النبى ﷺ : « قال الله — تعالى — أنا مع عبدى إذا ذكرنى ، وتحركت بى شفتاه » .

هذا التعليق وصله المؤلف فى خلق أفعال العباد(١) .

ومراده من الحديث أن قوله : « وتحركت بى شفتاه » وكذا قوله : « إذا ذكرنى » أنه فعل العبد وعمله الذى يجازيه الله عليه ، والشفتان واللسان تتحرك بذكر الله واسمه وصفته ، لابذاته تعالى .

فمثل ذلك قراءة القرآن ، فإن اللفظ والصوت والحركة فعل العبد ، وهو مخلوق ، وأما ما يلفظ به ويقرؤه فهو كلام الله تعالى ، وقد تكرر هذا لأن المؤلف يكرره ، لأنه قد بلى بمن يقول قراءة العباد غير مخلوقة .

قال رحمه الله : « القراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : اقرءوا إن شئتم : يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » ، فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » ، فيقول — عز وجل — أثنى على عبدى ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » فيقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فيقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء ، والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

ثم روى عن أبى الدرداء : « سئل رسول الله ﷺ أفى كل صلاة قراءة ؟ قال : « نعم » ، فقال رجل من الأنصار : وجبت هذه ، قال النبى ﷺ : « اقرءوا إن شئتم » .

---

(١) ص ١٤١ تحقيق بدر .

فالقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبي ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » فذكر النبي ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف وأن بعضهم يزيد على بعض فى القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس فى القرآن : زيادة ولا نقصان ، فأما التلاوة فإنهم يتفاضلون فى الكثرة والقلة والزيادة والنقصان .

وقد يقال : فلان حسن القراءة ، ورديء القراءة ، ولا يقال : حسن القرآن ، ورديء القرآن .

وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الرب جل ذكره .

والقراءة فعل العبد ، لا يخفى معرفة هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه ، ولم يوفقه ، ولم يهده سبيل الرشاد .

وليس لأحد أن يشرع فى أمر الله — عز وجل — بغير علم ، كما زعم بعضهم : أن القرآن بألفاظنا ، وألفاظنا به شيء واحد ، التلاوة هى المتلو ، والقراءة هى المقروء .

فقيل له : إن التلاوة فعل التالى ، وعمل القارئ ، فرجع ، وقال : ظننتهما مصدرين .

فقيل له : هلا أمسكت ، كما أمسك كثير من أصحابك ؟ . ولو بعثت إلى من كتب عنك ، فاستردت ما أثبت ، وضربت عليه ؟

فزعم أن كيف يمكن هذا وقد قلتُ ، ومضى ؟

فقيل له : كيف جاز لك أن تقول فى الله — عز وجل — شيئا لا يقوم به شرح وبيان ، إذ لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟

فسكت إذ لم يكن عنده جواب »[1] .

١٥٠ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبو عوانة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال : كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال لى ابن عباس : أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرؤه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ ، قال : فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا أن تقرأه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما أقرأه » .

قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ أى لا تحرك بالقرآن لسانك ، فدل على أن المحرك به غير الحركة والتحرك ، فذلك فعل العبد ، بخلاف المحرك به فإنه القرآن .

قوله : « يعالج من التنزيل شدة » أى أنه كان يتحمل هما ، ويعانى كربا وخوفا من أن يذهب عنه ما يلقيه جبريل إليه ، فلذلك كان يحرك لسانه وشفتيه بترديد ما يقوله جبريل ، لعله يثبت معه ، وقد وصف ابن عباس لسعيد بالتمثيل مما يدل على أن ابن عباس قد شاهد رسول الله ﷺ فى تلك الحالة .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٤ — ١٠٥ والظاهر أن هذه المحاورة بين البخارى وبعض من خالفه فى ذلك .

فلما نهاه ربه تعالى : عن ذلك الفعل ، وأخبره أنه سوف يثبته فى صدره . وإنما عليه أن يستمع إلى جبريل ، وأن الله يتولى جمعه فى صدر النبى ﷺ وحفظه ترك ما كان يفعله وهذا من الحفظ للقرآن الذى أخبر تعالى أنه يحفظه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ .

فكان النبى ﷺ يستمع إلى جبريل ، فإذا انتهى قرأه النبى ﷺ كما قرأه جبريل .

قوله : « لتعجل به » أى إن تحريكه لسانه به ليتعجل بحفظه خوفا من فواته عليه أو نسيانه ، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ قال ابن عباس : فى صدرك ثم تقرؤه كما كان جبريل يقرؤه .

قوله : ﴿ وقُرْءَانَهُ ﴾ يعنى قراءته ، والمقصود قراءة جبريل له ، وبهذا سميت القراءة قرآنا .

قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ أى إذا قرأه عليك جبريل الذى أمره الله بذلك ، فاتبع قراءته ، فإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم ، الذى هو الله ــ تعالى ــ لأنه جل وعلا هو الآمر ، وهو المتكلم به وجبريل رسوله إلى محمد ﷺ والرسول يبلغ رسالة من أرسله .

قال فى خلق أفعال العباد : « حدثنا عبيد الله بن موسى ، وذكر سنده إلى سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ؟ فقال : قال ابن عباس : كان يحرك لسانه إذا نزل عليه ، فقيل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ يخشى أن يتفلت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى جمعه فى صدرك ﴿ وقُرْءَانَهُ ﴾ أن تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ ﴾ يقول : أنزل عليه ، ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نثبته على لسانك »[1] وفى رواية : « قال :

---

(١) ص ٨٤ ورواه فى الصحيح جـ ٦ ص ٢٠٣ .

علينا أن نجمعه فى صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله »[1] .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : « يقول جل ثناؤه : أخفوا قولكم ، وكلامكم أيها الناس ، أو أعلنوه وأظهروه ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ يقول : إنه ذو علم بضمائر الصدور التى لم يتكلم بها ، فكيف بما نطق به وتكلم به ، أخفى ذلك أو أعلن ، لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور ، فغيرها أحرى أن لا يخفى عليه .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ من خلقه ، يقول : كيف يخفى عليه خلقه الذى خلق ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ بعباده ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بهم وبأعمالهم »[2] .

قال الحافظ : « أشار بهذه الآية إلى أن القول أعم من أن يكون بالقرآن أو بغيره .

فإن كان بالقرآن ، فالقرآن كلام الله ، وهو من صفات ذاته فليس بمخلوق لقيام الدليل القاطع بذلك ، وإن كان بغيره فهو مخلوق ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قال ابن بطال : « مراده إثبات العلم لله صفة ذاتية ، لاستواء علمه بالجهر

---

(١) انظر الصحيح جـ ٦ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٥ طبع بولاق .

من القول والسر »[1] .

قلت كلا القولين لم يردهما البخارى ، أما قول ابن بطال ، فلا يتفق مع أحاديث الباب ، وظاهر أنه لم يرد ما زعمه ابن بطال .

وأما قول الحافظ : فينطبق على مذهب الأشاعرة الذين يجعلون كلام الله صفة ذاتية — يعنى أنه معنى قائم بذات الله تعالى ، والبخارى — رحمه الله — من أبعد الناس عن مثل هذا القول الباطل ، المتناقض .

والصواب أنه أراد بيان أن أفعال الله وأوصافه لا تشتبه بأفعال العباد وأوصافهم ، فإن أقوال العباد الموصوفة بأنهم يجهرون بها أو يسرونها هى أقوالهم وأعمالهم التى يجازيهم ربهم عليها بالثواب أو العقاب .

أما كلام الله تعالى وفعله فلا يكون وصفا للعباد ، بأنه قول لهم أو فعل لهم .

وقد بين مراده هذا فى كتابه خلق أفعال العباد ، فقال : « فأما المتلو فقول الله الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[3] وقال عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلا ، فيشفع لصاحبه » ، وهو اكتسابه وفعله .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[4] ، قال صعصعة ، عم الفرزدق لما سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية : حسبى قد علمت فيم الخير ، وفيم الشر .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠١ .
(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .
(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

وقد دخل فى ذلك قراءة القرآن ، وغيرها .

وقد بين الله ذلك قولا للمخلوقين حين قال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(١) .

فأخبر أن العمل من الحياة ، ثم بين خلقه فقال : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(٢) .

مع أن الجهمية ، والمعطلة إنما ينازعون أهل العلم على قول الله ، أن الله يتكلم ، وإن تكلم فكلامه مخلوق ، فقالوا : إن القرآن بعلم الله مخلوق ، فلم يميزوا بين تلاوة العباد ، وبين المقروء .

وقد رفع أبو بكر صوته بقوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾(٣) »(٤) .

يعنى أن الصوت الذى صوت به أبو بكر ورفعه هو من عمله وصفته ، أما المصوت به فهى آية من كتاب الله ، وهو كلام الله ، فيجب التفريق بين ما هو من فعل العبد وصفته ، وبين ما هو من فعل الرب وصفته .

وبهذا يتضح مراد البخارى ، وأنه ليس كما ذكر الحافظ ، وابن بطال ، والغريب أنه ذكر عن ابن المنير ما هو الصواب ، ولم يقتنع به فيما يظهر .

قال ابن المنير : « قصد البخارى الإشارة إلى النكتة التى كانت سبب محنته حيث قيل عنه : أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، فأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الخلق تتصف بالسر والجهر ، وذلك يستدعى كونها مخلوقة » .

---

(١) الآية ٢ من سورة الملك .
(٢) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .
(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة غافر .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٤ — ٧٥ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ ﴾ ثم قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ تنبيه على أن قولهم مخلوق ، وقوله: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ يعنى بقراءتك دل على أنها فعله ، وقوله : « من لم يتغن بالقرآن » فأضاف التغنى إليه دل على أن القراءة فعل القارىء »[1] .

قوله : « يتخافتون » : يتسارون ، بيان لقوله تعالى : ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[2] بأن المخافتة من الإسرار ، وذلك من أعمالهم .

١٥١ ــ قال : « حدثنى عمرو بن زرارة ، عن هشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ، ورسول الله مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ، ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

فقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ واضح فى أن المقصود القراءة ، وأن الجهر فعل النبى ﷺ ، وكذا الإخفات الذى نهى عنه ، ومثلهما التوسط بينهما كل ذلك فعله ، ولذلك صح أن ينهى عنه ، ولا يقول أحد بأن النهى عن القرآن ، أو عن الصلاة .

وبينه بقوله : « فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به » ، فنهاه الله تعالى عن رفع الصوت به لئلا يسبه المشركون ، كما نهاه عن الإسرار به لئلا يخفى على أصحابه ، وأمره بأن يقرأه قراءة يسمع بها أصحابه الذين معه ، ولا يسمعه المشركون الذين

---

(١) المتوارى ص ٤٢٨ .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة طه .

خارج البيت الذى هو فيه ، وهذا معنى قوله : وابتغ بين ذلك سبيلا .

فتبين بهذا أن القراءة غير المقروء ، وأن الصوت غير المصوت به ، وأن الجهر والإسرار ، والتوسط بينهما كل ذلك فعل القارئ ، التالى ، وهو من عمله الذى يؤمر به ، أو ينهى عنه ، ويجازى عليه .

أما المقروء ، والمصوت به فهو قول من كان ذلك القول له ، وصفته .

فإن كان من القرآن فهو قول الله ـــ تعالى ـــ وإن كان من غيره فهو قول ذلك الغير الذى قاله مبتدءا .

وقول عائشة فى الآية المذكورة : أنها نزلت فى الدعاء ، لا يخالف ما ذكره ابن عباس ، لأن الآية تنزل فى سبب معين ويدخل فى معناها غير ذلك المعين الذى نزلت من أجله .

وقد أمر الله تعالى بإخفاء الدعاء بقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾(٢) مع أن القراءة والصلاة من دعاء العبادة .

ووجه الدليل من الآية واضح وبين فيما سبق .

أ ١٥٢ ـــ قال : « حدثنا إسحاق ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرنا ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، وزاد غيره « يجهر به » .

« ليس منا » يعنى من المسلمين ، وهو وعيد لمن لم يفعل ذلك .

والأولى أن لا يتعرض لمثله بالتأويلات التى تخرج الكلام عن مراد المتكلم .

وسبق القول بأن الصواب فى التغنى أنه تحسين الصوت وتزيينه بالقرآن .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .

وجاء الأمر به كما رواه المؤلف رحمه الله فى خلق أفعال العباد ورواه غيره قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى عن الأعمش ، سمع طلحة ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « زينوا القرآن بأصواتكم »[(1)] .

وتفسير التغنى بالجهر لا ينافى ما ذكرته ، لأن السلف يفسرون الكلام ببعض مادل عليه ، ومقصودهم بهذا التفسير أن لا يدخل فيه ما يشبه الغناء فإنه مكروه كراهة شديدة ، أو محرم .

قال الكرمانى : « لم يتغن به » أى يجهر بقراءة القرآن ، وقيل يستغنى به .

وأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الناس تتصف بالجهر ، والإسرار ، وذلك يدل على أنها مخلوقة لله تعالى ، وكذا قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ دليل على أن قولهم مخلوق ، وكذا قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك يدل على أنها فعله ، وكذا قوله : « من لم يتغن بالقرآن » أضاف الفعل إليه »[(2)] .

وقال أيضا : « يجهر به » يتغنى ، ومعناه يجهر به بتحسين الصوت ، وتحزينه وترقيقه ، ويستحب ذلك ما لم تخرجه الألحان عن حد القراءة ، فإن أفرط حتى زاد حرفا ، أو أخفى حرفا فهو حرام »[(3)] .

وقال الخطابى : « أن العرب كانت تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أحوالها فلما نزل القرآن أحب أن يكون هِجّيراهم مكان الغناء ، فقال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[(4)] .

والشاهد من الحديث أن التغنى ، والجهر فعل العبد ، وهو مخلوق .

وأما المتغنى به المجهور به فهو كلام الله تعالى .

فتبين بذلك الفرق بين أفعال العباد ، وأوصافهم ، وأوصاف أعمالهم وبين فعل الله ، ووصفه ، ومرادنا بفعله الذى هو وصفه ، لا مفعوله كما هو اصطلاح الأشاعرة .

---

(١) ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ من طرق عدة وأحمد جـ ٤ ص ٢٨٣ وابن أبى شيبة جـ ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ٢١٩ .
(٣) المصدر جـ ١٩ ص ٣٠ .
(٤) المصدر جـ ١٩ ص ٣١ .

قال : « باب قول النبى ﷺ : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل .

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

هذه الترجمة كالتى قبلها ، وكذا الأبواب الآتية كلها فى بيان أن أعمال العباد منوطة بهم يفعلونها باختيارهم ، وأنها مخلوقة مثلهم .

وذلك مثل أصواتهم وتحريك ألسنتهم وشفاههم ، وحفظهم ودعائهم ، وتبليغهم ، وصلاتهم ، وكون الإنسان خلق هلوعا جزوعا منوعا ، فهذه أوصاف الإنسان ، والله خلقه كذلك .

وكذا روايتهم ، وبيانهم عن معانى كلام الله ، وأصواتهم حسنها وقبيحها ، ومهارتهم بالقرآن وغيره ، وكتابتهم ، وأدواتهم التى يكتبون بها ، وغير ذلك كلها عمل لهم ، وهم وأعمالهم مخلوقون .

فقوله : « آتاه الله القرآن » يعنى يسر له حفظه ، وأقدره عليه ، فحفظه وعمل به .

« فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار » أى يتلوه ويتهجد به فى الصلاة وخارجها أوقات الليل والنهار ، وهذا من أفضل الأعمال التى يؤجر عليها العبد .

فدل ذلك على أن تلاوته القرآن من عمله وعمله مخلوق ، فلزم أن تكون غير المتلو .

فالتلاوة عمل العبد ، وفعله ، والمتلو قول الرب تعالى وصفته كما تقدم .

« ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل » . هذا يبين أن التلاوة ، والقيام بالقرآن فعل التالى ، وعمله كما هو واضح .

ولهذا قال : « لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل » . قال البخارى رحمه الله : « فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

وذكر ما ذكره هنا فى كتابه خلق أفعال العباد بنصه[١] ثم ذكره بسنده قال ابن المنير : « ثبت عن البخارى أنه قال : من نقل عنى أنى قلت لفظى بالقرآن مخلوق فقد كذب ، وإنما قلت : إن أفعال العباد مخلوقة ، قال : وقد قارب الإفصاح فى هذه الترجمة بما رمز إليه فى التى قبلها »[٢] .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ .

أى من الدلالات الواضحة على وحدانية الله ، ووجوب عبادته ورجوعكم إليه للحساب والجزاء ، وأن الأمر والملك كله له ، خلق السماوات والأرض ، وما فيهما من العجائب ، والآيات الدالة على الله ، ومن ذلك اختلاف ألسنتكم ، أى أصواتكم بحيث لا يلتبس صوت واحد بآخر على كثرتهم ، وكذا اختلاف اللغات ، واختلاف الألوان ، فهذا بشرته بيضاء ، وهذا سوداء ، وبين ذلك .

والمقصود أن إضافة الألسنة إلى الناس يدل على أنها أعمالهم وأوصافهم فإذا قرأ القارىء كلام الله — تعالى — فالصوت صوت القارىء والكلام كلام البارى .

فكما أن الألوان صفتهم فكذلك النطق ، والتكلم ، والتصويت .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد أن ذكر هذه الآية : « فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد » .

---

(١) ص ١١٨ تحقيق عميرة و ص ١٩٦ بدر .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

قوله : « وقال جل ذكره : ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ » .

قال الحافظ : « الآية الأولى : المراد منها اختلاف ألسنتكم ، لأنها تشمل الكلام كله ، فتدخل القراءة ، وأما الثانية فعموم فعل الخير يتناول قراءة القرآن والذكر ، والدعاء ، وغير ذلك ، فدل على أن القراءة فعل القارئ »[2] .

وقال المصنف فى خلق أفعال العباد : ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا »[3] .

يعنى أن الله — تعالى — أمر عباده أن يفعلوا الخير ، فدل على أن ذلك فعلهم ومن فعل الخير قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله تعالى ، ودعاؤهم إياه ، فالقراءة والذكر والدعاء فعل لهم يثابون عليه كما تقدم .

١٥٣ — قال : « حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا ، لفعلت كما يفعل ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى حقه فيقول : لو أوتيت مثل ما أوتى عملت فيه مثل ما يعمل » .

قد ذكر هذا الحديث فى فضائل القرآن بأتم من هذا اللفظ ، ونصه :

---

(١) ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٢ .
(٣) ص ١٩٧ .

« أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثلما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وترجم له هناك بقوله : « باب اغتباط صاحب القرآن » فجعل هذا من الغبطة ، وليس من الحسد ، وتسميته حسدا من باب التجوز .

قال الحافظ : « معنى قوله : « لا تحاسد إلا فى اثنتين » أى لا رخصة فى الحسد إلا فى خصلتين ، أو لا يحسن الحسد ــ إن حسن ــ ، وأطلق الحسد مبالغة فى الحث على تحصيل الخصلتين »[1] .

وقال النووى : قال العلماء : الحسد قسمان : حقيقى ، ومجازى ، فالحقيقى : تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام بإجماع الأمة ، مع النصوص الصحيحة .

وأما المجازى : فهو الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التى على غيره ، من غير زوالها عن صاحبها ، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وإن كانت طاعة فهى مستحبة ، والمراد من الحديث ، لا غبطة محبوبة إلا فى هاتين الخصلتين ، وما فى معناهما »[2] .

قوله : « آتاه الله القرآن » أى منَّ عليه بحفظه ، وهى من أعظم المنن ، فإذا انضم إلى ذلك العمل به تمت عليه نعمة الله ، وذلك الذى قصد بقوله : « فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار » ومعنى : يتلوه : يقرؤه ، ويعمل به .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٧٣ .

(٢) شرح مسلم جـ ٦ ص ٩٧ .

وآناء الليل والنهار : ساعاتهما ، يعنى أنه يلازم ذلك فى غالب أوقاتهما .

قوله : « فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » هذا هو الذى أطلق عليه بأنه حسد ، وهو حسد جائز ، لأنه يتمنى الخير من غير ضرر بالغير .

فهو لم يتمن زوال ما أوتى صاحب النعمة ، كما يفعل إخوان الشياطين ، ولكنه تمنى أن يكون مثله ، قد أوتى القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار .

وكذلك الآخر الذى تمنى أن يكون له من المال مثل ما للمنفق ماله فى وجوه الخير .

ولم يرد زوال النعمة عن ذلك المنفق .

والشاهد من الحديث قوله : « آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار » فحفظ القرآن ، وتلاوته ، والقيام به كل ذلك عمل الإنسان ، وهو مخلوق أما القرآن المحفوظ فى الصدور ، والمتلو المقوم به فهو كلام الله جل وعلا .

١٥٤ ــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

هذا الحديث كالذى قبله فنكتفى بما تقدم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

قال الكرمانى : « لابد فى الرسالة من ثلاثة أمور ، المرسِل ، والمرسَل إليه ،

والرسول ، ولكل منهم أمرٌ ، للمرسِل الإرسال ، وللرسول التبليغ ، وللمرسَل إليه القبول والتسليم »[1] .

قلت بقى أمر رابع ، وهو الرسالة التى يرسل بها الرسول ، وهى أوامر الله ونواهيه ، وحكمه لمن أرسل إليهم ، أما الإرسال فهو تكليف الرسول بالرسالة واكتفى عن ذلك بقوله : « وللمرسَل إليه القبول والتسليم » لأن القبول والتسليم يكون للرسالة .

قال ابن جرير : « أمر الله نبيه بإبلاغ أهل الكتاب والمشركين ما أنزل الله عليه فيهم ، من معايبهم ، وما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، وأن لا يشعر نفسه حذرا منهم أن يصيبوه بمكروه إذا قام فيهم بأمر الله ، وأن لا يتقى إلا الله ، فإنه كافيه كل أحد ، ودافع عنه كل مكروه .

وأعلمه أنه إن قصر عن إبلاغ شىء مما أنزله إليه فيهم فهو من عظيم ما ارتكب من الذنب بمنزلة ما لو لم يبلغ من الرسالة شيئا » ثم روى عن ابن عباس : « إن كتمت آية مما أنزل عليك من ربك لم تبلغ رسالاتى »[2] .

ومقصوده بهذا الباب أن إبلاغ الرسالة من الرسول فعل له يثيبه الله عليه ، وأن الكلام الذى جاء به يبلغه صفة لربه ، وأنه ليس فيما بلغه ما يدل على قول الذين يقولون بخلقه ، أو خلق شىء منه .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد ما ذكر قوله ﷺ : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » .

فبين النبى ﷺ أن الإبلاغ منه ، وأن كلام الله من ربه ، ولم يذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا ، وهم

---

(١) شرح الكرمانى للبخارى جـ ٢٥ ص ٢٢١ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٠ ص ٤٦٧ ملخصا .

الذين أدوا الكتاب والسنة بعد النبى ﷺ قرنا بعد قرن »[1] يعنى أنه ليس فيما بلغه النبى ﷺ شئ مما يقوله الجهمية وأشباههم .

وقال : « ما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ، وقول النبى ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية » ، « وليبلغ الشاهد الغائب » ، وأن الوحى قد انقطع ، ثم ذكر حديث عائشة « من زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحى ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

وقال صالح : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴾[2] وقال شعيب : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾[4] .

فبين أن الرسالة من الله ، والإبلاغ من الرسل ، ثم روى خطبته ﷺ يوم النحر ، وفيها : « اللهم هل بلغت ، فليبلغ الشاهد الغائب ، ولا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقال ابن عباس : « والذى نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته » .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت

(١) خلق أفعال العباد ص ٦٠ .
(٢) الآية ٧٩ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٩٣ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الجن .

لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه إلى اصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم »[١] .

وذكر أحاديث فى هذا المعنى .

وقال أيضا : « وقال الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : « وأقيموا الصلاة » فالصلاة بجملتها طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة ، فالصلاة طاعة الله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، مقروء على اللسان ، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق .

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه .

والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن فى المصحف ؟ فإن قال نعم ، فقد زعم أن من صفات الله ما يرى ، وهذا رد لقول الله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فى الدنيا . ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ .

وإن قال : يرى كتابة القرآن، فقد رجع إلى الحق .

ويقال له : هل تدرك الأبصار إلا اللون ؟ فإن قال : لا[٢] . قيل له : وهل يكون اللون إلا فى الجسم ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم أن القرآن جسم يرى »[٣] .

وقال أيضا : « قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٢٥ — ١٣٨ .

(٢) أى اعترف بأن الأبصار لا تدرك إلا اللون .

(٣) خلق أفعال العباد ص ١١٥ — ١١٦ .

رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فذكر إبلاغ ما أنزل إليه ، ثم ذكر فعل تبليغ الرسالة ، فقال : إن لم تفعل فما بلغت رسالته » فسمى تبليغه الرسالة وتركه فعلا .

فلا يمكن لأحد أن يقول على الرسول : « إنه لم يفعل ما أمر به من الرسالة » .

ثم روى عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ خطب الناس يوم النحر ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ » .

قال ابن عباس والذى نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته ، فليبلغ الشاهد الغائب ، وذكر حديث أبى الأحوص ، عن النبى ﷺ قال : « وأتتنى رسالة من ربى ، فضقت بها ذرعا ، ورأيت أن الناس سيكذبوننى ، فقيل لى : لتفعلن ، أو لنفعلن بك »[1] يعنى أنه إذا بلغ فقد فعل ما أمر به وتلاوته ما أنزل عليه من تبليغه ، وذلك فعله .

ومقصوده من الآية أن تبليغ الرسالة ، وعدمه كلاهما فعل للعبد وهو مخلوق ، والرسالة هى أمر المرسل ، ونهيه وقوله ، وهو الله تعالى وذلك ليس بمخلوق .

وقوله : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ أى تفعل التبليغ لعموم ما أنزله الله إليك ، ولا تذر منه شيئا ، وهذا يدل على بطلان ما لم يبلغه من الأعمال ، والاعتقادات وغيرها ، لأنه ﷺ بلغ كل ما أنزله الله عليه .

وقال الحافظ : « احتج أحمد بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق . لأنه

(١) المرجع نفسه ص ٧٥ ـــ ٧٦ .

لم يرد فى شيء من القرآن ، ولا من الأحاديث أنه مخلوق ، ولا ما يدل على ذلك .

وذكر عن الحسن البصرى أنه قال : « لو كان ما يقول الجعد[1] حقا لبلغه النبى ﷺ »[2] .

قوله : « وقال الزهرى : من الله — عز وجل — الرسالة ، وعلى الرسول ﷺ البلاغ ، وعلينا التسليم » .

يعنى أن الرسالة من الله أمرا وقولا له ، وذلك مما يضاف إليه فعلا ووصفا ، وعلى الرسول البلاغ ، وهو : إيصال أمر الله وقوله إلى الناس ، وإفهامهم إياه ، وأمرهم بقبوله ، وترغيبهم على ذلك ، وتخويفهم من عذاب الله إن لم يقبلوا رسالاته ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه ، وهذا عمل الرسول ، وفعله الذى يثيبه الله عليه ، أو يعاقبه على تركه .

« وعلينا التسليم » أى التسليم للرسالة بقبولها والانقياد لها ، وعدم المعارضة ، والعمل بفعل المأمور ، واجتناب المحظور ، وهذا فعل العباد الذى عليه يترتب الثواب ، أو العقاب عند المخالفة .

قال الحافظ : « أخرجه الحميدى فى النوادر ، ومن طريقه الخطيب[2] قال الحميدى : « حدثنا سفيان ، قال : قال رجل للزهرى : يا أبا بكر ، قول النبى ﷺ : ليس منا من شق الجيوب ، ما معناه ؟ فقال الزهرى : من الله العلم ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » . وأخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب الأدب »[3] ورواه ابن أبى عاصم فى الزهد ، ولفظه : « أخبرنا دحيم ، أخبرنا

---

(١) هو الجعد بن درهم أول من أنكر صفات الله تعالى ومحبته لعباده فقتله خالد بن عبد الله القسرى أحد قواد بنى أمية سنة ٣٢ .

(٢) فى الجامع .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٤ .

الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، قال الأوزاعى قلت للزهرى : يا أبا بكر ما هذا الحديث ؟ قال : فقال : من الله العلم ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم »[1] .

قوله : « وقال : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال ابن الجوزى فيه خمسة أقوال :

أحدها : ليعلم محمد ﷺ أن جبريل قد بلغ إليه ، قاله ابن جبير .

الثانى : ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغوا رسالات ربهم ، وأن الله قد حفظهم ، ودفع عنهم ، قاله قتادة[2] .

الثالث : ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، قاله مجاهد .

الرابع : ليعلم الله — عز وجل — ذلك موجودا ظاهرا يجب به الثواب ، فهو كقوله : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾[3] .

الخامس : ليعلم النبى ﷺ أن الرسل قد أتته ، ولم تصل إلى غيره ذكره الزجاج[4] .

قلت : هذا بمعنى الأول ، ومعناه : ليعلم محمد ﷺ أن الملائكة التى تنزل بالوحى أو يحرسون من ينزل به من استراق الشياطين . أنهم جاءوه بما أرسلوا به كاملا .

---

(١) كتاب الزهد لابن أبى عاصم ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) اختار هذا القول ابن جرير .

(٣) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٤) زاد المسير جـ ٨ ص ٣٨٦ .

والقول الثانى هو الأولى ، والأقرب ، ويليه الرابع ، ولكن وجوب الثواب وجوب تفضل وكرم من الله تعالى ، والقول الثالث داخل فى معنى الآية ، فإن الله تعالى يؤيد رسله بالآيات الدالة على صدقهم ، حتى يتيقن قومهم صدقهم .

والمراد من الآية هو مادلت عليه الآية الأولى، فإن الرسل لهم أفعال وأعمال يعملونها ، وتطلب منهم ، وتضاف إليهم على أنها أعمالهم حقيقة ولا تشتبه أعمالهم ، وأفعالهم بأفعال الله ، وأوصافه تعالى .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾ .

المراد منها ظاهر مما سبق قبلها كما أوضحناه .

قوله : « وقال كعب بن مالك حين تخلف عن النبى ﷺ : ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ .

قال الحافظ تقدم هذا مسندا فى تفسير براءة فى حديثه الطويل ، وفى آخره . قال الله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ومراد البخارى تسمية ذلك عملا[1] .

قال الكرمانى : « ومناسبته للترجمة : التفويض ، والانقياد ، والتسليم ، ولا ينبغى لأحد أن يزكى عمله ، بل يفوض إلى الله سبحانه وتعالى »[2] .

قال بعض المتأخرين : موضع احتجاج البخارى « وقال كعب حين تخلف » لأن القول والتخلف فعل كعب » وهذا غير صحيح لأنه لا خصوص لقول

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٤ .
(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص

كعب ، بل مثل كل قول ، وإنما احتج بقوله : ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فهو نص فى أن لهم عملا يجازون عليه بالثواب أو العقاب .

قوله : « وقالت عائشة : إذا أعجبك حسن عمل امرئ ، فقل : ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولا يستخفنك أحد » .

مقصوده أن العمل يضاف إلى العامل فعلا له ، مثل الصلاة ، والقراءة ، والصوم ، والحفظ وهو مخلوق لأنه عمل مخلوق .

أما الأمر بالصلاة والصوم فهو من الله ، وليس بمخلوق .

وكذا القراءة هى فعل القارئ وفعله مخلوق ، وما يقرؤه ليس مخلوقا ، بل هو كلام الله تعالى .

ومعنى قولها : « ولا يستخفنك أحد » أى لا تغتر بعمل أحد يظهر لك منه الخير والصلاح ، فتثنى وتمدح ، فإنه عرضة للانتكاس ، ما لم تره واقفا عند حدود الشرع متأسيا بالأبرار ، متبعا لسنة رسول الله ﷺ .

وقد روى المؤلف هذا الأثر مبسوطا فى كتابه خلق أفعال العباد . حيث قال : « حدثنى يحيى بن بكير ، حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها وذكرت الذى كان من شأن عثمان ابن عفان : « وددت أنى كنت نسيا منسيا ، فوالله ما أحببت أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا وقد انتهك منى مثله ، حتى والله لو أحببت قتله ، لقتلت ، يا عبيد الله بن عدى لا يغرنك أحد بعد الذى تعلم ، فوالله ما احتقرت أعمال أصحاب النبى ﷺ حتى تهجم النفر الذين طعنوا فى عثمان فقالوا قولا لا يُحسن مثله ، وقرءوا قراءة لا يُحسن مثلها ، وصلوا صلاة لا يصلى مثلها ، فلما تدبرت الصنيع إذاهم والله ما يقاربون أعمال أصحاب النبى ﷺ .

فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل ﴿ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ فلا يستخفنك أحد »[1].

يعنى أن أولئك الخوارج كانوا يجتهدون اجتهادا فى العبادة ما اجتهده أصحاب النبى ﷺ . ولكنهم يرتكبون العظائم والجرائم ، وهذا بمعنى قول الرسول ﷺ فى وصفهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصومه مع صومهم » .

قال الحافظ : « وأخرجه ابن أبى حاتم ، من رواية يونس بن أبى يزيد ، عن الزهرى أخبرنى عروة ، أن عائشة كانت تقول : « احتقرت أعمال أصحاب النبى ﷺ حين نجم القراء الذين طعنوا على عثمان ، فذكر نحوه وفيه : « فوالله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله ﷺ فإذا أعجبك حسن عمل امرئ منهم فقل : اعملوا » إلخ[2] .

والمراد بالقراء : الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان ، وأنكروا عليه أشياء الحق فيها معه ، وبعضها هو معذور فيها ، فاقتحموا عليه بيته فقتلوه ، وفتحوا بذلك على الأمة فتنة لا تزال الأمة تصلى نارها .

قوله : « وقال معمر : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ هذا القرآن : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بيان ودلالة ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ هذا حكم الله ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ يعنى هذه أعلام القرآن ، ومثله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ يعنى بكم » .

معمر هو ابن المثنى ، أبو عبيدة ، قال الحافظ : « ومناسبة الآية لما تقدم ،

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٥٦ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٥ .

من جهة أن الهداية نوع من التبليغ »[1] يعنى الهداية المضافة إلى الرسول ﷺ في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأقول : يجوز أنه أراد أن الهدى فى القرآن ، وما خالفه فهو ضلال .

وأن المتقين إذا حصل بينهم خلاف يرجعون إلى القرآن ، فيحصلون على الهدى ، وقد أوضح الله تعالى فى القرآن أن أعمال العباد مخلوقة ، فمن خالف ذلك ضل فى هذه المسألة ، كما أن هذا القرآن مما جاءنا به الرسول ﷺ وبلغنا إياه .

ولهذا قال فى تفسيره : « بيان ودلالة » أى مبين للحق ، ودال عليه ، كما أنه مبين للباطل ، ومحذر منه .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ . يعنى هذا الكتاب الذى بين أيديكم تقرءونه ، فيه الهدى لمن اتبعه واتقى ، وبين أن الإشارة المستعملة للبعيد ، قصد بها القريب ، على خلاف المعتاد فيها .

وبين أن هذا يستعمل أحيانا ، فمثل له بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ أى هذا حكم الله الذى حكم به بينكم .

ثم فسر قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بأنه : لاشك فيه ، أى فى هدايته ودلالته على الحق ، فمن اهتدى به فهو المهتدى ، ومن جانبه وترك مادل عليه فهو الضال .

ثم ذكر ما هو نظير ذلك فى الإشارة إلى البعيد ، والمراد القريب . وهو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾ . قال : يعنى هذه أعلام القرآن ، أى دلائله وبيناته الدالة على الصراط المستقيم ، وهى الفارقة بين الحق والباطل ، ثم قال :

---

(١) الفتح جـ ٣ ص ٥٠٦ .

« ومثله » أى ومثل هذا الاستعمال بالإشارة إلى القريب بما هو للبعيد .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ يعنى بكم ، أى أن الضمير الذى جعل للغائب ، قصد به فى هذه الآية الحاضر ، فيكون مثل الإشارة للقريب بما هو موضوع للبعيد ، وهذا سائغ فى اللغة .

وعلماء البلاغة يقولون : إذا خرج اللفظ عما وضع له فمقصود به نكتة بيانية ، فالإشارة التى للبعيد إذا استعملت للقريب ، دل على علو مكانة المشار إليه ورفعته .

قوله : « وقال أنس : بعث النبى ﷺ خاله حراما إلى قوم . وقال : تؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » .

هذا طرف من حديث أخرجه فى عدة أماكن من كتابه الصحيح . منها فى الجهاد فى أبواب متعددة ، وفى أحدها قال : « بعث النبى ﷺ أقواما من بنى سليم إلى بنى عامر ، فى سبعين ، فلما قدموا قال لهم خالى : أتقدمكم ، فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم منى قريبا ، فتقدم فأمنوه ، فبينما يحدثهم عن النبى ﷺ إذ أومئوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه ، فقال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل ، فأخبر جبريل — عليه السلام — النبى ﷺ أنهم قد لقوا ربهم ، فرضى عنهم ، وأرضاهم ، فكنا نقرأ : بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ، وأرضانا ، ثم نسخ بعد ، فدعا عليهم أربعين صباحا ، على رعل ، وذكوان ، وبنى لحيان ، وبنى عصية ، الذين عصوا الله ورسوله »[1] .

---

(١) انظر البخارى جـ ٤ ص ٢٢ .

آخرون وهو الأظهر »[1] .

قال الحافظ : « وصرح الخطابى ، وابن حزم ، والقاضى عياض ، والنووى بأن شريكا انفرد بهذه اللفظة ، وفى دعوى التفرد نظر ، فقد وافقه كثير بن خنيس ، عن أنس أخرجه سعيد بن يحيى الأموى فى كتاب المغازى من طريقه »[2] .

ثم قال : « قوله : « فلم يرهم » أى بعد ذلك ، « حتى أتوه ليلة أخرى » ، ولم يعين المدة التى بين المجيئين ، فيحمل على أن المجىء الثانى كان بعد أن أوحى إليه ، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج »[3] ، أى بعد النبوة والوحى .

ويجوز أنه يقصد بقوله « قبل أن يوحى إليه » أى فى شأن الإسراء والمعراج ، أى أنهم فاجئوه بدون سابق إعلام له بذلك .

قوله : « وهو نائم فى المسجد » وفى آخره « واستيقظ وهو فى المسجد » وبهذا ونحوه تعلق من يقول : إن الإسراء والمعراج وقعا مناما .

والحق أنهما وقعا يقظة لا مناما ، وأن ذلك ببدنه وروحه ، وهو قول جمهور أهل السنة ، والدليل قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظيمة والآيات الباهرة ، ولو كان مناما لم يكن فيه كبير أمر ، لأنه لا يستنكر .

ومما يدل على ذلك إنكار كفار قريش له ، وتعظيمهم إياه ، واستبعادهم وقوعه ، حتى ارتد بسبب ذلك بعض من أسلم ، ولو كان مناما لم ينكره

---

(١) السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٩٨ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٠ .
(٣) المرجع .

أحد ، وأيضا فالعبد اسم لمجموع الروح والبدن .

ودلالة الأحاديث على ذلك ظاهرة ، فعلى هذا يكون قوله ، « وهو نائم فى المسجد » يعنى ذلك المجىء الأول الذى لم يحصل فيه الإسراء ، ثم المجىء الثانى كان يقظان .

ويحمل ما فى آخر الحديث على الإفاقة مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الآيات العظيمة والملكوت ، وقد ينشغل الإنسان بما يقع له من أمر مهم ، فإذا انجلى عنه ذلك الأمر كأنه أفاق من نوم ، كما جاء فى قصة ذهابه إلى الطائف ، وفيها : « فلم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب » .

ويجوز أنه نام بعد رجوعه ، وكان إذا أوحى إليه يستغرق قلبه فى الوحى ، فإذا انقطع الوحى سرى عنه ، فيجوز أن يكون هذا مثله .

قوله : « فقال أولهم : أيهم هو » يدل على أنه كان نائما مع جماعة .

قال الحافظ : « قد جاء أنه كان معه عمه حمزة ، وجعفر بن أبى طالب »[1] .

« فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة » كانت هنا تامة والتقدير : وجدت تلك الليلة ، ولم يحصل فيها شىء من الإسراء ، وذهبوا ولم يرهم .

« حتى أتوه ليلة أخرى » بعد زمن طويل ، كما تقدم ، وبهذا يرتفع الإشكال فى قوله : « قبل أن يوحى إليه » وقوله : « وهو نائم » .

قال الحافظ : « وبه يسقط تشنيع الخطابى ، وابن حزم وغيرهما بأن شريكا خالف الإجماع فى دعواه أن المعراج كان قبل البعثة »[2] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٠ .
(٢) المصدر .

ومما يدل على ذلك قوله لما استفتح جبريل باب السماء : « أبعث إليه ؟ » قال نعم ، يعنى أنه أرسل إلى الناس .

قوله : « فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء » .

هذا من الخصائص التى خص بها الأنبياء ، ومعنى يقظة القلب أنه يدرك الحسيات المتعلقة به ، كالألم والحدث ونحو ذلك ، لا ما يتعلق بالعين من رؤية الأشياء ، قاله النووى[1] .

قوله : « فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم » هذا يختلف مع رواية الزهرى ، عن أنس ، عن أبى ذر ، أنه قال : « فرج سقف بيتى وأنا بمكة » وفى رواية الواقدى بأسانيده ، أنه أسرى به من شعب أبى طالب ، وفى حديث أم هانئ عند الطبرانى : « أنه بات فى بيتها ، ففقدته من الليل ، فقال : إن جبريل أتانى » .

قال الحافظ : « والجمع بين هذه الأقوال : أنه نام فى بيت أم هانئ ، وبيتها عند شعب أبى طالب ، ففرج سقف بيتها ، وأضافه إليه لكونه يسكنه ، فنزل منه الملك ، فأخرجه إلى المسجد ، فكان به مضطجعا ، وبه أثر النعاس ، ثم أخرجه إلى باب المسجد ، فأركبه البراق »[2] .

قوله : « فتولاه منهم جبرائيل ، فشق ما بين نحره إلى لبّته » يعنى أن جبريل شق صدره ، وبطنه ، فاستخرج قلبه وأحشاءه فغسلها بماء زمزم بيده حتى أنقاه من كل ما فيه من دخل ، ثم أتى بطست من ذهب ، وفيه تور من ذهب ، وهو إناء صغير ، قد يكون من صفر ، أو من حجر ، والطست مملوء إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ، ولغاديده ــ يعنى عروق حلقه ثم أطبقه فخاطه ،

---

(١) نقله الحافظ فى الفتح جـ ١ ص ٤٥٠ .

(٢) الفتح جـ ٧ ص ٢٠٤ .

ولم يتألم من ذلك أو يتأثر ، وقد جاء أن أثر الشق بقى فيه واضحا .

و « اللبة » هى موضع القلائد فى أعلى الصدر ، وهى التى ينحر البعير منها .

وتكرر شق صدره ﷺ .

قال الحافظ : « ثبت ذلك فى غير رواية شريك فى الصحيحين ، من حديث أبى ذر ، ووقع أيضا له ذلك عند البعثة ، كما أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، وأبو نعيم فى الدلائل ، ووقع أيضا فى حديث أبى هريرة — وهو ابن عشر سنين ، كما فى المسند من زيادات عبد الله »[1] .

قوله : « ثم عرج به إلى السماء الدنيا » حذف قبل هذا جملة من الحديث مما هو ثابت فى الروايات الأخرى ، لأن القصة واحدة ، وتقدير المحذوف : ثم أتى بالبراق ، فركبه ، فأسرى به إلى المسجد الأقصى ، فربط البراق وصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم عرج به .

والعروج هو الصعود ، والارتقاء ، وعروجه ﷺ هذا آية باهرة من آيات الله العظيمة ، التى لا يدرك حقيقتها العقل البشرى ؛ لأن ارتفاع السماء عن الأرض ارتفاع هائل ، لا يعلم قدره إلا الله — تعالى — ، وقد تبين للناس اليوم أن الإنسان إذا ارتفع عن الأرض إلى حد قريب ينعدم الأكسجين الذى به الحياة فيختنق ويموت فى لحظات ، وما فوق السماء الدنيا إلى التى تليها مسافة بعيدة جدا ، لو قدرت بسير الإنسان ، وما يستخدمه من آلات حديثة لكانت بمئات السنين ، وربما بآلاف السنين ، وهكذا كل ما بين سماء وأخرى ، ومع هذا كله يذهب الرسول ﷺ ببدنه وروحه ويجاوز السماوات السبع بارتفاع

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨١ .

لا يعلم قدره إلا الله — تعالى — فى ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة ، ثم يعود ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

والتسبيح يكون عند الأمور العظيمة الدالة على قدرة الله ، كما سبق .

فإن قيل : لماذا لم يذكر المعراج فى القرآن ، مع أنه آية عظيمة دالة على عظيم قدرة الله — تعالى — قيل : لأن الإسراء قد ذكر ، وهو من جنسه من حيث قطع المسافة الشاسعة فى الوقت القصير ، ولأنه يدل عليه .

ولأن إخبار الرسول ﷺ به ، وبما وقع فيه كاف عن ذكره فى القرآن .

قوله : « فضرب بابا من أبوابها » يدل على أن السماء مبنية بناء محكما ولها سمك وكثافة ، وأنها لا تدخل إلا من أبوابها .

قوله : « فناداه أهل السماء ، من هذا ؟ » يدل على سماكة السماء وكثافتها وأن من فيها لا يرى من يأتى من أسفلها ، فدل على بطلان قول أهل الهيئة قديما بأن السماء شفافة ، لا تستر من فوقها ، ولا من تحتها وهذا من خرصهم الذى لا يستند إلى برهان .

ودل أيضا على بطلان قول ملاحدة هذا العصر الذين ينكرون وجود السماء المبنية المحكمة ، ويقولون إنما هو فضاء تسبح فيه الكواكب ، وهذا خلاف نصوص الشرع ، وخلاف الواقع ، وهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس .

قوله : « فقال : جبريل » يدل على أن المسئول عند الاستئذان يسمى نفسه العلم حتى يعرف ، ولا يأتى بكلام مبهم مثل قوله : « أنا » ونحوه مما لا يعين المستأذن .

« قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد ، قال : وقد بعث إليه ؟ » مقتضى السياق أن تكون « قال » الأخيرة للجمع .

وهذا يدل على حراسة السماء ، وأنه لا يدخلها أحد إلا من أمر الله بإدخاله .

وقولهم : « وقد بعث إليه » يعنى بعث نبيا ، فهو يدل على أنهم لم يعلموا ذلك والظاهر كما قال القسطلانى أن المعنى : أبعث إليه فى المجىء إلى السماء ، لأن البعثة لا تخفى عليهم . وعلى كل فهو يدل على أن معراجه ﷺ بعد النبوة وهو أمر ظاهر .

« فقالوا : فمرحبا ، وأهلا » أى أتيت مكانا رحبا واسعا ، وفيه لك أهل يفرحون بقدومك ، وهذا كلام مشهور ، تقوله العرب لمن يستضيفها ولمن تكرمه ، ومعناه : أنك حللت فى مكان رحب ، سهل واسع ، لا ضيق عليك فيه ، وأنت عند من هو مثل أهلك ، يفرح بك ويكرمك .

قوله : « فيستبشر به أهل السماء » يدل على أن عندهم علما بأنه سيبعث نبيا ويعرج به ، ويدل على حبهم له وفرحهم برؤيته ﷺ .

« لا يعلم أهل السماء بما يريد به فى الأرض حتى يعلمهم » لأنهم لا يعلمون الغيب ، وهو يرد قول بعضهم أنه مرسل حتى إلى الملائكة ، لأنهم ليسوا بحاجة إلى رسالته ، ولو أرسل إليهم رسولا لكان من جنسهم ، كما جرت سنة الله فى خلقه ، وكيف يرسل لمن فى السماوات ؟!

« فوجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك ، فسلم عليه » وهكذا فى كل سماء يجد فيها أنبياء ، فيعلمه جبريل من هم ، ويأمره بالسلام عليهم ، وهم فى السماوات حسب منازلهم عند الله ، فمن هو أفضل فمنزلته أرفع ، والرسول ﷺ لا يعرفهم حتى يعلمه جبريل بهم مما يدل على أنه لم يرهم قبل هذا اللقاء .

« فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال ما هذان النهران يا جبريل ؟

قال : هذا النيل والفرات ــ عنصرهما » أى أصلهما ، أو ما يمدان منه ،

وهذا يدل على أن ذينك النهرين ليسا النيل والفرات ، لأن النيل والفرات فى الأرض وذانك النهران فى السماء .

وفى حديث مالك بن صعصعة أنه رأى فى أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار وذكر منها النيل والفرات ، فيجوز أن يكون ذلك مثل ، والله أعلم بذلك .

« ثم مضى به فى السماء ، فإذا بنهر عليه قصر من لؤلؤ ، وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر ، قال ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك » وهذا مما استشكل فى هذا الحديث ، لأنه ثبت أن الكوثر فى الجنة ، والجنة فى السماء السابعة ، كما جاء فى المسند من حديث أنس « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى مجرى مائه فإذا مسك أذفر ، فقال جبريل هذا الكوثر الذى أعطاك الله تعالى »[1] .

قال الإمام أحمد : « حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه متبسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ إنه أنزلت على آنفا سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر » حتى ختمها ، فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هو نهر أعطانيه ربى ــ عز وجل ــ فى الجنة ، عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب : إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك »[2] .

يجوز أن يكون رآه فى السماء الدنيا وأصله فى الجنة ، أو أنه مثل له والله على كل شىء قدير .

---

(١) انظر المسند جـ ٣ ص ١٠٣ ، ١١٥ ، ٢٦٣ .
(٢) المسند جـ ٣ ص ١٠٢ .

وقال القرطبى : « والصحيح أن للنبى ﷺ حوضين أحدهما فى الموقف قبل الصراط ، والثانى فى الجنة ، وكلاهما يسمى كوثرا ، والكوثر فى كلام العرب : الخير الكثير »[1] .

قال الحافظ : « فيه نظر ، لأن الكوثر نهر داخل الجنة ، وماؤه يصب فى الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه »[2] .

وظاهر الأحاديث مثل قوله ﷺ : أنا فرطكم على الحوض ، وقوله لأنس لما طلب منه أن يشفع له يوم القيامة وقال : أنا فاعل ، قال : أين أجدك قال : « اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الحوض »[3] وغير ذلك ظاهرها أن الحوض فى الموقف ، وفى حديث لقيط ما يدل على أنه بعد الصراط فإن فيه « فينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون ، فيسلكون جسرا من النار ، يطأ أحدكم الجمرة فيقول : حس ، فيقول ربك : أوانه ، ألا فيطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة رأيتها أبدا »[4] .

« قال القرطبى فى المفهم تبعا للقاضى عياض : مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خص نبيه محمدا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته ، وشرابه فى الأحاديث الصحيحة الشهيرة ، التى يحصل بمجموعها العلم القطعى »[5] .

قوله : « ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت فى الأولى » .

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٣٦٢ .
(٢) الفتح جـ ١١ ص ٤٦٦ .
(٣) رواه أحمد والترمذى انظر المسند جـ ٣ ص ١٧٨ والترمذى .
(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائد المسند جـ ٤ ص ١٣ وفى السنة جـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٥) الفتح جـ ١١ ص ٤٦٧ .

يعنى أن جبريل استفتح ، فقالوا من ؟ فأخبرهم كما مضى .

قوله : « كل سماء فيها أنبياء ، قد سماهم فأوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة ، لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة » قال الحافظ : « كذا فى رواية شريك ، وفى حديث الزهرى عن أنس ، عن أبى ذر ، فذكر أنه وجد فى السماوات آدم ، وإدريس ، وعيسى ، وإبراهيم ، ولم يثبت منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا ، وإبراهيم فى السماء السادسة » وهو موافق لرواية شريك ، والأكثرون خالفوا ذلك ، فذكروا أن موسى فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة ، كما فى رواية قتادة ، وسياق روايته يدل على رجحانها ، فإنه ضبط اسم كل نبى ، والسماء التى هو فيها »[1] .

وقد حاول الحافظ أن يجمع بين الروايات بأن موسى كان وقت العروج فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة ثم انعكس الأمر عند هبوطه .

وهذا جائز ، ولكن يحتاج إلى دليل ، قال : ويحتمل أنه لقى موسى فى السادسة ثم صعد معه إلى السابعة ، لأنه هو الذى صارت المحاورة بينه وبينه من أجل تخفيف الصلوات فالله أعلم »[2] .

والراجح ما صرح به فى هذه الرواية ، وقد نص على أن سبب رفعه إلى السابعة ما خصه الله به من التكريم بكلامه ، كما قال :

« وموسى فى السابعة بتفضيل كلامه لله » وفى بعض النسخ « بتفضيل كلام الله » وهى أظهر على المراد ، لأن المقصود إثبات تكليم الله تعالى لموسى ، وليس تكليم موسى لله تعالى .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٢ .

(٢) المرجع .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، وإن كان بقية الحديث فيه دلالة واضحة على تكليم الله ـــ تعالى ـــ لمحمد ﷺ ويجوز أن البخارى أراد ذلك أيضا فكأنه يقول : كما أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما وموسى فى الأرض فقد كلم عز وجل محمدا وهو فوق سبع سماوات .

قوله : « فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا » وفى رواية : « أن يرفع » بالياء ، قال ابن بطال : « فهم موسى من اختصاصه بكلام الله ـــ تعالى ـــ فى الدنيا دون غيره من البشر كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾[1] أن المراد بالناس البشر كلهم ، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحدا ، فلما رفع محمدا ﷺ علم أنه فضل عليه ، ومن ذلك قال هذا القول »[2] .

قوله : « ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى » .

قال الحافظ : « هذا مما خالف فيه شريك غيره ، فإن الجمهور على أن سدرة المنتهى فى السابعة ، وعند بعضهم فى السادسة ، ولعل فى السياق تقديما وتأخيرا ، وأن ذكر سدرة المنتهى قبل قوله : « ثم علا به فوق ذلك » وفى رواية أبى ذر : « ثم عرج بى حتى ظهرت بمستو أسمع فيه صريف الأقلام »[3] أى صوت كتابة الأقلام ، التى تكتب ما أمر الله به من تقدير ، وأمر ونهى .

ثم قال الحافظ : « وفى رواية ميمون بن سياه عن أنس عند الطبرى بعد ذكر إبراهيم فى السابعة ، فإذا هو بنهر » فذكر أمر الكوثر .

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٣ بتصرف .
(٣) المصدر نفسه .

قال : ثم خرج إلى سدرة المنتهى ، وهذا موافق للجمهور ، ويحتمل أن يكون المراد بما تضمنته هذه الرواية من العلو البالغ لأعلى سدرة المنتهى وما تقدم لأصلها »[1] .

قوله : « ودنا الجبار ، رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » .

وفى رواية ميمون بن سياه ، عن أنس « فدنا ربك — عز وجل — فكان قاب قوسين أو أدنى » .

وفى رواية البيهقى من طريق ثابت البنانى ، عن أنس قال : « فدنا فتدلى فأوحى إلى عبده ما أوحى »[2] .

وفى رواية أبى سعيد التى رواها البيهقى وغيره : « وكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى »[3] .

وذكر السيوطى أن ابن مردويه أخرج حديث أنس من طريق كثير بن خنيس وفيه « فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلي عبده ما أوحى »[4] .

قال الخطابى : « ليس فى هذا الكتاب — يعنى صحيح البخارى — حديث أشنع ظاهرا ، ولا أشنع مذاقا من هذا الفصل ، فإنه يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما ، هذا إلى ما فى التدلى من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذى تعلق من فوق إلى أسفل .

---

(١) المصدر .
(٢) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٨٤ .
(٣) المصدر المذكور جـ ٢ ص ٣٩٥ .
(٤) الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٠ .

ثم اختار أن هذا الحديث رؤيا منام ، أو أن أنسًا حكاه من تلقاء نفسه لم يعزه إلى النبى ﷺ»[1] .

أقول : أما كون هذا الفصل شنيعا ظاهرا ومذاقا ، فذلك فى نظر الجهمية الذين يزنون كلام الله وكلام رسوله بما يظنونه براهين عندهم ، وهى مجرد شبهات وأوهام ، أو يزنون كلام الله ورسوله بأذواقهم .

وهذه الشناعة التى يظنها الخطابى — عفا الله عنا وعنه — قد ترد لو كان ما يختص الله به من الأفعال والصفات على وفق مذاق أهل التعطيل ومذهبهم ، وقياساتهم الفاسدة .

أما إذا كان العبد منقادا لما جاء به الرسول ﷺ وموقنا بأن رسول الله ﷺ أعلم بالله ، وأخشى له من كل الناس قاطبة ، وأنه أقدرهم على البيان والإفصاح عما يريد ، وهو أيضا أنصحهم للأمة ، وأحرصهم على هدايتها ، إذا كان العبد موقنا بذلك كله ، فلن يكون هذا الفصل وأمثاله مما جاء به الرسول ﷺ شنيعا لا ظاهرا ولا مذاقا كما زعم الخطابى .

وأما محاولته الطعن فى راوى الحديث — أنس بن مالك — رضى الله عنه ، وأنه إنما حكى هذا القول من عند نفسه ، وقد سبق أن قال فى عبد الله بن مسعود مثل هذا ، وهذا زلة منه عظيمة ، وخروج عن نهج أهل الحق ، وهذا ما يتمناه كل زنديق ، ورافضى خبيث ، حتى يتسنى لهم إبطال الشرع كله ، لأن كل أحد يمكنه أن يقول ما شاء إذا انفتح هذا الباب ، وهو الطعن فى الصحابة بأنهم لم يفهموا ما يقولون ، وينقلون الباطل ، والضلال كما هو مقتضى قول الخطابى .

مع أن قوله هذا خلاف ما اتفق عليه أئمة الإسلام من المحدثين والفقهاء ،

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٣ .

وأن مرسل الصحابى له حكم الاتصال ، لأنه لا يخلو إما أن يكون رواه عن صحابى أو سمعه من الرسول ﷺ .

وكذلك طعنه فى شريك بن عبد الله غير مقبول ، بل هو خلاف الحق .

« قال أبو الفضل ابن طاهر : « تعليل الحديث بتفرد شريك ، ودعوى ابن حزم أن الآفات منه شىء لم يسبق إليه ، فإن شريكا قبله أئمة الجرح والتعديل ووثقوه ، ورووا عنه ، وأدخلوا حديثه فى تصانيفهم ، واحتجوا به ، وروى عبد الله بن أحمد الدورق ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وعباس الدورى ، عن يحيى بن معين : لا بأس به »[1] .

وقال ابن عدى : « مشهور من أهل المدينة ، حدث عنه مالك وغيره من الثقات ، وحديثه إذا روى عنه ثقة لا بأس به ، إلا أن يروى عنه ضعيف » .

قال ابن طاهر : « وحديثه هذا رواه عنه ثقة وهو سليمان بن بلال »[2]

ثم إن شريكا لم ينفرد بهذا اللفظ كما تقدم .

وأما قول الخطابى : « إن ذلك يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما » .

فجوابه أن كثيرا من النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله تقتضى ذلك بل تدل عليه نصا ، وقد سبق فى باب قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ ﴾ من ذكر بعض النصوص فى ذلك ، وبعض أقوال أئمة السلف ما فيه مقنع لمن يريد الحق .

وأما المكابر والضال فلا حيلة فيه إلا طلب الهداية له من الله تعالى .

---

(١) إذا قال يحيى بن معين : لا بأس به ، فمعناه عنده ثقة .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٥ .

ثم مفهوم هذا القول من الخطابى أنه لا تمييز بين مكان الخالق والمخلوق ولا مسافة ، ولا تحديد ، وهذا لا يعدو أمرين لا ثالث لهما :

إما أن يكون الرب ــ تعالى ــ حالا فى الخلق ، ومداخلا لهم ، فهو فى كل مكان ، لا يختص به مكان دون آخر ، حتى أجواف الحيوانات والناس والأمكنة الخبيثة ، وهذا مذهب الحلولية الذين هم من أضل خلق الله وأبعدهم عن معرفة الله والتمييز بينه وبين خلقه ، وهذا غاية الكفر ومنتهاه .

الثانى أنه لا مكان لله أصلا ، ومن ليس له مكان بمعنى أنه ليس فى جهة فهو عدم لا وجود له ، والعدم هو إله المعطلة والملاحدة .

ومعلوم ثبوت وصف الله تعالى بالقرب ، والدنو ، من بعض خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى لما رفعوا أصواتهم بالتكبير قال لهم النبى ﷺ : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعون سميع بصير قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد تقدم والنصوص فى هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام : « قرب الله سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته ، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك منَ قاله من السلف .

وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، وقال تعالى : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥٢ من سورة مريم .

والنداء هو رفع الصوت ، والنجى هو القريب لمن يكلمه ويناجيه ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ ، والمنادى لموسى هو ربه ـ تعالى ـ وهو المناجى له أيضا ، ونداؤه ومناجاته قائمة به ـ تعالى ـ ليست مخلوقة منفصلة عنه ، ووقعت مناداته ومناجاته لرسوله موسى فى وقت واحد معين .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى ، أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وفيهما « يقول الله تعالى : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة »[1] .

« والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف والأئمة ، وهو قول الأشعرى ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته ، وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته ونحو ذلك ، ولكنهم يقولون الاستواء فعل يفعله فى العرش ، فصار مستويا عليه .

وأما دنوه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر .

وأول من أنكر هذا فى الإسلام الجهمية ، ومن وافقهم »[2] .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : سمعت النبى ﷺ

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ملخصا .
(٢) المصدر ص ٤٦٦ .

يقول : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ثم يقول إنى سترت عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

وسبق الكلام عليه قريبا .

وفى لفظ : « يؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » .

قال أبو يعلى : « غير ممتنع حمله على ظاهره ، وأنه دنو من ذاته ، وقد أخذ أحمد بظاهره ، فى رواية أبى الحارث ، وقد سأله : ما معنى قول النبى ﷺ إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال : هو كما قال ، ونقول به ، فقد نص أحمد على الأخذ بظاهره »[1] .

قوله : « فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط بهم حتى بلغ موسى ، فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد : ماذا عهد إليك ربك ؟

قال : « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » .

استدل بذلك على عظيم قدر الصلاة عند الله ، والاهتمام بها ، وأنها من أفضل ما تفضل الله به على هذه الأمة ، لأنها صلة بين العبد وربه وقرب منه ، فينبغى للمسلم أن يهتم بها ويجتهد فى أدائها فى خشوع وحضور قلب .

وقد كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾[3] .

---

(١) إبطال التأويل ص ١٥٥ مخطوط .
(٢) الآية ١٥٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

ومما يزيد فى أهميتها أن الرسول ﷺ لم يذكر أنه فرض عليه فى ذلك الموقف القريب إلى الله تعالى إلا الصلاة .

وقد علم موسى ﷺ أن الله سوف يفرض عليه فروضا ، ولهذا استوقفه .

وفى ذلك بيان نصحه وشفقته على هذه الأمة ، فصلاة الله وسلامه عليه وجزاه الله خير الجزاء حيث جعله الله سببا لتخفيف الواجب على هذه الأمة .

قوله : « إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ،

فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت » وهذا كله بإرادة الله ، فهو ـــ جل وعلا ـــ الذى ألهم موسى ﷺ أن يسأل نبينا ﷺ وأن يأمره بالرجوع إلى الله ليطلب التخفيف ، فالحمد لله الذى أتم نعمته على عباده وأظهر فضل أوليائه من رسله .

قوله : « فعلا به إلى الجبار » فيه دلالة صريحة واضحة على علو الله ـــ تعالى ـــ وأن الذى يصعد فى العلو ، يقرب من الله ، وأن الذى فى السماء أقرب إليه ممن فى الأرض ، وأن من فى السماء السابعة أقرب إليه ممن هو تحتها ، وهذا أمر فطر الله عليه عباده ، لا ينكره إلا الجهمية والمعتزلة ، ومن سلك نهجهم ممن اجتالتهم الشياطين فغيرت فطرهم ، وزينت لهم تعطيل الله تعالى مما وصف به نفسه ، وقد سبق الكلام فى ذلك .

قوله : « فقال وهو مكانه » الضمير عائد إلى الرسول ﷺ أى وهو فى مكانه الذى أوحى الله إليه فيه قبل نزوله إلى موسى .

« يا رب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا » إلى آخره استدل بهذا أهل الأصول على جواز النسخ قبل التمكن من العمل ، وعلى كل ففى هذا عظيم فضل الله ومنته على عباده ، حيث أمر وأوجب ثم لطف فخفف ورحم .

قوله : « ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد والله لقد راودت

بنى إسرائيل قومى » إلى آخره ، هذا يدل على كمال نصح نبى الله وكليمه موسى ﷺ لهذه الأمة ، ويدل على أن بنى إسرائيل قد فرض عليهم صلوات هى أقل مما فرض على هذه الأمة ، كما يدل على أن الخلق يضعفون كلما تأخروا فى الزمن ضعفوا فى جميع خلقهم وقواهم .

« فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ، قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك » هذا المقطع من الحديث صريح فى أن الله ـــ تعالى ـــ كلم نبينا ﷺ بلا واسطة ، وأنه سمع كلامه ، وخطابه بقوله : « يا محمد » وأجابه النبى ﷺ بقوله : لبيك وسعديك .

وهذا ما قصد البخارى رحمه الله إثباته وإيضاحه ، ولا يخفى وضوحه .

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل ما هو كائن .

وجعل الله إعطاء هذه الأمة بالحسنة عشر حسنات تخفيفا .

ثم أمسكه موسى وأمره بالرجوع ، وطلب التخفيف شفقة منه على هذه الأمة أن تعجز عن أمر الله فتهلك ، فجزاه الله أعظم ما يجزى به أولياءه .

ما أعظم نصحه وشفقته ﷺ .

« قال رسول الله ﷺ يا موسى قد ـــ والله ـــ استحييت من ربى مما اختلفت إليه » أى من كثرة التردد إليه ، وفيه دليل على أن هناك مكانا معينا كان يتردد إليه هو أقرب إلى الله تعالى من المكان الذى فيه موسى ﷺ .

لما قال لموسى ذلك قال له : فاهبط باسم الله متبركا به ومستعينا .

قوله : « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » تقدم الكلام على هذه الفقرة .

« قال القرطبى : يحتمل أن يكون استيقاظا من نومة نامها بعد الإسراء ، لأن إسراءه لم يكن طول ليلته ، وإنما كان فى بعضها .

ويحتمل أن يكون المعنى : أفقت مما كنت فيه مما خامره من مشاهدة الملأ الأعلى لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[1] .

قال ابن كثير بعد ما ذكر روايات الإسراء والمعراج : « إذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها ، وحسنها ، وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه ، أو زاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ، عليهم السلام .

ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب ، وقد صرح بعض المتأخرين بأنه ﷺ أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ، ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، ورأى أنه ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات .

وهذا بعيد جدا ، ولم ينقل عن أحد من السلف .

ولو حصل هذا التعدد لأخبر به الرسول ﷺ أمته ، ولنقله الناس .

والحق أنه أسرى به مرة واحدة ، يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٧ .

الأنبياء الذين فى السماوات بحسب مراتبهم ، حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتهما صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف أقلام القدر بما هو كائن ، وغشى سدرة المنتهى من أمر الله فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ورأى جبريل على هيئته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم مسندا ظهره إليه ، ورأى ما يدخله من الملائكة كل يوم سبعون ألف ، لا يعودون إلى مثلها أبدا .

ورأى الجنة والنار ، وفرضت عليه الصلوات ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه ، يحتمل أنها صلاة الصبح .

ثم خرج راكبا البراق ، وعاد إلى مكة بغلس »[1] .

والمقصود أن الله موصوف بالتكلم فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأنه يكلم من يشاء من عباده بما يشاء ، وأى وقت شاء ، وقد كلم الله ــ تعالى ــ موسى كلاما حقيقيا سمعه موسى من الله ، وموسى فى الأرض ، والله فى السماء ، وكذلك كلم محمدا وهو فى السماء كما فى هذه القصة ، قال ــ تعالى ــ مخاطبا موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾[2] ، وهذا بيان أوضح من النهار فى أن الله ــ تعالى ــ خص موسى فى الدنيا من بين الناس بكلامه ، وفيه الدليل على أنه تعالى إذا شاء أن يكلم أحدا من خلقه لم يمنعه مانع ، وأنه متصف بالكلام المتعلق بمشيئته دائما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢ ــ ٢٣ .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

قال : « باب كلام الرب مع أهل الجنة » .

مراده بيان أن الله ــ تعالى ــ متصف بالكلام فى كل وقت إذا شاء لأن الكلام متعلق بمشيئته ــ تعالى ــ فأى وقت شاء أن يتكلم تكلم ، وقد سبق أن الكلام صفة كمال ، وفقده نقص يتقدس الله عنه ، وسبق ذكر أنواع من كلام الله تعالى .

١٤٤ ــ قال : « حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنى ابن وهب ، قال : حدثنى مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ﷺ : « إن الله ــ تعالى ــ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

الظاهر أن هذا الخطاب الكريم من الله تعالى لعموم أهل الجنة ، وأنه بعد استقرارهم فيها .

وأما قول الحافظ فى استظهاره ، أن هذا يقال للذين يخرجون من النار ، بناء على أن هذا الحديث مختصر من الحديث الطويل السابق ــ الذى فيه المرور على الصراط ، وفيه رؤية المؤمنين لربهم فى الموقف كما تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فليس فيه ما ذكر هنا ، فيحتاج إلى دليل ، وقد دل هذا الحديث بظاهره على أن هذا القول من الله تعالى لعموم أهل الجنة .

قال الحافظ : « هذا الخطاب غير الخطاب الذى لأهل الجنة كلهم ، وهو فيما أخرجه مسلم ، وأحمد ، من حديث صهيب ، رفعه : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ، يا أهل الجنة ، إن لكم موعدا عند الله ، يريد أن ينجزكموه » الحديث .

وفيه : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » ، وفيه : « فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه »[1] .

وسبق معنى لبيك ، وسعديك .

قوله : « والخير فى يديك » أى أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ، ولا لغيرهم نفعا حتى تمن به عليهم ، فكل خير مصدره منك ، وكل شر فهو من المخلوق .

قوله : « فيقول : هل رضيتم » هو جل وعلا يعلم أنهم قد رضوا ، ولا يخفى عليه شىء فى صدورهم ، ولكن يريد تقريرهم بالمنة والفضل الذى يسديه إليهم ، وكل فضل نالهم ، فهو — تعالى — ابتدأهم به من غير استحقاق له ، ولا حق لهم عليه بل بمحض فضله ، ومنته ، وأول ذلك أن جعلهم مسلمين ، ثم يسر لهم العمل الصالح الذى كان سببا لدخولهم الجنة ، ثم ثبتهم على الهدى حتى وافوه مؤمنين فما أعظم منته عليهم .

قوله : « فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك » .

ولا يحسن أن يقولوا غير هذا ، وقد أعطاهم فوق ما يتصورون ، فلا بد من الرضا ولهذا لما قال : « ألا أعطيكم أفضل من ذلك » يقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فهم يستبعدون أن يكون شىء أفضل مما هم فيه .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٢٢ .

قوله : « فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .
قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] .

فرضوان الله تعالى عليهم أكبر من الجنة وما فيها ، وبذلك تمت سعادتهم ، وكملت حياتهم ، وطابت لذتهم لما رضى سيدهم عنهم .

والحديث واضح الدلالة على مقصود الترجمة ، ففيه التصريح بأن الله تعالى يقول لأهل الجنة ، فيسمعون قوله ، ويجيبونه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد علم أن ذلك يتكرر ، وسبق أن كلام الله تعالى بمشيئته ، فكلما شاء أن يتكلم تكلم ، ويكلم من يشاء من خلقه .

١٤٥ ــ قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ كان يوما يحدث ، وعنده رجل من أهل البادية ، أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع ، فقال : أو لست فيما شئت ؟ قال : بلى ولكن أحب أن أزرع ، فأسرع ، وبذر فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه ، واستحصاده ، وتكويره ، أمثال الجبال ، فقال الله ــ تعالى ــ « دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء ، فقال الأعرابي : يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب الزرع ، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك رسول الله ﷺ » .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

أهل البادية ، خلاف الحاضرة ، لعدم الساتر فيها من المبانى ونحوها وغالبا يكون عندهم جرأة على الكلام ، وعدم مجاملة ، ولذلك كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يحبون أن يكون معهم عند رسول الله ﷺ الرجل العاقل من أهل البادية ، حتى يسأل رسول الله ﷺ فيستفيدوا من جوابه .

قوله : « إن رجلا من أهل الجنة » إلخ قد فهم الأعرابى أن هذا الرجل كان فى الدنيا زراعا ، ففيه دليل على إلف النفوس لما تزاوله من الأعمال ، حتى تحبه ، ويصير من مشتهياتها ، ويكون لها فيه متعة وراحة ، وهذا الرجل بقيت معه هذه المحبة إلى الجنة .

وفيه أن ما يشتهيه أهل الجنة من أمور الدنيا يمكن حصوله لهم ، وأنهم يطلبون ما أرادوا من ربهم تعالى .

قوله : « أولست فيما شئت ؟ » يعنى لست بحاجة إلى الزرع ، فكل ما تريده من مأكول ، أو مشروب ، أو غير ذلك بين يديك .

وقوله : « بلى ، ولكن أحب أن أزرع » يعنى أن ذلك ليس عن حاجة ، وإنما هو مجرد محبة للزرع الذى كان يزاوله فى الدنيا .

قوله : « فأسرع ، وبذر ، فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال » يعنى أن الله أذن له فبذر ، وخرج الزرع فاستوى واستحصد ، واجتمع حبا متراكما أمثال الجبال فى لحظة واحدة ، لأن الجنة ليس فيها نصب وكد وتعب ، وإنما فيها تنعم وراحة ، وما يشتهون .

وهذا من عجائب قدرة الله القادر على كل شىء .

« فيقول : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شىء » دونك منصوب على الإغراء ، أى خذ ثمار الزرع الذى طلبت .

ولا يفهم من قوله : « فإنه لا يشبعك شىء » أن الجنة يحصل فيها حاجة

وجوع ، ولكن يدل على أن نفس الإنسان فيها من الشره فوق ما تحتاجه ، وقول الأعرابى : لا نجد هذا إلى آخره ، من باب المزاح ، والاعتزاز بأن هذا الرجل ليس من الأعراب ، وإنما هو من أهل الزرع فى الدنيا وهم الحاضرة وفيه تعريض بذلك الرجل حيث طلب من الله ما لا يحسن طلبه ، لأنه لا حاجة له فيه .

والشاهد من الحديث واضح جدا ، فإن هذا الرجل خاطب ربه فكلمه ، وتكرر كلامه معه ، وهو من الأدلة الدالة على اتصاف الله تعالى بالكلام ، وتعلقه بمشيئته ، فمتى شاء الكلام تكلم .

قال : « باب ذكر الله بالأمر ، وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة ، والبلاغ ، لقوله : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونَ ۝ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ غمة : هم وضيق .

قال مجاهد : اقضوا إلى ما فى أنفسكم ، افرق : اقض .

وقال مجاهد : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ إنسان يأتيه ، فيستمع ما يقول ، وما أنزل عليه ، فهو آمن حتى يأتيه فيسمع كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء .

والنبأ العظيم : القرآن ، صوابًا : حقًّا فى الدنيا وعمل به » .

مقصوده بهذا ، بيان الفرق بين فعل الله وما هو صفة له ، وبين فعل العبد

وما هو صفة له ، والرد على الذين لم يفرقوا بين ذلك ، كما أوضح ذلك فى كتابه « خلق أفعال العباد » قال ــ رحمه الله ــ بعد ما ذكر حديث أبى هريرة : « يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله حمدنى عبدى » الحديث قال : « فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة »[1] .

وقال : « وأما قوله : فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به .

فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام[2] .

قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله بقول الله ، وليس قولك : الله : هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بصفته ، وكلامه ، فهو الله »[3] .

يعنى أن اللفظ غير المتلفظ به ، فإذا قرأ القرآن فاللفظ هو فعل العبد وصوته بحركة لسانه وما يلزم للتلفظ ، وأما الملفوظ به فهو كلام الله ــ تعالى ــ وكذلك إذا وصفت الله بقوله ــ تعالى ــ الذى وصف به نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فلفظك بهذه الآية ليست هى الصفة ولكن لفظك بها فعلك ،تصف الله بما قاله ــ تعالى ــ واصفًا به نفسه هذا معنى قوله « وليس قولك : الله هو الصفة ، إنما تصف الموصوف فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه » ثم قال :

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٥ تحقيق عبد الرحمن عميرة .
(٢) هذا قول من يقول : اللفظ هو الملفوظ ، وهو قول باطل بين بطلانه البخارى بهذا الكلام .
(٣) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

« كالواصف الذى يصف الله بكلام غير الله » يعنى أن العبد إذا وصف الله بكلام الله الذى وصف به نفسه ، فالوصف فعل العبد ، والكلام الذى وصف به الله هو كلامه ــ تعالى ــ وصفته ، وهو ــ تعالى ــ الموصوف ، وهذا معنى قوله : « وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله » . ثم قال :

« ففى قولك : تلفظ به ، وتقرأ القرآن ، دليل بين أنه غير القراءة ، كما تقول : قرأت بقراءة عاصم ، وقراءتك على قراءة عاصم ، لا أن لفظك وكلامك ، كلام عاصم بعينه ، ألا ترى أن عاصما لو حلف أن لا يقرأ اليوم ثم قرأت أنت على قراءته لم يحنث عاصم »[1] .

يعنى أن قولك : تلفظت به ، كقولك : قرأت القرآن ، فالتلفظ مثل القراءة وهما غير المتلفظ به ، والمقروء ، كما تقول قرأت بقراءة عاصم ، يعنى قرأت على قراءة عاصم ، أما قراءة عاصم فهى فعله . ثم قال :

« وقال أحمد رحمه الله : لا يعجبنى قراءة حمزة ، ولا يقال : لا يعجبنى القرآن »[2] ، وهذا واضح ، فإن المراد فعل حمزة ، وما فيه من المد الطويل ، فأحمد كره فعل حمزة ، لا ما يقرأ حمزة ، ثم قال :

« واعتل بعضهم[3] فقال : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ . قيل له : إنما يقال حتى يسمع كلام الله ، لا كلامك ، ونغمتك ولحنك ، لأن الله ــ عز وجل ــ فضل موسى بكلامه ، ولو كنت تسمع الخلق كلام الله ، كما أسمع الله موسى ﷺ لم يكن لموسى عليك فضل ، إذا سمعت كلام الله وسمع موسى كلام الله ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾[4] .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٧٢ تحقيق بدر .
(٢) المصدر .
(٣) يعنى بعض الذين يرون أنه لا فرق بين اللفظ والملفوظ .
(٤) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن شريك بن عبد الله ، عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ ليلة أسرى به قال : « رأيت موسى فى السماء السابعة بتفضيل كلام الله »[1] .

يعنى أن استدلال من يزعم أن لا فرق بين اللفظ والملفوظ ، بقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ـــ استدلال باطل ، لأن السامع لذلك يسمع كلام الله بصوت المبلغ ولفظه ، لا بصوت الله ـــ تعالى ـــ ولفظه ، ولو كان الأمر كما زعم هذا المستدل ، لم يكن هناك فرق بين موسى حين كلمه الله ، وبين من يسمع كلام الله ممن يتلوه ، ويقرؤه ، ثم استدل بالحديث حيث رأى موسى فى السماء السابعة بتفضيله بكلام الله له ، ولهذا قال :

« وإن ادعيت أنك تسمع الناس كلام الله ، كما أسمع الله كلامه لموسى [لما] قال له : ﴿ إِنِّى أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فهذه دعوى الربوبية ، إذ لم تميز بين قراءتك ، وبين كلام الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [وهذا] يشرح أن ذكر العبد ربه غير ذكر الله عبده ، لأن ذكر العبد الدعاء والتضرع ، وذكر الله الإجابة ، كما قال الله عز وجل ، وقال النبى ﷺ : « إنى لا أقول إلا ما فى القرآن » .

حدثنا ضرار ، حدثنا صفوان بن أبى الصهباء ، عن بكير بن عتيق ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال النبى ﷺ : « بينا أنا فى الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن » . فبين أن الصوت غير القرآن .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن سليمان ، عن موسى بن عقبة وابن

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا أمشى فى الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا حارثة بن النعمان ، فذلكم البر ، فذلكم البر » ، وكان حارثة من أبر الناس .

ويقال له : أصفة الله — جل ذكره — وعلمه ، وكلامه ، وأسماؤه ، وعزته ، وقدرته ، بائن من الله — تعالى — أم لا ؟

أو قولك وكلامك بائن من الله أم لا ؟ »[1] .

يعنى أن كلام الله مثل صفاته الأخرى ، من العزة والقدرة ، لا يكون شيء منها مفارقا لله — تعالى — وبائنا منه ، بخلاف كلام الخلق ، وأقوالهم فإنها بائنة من الله ، وليست من صفاته ، بل صفات لمن قالها ، وتكلم بها ثم قال :

« وقال الله — تعالى — : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾[3] فالإبلاغ ، والإنذار من نوح ، وهو نذير مبين ، يأمرهم بطاعة الله ، وأما الغفران ، فإنه من الله ، لقوله — عز وجل — : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ .

فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح ، وذكر فعل نوح بقومه . ثم قال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، فذكر خلق القوم طورا بعد طور .

وقال عز وجل : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ

---

(١) المصدر .
(٢) الآية ٣٩ ، ٤٠ من سورة النجم .
(٣) الآية ١ من سورة نوح .

بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1] .

حدثنا موسى ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : لما نزلت ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت ، فجلس فى بيته ، وقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، وقد حبط عملى ، وأنا من أهل النار ، ففقده النبى ﷺ فأتاه رجل فقال : إنه يقول : كذا وكذا ، فقال النبى ﷺ هو من أهل الجنة وكنا نراه يمشى بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فلما كان يوم اليمامة كان من بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنط ، وقال : بئس ما تعودون أقرانكم ، فقاتل حتى قتل »[2] .

وقد سمى ابن عمر الصوت بالقرآن عبادة .

حدثنى أبو يعلى محمد بن الصلت ، حدثنا أبو صفوان ، عن يونس ، عن الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه قال : « أول ما ينقص من العبادة التهجد بالليل ، ورفع الصوت فيها بالقراءة » .

وقال النبى ﷺ : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة » .

وقال ابن مسعود : قال النبى ﷺ لقوم كانوا يقرأون القرآن فيجهرون به : « خلطتم علىَّ » ، يقول : علت أصواتكم فشغلتمونى برفعها فوق صوتى ، فخلطتم علىَّ ، فنهى النبى ﷺ أن يرفع بعضهم على بعض صوته ، ولا يخلطون على الناس فى جهرهم ، وأصواتهم ، ولم ينه عن القرآن ، ولا عن كلام الله الذى كلم به موسى قبل أن يخلق هذه الأمة .

---

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير بأسانيد عدة ، انظر جـ ٢ ص ٥٦ — ٦٠ .

حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية ، عن ربيعة بن زيد ، عن إسماعيل بن عبيد الله ، عن أم الدرداء ، أنها قالت : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، وإن صليت فهو من ذكر الله ، وكل خير تعمله ، فهو من ذكر الله ، وكل شر تجنبه فهو من ذكر الله ، وأفضل ذلك تسبيح الله » .

وقال موسى : ﷺ : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] .

وقال بعضهم فى قوله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ قال : الصوت الحسن .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر .

وقال بعضهم : إن أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه ، الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ، ولا الوصف من الصفة .

ولم يعرفوا الكذب لم صار كذبا ؟ ولا الصدق لما صار صدقا ؟

فأما بيان المجاز من التحقيق ، فمثل قول النبى ﷺ للفرس : « وجدته بحرا » . وهو الذى يجوز بين الناس . وتحقيقه أن مشيه حسن .

ومثل قول القائل علم الله معنا ، وفينا ، وأنا فى علم الله ، إنما المراد من ذلك أن الله يعلمنا ، وهو التحقيق ، وأشباهه فى اللغات كثيرة .

وأما الفعل من المفعول : فالفعل إنما هو إحداث الشىء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[3] .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة طه .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الذاريات .
(٣) الآية ٣٢ من سورة إبراهيم .

فالسماوات ، والأرض مفعوله ، وكل شيء سوى الله ، بقضائه فهو مفعول فتخليق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله .

ففعله من ربوبيته حيث يقول : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ و « كن » من صفته ، وهو الموصوف به ، كذلك قال رب السماوات ، ورب الأشياء .

وقال النبى ﷺ : « رب كل شيء ومليكه » .

وكذلك مؤدى جميع لغات الخلق ، من غير اختلاف بينهم ، وإنما هو الفاعل والفعل ، والمفعول .

فالفعل صفة ، والمفعول غيره ، وبيان ذلك فى قوله — تعالى — ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾(1) .

ولم يرد بخلق السماوات نفسها ، وقد ميز فعل السماوات ، من السماوات وكذلك فعل جملة الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ فقد ميز الفعل والنفس ، ولم يصر فعله خلقا .

وأما الوصف من الصفة : فالوصف إنما هو قول القائل ، حيث يقول : هذا رجل طويل ، وثقيل ، وجميل ، وحديد ، فالطول ، والجمال ، والحدة ، والثقل إنما هو صفة الرجل ، وقول القائل وصف .

كذلك إذا قال : الله رحيم ، والله عليم ، والله قدير ، فقول القائل وصف وهو عبادة ، والرحمة ، والعلم ، والقدرة ، والكبرياء ، والقوة كل هذا صفاته »(1)

---

(1) خلق أفعال العباد ص ١١٤ .

يعنى أن فعل الواصف الذى هو قوله يصف الموصوف إذا تكلم بذلك ونطق به ، يسمى وصفا ، وهو عبادة إذا كان يصف الله ــ تعالى ــ لأنه يثنى عليه بذكر صفته .

وأما الصفة : فهى قائمة بالموصوف ، لا تفارقه ، مثل رحمة الله ، وعلمه وقدرته ، وقوته ، وعزته ، وكبريائه ، وغير ذلك من أوصافه .

ثم قال : « وأما الكذب من الصدق : فقول القائل : فلان ها هنا وهو غائب ، فهو كذب .

فلو كان حاضرا لكان صدقا ، والكلمة واحدة ، وإنما صار كذبا وصدقا لحال المعنى .

وكذلك لو أن رجلا قال : إن الله رحيم ، ويرحم ، والله عليم ويعلم ، والله قدير ويقدر ، والله سميع ويسمع ، ولم يكن لقوله معنى كما وصفنا فى شأن الكذب والصدق ، لكان قوله كذبا ، وإنما صار هذا القول صدقا وعبادة وطاعة لحال المعنى .

واختلف الناس فى الفاعل والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت الجهمية : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : « كن » مخلوق .

وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] يعنى السر والجهر من القول .

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق .

ويقال لمن زعم أنى لا أقول : القرآن مكتوب فى المصحف ، ولكن القرآن بعينه فى المصحف ، يلزمك أن تقول : إن ما ذكر اللهُ فى القرآن من الجن ، والإنس ، والملائكة ، والمدائن ، ومكة ، والمدينة ، وغيرهما ، وإبليس ، وفرعون ، وهامان ، وجنودهما ، والجنة ، والنار : عاينتهم بأعيانهم فى المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من هذا ، حين تقول فى المصحف [الله لأنه مكتوب فيه ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ . وهذا أمر بين ، لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك][1] .

فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[2] هو قرآن .

وكذلك جميع القرآن هو قوله ـــ تعالى ـــ والقول صفة القائل ، موصوف به .

فالقرآن قول الله عز وجل .

والقراءة ، والكتابة ، والحفظ للقرآن ، هو فعل الخلق ، وهو طاعة الله ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾[4] .

---

(١) ما بين الحاصرتين تصرفت فيه بالتقديم والتأخير ، لأن فيه ارتباكا وتعقيدا والمقصود منه واضح ، وأظن أنه حصل فيه الاضطراب من النساخ .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة و ٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[2] فذلك كله مما أمر الله به .

ولذلك قال : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فالصلاة بجملتها طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة .

فالصلاة طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، مقروء على الألسن .

والقراءة ، والحفظ ، والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس بمخلوق .

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون الله ، ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق ، ولا شك فيه .

والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن فى المصحف ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم إن من صفات الله مايرى فى الدنيا ، وهذا رد لقول الله عز وجل : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[3] فى الدنيا ، وإن قال : يرى كتابة القرآن فقد رجع إلى الخلق .

ويقال له : هل تدرك إلا اللون ؟ فإن قال : لا ، قيل له : وهل يكون اللون إلا فى الجسم ؟ فإن قال : نعم فقد زعم أن القرآن جسم يرى »[4] .

يعنى أن الذى فى المصحف هو كتابة القرآن ، والكتابة فعل العباد ، أما القول فلا يرى ، وإنما يسمع ، وهو صفة القائل قائم به .

---

(١) الآية عدد من آيات سورة اقتربت الساعة .
(٢) الآية جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة .
(٣) جزء من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٤) خلق أفعال العباد ص ١١٤ – ١١٦ .

والمقصود أن وجود القرآن فى المصحف ليس كوجود الأعيان المشاهدة ، وإن كان له وجود حقيقى ، فقد اتفق المسلمون على أن القرآن فى المصحف قال ابن القيم : « من المعلوم بالفطرة المستقرة عند العقلاء قاطبة أن الكلام يكتب فى المحالّ من الرق ، والخشب وغيرهما ويسمى محله كتابا ، ويسمى نفس المكتوب كتابا .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ . ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

والقول بأن الكلام فى الصحيفة من العلم العام الذى لم ينازع فيه أحد من العقلاء إذا سلمت الفطرة من الانحراف ، وقد قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[1] وفى حديث ابن عمر : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[2] ، ومعلوم بالضرورة أنه لا محذور فى السفر إلى أرض العدو بالمداد والورق ، وإنما المحذور أن يسافر بالكلام الذى تضمنه الورق »[3] . وسيأتى مزيد لهذا فى موضعه .

وقد أطلت النقل عن البخارى رحمه الله لأن ذلك مراد فيما ترجم به ، فهو كالشرح له ، وبذلك وضح مقصده وضوحا جليا .

فقوله : « ذكر الله بالأمر » أى أمره الذى يأمر به عباده ، وهو صفته ، فإذا أمرهم فقد ذكرهم ، وكذلك إذا رحمهم وأنعم عليهم ، فقد ذكرهم .

« وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة والبلاغ » أى ذكرهم الله بأن

---

(١) الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .
(٢) رواه مسلم رقم ١٨٦٩ جـ ٣ ص ١٤٩٠ — ١٤٩١ والإمام أحمد فى المسند جـ ٢ ص ٧ ، ٦٣ ، ١٢٨ وغيرهما ورواه البخارى . جـ ٤ ص ٤٥ باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو .
(٣) مختصر الصواعق ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ملخصا .

عن ذلك وعليه تبعته ، ولا يرفع ذلك المسئولية عن المباشر للفعل ، ولا سيما إذا كان فيه معصية لله تعالى ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق تعالى .

والله تعالى يسأله ، وهو أعلم بقصده ، وما أراده ، وإنما ذلك لتقريره بذنبه ، حتى يتم الجزاء ، فلما كان الدافع له على ما أقدم عليه هو خوف الله بقصد حسن ، غفر الله له ، وإن كان فعله خطأ ، وجهلا بقدرة الله — تعالى — ومع ذلك عذره الله ، وغفر له .

والشاهد منه قوله : « ثم قال : لم فعلت ؟ » لأنه خطاب من الله — تعالى — لهذا يسأله عن فعله ، الذى خالف فيه مقتضى الإيمان بكمال قدرة الله — تعالى — وقول الله — تعالى — وخطابه غير ما يخلقه ، ويفعله مفعولا له ، وكلام الله — تعالى — داخل فى أفعاله الاختيارية ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا نفاد له ، ولا يجوز قصر كلام الله على كتبه .

١٣٣ — قال : « حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، حدثنا إسحاق بن عبد الله ، سمعت عبد الرحمن ابن أبى عمرة ، قال : سمعت أبا هريرة ، قال : سمعت النبى ﷺ قال : « إن عبدا أصاب ذنبا — وربما قال : أذنب ذنبا — فقال : رب أذنبت ذنبا — وربما قال : أصبت ذنبا — فاغفر لى ، فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ .

غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا ، أو أذنب ذنبا — فقال : رب أذنبت — أو أصبت آخر ، فاغفره ، فقال : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى .

ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبا — وربما قال : أصاب ذنبا — فقال : رب أصبت — أو أذنبت — آخر فاغفره لى ، فقال : أعلم

عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثا ، فليعمل ما شاء » .

قوله : « إن عبدا أصاب ذنبا » هذا جنس يعم كل من كان بهذه الصفة — أى من أذنب ، ثم رجع إلى ربه هاربا من عذابه ، طالبا المغفرة تائبا .

قوله : « أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به » أى أنه حقق هذا العلم باعترافه بالذنب ، وإنابته إلى ربه راغبا فى مغفرته ، خائفا من عقوبته ، فلذلك غفر له ، ثم قال فى الثالثة : « فليعمل ما شاء » يعنى — ما دام يذنب ثم يستغفر ويتوب ، فإن ربه — تعالى — يغفر ذنبه .

ولا يدل ذلك على أنه مصر على الذنب ، فإن الإصرار على الذنب أعظم منه ، ولكنه يتوب ويستغفر ، ثم يغلبه الطبع ، وهوى النفس ، وتزيين الشياطين فيواقع الذنب ، ثم يفر بعد ذلك إلى ربه تائبا نادما ، راجيا خائفا ، فشروط التوبة متحققة فيه ، وهى الإقلاع عن الذنب ، والندم على الوقوع فيه ، والعزم على أن لا يعاوده .

قال القرطبى فى المفهم : « يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله ، وسعة رحمته ، وحلمه ، وكرمه .

لكن هذا الاستغفار ، هو الذى ثبت معناه فى القلب مقارنا للسان لينحل به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث : « خياركم كل مفتن تواب » ، ومعناه : الذى يتكرر منه الذنب والتوبة ، فكلما وقع فى الذنب ، عاد إلى التوبة .

لا من قال : أستغفر الله بلسانه ، وقلبه مصر على تلك المعصية ، فهذا الذى استغفاره يحتاج إلى استغفار .

قلت : ويشهد[1] له ما أخرجه ابن أبى الدنيا ، من حديث ابن عباس ، مرفوعا : « التائب من الذنب ، كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب ، وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » . والراجح أن قوله : « والمستغفر » إلى آخره موقوف . وأوله عند ابن ماجه ، والطبرانى ، من حديث ابن مسعود ، وسنده حسن . وحديث : « خياركم كل مفتن تواب » ذكره فى مسند الفردوس ، عن على .

قال القرطبى : « وفائدة هذا الحديث ، أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه ، لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم ، والإلحاح فى سؤاله ، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه »[2] .

والمقصود من الحديث : وقوع كلام الله ــ تعالى ــ مخاطبا هذا العبد المذنب ، وإن كان العبد لا يسمع ذلك الخطاب ، ولم يعلم به ، فهو مما أوحاه الله ــ تعالى ــ إلى رسوله ﷺ وهو واقع من الله تعالى ، فهو دال على مراد الإمام البخارى رحمه الله من أن الله يتكلم متى شاء ، بما يشاء من أمره ، وشرعه ، وتدبيره لخلقه ، وتصريفه ملكه جل وعلا ــ وكلامه لا حصر له ولا نفاد ، وهو غير مخلوق ؛ لأن الكلام صفة المتكلم متعلق به وقائم به ، وأما خلقه فهو مفعول له ، ليس من صفاته ، وإنما هو من مفعولاته . والله أعلم .

١٣٤ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، حدثنا قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ : « أنه ذكر رجلا فيمن سلف ــ أو فيمن كان

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧١ ــ ٤٧٢ .

قبلكم — قال كلمة — يعنى أعطاه الله مالا وولدا ، فلما حضرت الوفاة ، قال لبنيه : أى أبٍ كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال : فإنه لم يبتئر — أو لم يبتئز — عند الله خيرا ، وإن يقدر الله عليه يعذبه ، فانظروا إذا مت ، فأحرقونى ، حتى إذا صرت فحما فاسحقونى — أو قال : فاسحكونى — فإذا كان يوم ريح عاصف فأذورنى فيها .

فقال نبى الله ﷺ فأخذ مواثيقهم على ذلك — وربى — ففعلوا ، ثم ذروه فى يوم عاصف .

فقال الله — عز وجل — : كن فإذا هو رجل قائم ، قال الله : أى عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك — أو قال : فرق منك — قال : فما تلافاه أن رحمه عندها .

وقال مرة أخرى : « فما تلافاه غيرها » ، فحدثت به عثمان ، فقال : سمعت هذا من سفيان : غير أنه زاد فيه : « أذرونى فى البحر » أو كما حدث » .

« حدثنا موسى ، حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتئر » .

« وقال لى خليفة : حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتئز — فسره قتادة — لم يدخر » .

هذا هو الحديث المتقدم قريبا أعاده من طرق أخرى من حديث أبى سعيد الخدرى .

وفيه من الزيادة قوله : « فيمن سلف — أو فيمن كان قبلكم » وتقدم أن الإمام البخارى — رحمه الله — أورده فى أحاديث بنى إسرائيل ، من كتاب الأنبياء مما يدل على أنه منهم والله أعلم .

وفيه أن وصيته وأمره لأولاده كانت عند وفاته ، بقوله : « أى أب كنت لكم » ليكون ذلك أدعى إلى تنفيذ أمره ، فكأنه يقول : ما دمتم تعرفون أنى كنت لكم خير أب ، فمن جزائى عليكم أن تفعلوا ما آمركم به .

وفيه أن سبب أمره لأبنائه بذلك أنه مسرف على نفسه و لم يقدم خيرا فقوله : « لم يبتئر خيرا عند الله » معناه لم يقدم عملا صالحا ، وفسره قتادة بأنه لم يدخر عند الله خيرًا .

والمقصود أنه لم يعمل خيرا يرجو به النجاة .

وفيه قوله : « حتى إذا صرت فحما فاسحقونى ــ أو قال فاسحكونى ــ فإذا كان يوم عاصف فأذرونى فيها » وقد فهم هذا كله من الحديث السابق ، والسحق ، والسحك ، كلاهما بمعنى واحد ــ وهو أن يطحن حتى يصير ذرات صغيرة جدا ، ولهذا أمرهم أن يذروه فى اليوم الذى تكون الريح فيه عاصفا ــ أى شديدة إمعانا فى تفريق أجزائه ، ظنا منه أن الله لا يقدر على إعادته بعد ذلك ، وهذا هو مقصده .

وفيه قول النبى ﷺ : « فأخذ مواثيقهم على ذلك ــ وربى ــ » ففيه مشروعية القسم على الأمر المؤكد تقوية وتأكيدا للسامع حتى لا يرتاب فى ذلك ، والرسول ﷺ هو الصادق المصدوق فيجب تصديق خبره بدون أى تردد ، أو شك ولو لم يقسم ، ولكنه يشرع لأمته صلوات الله وسلامه عليه .

والمواثيق جمع ميثاق ، وهى العهود ، والأيمان المؤكدة على أن يفعلوا ما أمرهم به .

وفيه أن الله ــ تعالى ــ قال له : « كن فإذا هو رجل قائم » وهو ظاهر فيما قلنا أنه واقع فى الدنيا ، وسبق أن حديث جابر يدل على ذلك ، ولفظه : « قال جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ : قال النبى ﷺ : « ألا أبشرك عما لقى أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلنى ،

فقال : يا رب ردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك ، قال : فإني قد قضيت عليهم ألا يرجعوا ، قال : يا رب فأبلغهم عنا ، فأنزل ـــ عز وجل ـــ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(١) .

وفيه : أن الله ـــ تعالى ـــ قال له : « أي عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت » وهو بمعنى ما تقدم .

وقوله : « مخافتك ـــ أو فرق منك » الفرق : هو الخوف ، وهو بمعنى ما تقدم من قوله « خشيتك » .

وفيه قوله : « فما تلافاه أن رحمه عندها ـــ وقال مرة أخرى : فما تلافاه غيرها » . يعنى أنه تعالى عندما قال هذه الكلمة ، رحمه دون إمهال ، بل أسرع إليه برحمته ، فغفر له ، فما أعظم هذا الكرم ، وأوسع هذا الحلم والرحمة ، هذا مع شك هذا الرجل فى قدرة الله ، وعدم إيمانه بما يجب عليه بأنه تعالى على كل شيء قدير ، ولكن رحمة الله تغلب غضبه .

وتقدم بيان الشاهد منه ، وهو قول الله تعالى وخطابه لهذا الرجل مما يدل على أنه تعالى يقول ويتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء ، وكلامه تعالى لا حصر له ولا نفاد ، وهو غير خلقه لأن الكفار والمنافقين يريدون أن يبدلوا كلام الله ، وذلك قد يقع ، وأما خلق الله تعالى فلا تبديل له .

كما فى هذه النصوص إثبات الصفات الاختيارية لله ـــ تعالى ـــ وهى من تمام حمده ، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ، ولا أنه رب العالمين .

---

(١) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ ، ورواه الإمام أحمد ولفظه : « أعلمت أن الله أحيا أباك ، فقال له : تمن ، فقال له : أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » انظر المسند جـ ٣ ص ٣٦١ .

فإن الحمد ضد الذم ، وهو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له ، كما أن الذم هو الإخبار بمساوىء المذموم مع بغضه ، وجماع المساوىء فعل الشر ، كما أن جماع المحاسن فعل الخير .

فمن كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد ، ومن لم يكن له فعل اختيارى يقوم به ويفعله بمشيئته وقدرته لا يكون خالقا ولا ربا للعالمين .

وقد علم بالاضطرار أن الله ـــ تعالى ـــ هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده وهو المحيى المميت وحده ، وهذا هو الفعل الاختيارى فوجب إثباته لله ـــ تعالى ـــ .

وكذلك اتصافه بالصفات مثل الرحمن الرحيم ، فإن الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته ، وكذلك يعذب من عصاه بمشيئته وقدرته فتصرفه فى ملكه دلت عليه أسماؤه وصفاته تعالى ، فمن أنكر صفاته لزمه تعطيله عن تصرفه فى ملكه .

قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾(1) فعلق الرحمة والعذاب بمشيئته .

وهو ـــ تعالى ـــ لم يزل بصفاته يفعل ما يشاء له الكمال المطلق فى كل وقت فى الأزل وفى الأبد ، وهذا مما أراده البخارى ـــ رحمه الله ـــ بذكر هذه النصوص خلافا لما يقوله أهل البدع .

---

(1) الآية ٥٤ من سورة الإسراء .

قال : « باب كلام الرب ـ عز وجل ـ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم » .

هذا هو الباب الثامن مما يستدل به الإمام البخارى ـــ رحمه الله ـــ على إثبات الكلام لله ـــ تعالى ـــ .

فذكر أولا قوله : تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم بوب على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ ﴾ ، ثم على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى ﴾ الآيات ، ثم ذكر المشيئة والإرادة إشارة منه إلى أن كلامه ـــ تعالى ـــ بمشيئته وإرادته ، وأنه إذا شاء أن يتكلم تكلم ، ثم ذكر ما بين الله من حال الملائكة عند سماعهم صوت الله تعالى بالكلام ، وأنهم يصعقون ، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ، وفيه إثبات الصوت لله تعالى ، وأن كلامه بصوت ، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام لله حقيقة ، ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ يريد بذلك إبطال قول من يزعم أن كلام الله مخلوق ، لأن الخلق لا يبدل بخلاف الكلام ، فإنه يمكن تبديله ، أو يريد أن الأحاديث القدسية من كلام الله حقيقة ، وأن كلامه تعالى لا ينحصر فى كتبه المنزلة ، ثم ذكر هذا الباب الذى نحن فى صدد شرحه ، وهو كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، يقصد بذلك أن كلامه تعالى لا انقطاع له ولا نهاية بل متعلق بمشيئته متى شاء تكلم ، فكما أنه تعالى تكلم فى الأزل ، وبعده كلما أراد ، فهو يتكلم فى المستقبل وفى الحال حسب إرادته . ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ليبين أن كلامه حقيقة ، وأنه يكون خاصا وعاما ، ولهذا أعقبه بقوله : باب كلام الرب مع أهل الجنة ، ثم ذكر مسألة خلق أفعال العباد ، والفرق بين فعل الله تعالى وفعل العبد ، ووجوب عدم مشابهة الرب فى ذلك وغيره ، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم بين الفرق بين فعل العبد وما هو صفة لله مثل القراءة والمقروء ، وغير ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وكل ما ذكره أدلة واضحة صريحة ومخالفتها ضلال بين .

١٣٥ ـــ قال : « حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ، أبو بكر بن عياش ، قال : سمعت أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : يارب أدخل الجنة من كان فى قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان فى قلبه أدنى شىء ، فقال أنس : كأنى أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » .

هذا مختصر من حديث الشفاعة ، وتقدم شرحه .

قوله : « شفعت » مبنى للمجهول ، ومعلوم أنه لا يُشَفَّع فى ذلك الموقف إلا الله ـــ جل وعلا ـــ ولا تقع الشفاعة إلا بكلام الله وأمره ، وبهذا يُردُّ قول ابن التين ، الذى نقله الحافظ : « أنه قال : هذا فيه كلام الأنبياء مع الرب ، ليس كلام الرب مع الأنبياء »[1] ، وكذلك قوله : « ثم أقول : أدخل الجنة من كان فى قلبه أدنى شىء » يدل على أن الله يكلمه .

والمراد بالشىء : الإيمان ، ويصدق على ما يسمى شيئا ، وهو أقل جزء من الإيمان ، وهذا دليل واضح على تفاوت الإيمان بين الناس ، كما دلت عليه النصوص الكثيرة .

قوله : « كأنى أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » يعنى أنه كان يشير بأصابعه يصف قلة ما عند هذا المخرج من النار من الإيمان .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٥ .

١٣٦ ـــ قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزى ، قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس ، وذهبنا معنا بثابت البنانى إليه ، يسأله لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو فى قصره ، فوافيناه يصلى الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا ، وهو قاعد على فراشه .

فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة ، فقال : يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة .

فقال : حدثنا محمد ﷺ فقال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس فى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فيأتونى ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربى ، فيؤذن لى ، ويلهمنى محامد أحمده بها لا تحضرنى الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان

فى قلبه مثقال ذرة ، أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقول : انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، من النار ، من النار ، فأنطلق فأفعل » .

فلما خرجنا من عند أنس ، قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن ، وهو متوار فى منزل أبى خليفة ، فحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك ، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا فى الشفاعة .

فقال : هيه ، فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع ، فقال : هيه ، فقلنا : لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثنى وهو جميع منذ عشرين سنة ، فلا أدرى أنسى ، أم كره أن تتكلوا .

فقلنا : يا أبا سعيد فحدثناه ، فضحك ، وقال : خلق الإنسان عجولا ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثنى كما حدثكم به ، قال : « ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم لَخر له ساجدًا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتى وجلالى ، وكبريائى ، وعظمتى لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » .

تقدم شرحه ، والمقصود منه هنا إثبات كلام الله تعالى لرسولنا محمد ﷺ

فى الموقف ، فإن فيه محاورة بين رب العالمين جل وعلا ، وبين عبده ورسوله محمد ﷺ .

وهو واضح الدلالة على المراد ، من أنه تعالى يتكلم ويخاطب من يشاء من عباده يوم القيامة ، وإذا ثبت ذلك دل على أن كلامه بمشيئته ، وأنه متى شاء تكلم ، يوم القيامة ، وقبلها .

وهذا أمر من ضروريات دين الإسلام ، لا ينكره إلا من هو دخيل فيه ، أو زنديق قد تلبس بثوب الإسلام لأجل النيل منه ، والإجهاز عليه إذا واتته الفرصة ، أو ضال لعبت به الأهواء ، واجتالته شياطين الإنس والجن ، بعيدًا عن الحق والهدى .

ولا يضر ما فى هذه الخطابات الكريمة من الأفعال المبنية للمجهول كقوله : « فأستأذن فيؤذن لى » ، وقوله : « فأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك » لأنه قد علم أنه لا يقول ذلك إلا رب العالمين ، وليس لمخلوق فى ذلك الموقف العظيم أن يأمر ، وينهى ، ويتصرف فى الخلق ، بإدخال بعض العباد النار ، وإخراج البعض منها ، وإنما الفاعل لذلك كله ، والآمر به هو رب العباد — عز وجل — .

وهو الذى يقول لرسوله : « يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع » ، وهو — تعالى — القائل له : « انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان » .

ودل صراحة على تفاوت هؤلاء المخرجين من النار فى الإيمان ، وقد تكاثرت النصوص على ذلك .

كما دل على أن من معه أصل الإيمان ، ولم يخرج منه بمكفر أنه لا يخلد فى النار ، وإن عظمت ذنوبه ، وإن ضعف إيمانه .

قال القرطبى : « المراد بالإيمان هنا أعمال الإيمان التى هى أعمال الجوارح

فيكون دليلا على أن الأعمال الصالحة من الإيمان .

وقد قيل : إن المراد أعمال القلوب ، ويجوز أن يراد به رحمة لمسلم ، رقة على يتيم ، خوفا من الله ، رجاء له ، توكلا عليه ، ثقة به مما هو أفعال القلوب دون الجوارح ، وسماها إيمانا لكونها فى محل الإيمان »[1] .

والظاهر أن المراد أصل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إذ هو الباعث على عمل ما ذكر ، ولكن قد يكون الإيمان ضعيفا فلا يقوى على دفع صاحبه إلى العمل .

ودل على تكرار الشفاعة مرات متعددة ، وذلك من رحمة الله بعباده ولهذا يفتح الله ـــ تعالى ـــ على نبيه من المحامد والثناء ما يرضى به عنه ويأذن له بالشفاعة ، وما لم يكن ﷺ يعرفه من قبل .

واستدل بهذا على أن أسماء الله ـــ تعالى ـــ لا حصر لها ، لأن الثناء على الله ـــ عز وجل ـــ يكون بأسمائه الحسنى وصفاته .

وفى الحقيقة الشفاعة لله ـــ تعالى ـــ فهو الذى يأمر بها فيقول لنبيه « اشفع » ويشفعه ، وتقدم أن حقيقة الشفاعة : رحمة الله تعالى للمشفوع فيه ، وإظهار كرامة الشافع .

ودل الحديث على شفقة النبى ﷺ على أمته .

وقد جاء أن الأنبياء والملائكة والمؤمنين يشفعون ، وتقدم بيان ذلك فى باب قول الله ـــ تعالى ـــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

ودل الحديث على عظم ذلك اليوم ، إذ إن أفضل الرسل تحجم عن الشفاعة ، ويعتذرون بأنهم قد أصابوا ذنوبا ، تابوا منها وقبلت توبتهم ،

---

(١) التذكرة جـ ٢ ص ٤١٨ .

ولكنهم يستحيون من الله .

وفيه دليل على جواز وقوع الذنوب فى الجملة من الرسل ، ولكنهم يوفقون إلى التوبة ، والرجوع إلى الله — تعالى — وسبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « من كان فى قلبه أدنى ، أدنى مثقال حبة خردل من إيمان » التكرار للتأكيد ، أو التوزيع على الحبة والخردلة ، أى أقل حبة من أقل خردلة من الإيمان » قاله الحافظ[1] .

وقوله : « من النار ، من النار ، من النار » هو للتأكيد والمبالغة .

وتقدم ما فى هذا الحديث من الإشكال ، لأن أوله غير متصل بآخره ، والجواب عنه .

ويستفاد منه أن الشفاعة لا تطلب إلا ممن يملكها .

كما يستفاد أنه لا يطلب من الشافع أن يشفع إلا إذا كان يقدر على الشفاعة بأن يكون حيا حاضرًا ، قادرا على ذلك ، ففيه بيان ضلال الذين يتعلقون بالموتى ، ويطلبون منهم التوسط لهم عند الله ، وهذا عين شرك المشركين الذين أرسلت إليهم الرسل ، ينهونهم عن ذلك ، وينذرونهم عذاب الله إن لم يتوبوا منه .

ودل صراحة على أن الشفاعة لا تنال إلا مَن أمر اللهُ الشافعَ أن يشفع فيه ، ولهذا ذكر أنه فى كل مرة يحد الله له حدا فيقول له : اشفع فيهم ، فهو — تعالى — يعين له نوعًا متميزًا فيأمره أن يشفع فيهم بحيث لا يمكن دخول من ليس منهم معهم ، ولذلك قال فى الأولى : « من فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان » ، وفى الثانية : « من فى قلبه أدنى مثقال حبة خردل » ، وفى الرابعة :

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٥ .

« من قال لا إله إلا الله » ، وهذا يعطى بظاهره أنه ولو لم يكن فى قلبه شىء من الإيمان ، وقد تؤول بأن المقصود الإيمان الزائد على أصل الإيمان الذى يحصل به الخروج من الكفر ، وادعى بعض العلماء الإجماع على ذلك .

والذى يظهر من هذا الحديث ، وغيره مما جاء فى معناه أنه لا يشترط ذلك فالله أعلم .

١٣٧ ـــ قال : « حدثنا محمد بن خالد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا من النار ، رجل يخرج حبوا ، فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملأى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، فكل ذلك يعيد عليه الجنة ملأى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » .

قوله : « إن آخر أهل الجنة دخولا » هذا على إطلاقه ، يعنى أنه لا يدخلها بعده أحد ، حيث لم يبق فى النار من يخرج منها ، وهذا أقل المؤمنين إيمانا وأكثرهم معاصى ، ويجوز أن يكون واحدا بعينه وهو الظاهر ، ويجوز أن يكون نوعا ، أو جنسا من هذا النوع ، وقد تقدم فى باب قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنه بعد إخراج من يخرج من النار يبقى رجل مقبل بوجهه إلى النار فيدعو ربه رب اصرف وجهى عن النار ويقسم لله أنه لا يسأله غير ذلك ثم إذا صرف وجهه عن النار يسأل ربه يارب قربنى إلى الجنة ويقسم لربه ألا يسأله غير ذلك فإذا رأى ما فى الجنة سأل ربه أن يدخله الجنة ، فإذا أدخله الجنة قال له : تمنّ ، فإذا انقطعت أمنيته قال الله له : لك ذلك وعشرة أمثاله معه .

فقد يقال إن ذاك هو المراد هنا ، وقد يكونان اثنين أو نوعين فالله أعلم .

قال عياض : « جاء نحو هذا فى آخر من يجوز على الصراط ، فيحتمل أنهما اثنان إما شخصان وإما جنسان ، وعبر فيه بالواحد عن الجماعة لاشتراكهم فى الحكم الذى كان سبب ذلك ، ويحتمل أن يكون الخروج هنا بمعنى الورود وهو الجواز على الصراط ، فيتحد المعنى إما فى شخص واحد أو أكثر .

قال الحافظ : « قلت وقع عند مسلم ما يقوى الاحتمال الثانى ، وهو أن المراد بالخروج معنى الورود ، ولفظه : « وآخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ، ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجانى منك » . »[1] .

قلت : الظاهر أنه رجل واحد ، لا جنس ولا نوع ، فالأحاديث تدل على ذلك ، مثل الخطاب الذى يجرى بينه وبين رب العالمين ، وكل سياق الحديث بألفاظه تدل على ذلك .

وقد ذكر القرطبى فى التذكرة ما يؤيد هذا حيث قال : « قال ابن عمر ، عن النبى ﷺ آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، يقال له جهينة ، تقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين » ، ذكره الميانشى أبو حفص عمر بن عبد المجيد ، فى كتاب « الاختيار فى الملح من الأخبار والآثار » .

ورواه الخطيب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، فيقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين ، سلوه هل بقى من الخلائق أحد » ورواه الدارقطنى انتهى[2] .

وعند تأمل النصوص يتبين عدم الاتحاد ، فيجوز أن يكون هذا المذكور فى رواية مسلم آخر من يدخل الجنة ممن لا يلقى فى النار ، وإنما يطىء به

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٤٣ .
(٢) التذكرة جـ ٢ ص ٥١٥ .

عمله على الصراط فيحبو مرة ، ويزحف أخرى حتى يجاوز النار .

والمذكور فى هذا الحديث المشروح هنا آخر من يدخل الجنة ممن يلقى ف النار من أهل الإيمان ، وبذلك تتفق النصوص ، والله أعلم .

قوله : « آخر أهل النار خروجا من النار » يعنى بأهل النار من الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم ، أما أهل النار الذين ماتوا على الكفر فهم لا يخرجون منها أبد الآباد ، كما قال تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[2] والآيات فى ذلك كثيرة .

قوله : « يخرج حبوا » يعنى يمشى على ركبتيه ويديه ، لا يستطيع الاعتماد على رجليه والمشى عليهما يسمى حبوًا ، قال فى اللسان : « حبا حُبُوًّا : مشى على يديه وبطنه ، وحبا الصبى حَبْوًا مشى على استه ، وأشرف بصدره »[3] .

وقال النووى : « قال أهل اللغة : الحبو : المشى على اليدين والرجلين ، وربما قالوا على اليدين والركبتين ، وربما قالوا : على يديه ومقعدته .

وأما الزحف ، فقال ابن دريد ، وغيره : هو المشى على الاست مع إفراشه بصدره ، فحصل من هذا ، أن الحبو ، والزحف متماثلان ، أو متقاربان ، ولو ثبت اختلافهما حمل أنه فى حال يزحف ، وفى حال يحبو والله أعلم »[4] .

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .
(٢) الآية ٦ من سورة البينة .
(٣) انظر اللسان جـ ١ ص ٥٦٠ المرتب .
(٤) شرح مسلم جـ ٣ ص ٣٩ .

قوله : « فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملآى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، وفى كل ذلك يعيد عليه الجنة ملآى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » هذا هو محل الشاهد من الحديث ، لما فيه من كلام الله تعالى ومخاطبته لهذا الرجل ، الذى هو آخر من يدخل الجنة ، وهو دليل أيضا على جواز تكليم الله تعالى لمن هو أعلى منزلة منه ، كما جاءت النصوص فى ذلك ، وتقدم بعضها .

وهذا الحديث اختصره هنا ولفظه كما فى كتاب الرقاق ، قال : قال النبى ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا ، رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملآى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملآى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملآى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملآى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ــ أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول : تسخر منى أو تضحك منى وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة »[1] .

وواضح من هذا أن الله يكلمه بدون واسطة ، وأن ذلك يتكرر ، ثم يقول له فى النهاية : إن لك مثل الدنيا عشر مرات ، ولهذا بهت الرجل من ذلك ورأى أنه لا يستحق ولا قريبا من ذلك ، فقال : أتسخر منى ــ أو قال : أتضحك منى وأنت الملك ؟ .

ففيه إثبات الضحك لله تعالى ، وأنه يسخر من بعض خلقه ، ومثل هذه الأفعال الصادرة من الله تعالى يجب أن تثبت له ــ تعالى ــ على ما يليق بعظمته

---

(١) انظر البخارى جـ ٨ ص ٩٩ .

وفق ما جاء النص بها ، فلا يجوز تأويلها بما يغير معناها ، ولا تعطيلها ، بل يؤمن بها على ما جاءت ، وكما أخبر بها رسول الله ﷺ فهو أعلم بالله من غيره ، وأحرص على هداية الأمة ، وإبعادها عن الضلال ، وهو أقدر الخلق على البيان ، وإيضاح الحق .

١٣٨ ــ قال : « حدثنا على بن حجر ، أخبرنا عيسى بن يونس ، عن الأعمش ، عن خيثمة عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله ــ تعالى ــ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وفيه : « ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حاجب يحجبه » وهو واضح الدلالة على عموم كلام الله ــ تعالى ــ للمؤمنين ، لأن قوله : « ما منكم من أحد » نكرة سبقت بالنفى فهى من صيغ العموم ، غير أن قوله : « منكم » يجوز أن يكون قيدا فى المؤمنين ، ويخرج من ذلك العموم الكفار لأنهم ليسوا منا .

وقوله : « سيكلمه ربه » السين للاستقبال من الزمان ، لأن هذا التكليم لا يكون إلا يوم القيامة ، والترجمان : هو الواسطة التى تنقل الكلام من المتكلم إلى المكلم ، سواء اختلفت اللغة ، أو لم تختلف .

قال فى اللسان : « التُّرجُمان ، والتَّرجَمان : المفسر للسان ، وهو الذى يترجم الكلام أى ينقله من لغة إلى لغة »[1] وليس هذا من تمام التعريف ، بل

---

(١) اللسان جـ ١ ص ٣١٦ .

لا يلزم أن يكون نقله من لغة إلى أخرى .

ومعنى ذلك أن العبد سيقف بين يدى الله — تعالى — يوم القيامة ، فيحاسبه على ما كلفه به من دينه هل قام به ، أو أهمله ، ويحاسبه على أعماله . وكل تصرفاته ، وذلك بدون واسطة من خلقه ، بل هو جل جلاله يتولى ذلك بنفسه ، فيكلم عبده ويسائله .

وقوله : « فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم » أى أن أعماله تكون حاضرة عن يمينه ، وعن شماله ، فالحسنات عن يمينه ، والسيئات عن شماله ، لا يغادره فى ذلك الموقف شىء منها ، ولهذا قال : « فلا يرى إلا ما قدم » ، وقد يكون كما قال ابن هبيرة : إنه ينظر عن يمينه وعن شماله كحالة الذى دهمه أمر عظيم ، فهو يتلفت يطلب النجاة ، أو الغوث .

قوله : « وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه » وذلك أن النار فى ذلك الموقف حائلة بين الناس وبين الجنة ، فلا بد من ورودها لكل أحد ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا .

ولهذا قال : « فاتقوا النار ولو بشق تمرة » يعنى نصفها ، والمقصود تقديم العمل الصالح الذى يكون واقيا لصاحبه من النار ، وساترا له منها ، وهذا يدل على وجوب تقديم العمل الصالح ، المنبعث عن تقوى الله — تعالى — والإيمان به ، وبملاقاته ومحاسبته ، ويدل على نفع العمل الصالح ولو قل .

قوله : « قال الأعمش » إلى آخره يقصد بذلك بيان صحة السند لأن الأعمش قد صرح بالتحديث ، فأمن التدليس بذلك .

١٣٩ — قال : « حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : جاء حبر من اليهود ، فقال : إنه إذا كان يوم القيامة ، جعل

الله السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، والخلائق على أصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فلقد رأيت النبى ﷺ يضحك ، حتى بدت نواجذه ، تعجبا ، وتصديقا لقوله ، ثم قال النبى ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ .

تقدم هذا الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ وتقدم الكلام عليه هناك .

والمقصود منه هنا قوله : « ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك » فإنه خطاب لخلقه ولا سيما الذين كانوا ينازعونه فى ملكه فى الدنيا من الجبارين ، والمتكبرين ، ولهذا جاء فيه بعد قوله : « أنا الملك » قوله : « أين ملوك الدنيا » كما تقدمت الإشارة إليه .

١٤٠ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة عن صفوان بن محرز ، أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال : يدنو أحدكم من ربه ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره ، ثم يقول : إنى سترت عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

النجوى هى المحادثة بين اثنين أو أكثر سرا ، بحيث لا يسمع حديثهم من قرب منهم والمقصود هنا : كلام الرب — تعالى — مع عبده سرا .

قال فى اللسان : « نجاه نجوًا ، ونجوى : ساره ، النجوى ، والنَّجِىُّ : السر ، والنجوى ، السر بين اثنين ، يقال : نجوته نجوًا ، أى ساررته ، وكذلك

ناجيته ، والاسم النجوى »[1] .

قال الحافظ : « المراد من النجوى فى الحديث : المناجاة التى تقع من الرب ـــ سبحانه وتعالى ـــ يوم القيامة مع المؤمنين »[2] .

قوله : « يدنو أحدكم من ربه » فى الرواية الأخرى . « يدنو المؤمن من ربه » .

والله ـــ تعالى ـــ وصف نفسه بأنه يدنو ، ويقرب من بعض عباده ، دون بعض ، وقد تكاثرت النصوص فى ذلك ، حتى بلغت ما يقرب من خمسمائة آية فى كتاب الله ـــ تعالى ـــ كلها تدل على أنه ـــ تعالى ـــ يقرب من بعض خلقه ، ويدنو إليهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] .

وقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾[5] ، وقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[7] والآيات فى هذا كثيرة جدا .

وكذلك ما تقدم من الأدلة على علو الله ـــ تعالى ـــ واستوائه على العرش ، تدل على ذلك ، فإنه إذا كان الله ـــ تعالى ـــ على العرش أمكن القرب منه

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٥٩٢ المرتب .
(٢) الفتح جـ ١٠ ص ٤٨٨ .
(٣) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .
(٦) الآية ١٥٦ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٣٩ من سورة النور .

بالصعود إليه والعروج ، كما عرج بالنبى ﷺ إليه ، وكذا الملائكة وبعض الأرواح وغير ذلك ، وببعض هذه النصوص الكثيرة يحصل العلم الضرورى ، لمن آمن بها ، وبما دلت عليه ، من أن الله ـــ تعالى ـــ يقرب إلى عباده ، ويقربون إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١) .

ودلالة النصوص الشرعية على هذا من أعظم المتواترات ، والعلم بها مستقر فى فطر المسلمين ، عامتهم ، وخاصتهم ، كما أنه مستقر فى فطرهم أن الله فوقهم .

وليس من الخلق أحد إلا ويعلم أن عباد الله منهم المقرب إلى الله ـــ تعالى ـــ ومنهم المبعد الملعون المطرود ، وكلهم يسمون الطاعات قربات ، يتقرب بها العبد إلى الله ـــ تعالى ـــ ، وكلهم يرفعون أيديهم إلى الله ، وكونه تعالى فوقهم يستلزم أنه يقرب إليه بالعلو والصعود ، كما رفع عيسى بن مريم إليه ، والملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم إذا صعدوا إليه سألهم ، كيف تركتم عبادى .

والأدلة على هذا الأصل العظيم لا حصر لها ، واتفق السلف الصالح ، ومن تبع كتاب الله ، وسنة نبيه وآمن بهما على القول بذلك ، والإيمان به .

« قال الخلال فى السنة : أخبرنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا أحمد بن محمد المصرمى ، حدثنا سليمان بن حرب ، قال : سأل بشر بن السرى حماد ابن زيد ، فقال : يا أبا إسماعيل الحديث الذى جاء . « ينزل الله إلى السماء الدنيا » ، يتحول من مكان إلى مكان ؟

فسكت حماد . ثم قال : « هو فى مكانه ، يقرب من خلقه كيف شاء »(٢) .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ٣ ص ١٨٤ المخطوط .

وقال شيخ الإسلام : « أهل السنة يثبتون أن الله على عرشه ، وأن حملة العرش أقرب إليه ممن دونهم ، وأن ملائكة السماء العليا أقرب إلى الله من ملائكة السماء الثانية ، وأن النبى ﷺ لما عرج به إلى السماء صار يزداد قربا إلى ربه بعروجه ، وصعوده . وعروجه إلى الله ــ تعالى ــ لا إلى مجرد خلق من خلقه ، وأن روح المصلى تقرب إلى الله فى السجود ، وإن كان بدنه متواضعا ، وهذا هو الذى دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة »[1] .

فالله ــ تعالى ــ يقرب بنفسه إلى من يشاء من خلقه ، وهو فوق عرشه ، عال على خلقه ، ولا يجوز تأويل النصوص فى ذلك مثل قوله ﷺ : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه » .

ولا يلزم أن يكون كل نص فى القرب يراد به قرب الله تعالى بنفسه ، بل ينظر فى النص الوارد فى ذلك ، فإن دل على قربه بنفسه حمل عليه كما فى هذا الحديث ، وإن دل على قرب ملائكته ورسله حمل عليه ، كقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾[3] .

وهذا الحديث ظاهر فى أن العبد يدنو من ربه ، بل هو نص صريح فى ذلك ، فصرفه عن ظاهره تحريف لكلام رسول الله ﷺ وتلاعب به ، يعد من عظائم الذنوب ، يجب على المؤمن التحرز منه .

وما نقله الحافظ عن ابن التين أنه قال : « يعنى يقرب من رحمته ، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٧ .
(٢) الآية ١٦ من سورة ق .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

سائغ فى اللغة ، يقال : فلان قريب من فلان ، ويراد الرتبة »[1] . فهو تأويل الجهمية المعروف الذى ذكره السلف عنهم ، وردوه ، وبينوا أنه مخالف لقول الله ــ تعالى ــ ولقول رسوله ﷺ ولعقيدة أهل العلم والإيمان ، وهو سلوك غير سبيل المؤمنين .

قال شيخ الإسلام : « وبيان بطلان هذا التأويل من وجوه :

أحدها أن ما يدنو إليه العبد من الرحمة ، والإيمان ، وغير ذلك ، إما أن تكون أعيانا قائمة بأنفسها ، أو صفات قائمة بغيرها . فإن كانت صفات ، فمعلوم أن القرب إلى الصفة لا يكون إلا بالقرب إلى الموصوف نفسه .

فأما قربه من صفته القائمة به دون قربه من نفسه ، فظاهر البطلان والفساد ، ولهذا لم يقله أحد من العباد ، بل الذى يحيل القرب إلى نفسه هو للقرب إلى صفاته أشد إحالة ، إن كان يثبت له صفة .

ومن المعلوم أن قوله : « يدنو العبد من ربه ، حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ــ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أعرف رب » وقوله : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه » ، وقوله : « فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » ، [وقوله : « يدنو أحدكم من ربه فيضع عليه كنفه][2] ، كل هذه الألفاظ صريحة واضحة ، كل من سمعها علم بالاضطرار أن الذى يدنى العبد ، ويضع عليه كنفه ، ويقرره بذنوبه ، ويغفرها له هو الله ، لا أحد من خلقه ، فكيف يجوز أن يقال : لا يدنو العبد من ربه ، وإنما يدنو من بعض مخلوقاته[3] . وهل ذلك إلا بمثابة من يقول إن من يقرره بذنوبه هو بعض مخلوقاته . كما يقوله الجهمية ، القائلون بأن الله ــ تعالى ــ لا يقوم به كلام ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٧ .
(٢) هذا لفظ الحديث المشروح هنا ولم يذكره الشيخ .
(٣) لأن الرحمة التى فسروا بها دنو العبد هو الثواب واللطف والإحسان ، فهى إذًا مخلوقة .

وإنما الكلام يقوم ببعض مخلوقاته ، وهو أيضا بمنزلة أن يقال : إن الله لا يغفر له ، وإنما يغفر له بعض مخلوقاته .

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خلاف ما أخبرت به الرسل ، وأنه شرك صريح فى إلاهية الله وربوبيته ، ولهذا قال بعض السلف : إن من زعم أن قوله لموسى ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾ مخلوق ، فهو كافر ، لأنه جعل هذا الكلام قائما بمخلوق يلزم أن يكون هو الرب ، وسائر تأويلات الجهمية وأهل الباطل من هذا الجنس .

الثانى : أن هذا الدنو ، ووضع الكنف ، والمخاطبة تكون وقت السؤال ، والعبد خائف غير آمن ، ولا ظهر له أنه يغفر له ، ويرحم ، كما هو صريح الحديث الصحيح بقوله : « يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

فإذا كان العبد حين هذا الدنو من الله ، والمخاطبة ، والتقرير بذنوبه يرى أنه قد هلك قبل أن يذكر له الرب ــ تعالى ــ أنه غفر له ، امتنع أن يكون ما ذكره من دنوه من الله ، هو دنوه من رحمته ، وأمانه وتعطفه .

الثالث : أن الرحمة والعطف ، والأمان ، إن كانت صفات لله تعالى كان القرب إليها قربا إلى الموصوف ، كما تقدم ، وإن كانت أعيانا قائمة بنفسها مخلوقة لله ــ تعالى ــ فمن المعلوم أن حين الحساب فى عرصات القيامة لا يكون هناك أجسام مخلوقة من الرحمة التى أعدها الله ــ تعالى ــ لعباده .

ولكن هو يحكم بالعفو والمغفرة ، ثم ينقلون إلى دار الرحمة . فا متنع أن يكون أحد حال المحاسبة مقربا إلى أجسام هى رحمة قبل أن يؤذن لهم فى دخول الجنة .

الرابع : أن يقال : من المعلوم أن الله تعالى أخبر فى كتابه بأصناف ما ينعم

به على عباده من المآكل والمشارب ، والملابس ، والمناكح والمساكن ، وقد أجمل ما لم يفصله فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وهذه الأمور يباشرها المؤمن مباشرة ، لا يكون جزاؤه مجرد قربه منها دون مباشرتها ، بل ذلك يكون حسرة وعذابا ، فدعوى الإكرام بمجرد التقريب من هذه الأمور ، دون مباشرتها كلام باطل ، لا حقيقة له .

الخامس : أن المؤمن لم يزل فى رحمة الله فى الدنيا ، والآخرة ، فلا يجوز تخصيص حال السؤال بقربه من رحمته ، دون ما قبل ذلك وما بعده ، بل هو ما زال مباشرا لما يرحمه الله به قبل وبعد ، فأى فائدة فى أن يوصف بالقرب من شيء مازال مباشرا له ، لا ينفصل عنه .

السادس : أنه فى العرض على الله يظهر له من الأهوال والشدة ما يكون أعظم عليه وأشد لرهبه وألمه من كل ما كان قبل ذلك وبعده ، فكيف يجوز تخصيص أشد الأحوال عليه بأنه يقرب فيه مما يرحم به ، مع أن ما قبلها وما بعدها كان ما يرحمه به إليه أقرب ، وهو له أعظم مباشرة ونيلا .

السابع : أن قولهم : « يقرب من رحمة الله ، وأمانه ولطفه ، ونحو ذلك » من تأويلهم ، لا ريب أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .

ومن المعلوم فى اللغة العربية أن هذا لا يجوز إلا إذا أقترن بالكلام ما يبين المحذوف ، فلا يقال : جاء زيد والمقصود غلامه ، أو رسوله[1] .

والحديث نص فى أن الله — تعالى — هو الذى يدنى عبده من نفسه ، ولهذا لا يسمع أحد هذا الكلام ، فيفهم أن الله يدنيه من شيء آخر ولا يخطر هذا ببال المستمع ، فكيف يجوز أن يكون الرسول ﷺ أراد الباطل الذى قالوه .

---

(١) وهذا يرد ما نقله الحافظ عن ابن التين أن ذلك سائغ فى اللغة كما تقدم ذكره .

الثامن : أن قوله : « فيدنيه منه ، فيضع عليه كنفه ، ثم يقرره بذنوبه » الجمع بين الإدناء ووضع الكنف ، وتقريره بذنوبه قرينة تعين أن الله تعالى هو الذى يدنى إليه عبده ، ويضع عليه كنفه ، فيستره من الناس ، كما صرح به فى الحديث .

التاسع : أن هذا الحديث دل على ما دل عليه القرآن من وقوف العباد على الله ، وخطابه لهم ، ومن المعلوم بالاضطرار من رسالات الرسل ، ومن دين الإسلام أن هذا إنما هو يوم القيامة ، وأن أحوال العباد مع الله يوم القيامة غير أحوالهم فى الدنيا ، وعلى قول هؤلاء المؤولة لا فرق بين الدنيا والآخرة ، فإن الله لا يقرب إليه شيء لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يقفون على ربهم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، ولا يصيرون إليه ، وإنما ذلك كله إلى بعض مخلوقاته ، ومقدوراته ، كما أن خطابه لهم عند الجهمية وأتباعهم »[1] معناه أنه يخلق كلاما فى بعض مخلوقاته يكلمهم منها ، وعند الأشاعرة الذين هم فرع عن الجهمية يخلق إدراكا فى العباد يفهمون به المعنى الواحد القائم بذاته ـــ تعالى ـــ وهذا تكذيب لكتاب الله ولرسوله ، ومناقضة لدين الإسلام الذى فطر على قبوله العباد .

قوله : « حتى يضع كنفه عليه » جاء الكنف مفسرا فى الحديث بأنه « الستر » ، والمعنى : أنه ـــ تعالى ـــ يستر عبده عن رؤية الخلق له لئلا يفتضح أمامهم ، فيخزى ، لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله ، ويظهر على وجهه الخوف الشديد ويتبين فيه الكرب والشدة .

قال الأزهرى : « قال الليث : الكنفان : الجناحان ، وأنشد :

سِقْطان من كنفى نعام جافل .

---

(١) انتهى من بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ١٧٧ المخطوطة .

وكنفا الإنسان : جانباه ، وناحيتا كل شيء كنفاه .

وقولهم : فى حفظ الله وكنفه أى فى حرزه وظله ، يكنفه بالكلاءة وحسن الولاية وقال ابن المبارك « يضع عليه كنفه » يعنى ستره »[1] .

« قال الخلال فى كتاب السنة باب يضع كنفه على عبده ، تبارك وتعالى . أخبرنى محمد بن أبى هارون ، ومحمد بن جعفر ، أن أبا الحارث حدثهم قال : قلت لأبى عبد الله : ما معنى قوله : إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال هكذا نقول : يدنيه ويضع كنفه عليه ، كما قال ، يقول له : أتعرف ذنب كذا .

قال الخلال : أنبأنا إبراهيم الحربى قال : قوله : فيضع عليه كنفه ، يقول : ناحيته .

قال إبراهيم : أخبرنى أبو نصر ، عن الأصمعى ، يقال نزل فى كنف بنى فلان ، أى فى ناحيتهم »[2] .

قوله : « فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره » هذا هو المقصود من إيراد الحديث هنا لأن فيه مخاطبة الله لعبده وتقريره بذنوبه ، ثم يقول له : « أنا سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » وهو واضح جدا فى أن الله يكلم عباده يوم القيامة ، ويخاطبهم مخاطبة فيها محاسبتهم وتقريرهم بنعم الله عليهم ، وبذنوبهم ، ويخاطبهم فى غير ذلك كما تقدم .

فمنكر هذا ضال وسالك غير سبيل المؤمنين ، وسوف يوليه الله تعالى ما تولى ويسلك به غير سبيل المؤمنين فى الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٧٤ وقول ابن المبارك رواه البخارى فى خلق أفعال العباد .
(٢) نقض التأسيس جـ ٢ ص ١٨٥ .

قوله : « ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » هذا أيضا صريح فى أنه تعالى يكلم عباده بذلك ممتنا عليهم بأنه قد ستر عليهم فى الدنيا حيث كانوا يبارزون الله بالذنوب ، فيستر عليهم مع عصيانهم له ، ثم غفرها لهم فى الآخرة .

فهذا الكرم العظيم ، والحلم الواسع ، والفضل الجزيل .

والمغفرة : هى محو الذنب ووقاية تبعته .

وعلى كل فالدلالة من هذا الحديث ظاهرة جدا وصريحة فيما ذكره من أجله ، وهو كونه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء ، ويكلم من يشاء من عباده ، إما إكراما له ، أو امتنانا عليه ، أو تهديدًا له وتوبيخًا ، أو غير ذلك .

فمن نفى ذلك عن الله ـــ تعالى ـــ فقد قال خلاف قول الله ورسله وأتباعهم ممن فهم مراد الله ورسوله ، وسوف يجزيه الله تعالى بما يستحق .

وقد جاء ما يدل على أن الله تعالى يكلم بعض أهل النار ، كما فى الصحيحين ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا : لو كانت لك الدنيا ، وما فيها ، ومثلها معها أكنت مفتديا بها ؟ فيقول : نعم .

فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى ، فأبيت إلا الشرك »[1] .

---

(١) البخارى انظر الفتح جـ ٦ ص ٣٦٣ وجـ ١١ ص ٤١٦ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٦٠ .

قال : « باب ما جاء في قوله عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » .

« قال الأئمة هذه الآية أقوى ما ورد فى الرد على المعتزلة .

قال النحاس : أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا ، فإذا قال : « تكليما » وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التى تعقل »[1] .

« وقد استقر مذهب أهل السنة والجماعة وأعلام الملة ، وجماهير الأمة فى شرق الأرض وغربها ، على أن الله يتكلم حقيقة ، متى شاء ، وأن القرآن ، والتوارة والإنجيل كلام الله ــ تعالى ــ وأن كلامه صفة له ، لا يكون منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه قائما بغيره ، ومعلوم بالحس أن الكلام لا يقوم بنفسه ، ومن قال إن كلام الله منفصل عنه ، أو أنه يقوم بغيره فإنه بذلك ينكر كلامه الذى هو رسالته ، ويدفع حقيقة ما أنبأت به الرسل ، وأعلمته أممهم ، ويلحد فى أسماء الله وآياته ، ويجعله مثلا للميت ، والمعدوم .

وهذا كله كفر وضلال ، ومن أجل ذلك كفر أئمة الإسلام من يقول : إن كلام الله مخلوق .

والكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بائنا منه بل أسمعه لجبريل ونزل به على محمد ﷺ كما قال ــ تعالى ــ ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] .

ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، بل يقال

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٧٩ .
(٢) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فقولهم منه بدأ رد على من قال : إنه مخلوق فى بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق بدأ .

فبينوا أن الله هو المتكلم به ، فمنه بدأ ، لا من غيره ، وإليه يعود — أى لا يبقى فى الصدور منه شيء ، ولا فى المصاحف حرف فى آخر الزمان ، إذا ترك العمل به وعطل ، رفع إلى قائله رب العالمين ، أو أنه إليه يعود صفة له »[1] .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سمعت أبى يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر ، لأن القرآن من علم الله — عز وجل — .

قال الله — عز وجل — : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[5] والخلق غير الأمر »[6] .

« والوصف بالتكلم كمال ، وضده نقص ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٦١ .
(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٤٥ من سورة البقرة .
(٥) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٦) كتاب السنة جـ ١ ص ١٠٣ .

وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] فكان عباد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[2] .

فعلم أن عدم رجوع القول ، ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهة النفاة أنهم يقولون : يلزم من إثبات الكلام ، التشبيه والتجسيم ، لأنهم توهموا أن كلام الله يلزم له من اللوازم ما لكلام المخلوق .

ونحن نقول : إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله ، وبذلك تنتفى شبهتهم .

وقد قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3] فهذا كما هو ظاهر ، كلام حقيقى ، يسمع من هذه الأعضاء ، فالمؤمنون يؤمنون بذلك مع عدم علمهم بكيفيته .

فإذا كان هذا فى مخلوق ، فكيف الخالق جل وعلا ؟ ومثل ذلك تسبيح الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى ، ومنه تسبيح الطعام بين يدى رسول الله ﷺ والصحابة ، وتسبيح الحصا ، وسلام الحجر عليه ، كل ذلك حق على ظاهره ، قد سمعه المؤمنون ، وآمنوا بما لم يسمعوه ، ولم يعلموا كيفيته ، وهو كلام بصوت يسمع ، وهذه ليس لها أفواه يخرج منها الكلام والصوت الصاعد المعتمد على مقاطع الحروف »[4] .

وقد سمع موسى عليه السلام كلام الله منه ــ تعالى ــ بدون واسطة ،

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٨٩ من سورة طه .
(٣) الآية ٦٥ من سورة يس .
(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ١٨١ .

وكذلك جبريل — عليه السلام — يسمع كلام الله بدون واسطة ، فيبلغه الرسل بأمر الله له ، هذا ما يعتقده المسلمون من دينهم ، وهو أمر ظاهر .

« وحقيقة كلام الله — تعالى — الخارجية : هى ما يسمع منه ، ومن المبلغ عنه .

فإذا سمعه السامع ، علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع ، معلوم ، محفوظ .

فإذا قرأه السامع ، فهو مقروء له ، متلو ، فإن كتبه ، فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة فى هذه الوجوه كلها ، لا يجوز نفيه ، فلا يكون مجازا فيها ، إذ المجاز يجوز نفيه ، وأن يقال : ليس فى المصحف كلام الله ، ولا قرأ القارئ كلام الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾[1] وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله — تعالى — وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول : إن المسموع عبارة عن كلام الله .

[والحق] أن المسموع هو كلامه ، وليس عبارة عنه ، كما تزعمه الأشعرية ومن جعل ما فى المصحف عبارة عن كلام الله ، فقد خالف ما أنزل الله على رسوله ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، وكفى بذلك ضلالا »[2] .

والكلام اسم للفظ والمعنى جميعا ، لأن النبى ﷺ قال : « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن »[3] .

---

(١) الآية ٦ من سورة التوبة .
(٢) شرح الطحاوية ص ١٩٤ .
(٣) رواه النسائى جـ ٣ ص ١٣ والإمام أحمد المسند جـ ٥ ص ٤٤٧ .

وقال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلاة »[1] .

واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته ، كما اتفقوا على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لها ، وما أشبه ذلك لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها الكلام الملفوظ به ، فعلم بذلك بطلان قول من يجعل كلام الله معنى قائما بالنفس .

وفى الحديث المتفق عليه قوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم ، أو تعمل »[2] ففرق بين حديث النفس فجعله معفوا عنه ، وبين الكلام ، فدل على أن حديث النفس لا يسمى كلاما حتى ينطق به ويتلفظ به ، وهذا باتفاق من يعتد بقوله من العلماء .

وعلى كل فإنكار كلام الله ضلال وكفر ، وإنكار للرسالة ، والشرع ، لأن الشرع أمر ، ونهى ، فإذا لم يكن الله يأمر وينهى ، فليس له شرع ولا رسالات وقد أوجد هذا القول لهدم الإسلام ، والعلماء عرفوا ذلك ، ولهذا يقول الإمام البخارى فى مبدأ كتابه « خلق أفعال العباد » : باب ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله — عز وجل — ثم روى ، عن عبد الله بن إدريس ، أن رجلا جاء إليه ، فقال : يا أبا محمد ما تقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، قال : ممن .. ؟ قال : من أهل التوحيد .

---

(١) روه أبو داود جـ ١ ص ٥٦٧ والنسائى جـ ٣ ص ١٩ والإمام أحمد جـ ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ .

(٢) انظر الفتح جـ ٥ ص ١٦٠ ومواضع أخر ولكن بلفظ « ما وسوست به صدورها » ومسلم جـ ١ ص ١١٦ .

قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء زنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم فالله لا يكون مخلوقا ، والرحمن لا يكون مخلوقا ، والرحيم لا يكون مخلوقا وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله »[1] .

قال شيخ الإسلام : « القول بأن القرآن مخلوق معناه أن الله لم يصف نفسه بالكلام أصلا بل حقيقته أن الله لم يتكلم كما أفصح به رأسهم الأول ، الجعد ابن درهم ، حيث زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، لأن الخلة إنما تكون من المحبة ، وعنده أن الله لا يحب شيئا في الحقيقة ولا يحبه شيء في الحقيقة ، فلا يتخذ شيئا خليلا .

وكذلك الكلام يمتنع عنده على الرب — تعالى — وكذلك نفت الجهمية والمعتزلة ، وغيرهم أن يكون لله كلام قائم به ، أو إرادة قائمة به ، وادعوا ما باهتوا به صريح العقل المعلوم بالضرورة ، أن المتكلم يكون متكلما بكلام يكون في غيره .

وقالوا أيضا — يكون مريدا بإرادة ليست فيه ، ولا في غيره ، أو الإرادة وصف عدمي ، أو ليست غير المرادات المخلوقة ، وغير الأمر وهو الصوت المخلوق في غيره .

فكان حقيقة قولهم التكذيب بحقيقة ما أخبرت به الرسل ، من كلام الله ومحبته ومشيئته ، وإن كانوا قد يقرون بإطلاق الألفاظ التي أطلقتها الرسل [تسترًا] وهذا حال الزنادقة ، والمنافقين »[2] .

والبخاري — رحمه الله — أراد بهذا الباب الرد على هؤلاء ونحوهم ، الذين

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٢٩ — ٣٠

(٢) التسعينية ص ٤٢ .

ينكرون كلام الله حقيقة ، وإذا وصفوا الله بالكلام فمرادهم أن الله خلق كلاما فى غيره ، إما فى الهوى ، أو بين ورق الشجرة التى كلم منها موسى ، أو فى غير ذلك .

ولا يشك من عرف ما جاءت به الرسل أن هذا تبديل للحق بالباطل ، وللحقيقة التى فطر الله عليها عباده واللغة التى اتفق عليها بنو آدم إلا من اجتالته الشياطين فغيرت فطرته .

فالمتكلم هو الذى يقوم به الكلام ، ويتصف به ويصدر منه ، كما أن المحب من يقوم به الحب ، والقادر من تقوم به القدرة ، والعالم من يقوم به العلم .

وعلى قول أولئك الضلال الذين يرد عليهم الإمام البخارى فى هذا الباب وغيره أن الذى قال لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى ﴾(1) أنه الشجرة ، وهذا الكفر ما وراءه كفر .

ويلزم على قولهم أن كل كلام خلقه الله هو كلامه ، والله خالق كل شىء فيدخل فى ذلك أفعال العباد ، وحركاتهم ، وكلامهم ، فيلزم أن يكون كلامهم كلاما له بما فيه من الكذب والكفر وقول الزور ، وغير ذلك ، حتى نباح الكلاب ، فأى قول أفسد من قول هذا لازمه ، وأى ضلال أبعد منه .

وكلام أئمة الإسلام فى بيان بطلان هذا القول كثير جدا .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : « وأما قوله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ فإنه يعنى بذلك ــ جل ثناؤه : وخاطب الله بكلامه موسى خطابا .

وقد حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا نوح

---

(1) الآية ١٤ من سورة طه .

ابن أبى مريم ، وسئل كيف كلم الله موسى تكليما ؟ فقال : مشافهة »[1] .

وذكر البخارى عن ابن عباس قال : لما كلم الله موسى كان النداء فى السماء ، وكان الله فى السماء »[2] .

ولهذه الخصوصية التى خص الله موسى بها ، صار له بذلك شرف وفضل على غيره من الأنبياء ، ولهذا يذكر الناس له هذه الفضيلة فى الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة .

١٤١ ــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنا عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذى أخرجت ذريتك من الجنة ، قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قدر على قبل أن أخلق فحج آدمُ موسى » .

اختصر الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ هذا الحديث ، وفى بعض ألفاظه الثابتة فى الصحيحين قوله : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

فقال له آدم : أنت موسى الذى كلمك الله تكليما ، وكتب لك التوراة ، فكم تجد فيها مكتوبا ﴿ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قبل أن أخلق ؟

قال : « بأربعين سنة ، قال : فَحجَّ آدم موسى » . يعنى غلبه بالحجة .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٩ ص ٤٠٣ تحقيق محمود شاكر .
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤١ .

قال شيخ الإسلام : « قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر على نفى الملام على الذنب ، ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب :

فريق كذبوا بهذا الحديث كأبى على الجبائى ، وغيره ، لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل ، ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ، ويجب تنزيه النبى ﷺ بل جميع الأنبياء ، وأتباعهم أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله .

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد ، كقول بعضهم : حجه لأنه أبوه ، والابن لا يلوم أباه .

وقول بعضهم : حجه لأن الذنب كان فى شريعة ، والملام فى أخرى .

وقول بعضهم : لأن الملام كان بعد التوبة ، وقول بعضهم : لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة .

وفريق ثالث جعلوه عمدة فى سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله . والصواب : أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التى أصابته وذريته بما فعل ، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص ، ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، ولم يقل : لماذا خالفت الأمر ولماذا عصيت ؟

والناس مأمورون عند المصائب التى تصيبهم بأفعال الناس ، أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر ، وشهود الربوبية كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[1] قال ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم[2] .

---

(١) الآية ١١ من سورة التغابن .

(٢) فى الدر المنثور أخرجه سعيد بن منصور انظر جـ ٨ ص ١٨٤ .

وفى الصحيح ، عن النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت ، لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] فأمره بالحرص على ما ينفعه ، وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة أن لا ينظر إلى تقدير ما لم يقع ، وهو قوله : لو أنى فعلت كذا وكذا ، لكان كذا وكذا ، فإن هذا ليس فيه إلا التحسر ، والمضرة ، ولكن لينظر إلى الواقع ، ويوقن بأنه بقدر الله تعالى وقضائه ، ولابد من وقوعه ، فلا مخلص منه ، فيرضى به ويسلم لقدر الله — تعالى — وقضائه ، كما قال بعضهم : الأمر أمران :

أمر فيه حيلة ، فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه ، فلا تجزع منه .

وما زال أئمة الهدى يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، وإن كانت المصيبة بفعل آدمى ، فلو أن رجلا أنفق ماله فى المعاصى ، ومات ولم يخلف لأولاده مالا ، أو ظلم الناس بظلم صاروا يبغضون أولاده من أجل ظلمه فلا يعطونهم ما يعطون أمثالهم ، فهذه مصيبة فى حق الأولاد حصلت بسبب أبيهم .

فإذا قالوا لأبيهم : أنت فعلت بنا هذا ، قيل لهم : هذا كان مقدرا عليكم ، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم ، والأب عاص لله فيما فعل من الظلم ، أو الإنفاق فى المعصية ، ملوم على ذلك ، لا يرتفع عنه الذم والعقاب بالقدر السابق .

فإن تاب توبة نصوحا ، وقبل الله توبته ، وغفر له لم يجز ذمه حينئذ ولومه بحال ، لا من جهة حق الله ، ولا من جهة المصيبة التى حصلت لغيره بفعله ،

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤ .

إذ لم يكن هو ظالما لأولئك ، فإن تلك المصيبة مقدرة عليهم ، وهذا مثل قصة آدم ، فإنه لم يظلم أولاده ، وإنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وهبط هو وحواء ، ولم يكن معهما أولاد ، فلم يظلم أولاده ظلما يستوجب ملامه منهم ، وكونهم صاروا فى الدنيا دون الجنة أمر مقدر عليهم .

وهو قد تاب من ذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[1] .

وموسى أعلم من أن يلومه على ذنب قد علم أنه تاب منه ، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن الذنب لا ملام عليه ، وقد علم أن لعن إبليس بسبب ذنبه ، وهو مقدر عليه .

ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعا من الذنب لفعله آدم ، ولكنه تاب من الذنب واستغفر ربه »[2] .

فتبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى لوم آدم على ما كان سببا فى مصيبة أبنائه ، وأن آدم احتج بأن هذه المصيبة سبق بها القدر ، ولابد من وقوعها كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[4] .

وسواء فى ذلك المصائب التى تحصل بأفعال العباد ، أو غيرها ، فإن على

---

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٣٠٣ — ٣٢٢ ملخصا .
(٣) الآية ١١ من سورة التغابن .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الحديد .

العبد الصبر والتسليم ، ولا يسقط بذلك لوم الجانى وعقابه .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، وحكم الله نوعان : خلق ، وأمر ، فالأول : ما يقدره من المصائب .

والثانى:ما يأمر به وينهى عنه ، وهو شرعه ودينه ، والعبد مأمور بالصبر على النوعين ، فعليه أن يصبر على فعل المأمور ، وترك المحظور ، وعلى ما قدره الله وقضاه »[2] .

« فالمصائب الحاصلة بقدر الله التى لم يبق فيها حق يؤخذ ، أو ذنب يعاقب عليه ، ليس فيها إلا التسليم للقدر ، وقصة آدم من هذا القبيل ، فإن موسى لامه من أجل ما أصابه وذريته .

وآدم قد تاب من الذنب الذى هو سبب المصيبة ، وغفر له ، والمصيبة كانت مقدرة ، فلا حيلة أمامها إلا التسليم والرضى .

ولهذا قال : « أنت موسى ، الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أخلق » .

وقوله : « احتج آدم وموسى » . أى كل واحد منهما ذكر حجته أمام الآخر ، وهذا يجوز أن يكون بعد وفاة موسى ، أوَ أنه فى الرؤيا ، فإن رؤيا الأنبياء وحى .

« وقال ابن عبد البر : « مثل هذا يجب فيه التسليم ، ولا يوقف فيه على تحقيق لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلا »[3] .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور .
(٢) الفتح جـ ١١ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ملخصا .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ٥٠٧ .

والمقصود هنا قوله : « أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه » والاصطفاء هو الاختيار والتفضيل ، وفرق بين الرسالة والتكليم ، فهو قدر زائد على الرسالة ، لأنها تحصل بإرسال ملك إليه أو بالوحي .

وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه ، وهذا الذى اختص به موسى من بين الرسل ، فدل هذا على أن الله تعالى كلمه بدون واسطة ، بل أسمعه كلامه منه إليه ، وهو أمر واضح .

وجاء فى رواية ذكرها الحافظ : « قال : أنت كلمك الله من وراء حجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه »[1] .

« قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل فى إثبات القدر ، وأن الله قضى أعمال العباد ، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله تعالى ، وليس فيه حجة للجبرية »[2] .

وقال الخطابى — رحمه الله تعالى — « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه ، معنى الإجبار ، والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم أن فلج آدم فى الحجة على موسى إنما كان من هذا الوجه ، وليس الأمر فى ذلك على ما يتوهمونه .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم ، وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها ، خيرها وشرها ، والقدر : اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر ، كما أن الهدم ، والقبض ، والنشر أسماء لما صدر عن فعل الهادم ، والقابض ، والناشر .

يقال : قَدَرْت الشيء ، وقدرته ، خفيفة وثقيلة ، بمعنى واحد .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٥٠٨ .
(٢) المرجع المذكور ص ٥٠٩ .

والقضاء فى هذا معناه الخلق ، كقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[1] أى خلقهن .

وإذا كان الأمر كذلك : فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم ، أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم تلك الأمور ، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد ، وتقديم إرادة واختيار ، فالحجة إنما تلزمهم بها ، واللائمة تلحقهم عليها .

وجماع القول فى هذا الباب : أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس ، والآخر بمنزلة البناء ، فمن رام الفصل بينهما رام هدم البناء ونقضه[2] .

وإنما كان موضع الحجة لآدم على موسى ـــ صلوات الله وسلامه عليهما ـــ أن الله ـــ سبحانه ـــ إذا كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها ، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه .

وبيان هذا فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فأخبر قبل كون آدم أنه إنما خلقه للأرض ، وأنه لا يتركه فى الجنة ، حتى ينقله عنها إلى الأرض ، وإنما كان تناوله من الشجرة سببا لوقوعه إلى الأرض التى خلق لها وليكون فيها خليفة ، وواليا على من فيها ، وإنما أدلى آدم عليه السلام بالحجة على هذا المعنى ، ودفع لائمة موسى عن نفسه على هذا الوجه ، ولذلك قال : « أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق » .

فإن قيل : على هذا يجب أن يسقط اللوم أصلا .

---

(١) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(٢) يعنى تقدير الله للأشياء ، وسبق علمه بها ، وأفعال العباد وأكسابهم وإرادتهم واختيارهم ، فالقدر بمنزلة الأساس ، وأفعال العباد مبنية عليه .

قيل : اللوم ساقط من قبل موسى ، إذ ليس لأحد أن يعير أحدا بذنب كان منه ، لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء .

وقد روى : « لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا إليها كأنكم عبيد » .

ولكن اللوم لازم لآدم من قبل الله — سبحانه — إذ كان قد أمره ونهاه فخرج إلى معصيته ، وباشر المنهى عنه ، ولله الحجة البالغة — سبحانه — لا شريك له .

وقول موسى وإن كان فى النفوس منه شبهة ، وفى ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذى جعل أمارة لخروجه من الجنة .

فقول آدم فى تعلقه بالسبب الذى هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوم والفلج فيه قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذى لا معارض له والله أعلم »[1] .

فحجة آدم عليه السلام ظهرت لأن ما قدر عليه أمر لا يمكن تغييره ولا رده بل هو قدر قدره العليم القدير ، فلا يمكن دفعه ، ولا رفعه بعد وقوعه فليس أمامه إلا التسليم ، ومع ذلك لا يكون القدر حجة فيما لم يقع لأن الإنسان مأمور بفعل الطاعة ، واجتناب المعصية ، وهو لا يعلم ما هو المقدر عليه حتى يقع ، فإذا وقع الأمر ، وتعذر دفعه هناك يسلم للقدر ، ويقول قدر الله وما شاء فعل ، ويستغفر من ذنبه ويتوب إلى ربه .

١٤٢ — قال : « حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا

---

(١) معالم السنن جـ ٧ ص ٦٩ — ٧٢ .

من مكاننا هذا ، فيأتون آدم ، فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك الملائكة وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا .

فيقول : لست هناكم ، فيذكر لهم خطيئته التى أصاب » .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، والمراد منه هنا قوله فيه : « ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا » . فهذا واضح كل الوضوح فى الدلالة على ما أراده من إثبات كلام الله حقا ، والرد على من ينكر ذلك إما صراحة كفعل الجهمية والمعتزلة ، أو مراوغة كالأشعرية أو بعضهم وكلهم ضالون فى هذا الباب .

١٤٣ ــ قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى سليمان ، عن شريك بن عبد الله ، أنه قال سمعت ابن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوًّا إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديده ــ يعنى عروق حلقه ــ ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب بابا من أبوابها ، فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد ، قال : وقد بعث ؟ قال : نعم .

قالوا : فمرحبا به وأهلا ، فيستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يعلمهم .

فوجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك فسلم عليه ، فسلم عليه ، ورد عليه آدم ، وقال : مرحبا ، وأهلا يا بنى ، نعم الابن أنت .

فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟

قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما .

ثم مضى به فى السماء ، فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا مسك أذفر ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك .

ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى ، من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبا به وأهلا .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، وقالوا له مثل ما قالت الأولى ، والثانية .

ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السادسة ، فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء

فيها أنبياء قد سماهم ، فوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم فى السادسة ، وموسى فى السابعة بفضل كلامه لله ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك ، كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة .

قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل ﷺ كأنه يستشيره فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم ، إن شئت ، فعلا به إلى الجبار ، فقال : وهو مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه .

فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا ، وأبدانا وأبصارا وأسماعا ، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة ، فقال : يارب : إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا .

فقال الجبار — جل جلاله — : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ، فقال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى ، فقال : كيف فعلت ؟

فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها .

قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك ، فليخفف عنك أيضا .

قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه ،

قال : فاهبط باسم الله .

قال : واستيقظ وهو فى مسجد الحرام » .

« الإسراء » ، من سرى ، وأسرى ، إذا سار ليلا .

والصواب أن الإسراء وقع له ﷺ مرة واحدة وكذا المعراج ، وهو فى مكة قبل الهجرة ، وأنه يقظة لا مناما ، وأنه بروحه وجسده .

قوله : « ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة ، أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه » ، ذكر البيهقى بسنده من طريق موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : « أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة » .

ثم قال : « وكذلك ذكره ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة بن الزبير ، وروى السدى ، قال : « فرض على رسول الله ﷺ الخمس فى بيت

المقدس ليلة أسرى به ، قبل مهاجره بستة عشر شهرا »[1] .

قوله : فى بيت المقدس — يعنى أن أول صلاة صلاها بعد فرض الصلوات فى بيت المقدس ، وهى صلاة الفجر ، فعلى قول الزهرى ، وعروة يكون الإسراء فى ربيع الأول ، وعلى قول السدى يكون فى ذى القعدة ، ومن زعم أنه فى رجب فليس له مستند ، قال ابن كثير : لا أصل لذلك[2] .

قوله : « أنه جاءه ثلاثة نفر » قال فى اللسان : « النفر بالتحريك : ما دون العشرة من الرجال ، وقالوا : النفر ، والقوم ، والرهط : جموع لا واحد لها من لفظها »[3] .

وجاء أن منهم جبريل ، وهذا ظاهر من الحديث لا خفاء فيه ، وميكائيل .

قوله : « قبل أن يوحى إليه » هذه الجملة مما أنكره العلماء على شريك ، وخطئوه فيها ، منهم الخطابى ، وابن حزم ، والقاضى عياض والنووى .

وخرجها ابن كثير على أن المجيء مرتين ، الأولى قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء ، والثانية وهى التى حصل فيها شق الصدر ، ثم الإسراء ، والعروج إلى السماء . وعبارته :

« وفى سياق حديث شريك غرابة من وجوه ، منها قوله : « قبل أن يوحى إليه » والجواب أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ، ولم يكن فيها شيء ، ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى ، ولم يقل فى ذلك « قبل أن يوحى إليه » ، بل جاءوه بعد ما أوحى إليه ، فكان الإسراء قطعا بعد الإيحاء ، إما بقليل كما زعمه طائفة ، أو بكثير نحو عشر سنين كما زعمه

---

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) انظر السيرة له جـ ٢ ص ٩٤ .
(٣) اللسان جـ ٣ ص ٦٨٧ المرتب .

وترجو الله — تعالى — أن يرى نبيه فى المنام ما يكون فيه براءتها ، ولكن الله بر كريم ، وعدل حكم ، له فيما يشرعه من الحكم والمنن على خلقه ما لا يحاط به ، ومن ذلك ما أنزله على نبيه ببراءة زوجه أم المؤمنين ، مما رماها به أهل النفاق والبهت ، فحصل بذلك سروره ، وسرور زوجه ووالديها والمؤمنين إلى يوم القيامة .

كما حصل بذلك فضيحة المنافقين وخزيهم وبيان كذبهم ، وظهور نياتهم الخبيثة ، وانكشاف شيء من مؤامراتهم ضد نبى الله ، وما جاء به من هذا الدين العظيم ، وغير ذلك من الحكم .

قوله : « فأنزل الله — تعالى — ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات الذى نزل فى هذه الواقعة ثمانى عشرة آية ، كما سبق فى كلام الزمخشرى رحمه الله .

والمقصود من الحديث كما سبق قريبا قولها : « ما كنت أظن أن الله ينزل براءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى » لأن فيه التصريح بأن الله يتكلم بأمره ، وما يشرعه لعباده ، وما يحكم به بينهم ، وما يعدهم ، أو يتوعدهم به ، على أعمالهم ، وينزل ذلك منه على نبيه ، الذى يبلغ عنه .

ولا يمكن أن يأمر وينهى ويحكم ، ويعد ، ويتوعد ، ويجزى إلا بقوله الذى يتكلم به ، وليس قوله محصورا فى كتبه التى تعبد عباده بتلاوتها ، فى الصلاة وغيرها ، ولكن كل ما يحكم به بين خلقه ، وما يشرعه لعباده ، وعده ووعيده كله بكلامه .

والمنافقون والكفار يريدون أن يبدلوا كلام الله الذى هو شرعه ، ودينه فيخالفونه ، أو لا يمتثلونه ، والله يجزيهم بما يستحقون ولا يظلمهم .

ولا أحد يستطيع تغيير خلق الله تعالى .

وبهذا وأمثاله يتضح أن قول أهل الاعتزال ومقلديهم من الروافض وغيرهم ممن يزعم أن قول الله تعالى مخلوق قول خطل ، بعيد عن الصواب كل البعد .

١٢٧ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها ، فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة » .

الإرادة : هى العزم على الشيء ، وقد جاء فى رواية ابن عباس بلفظ « الهم » وهو : ترجيح قصد الفعل على الترك ، تقول هممت بكذا ، أى قصدته بهمتى ، وهو فوق خطور الشيء فى القلب .

وقد يطلق الهم على الإرادة .

وهذا الخطاب من الله ــ تعالى ــ للملائكة الموكلين بحفظ عمل الإنسان وكتابته وهو يدل على فضل الله على الإنسان ، وتجاوزه عنه .

قوله : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة ، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها » .

قد تكون الإضافة فى قوله : « عبدى » بمعنى العابد المطيع ، أى عابدى ، وقد تكون بمعنى المعبد المذلل ، والظاهر أنه مقيد بالمؤمن .

والعمل قد يراد به عمل القلب والجوارح ، وهو الظاهر ، لأنه قد جاء ما يدل على أن عمل القلب يؤاخذ به ، ويجزى عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الحج .

وفى الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل أخيه »[1] .

وقد جاء قيد الهم بالعزم الجازم ، ففى المسند من حديث خريم بن فاتك : « من هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر بها قلبه ، وحرص عليها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ، لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة ، ولم تضاعف عليه »[2] .

فهذه النصوص تصلح لتخصيص عموم قوله : « إذا أراد أن يعمل سيئة فلا تكتبوها حتى يعملها » وهذا لا يخالف قوله فى السيئة « لم تكتب عليه » لأن عزم القلب وتصميمه عمل . قوله : « فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . يعنى سيئة واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] .

قوله : « فإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة » قيد تركها بأنه من أجل الله ــ تعالى ــ أى خوفا منه ، وحياءً ، أما إذا تركها عاجزًا ، أو خوفا من الخلق ، أو لعارض آخر ، فإنها لا تكتب له حسنة ، بل ربما كتبت عليه سيئة .

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان وغيره انظر الفتح جـ ١ ص ٨٤ ومسلم رقم ٢٨٨٨ جـ ٤ ص ٢٢١٣ ، ٢٢١٤ .

(٢) المسند جـ ٤ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٠ من سورة غافر .

وفى حديث ابن عباس : « ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة »[1] فأكدها بقوله : « عنده » ، وبقوله : « كاملة » ، وهو مقيد بما فى هذا الحديث يعنى أن يكون عدم عملها من أجل الله تعالى .

قوله : « وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة » إلى آخره .

جاء وصفها فى حديث ابن عباس المشار إليه ، بأنها كاملة ، وهذا تفضل من الله تعالى الكريم المنان على عباده ، فله الحمد والمنة ، فأى كرم أعظم من هذا ، الهم بالحسنة يكتب الله به حسنة كاملة ، وعمل الحسنة يكتب به عشر حسنات إلى سبعمائة حسنة ، وفى حديث ابن عباس المشار إليه : « إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة » يعنى أكثر من سبعمائة ، فالحمد لله ذى الطول والكرم فلن يهلك على الله إلا من لا يصلح للتفضل ، وليس هو أهل لذلك .

والمقصود من الحديث كما تقدم فى نظائره السابقة ، قوله : « يقول الله : إذا أراد عبدى » فأسند القول إلى الله ، واصفا له بذلك ، وهذا القول من شرعه الذى فيه وعده لعباده ، وتفضله عليهم ، وهو غير القرآن ، وليس مخلوقا فقوله تعالى غير خلقه .

١٢٨ ــ قال : « حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى سليمان ابن بلال ، عن معاوية بن أبى مزرد ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق الباب ٣١ وانظر الفتح جـ ١١ ص ٣٢٣ ، ومسلم رقم ١٣١ جـ ١ ص ١١٨ .

فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب ، قال : فذلك لك .

ثم قال أبو هريرة : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

« أل » فى الخلق تدل على الشمول ، فهى عامة لجميع الخلق ، ويدل عليه قوله : « فلما فرغ » أى انتهى من خلق المخلوقات ، وهو يدل على أن ذلك وقع فى وقت محدد ، وإن كان الله — تعالى — لا حد لقدرته ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولكن اقتضت حكمته أن يجعل لفعله ذلك وقتا معينا ، وهذا من الأدلة على أن أفعاله تتعلق بمشيئته ، فمتى أراد أن يفعل شيئا فعله .

وليس معنى قوله : « لما فرغ » أنه تعالى انتهى من خلق كل شيء ، بل مخلوقاته — تعالى — لا تزال توجد شيئا بعد شيء ، ولكن سبق علمه بها ، وتقديره لها وكتابته إياها ، ثم هى تقع بمشيئته ، فلا يكون إلا ما سبق به علمه ، وتقديره وكتابته ، وشاءه فوجد .

قال ابن أبى جمرة : « ظاهر الحديث الإخبار بعظم ما جعل الله — تعالى — للرحم من الحق ، وأن وصلها من أكبر أفعال البر ، وأن قطعها من أكبر المعاصى »[1] .

قوله : « قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة » .

هذه الأفعال المسندة إلى الرحم ، من القيام ، والقول ، ظاهر الحديث أنها على ظاهرها حقيقة ، وإن كانت الرحم معنى يقوم بالناس ، ولكن قدرة الله —

---

(١) بهجة النفوس جـ ٤ ص ١٤٦ .

تعالى – لا تقاس بما يعرفه عقل الإنسان ، ولا داعى أن يقال : إن الله – تعالى – جعلها فى جوهر ، وجعل لها حياة ، وأنطقها بعد ذلك ، فقد جاء أن أعمال العبد تأتيه ، وتخاطبه ، وتجادل عنه ، وهذا من جنسه ، والله أعلم .

وقيام الرحم قيام مخصوص ، غير القيام المتبادر من لفظه ، وقد جاء إيضاحه فى الرواية التى ذكرها فى التفسير : وفيه : « قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن »[(١)] .

قال الحافظ : قال القابسى : « أبى أبو زيد المروزى أن يقرأ لنا هذا الحرف ، لإشكاله ، ومشى بعض الشراح على الحذف ، فقال : « أخذت بقائمة من قوائم العرش » .

وقال عياض : الحقو معقد الإزار ، وهو الموضع الذى يستجار به ، على عادة العرب ، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع ، كما قالوا : نمنعه مما نمنع منه أزرنا ، فاستعير ذلك مجازا للرحم فى استعاذتها بالله من القطيعة . انتهى ، وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه ، كما فى حديث أم عطية : « فأعطاها حقوه ، فقال : أشعرنها إياه ، يعنى إزاره ، وهو المراد هنا ، وهو الذى جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح فى الاستجارة ، والطلب ، وهذا المعنى صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة »[(٢)] .

قلت : هذا على مذهب أهل التأويل المذموم ، والصواب عدم حمل كلام الله ورسوله على الاصطلاحات الحادثة بعد مضى عصر الصحابة وأتباعهم ، لأن الله تعالى ورسوله ﷺ خاطب الناس بلغة العرب ، والمخاطبون فهموا مراده ، وما كانوا يفرقون بين الحقيقة والمجاز ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك .

---

(١) البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٥٧٩ .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٥٨٠ .

قال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ فى رده على الرازى فى زعمه أن هذا الحديث يجب تأويله .

قال : « فيقال له : بل هذا من الأخبار التى يقرها من يقر نظيره ، والنزاع فيه كالنزاع فى نظيره .

فدعواك أنه لابد فيه من التأويل بلا حجة تخصه ، لا تصح »[1] .

وقال : « وهذا الحديث فى الجملة من أحاديث الصفات ، التى نص الأئمة على أنه يمر كما جاء ، وردوا على من نفى موجبه ، وما ذكره الخطابى وغيره أن هذا الحديث مما يتأول بالاتفاق ، فهذا بحسب علمه حيث لم يبلغه فيه عن أحد من العلماء أنه جعله من أحاديث الصفات التى تمر كما جاءت .

قال ابن حامد : ومما يجب التصديق به : أن لله حقوا .

قال المروزى : قرأت على أبى عبد الله كتابا ، فمر فيه ذكر حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن الله خلق الرحم حتى إذا فرغ منها أخذت بحقو الرحمن » ، فرفع المحدث رأسه ، وقال : أخاف أن تكون كفرت . قال أبو عبد الله : هذا جهمى .

وقال أبو طالب : سمعت أبا عبد الله يسئل عن حديث هشام بن عمار ، أنه قرىء عليه حديث الرحم : تجىء يوم القيامة فتعلق بالرحمن ـــ تعالى ـــ فقال : أخاف أن تكون قد كفرت ؟ فقال : هذا شامى ما له ولهذا ؟ قلت : فما تقول : قال : يمضى كل حديث على ما جاء »[2] .

وقال القاضى أبو يعلى : « اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره ،

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٢٧ .
(٢) المصدر المذكور ص ١٢٨ ـــ ١٤١ ملخصا .

وأن « الحقو » و « الحجزة » صفة ذات ، لا على وجه الجارحة ، والبعض ، وأن الرحم آخذة بها ، لا على وجه الاتصال ، والمماسة ، بل نطلق ذلك تسمية كما أطلقها الشرع . وقد ذكر شيخنا أبو عبد الله ـــ رحمه الله ـــ هذا الحديث فى كتابه ، وأخذ بظاهره ، وهو ظاهر كلام أحمد »[1] .

قلت : قوله : « لا على وجه الجارحة ، والبعض » وقوله : « لا على وجه الاتصال والمماسة » قول غير سديد ، وهو من أقوال أهل البدع ، التى أفسدت عقول كثير من الناس .

فمثل هذا الكلام المجمل لا يجوز نفيه مطلقا ، ولا إثباته مطلقا ، لأنه يحتمل حقا وباطلا ، فلابد من التفصيل فى ذلك ، والاعراض عنه أولى ، لأن كلام رسول الله ﷺ خال منه وليس هو بحاجة إليه فهو واضح . وليس ظاهر هذا الحديث أن لله إزارًا ورداءً من جنس الأزر والأردية التى يلبسها الناس ، مما يصنع من الجلود والكتان والقطن وغيره ، بل هذا الحديث نص فى نفى هذا المعنى الفاسد . فإنه لو قيل عن بعض العباد : إن العظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه لكان إخباره بذلك عن العظمة والكبرياء ، اللذين ليسا من جنس ما يلبس من الثياب .

فإذا كان هذا المعنى الفاسد لا يظهر من وصف المخلوق ، لأن تركيب اللفظ يمنع ذلك ، وبين المعنى المراد ، فكيف يدعى أن هذا المعنى ظاهر اللفظ فى حق الله تعالى ، فإن كل من يفهم الخطاب ، ويعرف اللغة يعلم أن الرسول ﷺ لم يخبر عن ربه بلبس الأكسية والثياب ، ولا أحد ممن يفهم الخطاب يدعى فى قوله ﷺ فى خالد بن الوليد « إنه سيف الله » أن خالدا حديد ، ولا فى قوله ﷺ فى الفرس : « إنا وجدناه بحرًا » أن ظاهره أن الفرس ماء

---

(١) إبطال التأويل ص ٢٣٢ مخطوط .

كثير ، ونحو ذلك »[1] .

قوله : « مه » هى كلمة ردع وزجر ، أو استفهام .

قوله : « هذا مقام العائذ بك من القطيعة » الإشارة إلى ما ذكر فى الرواية التى أشرت إليها وهى قوله : « قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن » ، وهذا أعظم مقام ، والعائذ به استعاذ بأعظم معاذ ، وهو دليل على تعظيم صلة الرحم ، وعظم قطيعتها .

والقطيعة عدم الوصل ، والوصل : هو الإحسان إلى ذوى الرحم ، والتودد له والقرب منه ، ومساعدته بإسعافه بما يرضيه ، ودفع ما يؤذيه ، والحرص على جلب ما ينفعه فى الدنيا والآخرة .

قوله : « ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فذلك لك » من وصله الله ، وصل إلى كل خير ، وسعادة فى الدنيا والآخرة ، ولابد أن تكون نهايته مجاورة ربه فى الفردوس لأن الوصل لا ينتهى إلا إلى هناك فينظر إلى وجه ربه الكريم .

ومن قطعه الله فهو المبتوت المقطوع مع عدو الله الشيطان الطريد الرجيم ولو أراد الخلق كلهم صلته ونفعه ، لم يفده ذلك .

فأى تحذير وتهديد أعظم من هذا ، وأى وعد وثواب أكبر من ثواب صلة الرحم ، ولهذا قرأ أبو هريرة الآية مستشهدًا بها ، وفيها أن قطيعة الرحم مجلبة للعنة الله وغضبه وشديد عقابه .

والمقصود من الحديث ما فيه من مخاطبة الله ــ تعالى ــ للرحم ، بقوله : « مه » وقوله : « ألا ترضين » إلى آخره ، وهو خطابٌ كريم يجب أن يؤمن

---

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٥٧ ببعض التصرف .

به على ظاهره ، وما فيه من وعده ، ووعيده ، وحكمه وشرعه ، وخطابات الله تعالى وكلامه غير محصور فى كتبه المنزلة على رسله ، وكلامه تعالى غير مخلوقاته كما سبق التنبيه عليه مرارا والله أعلم .

١٢٩ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن صالح ، عن عبيد الله ، عن زيد بن خالد ، قال : مطر النبى ﷺ فقال : « قال الله : أصبح من عبادى كافر بى ، ومؤمن بى » .

زيد بن خالد الجهنى ، صاحب لوا جهينة يوم فتح مكة ، من أهل بيعة الرضوان ، قال ابن عبد البر : اختلف فى سنة وفاته ، وفى وقتها ومكانها ، اختلافا كثيرا فقيل توفى فى المدينة سنة ثمان وستين ، وقيل بمصر سنة خمسين ، وقيل بالكوفة فى آخر خلافة معاوية ، رضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين[1] .

قوله : « مطر » أى نزل عليه المطر ليلا ، وذلك فى الحديبية ، كما جاء مبينا فى هذا الحديث ، ولكن المؤلف ــ رحمه الله ــ اختصره هنا ، واقتصر على محل الشاهد منه .

قوله : « كافر بى ، ومؤمن بى » جاء بيان ذلك فى نفس الحديث ، حيث قال : « أما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب » .

---

(١) الاستيعاب جـ ٢ ص ٥٤٩ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٨٤ ، الإصابة جـ ٢ ص ٦٠٣ .

ومعنى الإيمان هنا : الاعتراف بفضل الله ، ونسبة النعم وإنزال المطر والتصرف فى الكون إلى الله ــ تعالى ــ لأنه هو مالك كل شيء ، وخالقه والمدبر شئون خلقه .

ومعنى الكفر فى هذا الحديث : نسبة النعم ، وإنزال المطر ، والتأثير فى الكون إلى غير الله ــ تعالى ــ كقولهم : مطرنا بالنوء الفلانى .

والنوء هو النجم الذى ينزله القمر ، وغيره .

قال ابن عبد البر : « النوء فى كلام العرب : واحد أنواء النجوم ، يقال : ناء النجم ينوء ، إذا نهض للطلوع ، وقد يكون يميل للمغيب »(١) .

فلا يجوز نسبة نزول المطر ، وغيره إلى النجم ، وإن لم يكن ذلك عن اعتقاد ، فإن النجوم لا تفعل شيئا ، وليس لها تأثير ، وتصريف لأحوال الجو وغيره .

أما من اعتقد أنها تفعل شيئا من ذلك حقيقة ، فهو مشرك الشرك الأكبر .

قال ابن عبد البر : « معنى نسبة المطر إلى النوء هو عندى على وجهين :

أحدهما : اعتقاد أن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشيء للسحاب دون الله ــ تعالى ــ فذلك كافر كفرًا صريحا ، يجب استتابته عليه وقتله لنبذه الإسلام ، ورده القرآن .

الثانى : أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء ، على ما قدره الله ، وسبق فى علمه ، فهذا وإن كان وجها مباحا ــ فإن فيه أيضا كفرًا بنعمة الله ــ عز وجل ــ وجهلا بلطيف حكمته ، لأنه ينزل الماء متى شاء .

قال الشافعى : لا أحب لأحد أن يقول : مطرنا بنوء كذا ، وإن كان النوء

---

(١) التمهيد جـ ١٦ ص ٢٨٧ .

عندنا : الوقت ، والوقت مخلوق ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ، ولا يحبس شيئا من المطر ، وإنما يقول : مطرنا : وقت كذا ، كما يقول : بشهر كذا ومن قال : مطرنا بنوء كذا ، وهو يريد أن النوء أنزل الماء ، فهو كافر حلال دمه إن لم يتب .

وسمع الحسن رجلا يقول : طلع سهيل ، وبرد الليل ، فكره ذلك ، وقال : إن سهيلا لم يأت قط بحر ولا برد .

وكره مالك أن يقول الرجل للغيم ، أو السحابة : ما أخلقها للمطر .

وهذا يدل على أنهم احتاطوا ، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من أمر الجاهلية »[١] .

والمقصود من الحديث هنا : إسناد القول إلى الله تعالى ، وهو قول حقيقة يخاطب به رسله من الملائكة والبشر ، ويبين فيه حكمه وشرعه ، وما يثيب عليه وما يعاقب عليه ، وأنه يقول ، ويأمر ، وينهى متى شاء ـــ جل وعلا ، وأن قوله غير مخلوق ، وغير محصور فى القرآن ونحوه ، وقوله غير مفعولاته .

١٣٠ ـــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى ، كرهت لقاءه » .

« إذا » هنا ظرف للزمن المستقبل ، وفيها معنى الشرط .

وتقدم الكلام فى صفة محبة الله تعالى وأنه تعالى يحب أهل طاعته من عباده ، وأن ذلك ثابت بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأدلته لا تكاد تنحصر ، ومنكره

---

(١) التمهيد جـ ١٦ ص ٢٨٥ ـــ ٢٨٧ ملخصا .

ضال عن طريق المنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، سالك طريق أهل الضلال والتحريف والتبديل .

وتقدم كذلك الكلام على حب العباد لله ــ تعالى ــ وأن ذلك أصل الدين . ومعنى لا إله إلا الله ، وأن من لم يحب الله ــ تعالى ــ حب ذل وخضوع وتعظيم أنه ليس بمسلم ولا يعرف الإسلام .

قال ابن عبد البر : « هذا خبر عن حال الطائفتين عند لقاء ربهم ، فمن أحب لقاء الله ، فهو الذى يحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء ربه عند الموت ، فذاك الذى يكره الله لقاءه »[1] .

وفى هذا الحديث وصف الله ــ تعالى ــ بأنه يكره بعض عباده ، وبعض الأعمال كما قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾[2] ، وقال جل وعلا : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[3] .

وفى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعًا وهات ، وكره لكم ثلاثا ، قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »[4] .

وفيه عن أبى هريرة مرفوعا : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا » إلخ[5] .

---

(١) من الفتح جـ ١١ ص ٣٥٨ بالمعنى .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الإسراء .

(٤) مسلم جـ ٣ ص ١٣٤١ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٣٤٠ .

وجاء فى الرواية التى ذكرها فى الرقاق بعد قوله : « كره الله لقاءه » قالت عائشة ، أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ؟ » قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله ، وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » .

قال الزرقانى : « عند حضور أجله إن عاين ما يحب أحب لقاء الله ، وإن عاين ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ، هذا معناه كما تشهد به الآثار المرفوعة ، وذلك حين لا تقبل التوبة ، وليس المراد الموت ، لأنه لا يخلو من كراهته أحد ، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا ، وكراهة أن يصير إلى الله ـــ تعالى ـــ قاله ابن عبد البر »[١] .

والمقصود من الحديث الجملة المذكورة هنا ، إذ فيها قول الله ـــ تعالى ـــ أنه يحب لقاء بعض عباده ، ويكره لقاء بعضهم .

فالمتقى يحب لقاء ربه عند انقطاع عمله ، وانقضاء أجله ، فيحب ربه لقاءه ليكرمه ، ويجزيه فوق ما يتصوره ، فضلا من ربه تعالى .

وأما الفاجر فإنه عند معاينة رسل الله إليه ، وإخبارهم إياه بعذاب الله يكره عند ذلك ملاقاة الله ، فيكره الله لقاءه ، فأخبر تعالى عباده بهذا قولا منه على لسان رسوله وقوله غير خلقه ، وأقواله تعالى غير محصورة فى كتبه .

وتقدم أن لقاء الله يتضمن معاينته ورؤيته ، وكل أحد من عباد الله سوف يلاقى ربه ، فيسأله عن عمله ، كما فى حديث عدى المتقدم ، والله أعلم .

---

(١) شرح الموطأ للزرقانى جـ ٢ ص ٨٥ .

١٣١ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله ــ تعالى ــ : أنا عند ظن عبدى بى » .

هذا الحديث تقدم فى باب قول الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ .

والمقصود منه هنا واضح كما تقدم فى الأحاديث قبله ، وهو أن الله ــ تعالى ــ تكلم بهذا القول مخاطبا عباده بما يريد منهم أن يفعلوه فيثيبهم عليه . وبما يريد منهم أن يجتنبوه ، حتى لا يعاقبهم ، وتقدم أن الكلام صفة كمال ، وأن الله تعالى متصف بها ، وأن كلامه يتعلق بمشيئته ، فمتى شاء أن يتكلم تكلم ، وكما أنه تعالى فى الأزل يتكلم بما يشاء ، فكذلك فى المستقبل ، وفى كل وقت إذا أراد أن يتكلم ، وكلام الله غير محصور ولا نفاد له ، وهو غير خالقه .

١٣٢ ــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنا مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل خيرا قط إذا مات فحرقوه ، وأذروا ، نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك ، وأنت أعلم ، فغفر له » .

الظاهر أن هذا الرجل من بنى إسرائيل ، ولهذا أورده المصنف رحمه الله فى أحاديث بنى إسرائيل .

وقوله : « لم يعمل خيرا قط » الظاهر أن المقصود عمل الجوارح ، وأن عنده أصل الإيمان فى قلبه ، فهو مؤمن بالله ، وبالجزاء والحساب ، وهذا واضح

من قوله : « فعلت ذلك من خشيتك وأنت أعلم » . ومن قوله : « فوالله لئن قدر الله على ليعذبنى » ... إلخ .

وفى الرواية التى فى أحاديث الأنبياء : « وكان رجل يسرف على نفسه »[1] .

قوله : « إذا مات فحرقوه » عدل عن خطاب المتكلم إلى الغائب كراهية إسناد هذه الأفعال المخبر عنها ، وهذا أسلوب معروف فى كلام العرب ، إذا كرهوا العمل المخبر عنه ، ذكروه بلفظ خطاب الغيبة كراهة إضافته إلى المتكلم لفظًا .

وقد جاء على الأصل فى الرواية المذكورة فى أحاديث بنى إسرائيل ، من حديث أبى سعيد ، وأبى هريرة ، وحذيفة ، كلهم بلفظ المتكلم « إذا مت فأحرقونى ثم اطحنونى » .

قوله : « وأذروا نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر » أى فرقوا أجزاءه المسحوقة فى الريح ، التى تبعثر ذراته بعد التحريق والطحن ، إمعانا فى تفرقة أجزائه ، حتى لا تجتمع ، ظانا أن الله لا يقدر على جمعه وبعثه ولهذا قال : « فوالله لئن قدر الله عليه » أى قدر على جمعى ، وبعثنى حيا بعد الموت ، وفى الرواية المشار إليها : « فوالله لئن قدر الله علىَّ » .

وهذا هو ظاهر الروايات جميعها ، بل هو صريحها ، وما ذكر من التمحلات والتكلفات من كثير من الشراح ، لا داعى لها ، وهى خلاف صريح اللفظ كقولهم : « قدر » من التقدير ، وهو التضييق ، أو قدر على العذاب ونحو ذلك مما يجزم المتتبع لروايات الحديث والناظر فى السياق أنه خطأ محض .

فهو شاك فى قدرة الله على جمعه ، وإحيائه بعد ذلك ، ومع هذا عذره

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥١٤ .

الله تعالى بجهله ، وحسن قصده ، وهذا يدل على أن الجاهل قد يغفر الله له وإن عمل ما يدل على كفره لو كان عالما .

قال شيخ الإسلام : « فهذا رجل شك فى قدرة الله ، وفى إعادته إذا ذرى ، بل اعتقد أنه لا يعاد ، وهو كفر باتفاق المسلمين »[1] .

وقال : « وهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل بقدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرى ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك »[2] .

وقال أيضا : « فهذا شك فى قدرة الله ، وفى المعاد ، بل ظن أنه لا يعود ، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وقد غفر الله له »[3] .

وهذا هو المتبادر من الحديث ، فلا يعدل عنه إلا بدليل يوجب ذلك ، وليس هناك ما يوجب صرفه عن ظاهره .

وقال أيضا : « فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك أو شك أنه لا يبعثه ، وكل من هذين الاعتقادين كفر ، يكفر من قامت عليه الحجة ، لكنه كان يجهل ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله .

وكان عنده إيمان بالله ، وبأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه فغفر الله له بخشيته »[4] .

قوله : « فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه » الروايات التى اطلعت عليها كلها بلفظ الماضى الذى وقع وانتهى .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٣١ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٢٣ ص ٣٤٧ .
(٤) الاستقامة جـ ١ ص ١٦٤ .

قال الحافظ : « هذا جميعه كما قال ابن عقيل : إخبار عما سيقع له يوم القيامة وليس كما قال بعضهم : إنه خاطب روحه ، فإن ذلك لا يناسب قوله : « فجمعه الله » ، لأن التحريق ، والتفريق إنما وقع على الجسد ، وهو الذى يجمع ، ويعاد عند البعث »[1] .

وأقول : ليس هناك ما يمنع أن يكون ذلك وقع ، بل هذا هو الظاهر من الحديث برواياته المتعددة ، وهو الظاهر من صنيع البخارى رحمه الله حيث أورده فى أحاديث بنى إسرائيل التى وقعت لهم ، وأورده فى هذا الباب مستشهدا به على أن الله ــ تعالى ــ خاطب هذا الرجل ، كما فى سائر أحاديث الباب ، فيكون الله ــ تعالى ــ قد أحياه ، وخاطبه ، ثم مات أخرى كما حصل لقتيل بنى إسرائيل ، الذى أمر الله ــ تعالى ــ أن يضرب بجزء من البقرة فحيى .

أو تكون حياته بعد جمعه حياة برزخية ، يخاطب فيها ويجيب ، ويدرك ويعرف ، كما خاطب الله تعالى والد جابر بعدما قتل ، قال النبى ﷺ لجابر : « ألا أبشرك عما لقى أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلنى » الحديث[2] ، وعلى كل فقدرة الله ــ تعالى ــ صالحة لما ذكر وغيره ، والله أعلم .

قوله : « فقال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم فغفر له » . أى لماذا أمرت أولادك بأن يحرقوك ، ويذروك . فى يوم عاصف ، نصفك فى البر والنصف الآخر فى البحر .

وهذا يدل على أن من أمر بشيء ، ففعل حسب أمره ، أنه هو المسئول

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٥٢٣ .
(٢) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

١٠٦ ــ « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن أبي العباس ، عن عبد الله بن عمر قال : حاصر النبى ﷺ أهل الطائف فلم يفتحها ، فقال : إنا قافلون غدا إن شاء ، فقال المسلمون : نقفل ولم نفتح قال : فاغدوا على القتال ، فغدوا ، فأصابتهم جراحات ، قال النبى ﷺ : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » ، فكأن ذلك أعجبهم ، فتبسم رسول الله ﷺ » .

الحصار : هو المنع أن يخرج أحد منهم ، أو يدخل إليهم شيء ، والتضييق عليهم . وكان ذلك بعد فراغه ﷺ من غزوة حنين ، وتحصن الكفار بالطائف ، فرأى ﷺ أنهم يحتاجون إلى مطاولة ، وهم أهل رماية ، فقد ينالون من المسلمين ما لا يناله المسلمون منهم ، ورجا أن تفتح عليه بأقل من ذلك العنى ، وأشفق على أصحابه ، فقال : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » وهذا عرض عليهم من باب المشاورة وإشراكهم فى الرأى كما هى عادته ﷺ . ولهذا لم يلزمهم ، ولما قالوا : نقفل ولما نفتح ؟ قال : اغدوا على القتال » ثم أعاد هذا القول من الغد بعد ما أمضوا يومهم ذلك فى القتال ، ولم يتحصلوا على طائل ، وقد أصابتهم جراحات ، ففرحوا بما قال رسولهم ﷺ وعلموا أن الخير والبركة فى رأيه ، عند ذلك تبسم رسول الله ﷺ لما رأى فرحهم ، وقد كانوا بالأمس قد كرهوا ذلك ، تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، ولإجماعهم على تصويب ما رآه ﷺ أولا .

والمقصود منه قوله : « إن شاء الله » فقد أخبر أولًا بأنهم قافلون معلقا ذلك بمشيئة الله ، فلم يحصل لأن الله لم يشأ ذلك .

وفى المرة الثانية شاءه فحصل بإيجاد الله له الأسباب التى جعلتهم يفرحون بذلك ، وهكذا كل ما لا يريد الله ــ تعالى ــ حصوله لابد أن يوجد له من الأسباب ما يمنع وجوده ، وبالعكس .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ له حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (١) ولم يقل ماذا خلق ربكم » .

أخبر تعالى أنه المالك لكل شيء ، وأنه لا يقع لأى فرد من خلقه ضر أو نفع إلا بإرادته وتدبيره ، فهو المالك للشفاعة وغيرها ، فلا تقع الشفاعة لديه إلا بإذنه ، ولا تنفع إلا لمن رضى عمله وقوله ، فهو تعالى لا يأذن فى الشفاعة إلا فيمن رضى عمله ، وهو لا يرضى إلا بعبادته الخالصة .

قال النووى : « أهل السنة متفقون على وقوع الشفاعة ، ودل عليه العقل والسمع ، فقد ثبت ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله ، كما فى هذه وغيرها ، والأحاديث فيها بلغت حد التواتر ، وأجمعوا على وقوعها للمذنبين من أهل التوحيد ، وإنما خالف فيها أهل البدع ، الذين سلكوا غير سبيل المؤمنين »(٢) .

قال فى اللسان : « فزع عنه » أى كشف عنه الخوف(٣) .

وقال الأزهرى : « اتفق أهل التفسير ، وأهل اللغة أن معنى قوله : « فزع عن قلوبهم » : كشف الفزع عن قلوبهم ، وتأويل الآية : أن ملائكة سماء الدنيا كان عهدهم قد طال بنزول الوحى من السماوات فلما نزل جبريل بالوحى على النبى ﷺ أول ما بعث نبيا ، ظنت الملائكة الذين فى السماء الدنيا أن جبريل نزل لقيام الساعة ، ففزعوا له ، فلما تقرر عندهم أنه نزل لغير ذلك ، كشف الفزع عن قلوبهم ، فأقبلوا على جبريل ومن معه من

---

(١) الآية ٢٣ من سورة سبأ .
(٢) انظر شرح مسلم للنووى جـ ٣ ص ٣٥ .
(٣) جـ ٨ ص ٢٥٣ .

الملائكة ، وقالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : ﴿ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ والذين فزع عن قلوبهم هاهنا ملائكة السماء الدنيا .

وقيل : إن ملائكة كل سماء ، فزعوا لنزول جبريل ، ومن معه من الملائكة ، فقال كل فريق منهم لهم : « ماذا أنزل ربكم ؟ »[1] .

وهذه الآية لها تعلق بما قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ[2] وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد الذى لا نظير له ، ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ، ولا منازع ، ولا معارض ، فقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى من الآلهة التى عبدت من دونه ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى لا يملكون شيئا استقلالا ، ولا على سبيل الشركة : ﴿ وَمَالَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى ليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه »[4] .

والمقصود أن الملائكة الذين سمعوا كلام الله يفزعون له خوفا ، ولم يفهموا كلامه من شدة فزعهم ، فإذا ذهب فزعهم ، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ماذا قال ربكم ؟ فيجيب المسئولون ، بأنه تعالى : قال الحق ، فيقولون كلهم : قال الحق ، وهو العلى الكبير ، كما وضح ذلك فى الأحاديث التى ذكر هنا بعضها .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .
(٢) الآية ٢٢ من سورة سبأ .
(٣) الآية ١٣ من سورة فاطر .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠١ طبعة الشعب .

ومراد البخارى ــ رحمه الله ــ من الآية أنها تدل على أن لله كلاما يتكلم به ويقوله بصوته ، وأنه يسمع منه كما هو ظاهر الآية ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ ، وأن قوله صفة له تعالى ، لا يكون مخلوقا ، كما زعم الضالون ، ولهذا ذكر الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله ينادى بصوت كما يأتى وفى ذلك أبلغ دليل على بطلان قول المعتزلة ، ومن تابعهم على أن الله لا يتكلم بكلام يسمع منه ، وإنما كلامه ما يخلقه فى غيره ، أو هو المعنى القائم فى نفسه ــ تعالى الله عن قولهم ــ وأنه لا يكون بحرف وصوت يسمع ، « وكل ذى لب صحيح يعرف بالحس ، والمشاهدة قبل الاستدلال أن القرآن العربى ، حروف ، ولا فرق بين منكر ذلك ومنكر الحواس ، وأنها من مبادئ العلم وأسباب المدارك »[1] .

وما نقله الحافظ عن ابن بطال : من أن مراد البخارى أن قول الله قديم لذاته قائم بصفاته ، لم يزل موجودا به[2] ، ولا يزال كلامه لا يشبه [كلام] المخلوقين »[3] إلى آخره .

فهو بعيد كل البعد عن مراد البخارى ، بل هذا القول يدخل فى قول من قصد البخارى الرد عليهم ، ولكن ابن بطال يريد من البخارى أن يكون متفقا معه فى العقيدة ، وبينهما مثل ما بين المشرق والمغرب .

قوله : « ولم يقل ماذا خلق ربكم » يشير بذلك إلى الرد على القائلين بخلق القرآن وغيره من كلام الله ــ تعالى ــ فالآية صريحة فى إبطال قولهم .

قال الحافظ : « هذا أول باب تكلم فيه البخارى على مسألة الكلام ، وهى

---

(١) درء تعارض العقل جـ ٢ ص ٩٢ نقله عن أبى نصر السجزى .
(٢) هكذا فى النسخة التى عندى وأظن الصواب « موصوفا به » .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٣ .

طويلة الذيول »[1] .

قال : « وقال جل ذكره : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ .

وهذا استفهام إنكار ، ينكر تعالى على من يزعم أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، كما هو المعهود فى الدنيا لدى العظماء ، فإن الشفاعة عندهم تحصل بدون إذنهم .

أما رب العالمين فلعظمته وتمام ملكه ، لا يستطيع أحد أن يقدم على الشفاعة عنده مهما كان مقامه حتى يأذن له كما تقدم فى حديث الشفاعة قوله ﷺ : « فأستأذن على ربى ، فإذا رأيته خررت له ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على من المحامد والثناء ، ثم يقول : ارفع رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع » وفيه : « فيحد لى حدا ، فيقول : هؤلاء اشفع فيهم » ، فعاد الأمر كله لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2] .

والشاهد من الآية للباب قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ فإن الإذن يكون بالقول المسموع ، الذى يسمعه المأذون له على الأقل .

وأما قول الحافظ فيما ظنه : « أن البخارى أشار بهذه الآية إلى ترجيح أن الضمير فى قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ « للملائكة »[3] إلى آخره وأن فاعل الشفاعة فى قوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده » هم الملائكة » فهو بعيد عن مراد البخارى ، وإن كان هذا الذى ذكره هو الصواب فى كون الضمير للملائكة ، وفاعل الشفاعة هم .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٤ .
(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٦ .

« قال مسروق : عن ابن مسعود ، إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات شيئا ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ، عرفوا أنه الحق ، ونادوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » .

قال الحافظ : رواه أحمد موصولا ، ولفظه : « إن الله — عز وجل — إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء ، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا جاءهم جبريل ، فزع عن قلوبهم ، قال : ويقولون : يا جبريل ماذا قال ربكم ؟ قال : فيقول : الحق ، قال : فينادون : الحق ، الحق »[1] .

ورواه البخارى موصولا فى خلق أفعال العباد[2] .

وقال أبو داود : « حدثنا أحمد بن أبى سريج الرازى وعلى بن الحسين بن إبراهيم ، وعلى بن مسلم ، قالوا : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحى ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم ، قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق ، فيقولون : الحق ، الحق »[3] .

وقال ابن جرير : « حدثنى زكريا بن أبان المصرى ، قال : حدثنا نعيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبى زكريا ، عن جابر بن حيوة ، عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٦ .
(٢) انظر ص ١٩٣ مجموع عقائد السلف .
(٣) سنن أبى داود جـ ٥ ص ١٠٦ كتاب السنة .

ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ، تكلم بالوحى ، أخذت السماوات منه رجفة ، أو قال : رعدة شديدة ، خوف أمر الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا ، وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق وهو العلى الكبير ، قال : فيقولون كلهم : مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله »[1] .

وبهذه الأحاديث يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أن هذا الفزع الذى يصيبهم من شدة خوفهم من الله تعالى عندما يسمعون صوت السماء ، ويعلمون أن ذلك الصوت الذى هو كجر السلسلة على الصفاء هو رعدة السماوات ، وخوفها من الله لما سمعت كلامه بالوحى ، فعند ذلك تصعق الملائكة خوفا أن يكون الله تعالى أمر بقيام الساعة التى يجازى عز وجل فيها كل عامل بعمله هذا مع قيامهم بأمر الله وطاعته ، وعظيم عبادتهم له ، يخافون هذا الخوف الشديد ، فكيف بمن يبارز الله تعالى بالمعاصى .

وفى هذه الأحاديث ونحوها الدلالة الواضحة بأن الله يتكلم بكلام تسمعه السماوات ومن فيهن ، من الملائكة ، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه وأن من أنكر كلام الله ، فليس معه إلا مجرد الوهم وشبه الشيطان الباطلة .

وفيها إثبات الصوت لله تعالى . وأن صوته لا يشبه صوت العباد كما سيأتى .

١٠٧ ــ قال : « ويذكر عن جابر ، عن عبد الله بن أنيس ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : « أنا الملك ، أنا الديان » .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٩١ . وقال ابن كثير : رواه ابن أبى حاتم وابن خزيمة انظر تفسير جـ ٦ ص ٥٠٤ .

هذا الحديث ذكره فى مواضع من صحيحه ، مرة بصيغة الجزم ، ومرة بصيغة التمريض ، وقد رواه فى الأدب المفرد مسندا مرفوعا حيث قال : « حدثنا موسى ، قال : حدثنا همام ، عن القاسم بن عبد الواحد ، عن ابن عقيل ، أن جابر بن عبد الله حدثه ، أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فابتعت بعيرا ، فشددت إليه رحلى شهرا ، حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فبعثت إليه ، أن جابرا بالباب ، فرجع الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج فاعتنقنى . قلت حديث بلغنى لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت .

قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يحشر الله العباد — أو الناس — عراة ، غرلا ، بهما قلنا : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد — أحسبه — قال : كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة ، قلت : وكيف وإنما نأتى الله عراة بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات »[1] .

قوله : « يحشر الله العباد » الحشر : الإخراج والجمع . قال الراغب : « الحشر : إخراج الجماعة عن مقرهم ، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، وروى « النساء لا يحشرن » أى لا يخرجن إلى الغزو ، ويقال ذلك فى الإنسان وغيره ، ولا يقال : الحشر إلا فى الجماعة ، قال تعالى : ﴿ وَٱبۡعَثۡ فِى ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ .

---

(١) انظر الأدب المفرد ص ٣٣٧ ، ورواه الحاكم فى المستدرك جـ ٣ ص ٤٣٨ و جـ ٤ ص ٥٧٤ و ٥٧٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وصححه الذهبى ورواه أحمد فى المسند جـ ٣ ص ٤٩٥ والخطيب فى الرحلة ص ١٠٩ — ١١٧ قال الحافظ وأخرجه الطبرانى وأبو يعلى انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٥٧ وأخرجه غيرهم وهو حديث صحيح بمجموع طرقه .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ ، ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ وسمى يوم القيامة يوم الحشر ، كما سمى يوم البعث ، ويوم النشر »[1] .

لأن الله تعالى يحيى كل من مات من خلقه فيجمعهم فى مكان واحد ليحاسبهم فيجزيهم بعملهم .

قوله : « فيناديهم بصوت » النداء لا يكون إلا بصوت ، ولا يعرف الناس نداء بدون صوت ، فذكر الصوت هنا لتأكيد النداء ، وهذا فى غاية الصراحة والوضوح فى أن الله يتكلم بكلام يسمع منه تعالى ، وأن له صوتا ، ولكن صوته لا يشبه أصوات خلقه ، ولهذا قال :

« يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » فهذه الصفة تختص بصوته تعالى وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب منها فقط حسب قوة الصوت وضعفه وقد كثرت النصوص المثبتة لذلك ، منها ما ذكره البخارى ــ رحمه الله ــ فى هذا الباب ، ومنها ما ذكره الله تعالى فى كتابه فى أكثر من عشرة مواضع بلفظ النداء الذى لا يكون إلا بصوت .

منها قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ

---

(١) المفردات ص ١١٩ ــ ١٢٠ .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم .
(٤) الآية ١٠ من سورة الشعراء .

حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] يعنى أن المنادى هو الله العزيز الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] أى ناداه تعالى بهذا القول : « يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[3] .

وقوله فى السورة أيضا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾[6] .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[7] فهذه عشرة مواضع كلها صريحة فى أن الله ينادى منها ما وقع فى الدنيا ومنها ما سيقع يوم القيامة .

وليس مع من ينكر نداء الله ، وأنه تعالى يسمع من يشاء من خلقه نداءه

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٠ من سورة القصص .
(٣) الآية ٦٢ من سورة القصص .
(٤) الآية ٧٤ من سورة القصص .
(٥) الآية ٦٥ من سورة القصص .
(٦) الآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٧) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النازعات .

إلا مجرد الوهم والقياس الفاسد ، الناتج عن الأفكار المضللة .

قال البخارى رحمه الله : « ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون رفيع الصوت ، وأن الله ـــ عز وجل ـــ ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب .

«فليس هذا لغير الله ـــ جل ذكره ـــ وفى هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله ـــ جل ذكره ـــ يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته ، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا . وقال ـــ عز وجل ـــ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[1] فليس لصفة الله ند ، ولا مثل ، ولا يوجد شيء من صفاته فى المخلوقين »[2] .

« قال الخلال : وأخبرنا المَرُّوذى : سمعت أبا عبد الله ، وقيل له : إن عبد الوهاب قد تكلم ، وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمى عدو لله ، وعدو للإسلام ، فتبسم أبو عبد الله ، وقال : ما أحسن هذا عافاه الله »[3] .

و « قال الخلال فى السنة : أخبرنا على بن عيسى أن حنبلا حدثهم ، قال : إن أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب القرآن ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

قال : وسمعت أبا عبد الله قال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال يؤكد كلامه ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .
(٢) خلق أفعال الخلق ص ١٩٢ مجموع عقائد السلف .
(٣) شرح الأصفهانية رسالة دكتوراة ص ١٩٣ .

قلت لأبى عبد الله : « الله عز وجل يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضى بين الخلائق إلا الله — عز وجل — ؟ يكلم عبده ، ويسأله .

الله متكلم لم يزل يأمر بما يشاء ، ويحكم ، وليس له عدل ولا مثيل كيف شاء ، وأنى شاء .

أخبرنا محمد بن على بن بحر ، أن يعقوب بن بختان حدثهم ، أن أبا عبد الله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت فقال : بلى تكلم بصوت ، وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها ، لكل حديث وجه ، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر .

قال شيخ الإسلام : قلت : وهذا الصوت الذى تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من العبد ، بل ذلك صوت العبد كما هو معلوم لعامة الناس .

وقد نص على ذلك الأئمة أحمد ، وغيره ، فالكلام المسموع من العبد حال تلاوته القرآن هو كلام الله ، لا كلام غيره كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾(1) .

وقال النبى ﷺ : « ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلغ كلام ربى ، فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى » رواه أبو داود وغيره(2) .

وقال : « زينوا القرآن بأصواتكم »(3) ، وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »(4) .

---

(1) الآية ٦ من سورة التوبة .
(2) انظر السنن جـ ٤ ص ٣٢٤ .
(3) انظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ٩٩ والنسائى جـ ٢ ص ١٣٩ وابن ماجه جـ ٢ ص ٢٤٦ والدارمى جـ ٢ ص ٤٧٤ وأحمد فى المسند جـ ٤ ص ٢٨٣ و ٢٨٥ .
(4) درء تعارض العقل جـ ٢ ص ٣٨ — ٤٠ .

« وقال أبو نصر السجزى : « فأما الله — تعالى — فإنه متكلم فيما لم يزل ، ولا يزال إذا شاء ذلك ، ويكلم من يشاء تكليمه بما يعرفه [المخاطب] ولا يجهله ، وكلامه أحسن الكلام ، وفيه سور ، وآى ، وكلمات ، وكل ذلك حروف ، وهو المسموع منه على الحقيقة سماعا يعقله الخلق ، وجائز وجود أعداد من المكلمين يكلمهم فى حال واحدة ، بما يريده من كل واحد منهم ، من غير أن يشغله تكليم هذا عن تكليم هذا »[1] .

وقال أيضا : « لما وجدنا أحكام الشريعة المتعلقة بالكلام منوطة بالنطق الذى هو حرف وصوت ، دون ما فى النفس ، علمنا أن حقيقة الكلام هو الحرف والصوت .

فلو حلف امرؤ أنه لا يتكلم ساعة من النهار ، فأقام فى تلك الساعة يحدث نفسه بأشياء ، ولا ينطق بها ، كان بارا ، غير حانث .

ولو كان الكلام هو ما فى النفس حنث فى أول ما يحدث به نفسه[2] .

وقال أيضا : « فالله تعالى قد بين فى كتابه ما كلامه ، وبين ذلك رسوله ﷺ واعترف به الصدر الأول والسلف الصالح ، فقال الله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[3] وقال : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[4] والمستجير لا يسمع إلا كلاما ذا حروف ، والقارىء لا يقرأ إلا كلاما ذا حروف .

ولما سمى تعالى هذا القرآن كلامه ، علم أن كلامه حروف ، وقد أكد ذلك بذكر الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ﴿ كهيعص ﴾ ونحوها .

---

(١) المصدر المذكور ص ٨٨ ملخصا .
(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت لأبى نصر ، رسالة ما جستير ص ١٧٦ .
(٣) الآية ٦ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٢٠ من سورةالمزمل .

فمن زعم أن هذه الحروف ليست من القرآن فهو كافر ، ومن قال : إنها من القرآن ، والقرآن ليس كلام الله ، فهو كافر ، ومن زعم أنها عبارة عن الكلام الذى لا حروف فيه ، فهو جهل وغباء ، لأن ذلك لا يعرف والنبى ﷺ قال : « من قرأ القرآن ، فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول : « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، وبهذا يتبين أن القرآن سور ، وآيات ، وحروف ، وهكذا كلام الله »[1] .

وقال أيضا : « الأصل الذى يجب أن يعلم ، أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسمين بها ، فنحن إذا قلنا : إن الله موجود ، رؤف ، واحد ، حى ، عليم ، سميع ، بصير ، متكلم ، وقلنا : إن النبى ﷺ كان موجودا حيا عالما ، سميعا بصيرا ، متكلما ، لم يكن ذلك تشبيها ، ولا خالفنا به أحدا من السلف ، والأئمة .

بل الله موجود لم يزل ، واحد ، حى ، قديم ، قيوم ، عالم ، سميع ، بصير ، متكلم فيما لم يزل ، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات .

والموجود منا إنما وجد عن عدم ، وحين ينقضى أجله ثم يصير ميتا يزول ذلك المعنى ، وعلم بعد أن لم يعلم ، وقد ينسى ما علم ، وسمع وأبصر وتكلم بجوارح تلحقها الآفات .

فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيه بما أطلق للخالق — سبحانه وتعالى — وإن اتفقت مسميات هذه الصفات »[2] .

« وقد بين الله فى كتابه أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ ، والعرب لا تعرف نداء إلا صوتا .

---

(1) الرد على من انكر الحرف والصوت ص ١٨٦ رسالة ما جستير .

(2) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٨٩ — ٩٠ .

وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك ، فإن أنكروا الظاهر كفروا ، وإن قالوا إن النداء غير صوت خالفوا لغات العرب .

وإن قالوا : نادى الأمير إذا أمر بالنداء ، دفعوا فضيلة موسى ﷺ المختصة به من تكليم الله إياه بذاته ، من غير واسطة ، ولا ترجمان .

وليس فى وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق ، كما لم يكن فى إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه ، وكلام الله حروف ، وأصوات بحكم النص »[1] .

« والله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ، وإذا شاء تكلم بصوت يسمع ، وبحروف ، وكل ما قام بذات الله — تعالى — فليس بمخلوق ، سواء كان قديما أو حادثا ، وكلامه — تعالى — وفعله متعلق بمشيئته وإرادته ، هذا قول أهل السنة والجماعة .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سألت أبى عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى ، لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبى : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت .

وقال أبى : حديث ابن مسعود : « إذا تكلم الله سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان » .

قال أبى : وهذا الجهمية تنكره ، قال أبى : وهؤلاء كفار ، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر »[2] .

وقال أيضا : « حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) كتاب السنة ص ٧٠ .

الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : « إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، قال : كذا وكذا »[1] .

وقال أبو يعلى بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : « اعلم أن هذه الأخبار تدل على أن كلام الله ــ تعالى ــ بحرف وصوت ، لا كحروف الآدميين وأصواتهم ، كما أن له علما وقدرة لا تشبه صفات الآدميين ، وقد نص أحمد فى رواية الجماعة على إثبات الصوت »[2] ، وكلام أهل العلم من السلف وأتباعهم فى هذا كثير .

قوله : « أنا الملك أنا الديان » يعنى أن النداء الذى يسمعه أهل الموقف كلهم يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب هو بهاتين الكلمتين : « أنا الملك أنا الديان » فهو تعالى الملك الذى بيده ملك السماوات والأرض ، ومن فيهن ، وهو الديان الذى يجازى عباده بعملهم ، من عمل خيرا جازاه بأفضل مما عمل ، ومن عمل شرا جازاه بما يستحق .

وفى هذا الحديث دليل على أن بعض أهل الموقف أقرب إلى الله من بعض .

ودل على هذا المفهوم آيات من كتاب الله ، وأحاديث ثابتة عن رسوله ﷺ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ ونحو ذلك ، وعند الذين ضلوا فى هذا الباب ، الخلق بالنسبة إلى الله سواء بالقرب والبعد . وكفى بذلك ضلالا أنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وللفطر والعقول .

---

(١) المصدر المذكور ٧١ ورواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ١٩٤ مجموع عقائد السلف .
(٢) إبطال التأويل مخطوط ص ٣٠٤ .

١٠٨ــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان » .

قال على : وقال غيره : صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » .

قوله : « إذا قضى » المراد بالقضاء هنا ، الأمر بالشىء والحكم ، بأن يتكلم آمرا ملائكته ، كما فى حديث ابن مسعود المتقدم ، وحديث النواس بن سمعان : إذا تكلم الله بالوحى .

قوله : « ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله » صريح بأن الملائكة تسمع قوله ، ولا يعقل شىء يدركه السمع إلا ما كان بصوت وحروف .

هذا هو مراد البخارى ــ رحمه الله ــ أن كلام الله يسمع منه ، لأنه يتكلم حقيقة والكلام الحقيقى الذى يسمع لابد أن يكون بصوت وحروف ، وهذا الذى فهمه صحابة رسول الله ﷺ منه ، وهو الذى أراد منهم فهمه ، وكذا فهمه أتباعه إلى اليوم .

« خضعانا » مصدر لخضع ، كغفران مصدر لغفر ، والمعنى أن الملائكة تخضع لله عند سماع كلامه ، وتستكين ، فتضرب بأجنحتها من الخضوع .

والصفوان هى الحجارة الكبيرة الصلبة .

قوله : « ينفذهم ذلك » يعنى أن الصوت المذكور يبلغهم كلهم ويسمعونه .

قوله : « قال سفيان ، قال عمرو :سمعت عكرمة ، حدثنا أبو هريرة بهذا ، قلت لسفيان : قال سمعت عكرمة » إلى آخره يقصد بيان أن عكرمة قد صرح بالتحديث فينتفى احتمال التدليس .

قوله : « فرغ » قال سفيان هكذا قرأ عمرو ، فلا أدرى سمعه هكذا أم لا .

قال سفيان : وهى قراءتنا » هذه القراءة بضم الفاء وبالراء المهملة المشددة ، وبالغين المعجمة ، قال فى إتحاف فضلاء البشر : « هى قراءة الحسن »[1] .

وعمرو المذكور هو ابن دينار .

قوله : « فلا أدرى سمعه هكذا أم لا » أى سمعه من عكرمة ، أو قرأها كذلك من قبل نفسه بناء على أنها قراءته .

وقول سفيان : هى قراءتنا ، يريد نفسه ، ومن تابعه[2] .

قال الحافظ بعد أن ذكر عدة روايات تتعلق بهذا الحديث ، سجود الملائكة عند سماعهم صوت الوحى من الله ، قال : « فهذه الأحاديث ظاهرة جدا فى أن ذلك وقع فى الدنيا ، بخلاف قول بعض المفسرين الذين أقدموا على الجزم بأن الضمير فى قوله : « عن قلوبهم » للكفار ، وأن ذلك يقع يوم القيامة ، مخالفين لما صح من الحديث النبوى ، من أجل خفاء معنى الغاية فى قوله : « حتى إذا فزع عن قلوبهم » .

وما قاله هو الذى يجب أن يعتمد ، ولا يلتفت إلى غيره ، لأن الأحاديث أوضحته غاية الإيضاح .

١٠٩ ــ قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى يتغنى بالقرآن » وقال صاحب له : يريد يجهر به » .

---

(١) انظر ص ٣٦٠ والحسن هو البصرى .
(٢) انظر الفتح جـ ٣ ص ٤٥٩ .

قال ابن كثير : « معناه : أن الله ــ تعالى ــ ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها ، وذلك أنه يجمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم ، وتمام الخشية ، وذلك هو الغاية في ذلك ، وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم ، برهم وفاجرهم كما قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات » .

ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم ، كما قال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[1] ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم .

ومنهم من فسر الإذن هاهنا بالأمر ، والأول أولى ، لقوله : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن » أي يجهر به ، فالإذن : الاستماع لدلالة السياق عليه ، وكما قال تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ فالإذن هنا الاستماع ، ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد ، عن فضالة بن عبيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد إذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن ، من صاحب القينة إلى قينته » .

وقول سفيان بن عيينة إن المراد بالتغني : يستغني به ، فإن أراد أنه يستغني به عن الدنيا ــ وهو الظاهر من كلامه ــ فخلاف الظاهر من مراد الحديث ، لأنه فسره بعض رواته بالجهر ، وهو تحسين القراءة ، والتحزين بها »[2] .

ثم قال : « والمراد من تحسين الصوت بالقرآن ، تطريبه ، وتحزينه ، والتخشع به ، كما رواه بقي بن مخلد ، عن أبي موسى ، قال : قال لي رسول الله

---

(١) الآية ٦١ من سورة يونس .
(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ١١٦ .

ﷺ ذات يوم : « يا أبا موسى لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة » قلت : أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا »[1] .

ومن تأمل الأحاديث الواردة فى ذلك تبين له أن معنى قوله : « يتغنى بالقرآن » تحسين الصوت وتزيينه بما يستطيع القارئ ، والتغنى لا يكون إلا بالكلام ذى الحروف ، كما أن الاستماع لا يكون إلا للكلام المصوت به ، وهذا هو وجه استدلال البخارى بهذا الحديث .

فالقرآن الذى يحب الله من عبده أن يتغنى به ، ويحب استماعه إليه فى ذلك ينطق به بالحروف ويصوت به .

والله تعالى قد تكلم به بصوت نفسه ، وبهذه الحروف المكتوب بها .

« وذكر الطبرى » عن الشافعى ، أنه سئل عن تأويل ابن عيينة : التغنى بالاستغناء » فلم يرتضه ، وقال : لو أراد الاستغناء ، لقال : يستغنى » ، وإنما أراد تحسين الصوت » ، ويؤيده ما فى رواية الطبرى « ما أذن لنبى فى الترنم فى القرآن » .

وفى رواية عبد الرزاق : « ما أذن لنبى حسن الصوت » ، وهو عند مسلم .

وفى رواية للطحاوى : « حسن الترنم بالقرآن » .

قال الطبرى : الترنم لا يكون إلا بالصوت ، إذا أحسنه القارئ ، وطرب به ، ولو كان معناه : الاستغناء لما كان لذكر الصوت والجهر معنى » .

ولا نعلم فى كلام العرب « تغنى بمعنى استغنى ، ولا فى أشعارهم » .

---

(١) المصدر المذكور ص ١٢٢ .

ومثل ذلك قال الإسماعيلى ، وقال : الاستغناء لا يحتاج إلى استماع لأن الاستماع أمر خاص ، زائد على الاكتفاء به ، والاكتفاء به عن غيره أمر واجب على الجميع ، ومن لم يفعل ذلك خرج عن الطاعة .

وقال عمر بن شبة : ذكرت لأبى عاصم النبيل : تفسير ابن عيينة ــ يعنى يستغنى به ــ فقال : لم يصنع شيئا ، حدثنى ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير ، قال : كان داود ــ عليه السلام ــ يتغنى ــ يعنى حين يقرأ ــ ويبكى ويبكى .

وظواهر الأخبار ترجح أن المراد تحسين الصوت بالقراءة ، ويؤيده قوله « يجهر به » فإن كان ذلك مرفوعا قامت الحجة ، وإن كان غير مرفوع ، فالراوى أعرف بمعنى الخبر من غيره ، ولا سيما إذا كان فقيها .

وقد جزم الحليمى بأن ذلك من قول أبى هريرة ، والعرب تقول : سمعت فلانا يتغنى بكذا ، أى يجهر به ، قال ذو الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى ... به أتغنى باسمها غير معجم

يعنى أجهر بذكر اسم حبيبتى من غير تورية .

والحاصل : أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة .

وهو أنه يحسن به صوته ، جاهرا به ، مترنما ، على طريق التحزن ، مستغنيا به عن غيره من الأخبار ، طالبا به غنى النفس ، راجيا به غنى اليد »[1] .

قلت : فى هذا الجمع نظر ، فإن الرسول ﷺ أراد بذلك معنى معينا وظواهر أقواله فى ذلك أنه أراد تحسين الصوت به والترنم يكون بتحسين الصوت ، وكذا التحزن الذى يستجلب به الخشوع ومحبة القرآن والإقبال إلى استماعه .

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٧٢ .

ولا يلزم الجمع بين التأويلات ، بل كل تأويل خالف النص يجب رده على من قاله .

قال الحافظ : « ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم ، لأن للتطريب تأثيرا فى رقة القلب ، وإجراء الدمع . ولا خلاف بين السلف فى استحباب تحسين الصوت بالقراءة ، وتقديم حسن الصوت على غيره .

وإنما اختلفوا فى التلحين ، بين مانع ومجيز .

والذى يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقراءة مطلوب ، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع ، كما قال ابن أبى مليكة ، أحد رواة الحديث ، أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح .

ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم ، فإن الحسن الصوت يزداد بذلك حسنا ، وإن خرج عنها أثر ذلك فى حسنه .

وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات ، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء .

ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام ، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعى الأداء ، فإن وجد من يراعيهما معا ، فلا شك أنه أرجح من غيره ، لأنه يأتى بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويتجنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم »[1] .

١١٠ ــ قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال ،

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٧٢ .

قال النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » .

قال محب الدين الطبرى : « لبيك : مصدر مثنى للتكثير والمبالغة ، ومعناه : إجابة بعد إجابة ، ولزوما لطاعتك .

وتثنيته للتوكيد ، لا تثنية حقيقة ، قال ابن الأنبارى : ثنوا لبيك ، كما ثنوا حنانيك ، أى تحننا بعد تحنن »[1] .

وقال ابن الأنبارى : « سمعت أبا العباس يقول : معنى قولهم : لبيك : أنا مقيم على طاعتك ، وإجابتك ، من قولهم : قد لبَّ الرجل فى المكان وألبَّ ، إذا أقام فيه ، قال الشاعر :

محل الجهر أنت به مقيم ملب ما يزول ولا يريم

وقال الفراء : معنى لبيك : إجابتى لك يا رب ، ونصب على المصدر ، وثنى لأنه أراد إجابة بعد إجابة .

وقال آخرون : معناه : اتجاهى إليك ، مأخوذ من قولهم : دارى تلبُّ دارك ، أى تواجهها .

وقال آخرون : معناه : محبتى لك ، من قولهم : امرأة لبَّة ، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه »[2] ، وذكر مثل ذلك الجوهرى[3] .

---

(١) القرى ص ١٤٥ .
(٢) الزاهر جـ ١ ص ١٩٧ ـــ ١٩٨ ملخصا .
(٣) انظر الصحاح جـ ١٥ ص ٣٣٦ .

وقال الزمخشرى : « معنى لبيك : دواما على طاعتك ، وإقامة عليها مرة بعد أخرى ، من ألب بالمكان إذا أقام به ، وألب على كذا إذا لم يفارقه ، ولم يستعمل إلا على لفظ التثنية فى معنى التكرير ، ولا يكون عامله إلا مضمرا ، كأنه قال : ألب إلبابا بعد إلباب .

والتلبية من لبيك ، بمنزلة التهليل من لا إله إلا الله »[1] .

« وقال الخليل : هى من قولهم : دار فلان تلب دارى ، أى تواجهها .

فيكون معناه : اتجاهى وقصدى إليك يا رب ، مرة بعد أخرى .

وقيل : هى من قولهم حب لباب ، إذا كان خالصا محضا ، ومنه لب الطعام ولبابه ، فعلى هذا معناه : إخلاصى لك يا رب مرة بعد أخرى .

وقيل : هو من الإلباب ، أى القرب : أى قربى منك ، وقيل : من قولهم : أنا ملب بين يديك أى خاضع »[2] .

قوله : « فينادى بصوت » قال الحافظ : « أكثر الرواة ، رووه بكسر الدال — يعنى رواة صحيح البخارى — قال : وفى رواية أبى ذر بفتحها على البناء للمجهول ، ولا محذور فى رواية الجمهور ، فإن قرينة قوله : إن الله يأمرك تدل ظاهرا على أن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك »[3] .

قلت : هذا مجانب للإنصاف ، وبعيد عن ظاهر قول رسول الله ﷺ ، بل الظاهر أن المنادى هو الله تعالى .

والنداء صفة كمال ، لا محذور فيه كما توهمه أهل التأويل الباطل .

---

(١) الفائق جـ ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) القرى ص ١٤٥ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦٠ .

وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله تعالى بالكلام ، والنداء منه .

وأى محذور يخشاه هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لتحريف كلام الله وكلام رسوله ، وصرفه عن الظاهر المراد منه ، حتى عطلوه ــ تعالى ــ عما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله من الكلام ، والنداء ، وما ذاك إلا لسوء ظنهم بالله تعالى حتى جعلوا المخلوق أكمل منه ، ولذلك قالوا : المنادى ملك يأمره الله أن ينادى آدم ، هذا مع وضوح الكلام وكونه يأبى هذا التحريف ، فإنه قال : « يقول الله يا آدم فينادى بصوت » فقوله : فينادى بصوت تفسير لقوله : يقول الله يا آدم » ، وبيان له ، ولكن الذين تأثروا بأصول الجهمية ظنوا أن اتصاف الله تعالى بالكلام حقيقة والنداء من التشبيه ، فنفوا ذلك عن الله ــ تعالى ــ ظانين أن هذا هو قول أهل السنة ، فصار الأخذ بظاهر هذا النص ونحوه لا يجوز ، لأنه عندهم على خلاف أصولهم التى منها نفى حقيقة الكلام عن الله ــ تعالى ــ ، فوجب تأويله ــ كما زعموا ــ ، والحق خلاف ظنهم .

ثم نقول : إذا كان الله تعالى ليس هو المنادى ، وإنما يأمر ملكا ينادى ، نقول بأى شيء يأمر الملك ، وأنتم تقولون : لا يتكلم بكلام يسمع منه أيكون أمره بالإشارة ؟ وبذلك يكون الملك أكمل من رب العالمين .

أم يكون الأمر بأن يخلقه بقلبه ، فإن قالوا ذلك فيلزم أن يكون الأمر صفة للملك لأن ما كان مخلوقا فيه فهو صفة له .

فالحق أن الله يتكلم بصوت مسموع يسمعه من شاء من عباده ، وليس الصوت الذى يتكلم الله به قديما كما يقوله بعض أهل البدع ، بل لم يزل يتكلم متى شاء ، وسيكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم ، كما فى حديث عدى بن حاتم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

ولما علم أئمة الأشعرية القدماء أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين ، لم يمكنهم أن يقولوا : القديم هو الحروف ، والأصوات ، لأنها لا تكون إلا متعاقبة .

والصوت عرض ، لا يبقى زمانين إلا بواسطة ما يمسكه كشريط التسجيل ونحوه ، فلذلك قالوا : القديم معنى واحد ، لامتناع معانٍ لا نهاية لها عندهم ، وهذا هو أصلهم الذى بنوا عليه مذهبهم الباطل .

« والاختلاف فى القرآن ، والكلام ، هل هو حرف وصوت أو غير ذلك ؟ محدث حدث فى حدود المائة الثالثة ، وانتشر فى المائة الرابعة .

فإن ابن كلاب والأشعرى ونحوهما لما ناظروا المعتزلة فى إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس مخلوقا ، وأنه لا يمكن أن يكون قديما إلا أن يكون معنى قائما بنفس الله ، كعلمه .

وزادوا : إن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغة ، لا قديم ولا غير قديم ، لما رأوا امتناع قيام أمر حادث به ، وخالفوا فى ذلك جمهور المسلمين .

والآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت ، ولهذا جعل الإمام أحمد من أنكر ذلك جهميا .

قال عبد الله : قلت : لأبى : إن قوما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت ؟ فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل »[1] .

قال شيخ الإسلام : « السلف والأئمة يقولون : إن لله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه تعالى قديم النوع ، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء فإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته ، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا »[2] .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٥٧٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣٧٢ .

وقال أيضا : « والصواب أن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حتى أتى ، لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم »[1] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثنا أبى ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن المعتمر ، عن هلال بن يسار ، عن فروة بن نوفل الأشجعى ، قال : كنت جارا لخباب ، فخرجنا يوما من المسجد ، وهو آخذ بيدى فقال : يا هناه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه يعنى القرآن » .

وروى بسند حسن ، عن جبير بن نفير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعنى القرآن .

وقال : « حدثنى أبو معمر ، حدثنا وكيع ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : « كأن الناس إذا سمعوا القرآن من فى الرحمن يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » .

وحدثنى أبى ، سمعت عبد الرحمن بن مهدى ، يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

سألت أبى عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبى : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت »[2] .

يعنى أنها لا تؤول بل يجب الإيمان بها على ما يدل عليه ظاهرها ، من أن الله يتكلم ، وأن كلامه بصوت .

---

(١) المصدر جـ ١٢ ص ٥٩٨ .

(٢) كتاب السنة من ص ٢٦ ـــ ٧١ .

ولو كان ما يفهم من ظاهرها باطل لبينه رسول الله ﷺ لأن الله تعالى كلفه ببيان ما نزل إليه .

ثم قال : « سمعت أبا معمر الهذلى يقول : من زعم أن الله لا يتكلم ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يغضب ، ولا يرضى ، وذكر أشياء من هذه الصفات ، فهو كافر بالله » .

حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء ، فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ، قال كذا وكذا ورواه مرفوعا »[1] .

وفى الترمذى ، عن عمران بن حصين ، قال كنا مع النبى ﷺ فى سفر فتفاوت بين أصحابه فى السير ، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فقال : هل تدرون أى يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذاك يوم ينادى الله فيه آدم ، فيناديه ربه ، فيقول : يا آدم ابعث بعث النار » إلى آخر الحديث ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح »[2] .

فهذا ظاهر جدا فى أن المنادى هو الله تعالى ، والنداء لا يكون إلا بصوت يسمع من بعيد عن المنادى ، فلله تعالى صوت يليق به ، فصوته لا يشبه أصوات خلقه ، كصفاته .

---

(١) كتاب السنة ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) جامع الترمذى جـ ٥ ص ٣٢٤ .

ولثبوت ذلك بالأدلة التى ذكر شيء منها فى هذا يتعين على المؤمن الإيمان بأن الله تعالى يتكلم بكلام يُسْمِعُه من يشاء من خلقه ، وأنه بصوت ، إذا شاء صوت به .

فتبين أن قول الحافظ : « إن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك » باطل إذ هو خلاف الحق ، وأن المنادى هو الله .

وإذا كان الله — تعالى — لا يتكلم بكلام مسموع منه ، فكيف يأمر الملك ؟ وكيف يرسل الرسل ، أوليس الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم وينادى أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، فما هو المسوغ لتحريف كلام الله وكلام رسوله مع أن السلف وأهل السنة مجمعون على وصف الله بالكلام ، وأن من نفى ذلك ضال سالك غير سبيل المؤمنين .

قال الألوسى : « الذى انتهى إليه كلام أئمة الدين كالما تريدى ، والأشعرى وغيرهما من المحققين أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت ، كما تدل عليه النصوص التى بلغت فى الكثرة مبلغا لا ينبغى معه تأويل ، ولا يناسب فى مقابلته قال ، وقيل ، بل قدورد فى إثبات الصوت لله تعالى أحاديث لا تحصى »[1] .

١١١ — قال : « حدثنا عبيد بن إسماعيل ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة » .

تقدم هذا الحديث فى الفضائل ، والنكاح ، والأدب ، وفى ألفاظ متنه وفى

---

(١) روح المعانى جـ ١ .

إسناده اختلاف عما هنا ، وقد بينت عائشة رضى الله عنها سبب غيرتها أنه كثرة ذكر النبى ﷺ لها ، وثناؤه عليها ، وجاء فى رواية « لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره ربه أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدى فى حلائلها منها ما يسعهن »[1] .

والغيرة عند النساء جبلة لا يستطعن التخلى عنها ، ولهذا لم ينكر النبى ﷺ على عائشة ، وفى هذا الحديث فضل خديجة رضى الله عنها .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « ولقد أمره ربه أن يبشرها » لأن الأمر عند الإطلاق لا يكون إلا بالكلام ، فلذلك قال العلماء : إن من نفى الكلام عن الله تعالى فقد نفى الرسالة ، والشرائع كلها ، لأنها أمر ونهى .

« قال الخلال فى السنة : أخبرنى على بن عيسى ، أن حنبلا حدثهم ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب بالقرآن ، ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة فإن تاب وإلا ضربت عنقه » .

قال : وسمعت أبا عبد الله ، قال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال ـــ تعالى ـــ يؤكد كلامه : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

قلت لأبى عبد الله : الله تعالى يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضى بين الخلائق إلا الله عز وجل ، يكلم الله عبده ويسأله ، لم يزل الله يأمر بما يشاء ويحكم ، وليس له عدل ، ومثل ، كيف شاء ، وأنى شاء »[2] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٩ ص ٣٢٦ و جـ ٧ ص ١١٣ و جـ ١٠ ص ٤٣٥ .
(٢) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٣٧ ـــ ٣٨ .

قال : « باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة » .

يريد بهذا تنويع الأدلة ، وأن الله يتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء من ملائكته فى أى وقت أراد ، وسبق الكلام فى النداء .

« وقال معمر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أى يلقى عليك ، وتلقاه أنت — أى وتأخذه عنهم — ومثله ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ .

قال الحافظ : « معمر ، هذا يتبادر أنه ابن راشد ، شيخ عبد الرزاق ، وليس كذلك ، بل هو أبو عبيدة ، معمر بن المثنى اللغوى .

قال أبو ذر الهروى : وجدت ذلك فى كتاب المجاز له ، فقال فى تفسير سورة النمل فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أى تأخذه عنه ، ويلقى عليك .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ أى قبلها ، وأخذها عنه ، قال أبو عبيدة : وتلا علينا أبو مهدى آية فقال : تلقيتها من عمى ، تلقاها عن أبى هريرة ، تلقاها عن النبى ﷺ .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ أى لا يوفق لها ، ولا يرزقها ولا يلقنها .

وحاصله : أنها تأتى بالمعانى الثلاثة ، وأنها هنا صالحة لكل منها .

وأصله : اللقاء ، وهو استقبال الشىء ومصادفته »[٢] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦١ ، وانظر مجاز القرآن جـ ١ ص ٣٨ و جـ ٢ ص ٩٢ ، ١١١ .

ومقصوده بالمعانى الثلاثة ، تأخذها ، وتقبلها ، وتوفق لها وترزقها ؛ وبعضها قريب من بعض .

وقال ابن جرير : « وإنك يا محمد لتحفظ القرآن ، وتعلمه »[1] .

وقال : ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ ﴾ قيل : إنه أخذ وقبل ، وأصله : التفعل من اللقاء ، كما يتلقى الرجل مستقبله عند قدومه من غيبته ، أو سفره . فكأنه استقبله ، فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه ، أو أخبره ، ومعناه فلقَّى اللهُ ادمَ كلمات توبة ، فتلقاها آدم من ربه ، وأخذها عنه تائبا »[2] .

١١٢ ـــ قال : « حدثنى إسحاق ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ـــ هو ابن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى أهل الأرض » .

قال الحافظ : « وقع فى بعض طرقه بيان سبب هذه المحبة والمراد بها ، ففى حديث ثوبان : « أن العبد ليلتمس مرضاة الله ـــ تعالى ـــ فلا يزال كذلك حتى يقول يا جبريل : إن عبدى فلانا يلتمس أن يرضينى ، ألا وإن رحمتى غلبت عليه »[3] .

يعنى أن المراد بالمحبة هى الرحمة ، كما يقوله الأشاعرة ، وليس كذلك ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ١٣٢ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٥٤١ تحقيق محمود شاكر .
(٣) الفتح جـ ١٠ ص ٤٦٢ وقال : أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط .

بل المحبة صفة لله تعالى غير صفة الرحمة ، ورحمة الله تعالى لعبده من لوازم محبته له ، وقد تقدم تقرير ذلك ، والرد على المحرفين من الأشاعرة وغيرهم[١] .

وأسباب محبة الله تعالى لعبده متعددة ، حسب ما دلت عليه النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منها : التوبة فالله تعالى يحب التوابين ومنها : التطهر من الأنجاس الحسية والمعنوية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ومنها : الثبات أمام العدو صفوفا كالبنيان المرصوص .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح « لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به » الحديث .

قوله : « إن الله تبارك وتعالى » قال ابن عباس : تبارك تفاعل من البركة ، وهو كقول القائل : تقدس ربنا »[٢] .

وقال الأزهرى : « أخبرنى المنذرى عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير « تبارك الله » فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع ، ومعنى البركة الكثرة فى كل خير وتبارك تعالى وتعاظم ، وقال ابن الأنبارى : تبارك الله : أى يتبرك باسمه فى كل أمر ، وقال الليث : « تبارك الله تمجيد وتعظيم » .

وقال أبو بكر تبارك : تقدس — أى تطهر ، والمقدس المطهر »[٣] .

وقال : « عن الليث « تعالى » هو العلى المتعالى » العالى الأعلى ، ذو العلاء والعُلا والمعالى ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وهو الأعلى — سبحانه —

---

(١) انظر ص ٦٤ من الجزء الأول من هذا الشرح .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ١٧٩ .
(٣) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٣٠ ملخصا .

بمعنى العالى ، وتفسيره «تعالى» : جل عن كل ثناء ، فهو أعظم وأجل وأعلى مما يثني عليه ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[(1)] .

يعنى أن ثناء الخلق عليه ــ تعالى ــ لا يبلغ ما يستحقه من الثناء ، ولا قريبا من ذلك ، بل هو كما أثنى على نفسه ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا أحصى ثناء عليك ، بل أنت كما أثنيت على نفسك »[(2)] .

قال الأزهرى : « وتفسير هذه الصفات لله تعالى يقرب بعضها من بعض فالعلى : الشريف ، فعيل من علا يعلو ، وهو بمعنى العالى ، وهو الذى ليس فوقه شيء ، ويقال هو الذى علا الخلق فقهرهم بقدرته .

وأما المتعالى : فهو الذى جل عن إفك المفترين ، وتنزه عن وساوس المتحيرين ، وقد يكون المتعالى بمعنى العالى .

والأعلى هو الله الذى هو أعلى من كل عال ، واسمه الأعلى أى صفته أعلى الصفات »[(3)] .

وقال ابن القيم : « الرب تعالى يقال فى حقه تبارك ، ولا يقال : مبارك .

ثم قالت طائفة منهم الجوهرى : إن تبارك بمعنى بارك ، مثل قاتل وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى ، وتفاعل لا يتعدى . وهذا غلط عند المحققين ، وإنما تبارك تفاعل من البركة ، وهذا الثنى فى حقه ــ تعالى ــ إنما هو لوصف رجع إليه ، كتعالى ، فإنه تفاعل من العلو ، ولهذا يقرن بين هذين اللفظين فيقال : تبارك وتعالى ، وهو سبحانه أحق بذلك وأولى من كل أحد ، فإن الخير كله بيده ،

---

(1) المرجع المذكور جـ ٣ ص ١٨٦ .

(2) رواه أبو داود فى السنن جـ ٢ ص ١٣٤ والترمذى رقم ٣٥٦١ والنسائى ١٧٤٨ وابن ماجه رقم ١١٧٩ .

(3) تهذيب اللغة جـ ٣ ص ١٨٦ .

وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة ، وخيرات لا شرور فيها .

وهذا ثناء يشعر بالعظمة والرفعة والسعة ، كما يقال : تعاظم ، وتعالى ونحوه ، فهو دليل على عظمته ، وكثرة خيره ، ودوامه ، واجتماع صفات الكمال فيه ، وأن كل نفع فى العالم كان ويكون فمن نفعه — سبحانه — وإحسانه .

ويدل هذا الفعل أيضا فى حقه على العظمة ، والجلال وعلو الشأن »[1] .

قوله : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل » .

صريح فى أن الله — تعالى — يحب من يشاء من عباده من أهل الطاعة له والتقوى ، كما هو صريح أيضا فى أنه — تعالى — يتكلم وينادى متى شاء لمن يشاء ، وفى هذا الحديث النداء لجبريل خاصة ، وتقدم أن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع ، وأن مثل هذه النصوص من أبلغ الأدلة على إثبات صفة الكلام لله — تعالى — وهذا القدر من الحديث هو المقصود إذ هو محل الشاهد وفيه أن جبريل عليه السلام بمجرد إخبار الله له بأنه تعالى يحب العبد يحبه ، وأنه هو سفير الله تعالى إلى الملائكة ، كما أنه سفيره إلى الرسل من البشر ، ولهذا قال : « ثم ينادى جبريل فى السماء » مما يعجب له العاقل أن جميع شراح الحديث الذين اطلعت على أقوالهم يقولون إن هذا الندى من جبريل نداء حقيقى يسمع منه بصوته ، تسمعه ملائكة السماء ، وأكثرهم يقول : إن النداء المسند إلى الله تعالى ليس حقيقيا ، وإنما معناه : أمره لمن ينادى ، أو إعلام جبريل بما يفهم منه أن الله يحب ذلك العبد .

---

(١) جلاء الافهام ص ٢٠٦ — ٢٠٧ وانظر بقية الكلام فيه .

وهكذا يتلاعبون بكلام الله وكلام رسوله مما سبب ضلال كثير من الخلق .

والله جل وعلا سوف يسألهم عن ذلك ، وسوف يعلمون حين يقفون بين يديه أى جناية جنوها عليه وعلى أنبيائه ، وعلى شرعه ، وعلى عباده .

والمراد بالسماء هنا الجنس ، أى السماوات ، ونداؤه فيهم يقول : « إن الله قد أحب فلانا ، فأحبوه » .

« فيحبه أهل السماء » أى أن ملائكة السماوات بمجرد إخبار جبريل وأمره يحبونه ، لأنهم يحبون الله ويحبون ما يحبه ، ومن ثمرات ذلك استغفارهم لهذا العبد ، وموالاتهم له ، وهذا فى الحقيقة هو الشرف والرفعة ، وبه تحصل السعادة بمشيئة الله تعالى .

« فيوضع له القبول فى أهل الأرض » أى تقبله قلوبهم وتحبه ، لأن الله تعالى يحبه ، ومن أحبه الله — تعالى — حببه إلى عباده فى السماوات والأرض .

فشهدوا له بالخير ورجوا له الفلاح لما وقع فى قلوبهم له .

١١٣ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟

فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

تقدم هذا الحديث وشرح فى باب قوله — تعالى — ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ والمقصود منه فى هذا الباب قوله : « فيسألهم — وهو أعلم

بهم ـــ كيف تركتم عبادى ؟ » لأن الظاهر من السؤال أنه بالكلام وسماع صوت السائل .

وملائكة الله لكل منهم مقام معلوم لا يتجاوزه ، وأعلاهم مقاما جبريل عليه السلام وقد سبق أنه تعالى يناديه ، فهؤلاء أولى بالمناداة ، لأنهم أنزل مقاما منه .

وفى الأنبياء « الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار » فعلى هذه لا يكون فيه شاهد لما يسمى بلغة « أكلونى البراغيث » .

وفى سؤال الله تعالى عن عباده ، مباهاة بهم . وإظهار لفضلهم عند الملائكة . وبيان شىء من عظيم كرم الله تعالى ، وإحسانه .

١١٤ ـــ قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن واصل ، عن المعرور ، قال : سمعت أبا ذر ، عن النبى ﷺ قال : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : وإن سرق ، وإن زنى » .

قوله : « أتانى جبريل » يعنى بالوحى من الله ، فهو لا يأتى إلا بأمر الله ـــ تعالى ـــ له .

« فبشرنى » . البشرى : هى الإخبار بما يسر ، لأن ذلك يغير بشرة الوجه ، لأن النفس إذا سرت انتشر الدم فى الجسم كانتشار الماء فى عروق الشجرة فيظهر ذلك على وجه المبشر .

وقد تستعمل البشارة فيما يسوء من باب النكاية والتهكم والإيابس من الخير[1] .

---

(١) انظر المفردات للراغب ص ٤٨ .

« من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » يعنى وإن حصل منه تقصير بالواجبات ، وفعل لبعض المحرمات غير الشرك ، فإن من مات على ذلك دخل الجنة ، ولا ينافى هذا حصول العذاب له ، بل قد يعذب فى قبره ، وبعد ما يبعث ، وقد يدخل النار ، ثم يخرج منها بعدما يطهر من الخطايا التى تلطخ بها فى الدنيا ، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عذاب ، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جدا .

فكل عاص لله تعالى من الموحدين لابد من دخوله الجنة وإن أصابه ما أصابه ، وإنما الشأن فى اجتناب الشرك ، فهو أمر صعب إلا على من هدى الله قلبه ، وهو أنواع منها الجلى والخفى .

فقوله : « لا يشرك بالله شيئا » يعم أنواع الشرك كلها ، لأنه نكرة بعد النفى ، فيدخل فيه الأصغر ، والقليل ، والله المستعان .

« قلت : وإن سرق ، وإن زنى » كأنه فهم من هذا الإطلاق أن ما عدا الشرك من الذنوب يحصل دخول الجنة مع وجوده ، فأراد أن يتثبت عن هذا المفهوم ، فأخبره أن ذلك صحيح . وأن من اجتنب الشرك دخل الجنة ، وإن تفاوت دخول العصاة غير المشركين الجنة فى الوقت والمكان أعنى تقدم الدخول والمنزلة .

والشاهد منه قوله : « فبشرنى أنه من مات » إلى آخره ، لأن هذه البشارة لابد أن تكون من الله أرسل جبريل بها إلى محمد ﷺ ، والرسالة لا تكون إلا بالكلام ، والنداء داخل فيه ، فالله تعالى قد نادى جبريل أن يذهب بهذا الأمر إلى محمد ﷺ ، والله أعلم .

قال : باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿ أنزلَهُ بِعِلْمِهِ والمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ .

الضمير فى « أنزله » يعود إلى القرآن ، كما هو واضح من الآية وهى قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . ﴿ لَٰكِنِ ﴾ للاستدراك مما سأله اليهود فيما ذكره الله عنهم بقوله : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾، فهم يرون أن مجىء الوحى إليه بواسطة جبريل غير كاف فى الدلالة على نبوته ، وأنه إذا كان صادقا فليأت بكتاب من السماء ، كما جاء موسى ـــ عليه السلام ـــ بالتوراة مكتوبة ، ثم ذكر تعالى أنهم سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك ، سألوه أن يريهم الله جهرة ، وعدد تعالى ما فعلوه من الظلم ، والتعنت ، والبهتان العظيم ، والكفر ، ورميهم مريم بالزنا ، ومحاولتهم قتل رسول الله عيسى ، وأكلهم الربا ، وذكر ما أصابهم بسبب ذلك ، ثم ذكر تعالى أن منهم راسخين فى العلم ، ومؤمنين بما أنزل الله من كتاب ، ثم أخبر تعالى أنه أوحى إلى محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وعدد بعضهم ، وبعضا منهم لم يذكره ، وأنه تعالى خص موسى بتكليمه ، ثم ذكر الحكمة من إرسال الرسل ، لئلا يكون للناس على الله حجة ثم قال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية .

قال ابن جرير : « يعنى بذلك ـــ جل ثناؤه ـــ إن يكفر بالذى أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فكذبوك » وليس الأمر كما قالوا ، « لكن الله يشهد بتنزيله إليك من الكتاب ، والوحى ، أنزل ذلك إليك ، بعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد لك بذلك الملائكة ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وخلاف من خالفك ، وحسبك بالله شاهدا على

صدقك ، فإنه لا يضرك مع ذلك تكذيب من كذبك »[1] .

ومراد البخارى بهذه الترجمة أن يبين أن القرآن من علم الله تعالى وصفة له فليس مخلوقا ، فكأنه يقول : أنزله فيه علمه أى هو من علمه ، وقد احتج الإمام أحمد على كفر من قال : القرآن مخلوق ، بأن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر ، واستدل على ذلك بنحو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] .

وتقدم الكلام على هذه الآية وذكر أقوال المفسرين فيها[3] .

قوله : « قال مجاهد : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ بين السماء السابعة ، والأرض السابعة » .

مقصوده أن الله تعالى أخبر بأنه خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهن ثم ذكر أن الأمر يتنزل بينهن أى بين السماوات وبين الأرضين فالأمر غير الخلق ، ثم قال تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فأمره تعالى الذى يتنزل بين السماوات والأرض بعلمه ، وأمره ، وعلمه من صفاته .

فأمر الله تعالى ، وعلمه ، وحكمه ، وتصرفه ينفذ فى السماوات السبع والأرضين السبع ، لا يمتنع عليه شىء ، ولا يخفى عليه فيهن شىء ، فالكل فى قبضته وتحت تصرفه ، وفى علمه واطلاعه جل وعز .

وما يذكره كثير من المفسرين عند هذه الآية من أن الأرضين سبع طبقات

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٩ ص ٤٠٩ تحقيق محمود شاكر .
(٢) انظر السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٩ — ١٠ .
(٣) انظر الجزء الأول من هذا الشرح من ١٠٥ — ١٠٦ .

منفصل بعضها عن بعض ، وبين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، وبعضهم يذكر أن فى كل أرض أنبياء مثل الذين ذكروا فى القرآن وعلى أسمائهم إلى آخر ما ذكروه مما يشبه هذيان المجانين . كل ذلك خرافات مصدرها زنادقة اليهود وإخوانهم من كل شيطان رجيم .

قال القرطبى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى سبعًا ، واختلفوا فيهن على قولين أحدهما قول الجمهور ، أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض ، وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفى كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاك : « ومن الأرض مثلهن » أى سبعا من الأرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات .

والأول أصح ، لأن الأخبار دالة عليه »[1] .

قلت : بل قول الضحاك هو الصواب ، والأول باطل قطعا بدون شك وما زعمه من أنه قول الجمهور ، وأن الأخبار دالة عليه ليس كما زعم .

نعم قد روى عن ابن عباس ، فإن صح فهو مما تلقاه من أهل الكتاب ممن هو متهم بالكذب منهم ، وأما دلالة الأخبار عليه فليس فيه أخبار صحيحة صريحة فى الدلالة عليه ، بل نقطع أن الأخبار عن الله ورسوله لم تدل عليه ، لأن كلام الله وكلام رسوله حق ، لا يؤيد الباطل ولا يدل عليه ، بل الأخبار دلت على أن الأرضين سبع فقط ، بدون فتوق ، كما فى الصحيحين « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ونحوه من الأحاديث .

فيتعين حملها على أنها طبقات غير مفتوقة ، كما قاله الضحاك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

وفى هذا الوقت أمكن الدوران على الأرض فى وقت وجيز جدا مما يبين بالحس والمشاهدة بطلان ما رجحه القرطبى .

١١٥ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا أبو إسحاق الهمدانى ، عن البراء بن عازب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيرا » .

البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الأنصارى ، الأوسى ، استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر هو وابن عمر فردهما ، وشهد أحدا وما بعدها من الغزوات ، وروى عنه أنه غزا مع النبى ﷺ أربع عشرة غزوة ، وفى رواية خمس عشرة ، قال الحافظ : إسناده صحيح .

وقال : سافرت مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفرا ، أخرجه أبو ذر الهروى[1] .

وكان يقول : أنا الذى أرسل معه النبى ﷺ السهم إلى قليب الحديبية فجاش بالرى .

قال الذهبى فيه : « الفقيه الكبير ، من أعيان الصحابة ، نزل الكوفة ، توفى سنة اثنتين وسبعين أو إحدى وسبعين ، عن بضع وثمانين سنة[2] .

---

(١) الإصابة جـ ١ ص ٢٧٨ وانظر أسد الغابة جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٩٤ .

قوله : « يا فلان » جاء فى الروايات الأخرى أن المخاطب هو البراء بن عازب ففى الدعوات عند المؤلف : « عن عبيدة قال : حدثنى البراء بن عازب ، قال : قال لى رسول الله ﷺ وذكر الحديث[1] ، وفيه : « إذا أتيت إلى مضجعك فتوضأ وضوؤك للصلاة » . قال الحافظ : ظاهره استحباب تجديد الوضوء لكل من أراد النوم ، ولو كان على طهارة .

ويحتمل أن يكون مخصوصا بمن كان محدثا »[2] .

« إذا أويت إلى فراشك » أوى إلى المكان إذا أقام فيه ، ورجع إليه والمعنى : إذا جئت إلى فراشك تريد النوم .

« فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك » قال الحافظ : على رواية فتوضأ « الأمر فيه للندب ، وله فوائد : منها أن يبيت على طهارة ، لئلا يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة ، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب ، لأنه أولى من طهارة البدن .

وقد أخرج عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عباس : « لا تنامن إلا على وضوء ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه » .

وروى عن أبى مرثد العجلى ، قال : من أوى إلى فراشه طاهرا ونام ذاكرا كان فراشه مسجدا ، وكان فى صلاة ، وذكر حتى يستيقظ ، ومن أوى إلى فراشه غير طاهر ، ونام غير ذاكر كان فراشه قبرا ، وكان جيفة حتى يستيقظ »[3] .

ويتأكد ذلك فى حق الجنب ، وإن اغتسل قبل نومه فهو أفضل .

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص

(٢) الفتح جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المصنف جـ ١١ ص ٣٧ و ٧٩ .

« ومنها أن يكون ذلك أبعد عن تلاعب الشيطان ، وأصدق للرؤيا »[1] .

وقوله : « اللهم أسلمت نفسى إليك » أى استسلمت لك ، نفسى منقادة مذعنة لك ، راضية بك ربا ، وبدينك شرعا ، وبنبيك رسولا ، ومنقادة لحكمك وقضائك . لا إله إلا أنت .

« ووجهت وجهى إليك » أى جعلت قصدى ومرادى إليك ، راجيا ثوابك خائفا من عقابك .

« وفوضت أمرى إليك » أى توكلت عليك مستكفيا بك ، فأمرى كله إليك تتصرف فيه كيف تشاء ، ورغبتى فى جودك وفضلك .

« وألجأت ظهرى إليك » أى أنت عمادى ، وعليك استنادى ، فأعتمد عليك بأن تكفينى كل ما أهمنى ، وتحمينى من كل ما يؤذينى .

« رغبة ورهبة إليك » أى أفعل ذلك راغبا فى فضلك وإحسانك وراهبا من عقابك ، وعذابك بسبب ذنوبى .

« لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » أى لا مهرب ينجى من هرب منك ولا نجاة لمن أردته بعذابك إلا بالرجوع إليك ، والاستسلام لك ، والإنابة إليك .

« آمنت بكتابك الذى أنزلت » أى أتوسل إليك بأنى أصدق وأوقن بأن الكتب التى أنزلتها على رسلك هى قولك حقا ، وفيها الهدى والنور ، الذى هو شرعك ، ولمن اتبعها السعادة ، ومن أعظمها القرآن الذى أنزلته على عبدك ورسولك محمد خاتم الرسل ﷺ فأنا أؤمن بذلك ، وأرغب إليك بأن تستجيب دعائى لذلك .

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ١١٠ .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، فإن كتاب الله هو كلامه وفيه علمه ، كما قال الزجاج : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أى أنزل القرآن الذى فيه علمه »[1] .

فمن زعم أن القرآن مخلوق ، لزمه أن يكون علم الله مخلوقًا ، وهذا كفر كما قاله الأئمة أحمد وغيره .

« ونبيك الذى أرسلت » أى أتوسل إليك بإيمانى واتباعى لنبيك محمد ﷺ الذى أرسلته إلينا ليبلغنا كلامك ، وأمرك ونهيك كما أؤمن بكل نبى لك أوحيت إليه وأرسلته إلى عبادك .

« فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة » يعنى إن كانت نومتك تلك فيها قبض روحك ، وفراقها لبدنك ، فإنك تموت على السنة التى جاء بها نبيك ، ومن مات عليها فهو السعيد .

« وإن أصبحت أصبت خيرا » أى إن ردت روحك بعد النوم إلى جسمك وأصبحت حيا . نلت بهذا الدعاء أجرا عند الله .

١١٦ ـــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى ، قال : قال رسول الله يوم الأحزاب : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، وزلزلهم .

زاد الحميدى : حدثنا ابن أبى خالد ، سمعت عبد الله ، سمعت النبى ﷺ » .

---

(١) انظر معانى القرآن وإعرابه جـ ٢ ص ١٤٧ .

عبد الله بن أبى أوفى ، واسم أبى أوفى علقمة بن خالد الأسلمى ، هو وأبوه صحابيان ، شهد الحديبية ، وبايع بيعة الرضوان ، وقال غزوت مع رسول الله ﷺ : ست غزوات نأكل الجراد[1] .

لما قبض النبى ﷺ ذهب عبد الله إلى الكوفة وهو آخر من توفى فيها من الصحابة ، ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » توفى رضى الله عنه سنة ست وثمانين ، أو ثمان وثمانين[2] .

قوله : « يوم الأحزاب » يدل على أن هذا الدعاء كان فى غزوة الأحزاب ، وجاء فى روايات : « أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس فقال : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وهو يدل على أنه يدعو بذلك عند لقاء العدو .

« اللهم منزل الكتاب » هذا توسل إلى الله تعالى بفضله على عباده من إنزاله الكتاب الذى فيه حياة القلوب ، والاعتصام من الضلال ، وفيه وعده الكريم لعباده بالنصر والتأييد ، كقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] .

« سريع الحساب » قال ابن جرير : « إنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب لأنه جل ذكره يحصى ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع ،

---

(١) انظر تحفة الأحوذى جـ ٥ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ .
(٢) انظر الإصابة جـ ٤ ص ١٨ وأسد الغابة جـ ٣ ص ١٨٢ سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٢٨ .
(٣) الآية ١٤ من سورة التوبة .

ولا فكر ، ولا روية — فعل العجزة الضعفة من الخلق ، ولكنه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما .

ثم هو — تعالى — مجاز عباده على كل ذلك ، فلذلك امتدح نفسه — جل ذكره — بسرعة الحساب ، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثيل ، فيحتاج فى حسابه إلى عقد كف أو وعى صدر »[1] .

وقال على قوله : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ أى أسرع من حسب عددكم ، وأعمالكم وآجالكم ، وغير ذلك من أموركم — أيها الناس — وأحصاها ، وعرف مقاديرها ومبالغها ، لأنه لا يحسب بعقد يد ، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية ، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ »[2] .

وهو جل ذكره سريع محاسبة عباده يوم القيامة حيث لا يشغله محاسبة واحد عن الآخر .

« اهزم الأحزاب وزلزلهم » الهزيمة هى القهر والإذلال ، والزلزلة : الاضطراب ، وعدم الثبات ، فهو يدعو عليهم بأن يقهرهم ، ويذلهم بأيدى المسلمين ، وأن ينزل عليهم الرعب والخوف الذى يزلزل قلوبهم وأجسامهم قوله : « زاد الحميدى » إلى آخره : مراده به التصريح بالسماع ، بخلاف قتيبة ابن سعيد فإنه عنعن السند .

والمقصود من الحديث قوله : « اللهم منزل الكتاب » فإنه تعالى أنزله منه فهو قوله ووصفه ، ولو كان مخلوقا كما يقوله الضالون ، ما احتاج إلى إنزال بل يخلقه فى أى مكان ، فهو تعالى أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ بتحقيق محمود شاكر .
(٢) المصدر المذكور جـ ١١ ص ٤١٣ .

شهيدا ، ونحن نشهد بذلك ، ونرجو من منزل الكتاب ، وسريع الحساب وهازم الأحزاب ومزلزلهم أن يثبتنا على هذه الشهادة ويثيبنا عليها خير ثواب .

١٠٧ ــ قال : « حدثنا مسدد ، عن هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ . قال : أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، فكان إذا رفع صوته سمع المشركون فسبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ لا تجهر بصلاتك حتى يسمع المشركون ، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن » .

المراد بالصلاة فى الآية القراءة ، وقد قال ابن جرير ــ رحمه الله ــ « لولا أننا لا نستجيز، مخالفة أهل التفسير فيما جاء عنهم ، لاحتمل أن يكون المراد : ﴿ ولَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك نهارا ، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أى ليلا ، وكان ذلك وجها لا يبعد فى الصحة »[1] .

وقد جاء ذلك مفسرا كما فى هذا الحديث أن المراد القراءة وهو يصلى ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يرفع صوته فى القراءة رجاء أن يؤثر فيمن يسمعه من كفار قومه فيسلموا ، ويسمعه من معه من المسلمين فيحفظوا وكان للقرآن وقع عظيم فى قلوبهم وأثر بالغ فى نفوسهم ، ولذلك منعه الملأ من الكفار خوفا أن يتأثر به بعضهم فيسلموا كما جربوا ذلك وقالوا : إن رفعت صوتك به هجوناك ، وهجونا من قاله ، ومن جاء به ، فأمره الله تعالى أن لا يرفع

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٨٨ .

صوته ، وألا يخافت به بحيث لا يسمعه من عنده من المسلمين ، بل يبتغى بين الجهر والإخفات سبيلا ، فيكون وسطا بين الجهر والإخفات .

والمقصود قوله : « أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة » والإنزال غير الخلق ، بل هو كلامه نزل بعلمه ــ تعالى ــ فهو صفته .

فلا يجوز أن يعطى حكم المخلوق المفعول ، كما أن المخلوق لا يجهر به ولا يخافت وكون الرسول ﷺ وغيره ممن يقرؤه ، يرفع صوته به أو يخفضه لا يخرجه من كونه كلام ، بل هو دليل على أنه كلام الله تعالى قرأه عبده .

فرفع به صوته أو خفضه ، لأن الكلام لمن قاله مبتدئًا ، لا لمن قاله مبلغا مؤديا كما سيأتى بيان ذلك .

قال : « باب قول اللّه تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ حق . ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ باللعب .

قال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] .

قال ابن جرير : « يقول ــ تعالى ذكره ــ لنبيه محمد ﷺ سيقول لك المخلفون فى أهليهم ، عن صحبتك إذ سرت معتمرا ، تريد بيت الله الحرام ، إذا انطلقت ، أنت ومن صحبك فى سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك ، وعليهم من الغنيمة ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ ، وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من مغانم خيبر . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر ، فنشهد معكم قتال أهلها : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ، يقول : أن يغيروا وعد الله الذى وعد أهل الحديبية ،

---

(١) الآية ١٥ من سورة الفتح .

وذلك أن الله ــ تعالى ــ جعل مغانم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك ، عوضا من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئا »[1] . ثم روى ذلك عن مجاهد ، وقتادة ، ومقسم .

قال الحافظ : « قال ابن بطال : أراد بهذه الترجمة ، وأحاديثها ، ما أراد فى الأبواب قبلها ــ أن كلام الله تعالى ــ صفة قائمة به ، وأنه لم يزل متكلما ولا يزال .

والذى يظهر أن غرضه أن كلام الله ، لا يختص بالقرآن ، فإنه ليس نوعا واحدا وأنه وإن كان غير مخلوق ، وهو صفة قائمة به ، فإنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم فى الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم ، وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد »[2] .

قال فى : خلق أفعال العباد : « باب ما كان النبى ﷺ يذكر ويروى عن ربه ــ عز وجل ــ » ثم ذكر نحو ما ذكره هنا من الأحاديث .

ويمكن أنه أراد بيان أن كلام اللّه يكون بأمره وشرعه ، ووعده وجزائه بخلاف خلقه ، فإنه الصادر عن قوله « كن » ، وخلق اللّه لا يبدل ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أما قوله فيمكن أن يبدل ، أو يحرف . وهذه الآية من الأدلة على أن هذا القرآن كلام الله تعالى وأن ما يقوله الأشاعرة أن كلام الله ما قام فى نفسه باطل إذ لا يمكن أن يبدل ما فى نفسه تعالى.

وقد تبين بما ذكره ابن جرير ــ رحمه اللّه ــ أن معنى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ هو خروج المتخلفين عن الحديبية إلى خيبر، لأن اللّه تعالى وعدهم مغانم خيبر خاصة بهم.

والقول الثانى : فى الآية أن المراد تبديله هو قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ . غير أن ابن جرير رد هذا القول.

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٦٧ .

وسياق الآية يؤيد هذا القول ، فإنه تعالى قال : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ . والله أعلم .

قال البغوى : ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ حق ، وجد ، يفصل بين الحق والباطل .

﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ باللعب ، والباطل »[1] .

١١٨ ـــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال النبى ﷺ : « قال الله ـــ تعالى ـــ يؤذينى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل ، والنهار » .

قال ابن كثير : « معناه أنهم يقولون : ياخيبة الدهر ، فعل كذا وكذا فيسندون أفعال الله ـــ تعالى ـــ إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل هو الله ـــ عز وجل ـــ فنهى عن ذلك هكذا قرره الشافعى ، وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء »[2] .

وقال شيخ الإسلام : « للناس فى هذا الحديث قولان ، أحدهما . قول أبى عبيد وأكثر العلماء : أنه خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية ، ومن أشبههم : فإنهم إذا أصابتهم مصيبة ، أو منعوا أغراضهم ، أخذوا يسبون الدهر ، والزمان ، يقول أحدهم : قبح الله الدهر الذى شتت شملنا ، ولعن الله الزمان الذى جرى فيه كذا وكذا ، وما يقع كثيرا من الشعراء ، وأمثالهم ، كقولهم يا دهر فعلت كذا ، وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور ويضيفونها إلى الدهر ، فيقع السب على الله ـــ تعالى وتقدس ـــ لأنه هو الذى

---

(١) تفسير البغوى على هامش الخازن جـ ٧ ص ٢٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٧ .

فعل تلك الأمور ، وأحدثها ، والدهر مخلوق له ، هو الذى يصرفه ، ويقلبه .

والتقدير : أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور ، وأنا فعلتها فإذا سب الدهر فمقصوده سب الفاعل ، وإن أضاف الفعل إلى الدهر ، فالدهر لا فعل له ، وإنما الفاعل هو الله وحده .

وهذا كرجل قضى عليه قاض بحق ، أو أفتاه مفت بحق ، فجعل يقول : لعن الله من قضى بهذا ، أو أفتى بهذا ، ويكون ذلك من قضاء النبى ﷺ وفتياه ، فيقع السب عليه ، وإن كان الساب لجهله أضاف الأمر إلى المبلغ ، وهو ليس له إلا فعل التبليغ .

وأما الزمان ، فلا فعل له ، وإنما الله هو الذى يقلبه ويصرفه .

والقول الثانى : قول نعيم بن حماد ، وطائفة معه : أن الدهر من أسماء الله ، ومعناه : القديم الأزلى .

وهذا المعنى صحيح لأن الله ــ تعالى ــ هو الأول الذى ليس قبله شىء ، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء ، ولكن لا يسمى بالدهر ، الذى هو الزمان ، أو ما يجرى مجرى الزمان »[1] .

وقال ابن قتيبة : « معناه : أن العرب فى الجاهلية يقولون : أصابنى الدهر فى مالى ، ونالتنى قوارع الدهر ، وبوائقه ، ويقول الهرم : حنانى الدهر . فينسبون كل شىء تجرى به أقدار الله ــ عز وجل ــ عليهم من موت ، أو سقم ، أو ثكل ، أو هرم إلى الدهر ، ويلعنونه ، ويسمونه : المنون ، كما ذكر الله عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ والمنون : المنية ، قال أبو ذؤيب :

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ٤٩٣ ــ ٤٩٤ .

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الدهر ، إذا أصابتكم المصائب ولا تنسبوها إليه ، فإن الله — عز وجل — هو الذى أصابكم بذلك ، لا الدهر »[1] .

وهذا هو ما ذكره شيخ الإسلام عن جمهور العلماء .

وكثير من الناس واقعون فى هذا المنكر . وتقدم الكلام فيه .

والمقصود هنا : قوله : « قال الله : يؤذينى ابن آدم » . وهذا خبر يتضمن النهى ، والله — تعالى — يتأذى من فعل بنى آدم ، ولكن لا يضره شىء تعالى وتقدس ، ووجه الشاهد منه أن هذا القول صدر من الله فيه إخباره — تعالى — عما يقع له من بنى آدم ، وهو بمعنى النهى والزجر ، ومعلوم أنه لا يقع شىء إلا بإذنه وإرادته ، ومن يسب الدهر كأنه يريد تبديل حكم الله وأمره الذى وجدت به الكائنات .

وقوله : « وأنا الدهر » لا يدل على أنه تعالى اسمه الدهر ، لأنه فسره بقوله : « بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » فكونه تعالى بيده الأمر يقلب الليل والنهار هو معنى قوله : « أنا الدهر » .

١١٩ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله — عز وجل — الصوم لى ، وأنا أجزى به ، يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى ، الصوم جنة ، وللصائم فرحتان ، فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٥١ .

« الصوم لى » يعنى أن الصوم غالبا يكون خالصا لله ـــ تعالى ـــ سالما من شوائب الشرك ، من إرادة غير الله ـــ تعالى ـــ لأنه أمانة بين العبد وربه لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، فإنه يجوز أن يظهر للناس أنه صائم ، وهو فى حقيقة الأمر غير صائم .

فإذا امتنع من شهوته وأكله وشربه دل ذلك على أنه أراد ما عند الله تعالى . وقد فسره بقوله : « يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » .

قوله : « وأنا أجزى به » يعنى أن جزاء الأعمال قد أخبر الله تعالى عباده بها ، أن الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، أما الصوم فالله يجزى به بدون تقدير لعظيم جزائه ، وهذا يدل على فضل الصوم إذا كان خالصا لله تعالى .

« يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » هذا هو السبب فى كونه لله ، وأنه يتولى جزاءه بغير تقدير ، وفسرت الشهوة بالجماع ، والأولى أن تكون عامة فى كل ما يشتهى ، ويكون عطف الأكل والشرب من عطف الخاص على العام .

« الصوم جنة » فى رواية سعيد بن منصور : « جنة من النار » ، ومثله عند النسائى .

وفى رواية له من حديث عثمان بن أبى العاص : « الصيام جنة كجنة أحدكم من القتال » .

والجنة : بضم الجيم : الوقاية ، والستر ، وهذا أولى ما فسر به متعلق الجنة .

واختار النووى : أنه جنة من جميع الشرور .

وفى رواية لأحمد : « الصيام جنة ما لم يخرقها » ، زاد الدارمى : « بالغيبة »[1] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٤ ص ١٠٤ .

« وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه » يعنى أنه يفرح إذا كمل يومه صائما فيؤمل ثواب ذلك عند الله ، ويتناول طعامه وشرابه الذى أحله الله له بعد ما منعه منه لأجل صومه .

ويفرح إذا لقى ربه عندما يجزيه أعظم جزاء ، وهذه أعظم فرحة وأحلى .

« ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » الخلوف هو تغير الفم من أثر خلو المعدة من الطعام ، فيتصاعد منها أبخرة تغير رائحة الفم .

ولما كان ذلك بسبب الطاعة ، كان عند الله طيبا ، كدم الشهيد ، فإنه يأتى يوم القيامة لونه لون الدم ، ورائحته رائحة المسك » .

والمقصود من الحديث قوله : « يقول الله — تعالى — الصوم لى » إلى آخره كالذى قبله . ووجه الشاهد منه : أن الله يقول هذا القول الذى فيه حث العباد وترغيبهم فى الصوم ، فهو مما شرعه الله تعالى لعباده ، ورضيه لهم بقوله وأمره وهو قول أنزله على رسوله ليبلغه .

١٢٠ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك » .

« بينما أيوب يغتسل عريانا » يعنى وهو خالٍ . استدل به البخارى على جواز الغسل عريانا فى الخلوة فقال : باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر ، فالستر أفضل »[1] .

---

(١) انظر الصحيح جـ ١ ص ٥٣ الباب رقم ٢٠ .

« خر عليه رجل جراد من ذهب » رجل الجراد ، القطعة من الجراد ، كما قال الأزهرى : « الرجل : القطعة من الجراد »[1] .

وهذا جراد على خلاف المعهود ، وإنما هو ذهب أنزله الله على نبيه أيوب ، على صور الجراد ، وذلك من جزاء صبره على البلاء ، ورضاه بما قدره الله .

« فجعل يحثى فى ثوبه » أى يجمع من ذلك الذهب بيديه جميعا ، ويضعه فى ثوبه .

« فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك » هذا النداء يجوز أن يكون بواسطة ، ويجوز أن يكون بدون واسطة على ظاهره ، لأنه تجرد عن قرينة تعين ذلك . وقوله : « ألم أكن أغنيتك » يدل على أن الله — تعالى — قد أعطاه من المال قبل هذا ما فيه غناه ، ولهذا قال : « بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » سمى هذا الذهب بركة لأنه أرسل عليه بدون صنع آدمى أو كده ، بل هو من عند الله تعالى ، ففى ذلك طلب الزيادة من الخير . وفيه ما جبل عليه الإنسان من حب المال .

والمقصود منه قوله : « فناداه ربه : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ » إذ هو من كلام الله تعالى لنبيه أيوب ، المتضمن إفضاله عليه ، وتكريمه له بما أعطاه بدون حساب .

١٢١ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن ابن شهاب ، عن أبى عبد الله الأغر ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى ، فأستجيب له ، من يسألنى ،

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١١ ص ٣٠ .

فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

هذا الحديث له طرق متعددة ومستفيضة ، قال ابن عبد البر : « هذا الحديث منقول من طرق متواترة ، ووجوه كثيرة ، من أخبار العدول ، عن النبى ﷺ »[1] .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ، فى كل زمان ، على الإيمان بهذا الحديث وتلقيه بالقبول ، كما أراد رسول الله ﷺ فإنه قاله علانية .

وبلغه الأمة تبليغا عاما ، لم يخص به واحدا دون الآخرين .

وكان الصحابة وأتباعهم يذكرونه ، ويروونه ، ويبلغونه تبليغا عاما .

ولهذا ثبت فى عامة كتب الإسلام ، فمن أنكره ، أو زعم أنه لا يجوز ذكره عند عامة الناس ، أو تأوله على غير ظاهره ، فهو ضال ، سالك غير سبيل المؤمنين ، فى ذلك .

ومن زعم أنه يدل على ما يجب أن ينزه الله عنه ، من النقص المنافى لكماله ، فقد أتى من فهمه الخاطىء ، وسوء ظنه بالله العظيم .

فإن وصف الله ــ تعالى ــ بالنزول كوصفه بغيره من الصفات ، مثل الاستواء والفوقية ، والمجىء ، والرضا والغضب ، وغير ذلك مما وصف تعالى به نفسه ووصفته به رسله ، يجب أن يؤمن به كله على وتيرة واحدة ، إيمانا بلا تمثيل ، ولا تعطيل ، ولا تحريف ولا تأويل .

ولا يجوز للإنسان مهما كان من العلم أن ينصب نفسه مستدركا على الله ورسوله : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

---

(١) انظر التمهيد جـ ٧ ص ١٢٨ .

قال ابن عبد البر : « إن من نظر إلى إسلام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وسائر المهاجرين والأنصار ، وجميع الوفود الذين دخلوا فى دين الله أفواجا ، علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ، ودلائل الرسالة ، لا من قبل حركة ، ولا من باب الكل والبعض ولا من باب كان ويكون .

ولو كان النظر فى الحركة والسكون عليهم واجبا [أو النظر] فى الجسم ونفيه ، والتشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه ، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم ، ولا أطنب فى مدحهم وتعظيمهم .

ولو كان ذلك من عملهم مشهورا ، أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم ، ولشهروا به ، كما شهروا بالقرآن .

وقول رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » عندهم مثل قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ، ومثل قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ كلهم يقول : ينزل ، ويتجلى ، ويجيء بلا كيف ، ولا يقولون كيفى يجيء ؟ وكيف يتجلى ؟ وكيف ينزل ؟ ولا من أين جاء ، ولا من أين يتجلى ؟ ولا من أين ينزل ؟ ، لأنه ليس كشىء من خلقه — تعالى — عن الأشياء ، لا شريك له .

وفى قول الله — عز وجل — ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل ، وفى ذلك ما يفسر معنى حديث النزول ومن أراد أن يقف على أقاويل العلماء فى قوله — عز وجل — ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فلينظر فى تفسير بقى بن مخلد ، ومحمد بن جرير ، وليقف على ما ذكرا ، ففى ما ذكرا منه كفاية ، وبالله العصمة والتوفيق »[1] .

---

(١) التمهيد جـ ٧ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

وما ذكره الحافظ فى شرح هذا الحديث من كلام أهل التأويل ، فإن كل من آمن بأن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به البلاغ المبين وآمن بأنه ﷺ أفصح الناس ، وأقدرهم على البيان ، وأنصحهم للخلق ، من آمن بهذا علم أن ما ذكره كله باطل ، وتغبير فى وجه الحق وزبد يذهب جفاء أمام نور النبوة .

فقوله : إن الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم المشبهة .

يقال له : بل الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم الصحابة عموما وأتباعهم إلى يوم الدين ، ولا تستطيع أن تأتى بكلمة واحدة عن الرسول ، أو عن أصحابه تؤيد قول أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم أهل السنة .

قال شيخ الإسلام : « والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئا منها ، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان ، وهى خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة ، يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة ، وتكون إما غلطا ، أو محرفة ، كقول الأوزاعى فى النزول : « يفعل الله ما يشاء » فسره بعضهم بأن النزول مفعول مخلوق ، وليس الأمر كذلك »[1] .

وقال أبو عثمان الأنصارى : « ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزله الله ــ عز اسمه ــ فى كتابه من ذكر المجىء والإتيان المذكورين

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٤٠٩ .

فى قوله ــ عز وجل ــ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف ، فلو شاء أن يبين لنا كيفية ذلك لفعل ، فانتهينا إلى ما أحكمه ، وكففنا عن الذى يتشابه .

ثم روى بسنده عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى ، قال : قال لى الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا الحديث الذى تروونه عن رسول الله ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا ، كيف ينزل ؟ قال : قلت : أعز الله الأمير : لا يقال لأمر الرب : كيف ، إنما ينزل بلا كيف .

ثم روى عن أحمد بن سعيد الرياطى ، قال : حضرت مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر ، ذات يوم ، وحضر إسحاق بن راهويه ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ فقال له إسحاق : أثبته فوق ، حتى أصف لك النزول ، فقال الرجل : أثبته فوق؟! .

فقال إسحاق : قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، فقال الأمير عبد الله : يا أبا يعقوب ، هذا يوم القيامة ، فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟[2]

وقوله : « ويكلون علمه إلى الله » يعنى علم الكيفية ، لا يبحث فيها ، لأن الكيفية تتوقف على المشاهدة ، والله تعالى لا يرى فى الدنيا ، وكذا قول إسحاق ابن راهويه : « إنما ينزل بلا كيف » ، يعنى بلا كيف يعلمه العباد وإلا ففى

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) عقيدة أصحاب الحديث مجموعة الرسائل المنيرية جـ ١ ص ١١٢ ملخصا .

حقيقة الأمر له كيفٌ يعلمه الله تعالى .

قال أبو سعيد الدارمي ــ رحمه الله : « فمن ما يعتبر به من كتاب الله عز وجل فى النزول ، ويحتج به على من أنكره قوله ــ تعالى ــ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، وهذا يوم القيامة ، فالذى يقدر على النزول يوم القيامة من السماوات كلها ، للفصل بين عباده ، قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء .

فإن ردوا قول رسول الله ﷺ فى النزول ، فماذا يصنعون بقول الله عز وجل[2] .

ثم ذكر بعض أحاديث النزول ، ثم قال : « فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها فى نزول الرب ــ تبارك وتعالى ــ وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا ، لا ينكرها منهم أحد ، ولا يمتنع من روايتها ، حتى ظهرت هذه العصابة ، فعارضت آثار رسول الله ﷺ بردها وتشمروا لدفعها بجد ، فقالوا : كيف نزوله ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله فى ديننا ، ولا تعقله قلوبنا ، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلا أو صفة بفعالهم ، وصفتهم ، ولكن ينزل بقدرته ، ولطف ربوبيته كيف يشاء .

فالكيف منه غير معقول ، والإيمان بقول رسول الله ﷺ فى نزوله واجب ، ولا يسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون ، لأنه القادر على ما يشاء ، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف ، الذى لا قدرة له إلا ما أقدره الله ــ تعالى ــ عليه كيف يصنع ، وكيف قدر .

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) رد عثمان بن سعيد على الجهمية ص ٦٣ .

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه ، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءًا إذ خلقها كإيمان المؤمنين به ، لقلنا لكم : ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه ولا أعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءًا ، فكما قدر على الأولى كيف يشاء يقدر على الأخرى كيف يشاء .

وليس قول رسول الله ﷺ فى نزوله بأعجب من قول الله ــ تبارك وتعالى ــ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾(٢) فلما قدر على هذا يقدر على ذاك ، فهذا الناطق من قول الله ــ عز وجل ــ وذاك المحفوظ من قول رسول الله ﷺ بأخبار ليس عليها غبار .

فإن كنتم من عباد الله المؤمنين لزمكم الإيمان بها كما آمن بها المؤمنون ، وإلا فصرحوا بما تضمرون ، ودعوا هذه الأغلوطات ، التى تلوون بها ألسنتكم ، فلئن كان أهل الجهل فى شك من أمركم ، فإن أهل العلم من أمركم لعلى يقين »(٣) .

وقال أبو عمرو ، الطلمنكى : « أجمعوا ــ يعنى أهل السنة والجماعة ــ على أن الله يأتى يوم القيامة ، والملائكة صفا صفا ، لحساب الأمم وعرضها ، كما يشاء وكيف يشاء ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾(٢) وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، على ما أتت

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٣) الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى ص ٧٩ ــ ٨٠ .

به الآثار ، كيف شاء ، لا يجدون فى ذا شيئا »[1] .

ولا يعرف عن السلف وأهل العلم المقتدى بهم من أنكر النزول ، أو تأوله ، فإنه مثل صفات الله الأخرى ، كالاستواء ، والمجىء ، والرضا ، والغضب ، بل والخلق ، والرزق ، والإحياء والإماتة ، فمن آمن بشىء من ذلك لزمه الإيمان بالباق ، لأن الباب واحد ، ولا يجوز فيه قياس أو تمثيل ـــ تعالى الله عن قول أهل الباطل من المحرفين بالتأويلات الفاسدة ، والمعطلين .

وما ذكره الحافظ فى شرحه لهذا الحديث عن البيضاوى من قوله :

« لما ثبت بالقواطع أنه سبحانه منزه عن الجسمية ، والتحيز ، امتنع عليه النزول ، على معنى الانتقال من موضع إلى موضع ، أخفض منه .

فالمراد : نور رحمته ـــ أى ينتقل من مقتضى صفة الجلال التى تقتضى الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التى تقتضى الرأفة والرحمة »[2] .

فهذا من كلام أهل البدع الذين اعتاضوا عن كلام الله ورسوله بنحاتة أفكار أهل الاعتزال ، والتجهم ، الذين لم يعرفوا من أوصاف الله ـــ تعالى ـــ إلا ما يعرفونه من أنفسهم ، فقاسوا نزول الله ، واستواءه على عرشه ، ومجيئه يوم القيامة على نزولهم ، من أعلى إلى أسفل ، واستوائهم على ما هو مرتفع ، ومجيئهم من مكان إلى آخر .

ولهذا قال : منزه عن الجسمية ، والتحيز ، لأنه اعتقد أن هذه الصفات لا تثبت إلا للجسم ، والمتحيز ، مع أن الجسمية والتحيز من الألفاظ المجملة

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٧٨ .
(٢) الفتح جـ ٣ ص ٣١ .

التى تحتمل حقا وباطلا .

فإن كان يريد بالجسمية : القائم بنفسه البائن عن غيره ، فالله تعالى قائم بنفسه ، وبائن من خلقه ، وإن كان يريد بالجسمية الذى تصح الإشارة إليه ، ويكون فى مكان فالله تعالى يشار إليه وتتوجه قلوب عباده إليه من فوقهم وهو فوق عرشه مستوٍ عليه كما علم المؤمنون .

وإن كان يريد بالجسمية البدن ، والجسد المركب من الأعضاء واللحم والدم ونحو ذلك ، فالله تعالى ليس كمثله شيء ، وهو منزه عن ذلك ، ولم تدل النصوص على هذا .

وإن كان يريد بالمتحيز الذى تحوزه الأشياء وتحيط به ، فالله تعالى أجل وأعظم من أن يحيط به شيء مخلوق .

وإن كان يريد أنه تعالى منحاز عن خلقه فلا يحيطون به ، وليس حالا فيهم ، ولا شيء من مخلوقاته فيه ــ تعالى وتقدس ، فالله تعالى كذلك ، وقد علم أن مراد هؤلاء تعطيل الله تعالى عما وصف به نفسه وعما وصفه به رسوله ، ولكنهم لم يجرؤا على رد ذلك صراحة ، فجاؤا بمثل هذه الألفاظ المجملة ، التى يظنها من لا يعرف مرادهم مرادا بها التنزيه ، وهم يريدون تعطيل الله من أوصافه .

ولا يجوز أن يرد كلام رسول الله ﷺ بمثل هذه الأغلوطات التى يزعم البيضاوى وفريقه أنها أدلة قطعية ، والحقيقة أنها شبهات تقطع المفتون بها عن سبيل الهدى .

ثم نقول لهؤلاء : أأنتم أعلم بالله من الله ؟ أم أنتم أعلم بالله من رسوله ؟ أم أنتم أعظم تنزيها لله من رسوله ؟ أم أنتم أقدر على البيان من رسوله ؟ أم أنتم أحرص على هداية الأمة ، وسلامة عقيدتها من رسول الله ﷺ ؟ أم أنتم أشد غيرة على الله من رسول الله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال [أهل التأويل] : النزول ، والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل النزول ، والاستواء إلا لجسم مركب ، والله منزه عن هذه اللوازم ، فيلزم تنزيهه من ذلك .

أو قالوا : هذه حادثة ، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب .

وكذلك إذا قالوا : الرضا والغضب ، والفرح ، والمحبة ، ونحو ذلك هو من صفات الأجسام .

فيقال لهم : وكذلك الإرادة ، والسمع والبصر ، والعلم ، والقدرة ، من صفات الأجسام ، فكما لا يعقل ما يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ، ويقدر إلا جسم .

وإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وإرادته وعلمه وقدرته .

قيل : وكذلك نزوله ، واستواؤه ، ورضاه ، وغضبه ، وفرحه ، ليس كنزولنا واستوائنا ، ورضانا وغضبنا ، وفرحنا .

فإن قالوا : لا يعقل فى الشاهد نزول إلا انتقال ، فيقتضى تفريغ مكان ، وشغل آخر .

قيل : كذلك لا يعقل فى الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه المريد وينفعه ، وفى ذلك فقره إلى ما سواه ، ودفع ما يضره .

والله أخبرنا كما فى الحديث الإلهى بقوله : « إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضرى فتضرونى » . فهو منزه عن الإرادة التى لا يعقل فى الشاهد إلا هى ، وكذا السمع لا يعقل إلا بدخول صوت فى الصماخ ، وذلك لا يكون إلا فى جوف ، والله منزه عن ذلك ، فهو أحد صمد ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهما من السلف : « الصمد » الذى لا جوف

له »[1] .

والمقصود أن هؤلاء المؤولة ، أهل التحريف يلزمهم على أصلهم أن لا يثبتوا لله صفة ، وكفى بذلك، ضلالا وكفرا .

أو أن يؤمنوا بصفات الله ــ تعالى ــ كلها ، على ما جاءت بها النصوص بلا تحريف ، ولا تمثيل ، على ما يليق بعظمة الله وجلاله ، كما أخبر تعالى بأنه لا سمى له ، ولا ند له ، ولا مثيل له ، فإن الباب واحد .

ويجب أن يؤمن بصفات الله تعالى على وتيرة واحدة ، وأن يطرح القياس وتوهم التمثيل ، ويسلم للنص .

وما ذكره الحافظ ، عن ابن العربى ، أنه اختار التأويل ، وأن النزول راجع إلى أفعاله ، لا إلى ذاته ، بل ذلك عبارة عن ملكه الذى ينزل بأمره ونهيه إلى آخر كلامه المتهافت .

فيقال : أولا بئسما اخترت ، فإنك اخترت الباطل ، ثم يقال له : أيضا أخبرنا من أين ينزل أمره ونهيه ؟ وأنت وقبيلك تنكرون أن يكون الله فوق مخلوقاته ؟

أينزل أمره ونهيه مس العدم ؟ ويلزمكم أن يكون الملك الذى ينزل بأمره ونهيه ــ كما تزعمون ــ أكمل من رب العالمين ، لأنه كان عاليا ، ومن يكون أعلى فهو أكمل ممن هو أسفل منه .

ثم يقال له أيضا : الملائكة لا تزال تنزل إلى الأرض ، وإلى السماء الدنيا وغيرها بأمر الله ، بالليل والنهار ، فما بال هذا النزول يتحدد له ثلث الليل الآخر ؟

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٣٥٢ ملخصا .

ويقال له أيضا : إن فى الحديث قوله ــ تعالى ــ : « من يسألنى فأعطيه ؟ من يدعونى فأستجيب له ؟ من يستغفرنى فأغفر له » وهذا لا يجوز أن يقوله إلا رب العالمين ، وهل يجوز أن الملك يقول من يستغفرنى وهذا كاف فى إبطال قول المتأولين ، كما يبطل قول الحافظ : « مما يقوى التأويل ما رواه النسائى فى بعض طرق الحديث : « ينادى مناد ، هل من داع فيستجاب له » الحديث ، وزعم القرطبى أن هذا يزيل الإشكال .

ونحن نقول لهؤلاء : إن الإشكال لازم لمذهبكم ولن ينفك عنه ، ولن تجدوا ما يؤيده وإن أجهدتم أنفسكم ، فهذه الرواية لا تخالف اللفظ الصريح الواضح الذى ضيق خناقكم ، وقد جاء فى بعض طرقه عند النسائى وابن ماجة قوله : « لا أسأل عن عبادى غيرى » .

مع أنه يجوز أن الله تعالى مع قوله ذلك يأمر من ينادى ، ولكن المنادى لا يقول : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

ومن زعم أن النبى ﷺ قال : أن الله يأمر مناديا يقول ذلك ، فهو كاذب لأنه خلاف المستفيض المتواتر عنه أن المنادى هو رب العالمين .

وأما قول البيضاوى : « إن ذلك عبارة عن نور رحمته » إلى آخر ما قال .

فيقال : رحمة الله ــ تعالى ــ تنزل كل وقت وآن ، لا يختص نزولها بوقت معين ، ونور الرحمة لا يقول : من يسألنى فأعطيه إلى آخره .

« والأمر والرحمة إما أن يراد بهما أعيان قائمة بنفسها كالملائكة ، أو يراد بها صفات ، وأعراض .

فإن أريد الأول ، فالملائكة تنزل كل وقت ، والنزول المذكور فى الحديث خص بجوف الليل ، وجعل منتهاه السماء الدنيا ، ومعلوم أن الملائكة نزولهم لا يختص لا بهذا الزمن ، ولا بذاك المكان .

وإن أريد صفات ، وأعراض ، مثل ما يحصل فى قلوب العابدين فى وقت السحر من الرقة ، والتضرع ، وحلاوة العبادة ، ونحو ذلك ، فهذا حاصل فى الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا .

ونزول أمره ورحمته لا يكون إلا منه ، وحينئذ فهذا يقتضى أنه فوق العالم ، فنفس تأويلهم يبطل مذهبهم .

وكذلك يبطله ما جاء من ألفاظ الحديث ، مثل قوله : « ثم يعرج » وفى لفظ « ثم يصعد » .

يضاف إليه قوله : « ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، حتى يطلع الفجر » .

ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء ، ويغفر الذنوب ، ويعطى كل سائل سؤاله إلا الله ، وأمره ورحمته لا تفعل شيئا من ذلك »[1] .

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمى : لما أول بشر الحديث بمثل ما ذكره الحافظ . « فيقال : هذا من حجج النساء والصبيان ، ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان ، لأن أمر الله ورحمته ينزل فى كل ساعة ، ووقت ، وأوان ، فما بال النبى ﷺ يحد لنزوله الليل دون النهار ، ويوقت من الليل شطره ، أو الأسحار ، أفأمره ورحمته يدعوان العباد إلى الاستغفار أو يقدر الأمر والرحمة أن يتكلما دونه ، فيقولان : هل من داع فأجيبه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟

فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعى أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ صـ ٤١٥ ـــ ٤١٦ بتصرف .

إلى الإجابة والاستغفار ، بكلامهما ، وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء .

وقد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال رحمته وأمره ينزلان عند شطر الليل ثم لا يمكثان إلا إلى طلوع الفجر ثم يرفعان »[١] .

وليس نزوله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلثه الآخر كنزول المخلوق الذى يتخيله الجهال ، حتى يلزم منه أنه دائم النزول ، وأنه تحت السماوات ، وفوق السماء الدنيا مقدار ثلث الليل على كل بلد ، ولو كان كما يتخيله الجهال لكان النزول ممتنعا وذلك لوجوه .

أحدها أنه لا يكون فوق العرش أبدا ، بل لا يزال نازلا .

الثانى : أنه على هذا التقدير يلزم أن يكون الزمان بقدر ما هو عليه مرات كثيرة ، ليقع النزول فى ثلث ليل كل بلد ، مع أن الليل يختلف طوله وقصره باختلاف عرض البلاد ، واختلاف الأوقات .

الثالث : أنه لو كان كما تخيله الجاهل ، فكيف يبقى عند هؤلاء إلى طلوع فجرهم ، ويكون نازلا عند من هم غربهم ولم يطلع فجرهم وهلم جرا .

والحق أن نزول الله — تعالى — الذى أخبر به الصادق المصدوق ليس كنزول المخلوق كما يتخيله الجهال بالله — تعالى — وأوصافه ، بل يمكن أن يكون نزوله فى وقت واحد لخلق كثير ، ويمكن أن يكون قدره لبعض الناس أكثر ، ولا يمتنع على الله — تعالى — أن يقرب إلى بعض عباده دون بعض ، فيقرب إلى داعيه دون من لم يدعه .

وهذا كما أنه تعالى يحاسب عباده يوم القيامة كلهم فى ساعة واحدة وكل واحد منهم يخلو به ، فيقرره بذنوبه ، وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره .

---

(١) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٣٧٨ مجموع عقائد السلف .

وكما أنه سبحانه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

والمقصود من الحديث قوله : « فيقول : من يدعونى فأستجيب له » إلى آخره لأن هذا من كلام الله الذى يحض به عباده المؤمنين بنزوله إلى التعرض إلى فضله وكرمه ، فيستجيب للداعى ، ويعطى السائل سؤله ، ويغفر لمستغفر ذنبه ، فما أكرم هذا الرب ، وأقربه ممن يؤمن بقربه ، وما أوسع عطاءه ، ولكن أهل التعطيل والتحريف من أبعد الناس عنه ، تعالى وتقدس عما تتصوره أفكارهم المنحرفة .

وقوله وكلامه ــ تعالى ــ غير خلقه ، فأهل التأويل والتعطيل يريدون أن يبدلوا كلامه ذلك ، وقوله . وأما خلقه فإنه لا يبدل . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ .

١٢٢ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، أن الأعرج حدثه ، أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ، وبهذا الإسناد ، قال الله : أنفق أنفق عليك » .

قوله : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » يعنى أن هذه الأمة آخر الأمم فى الدنيا وعليها تقوم الساعة ، وهم أول الأمم دخولا الجنة ، ويحاسبون قبل الناس كلهم .

والمقصود قوله : « قال الله : أنفق أنفق عليك » إذ هو قول الله رواه رسوله عن ربه ــ تبارك وتعالى ــ وفى هذا القول أمره لنبيه بالإنفاق فى سبيل الله والدعوة إلى دينه ، ووعده ــ تعالى ــ أن ينفق عليه ــ أى يعطيه مايحتاجه لذلك وغيره .

وهذا القول يضاف إلى الله تعالى قولا له حقيقة وليس هو من القرآن ، وقول الله — تعالى — غير خلقه ، وتقدم هذا الحديث .

١٢٣ — قال : « حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن فضيل ، عن عمارة ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة — فقال : « هذه خديجة أتتك بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب ، فأقرئها من ربها السلام ، وبشرها ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » .

قوله : « فقال : هذه خديجة » القائل هو جبرائيل ، كما صرح به فى باب تزويج خديجة .

قوله : « أتتك » فى رواية تأتيك .

قوله : « بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب » شك من أحد الرواية ، وفى بعض نسخ البخارى حذفت « فيه » الثانية .

قوله : « فأقرئها من ربها السلام » أى أخبرها . قال الحافظ : « زاد الطبرانى فى الرواية المذكورة : فقالت : هو السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبرائيل السلام .

قال العلماء : فى هذه القصة دليل على وفور فقهها ، لأنها لم تقل : وعليه السلام عرفت أن الله لا يرد عليه السلام ، كما يرد على المخلوقين ، لأن السلام اسم من أسمائه — تعالى — وهو دعاء بالسلامة ، وذلك لا يصلح أن يرد به على الله .

ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام ، وعلى من بلغه .

واستدل بهذه القصة على أن خديجة أفضل من عائشة ، لأن الله أرسل إليها السلام ، وأما عائشة فأرسل إليها السلام جبرائيل »[1] .

---

(١) الفتح ملخصا جـ ٧ ص ١٣٩ .

قوله : « وبشرها ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » تقدم معنى البشارة والقصب هو قصب اللؤلؤ كما جاء مفسرا فى الحديث .

قال الحافظ : « عند الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن أبى أوفى « يعنى قصب اللؤلؤ » وفى الكبير من حديث أبى هريرة : « ببيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله فى مسلم .

وفى الأوسط من حديث فاطمة : قلت يا رسول الله : أين أمى خديجة ؟ قال : فى بيت من قصب ، قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت »[1] .

والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . والنصب : التعب .

قال السهيلى : مناسبة نفى هاتين الصفتين : أنها أجابت النبى ﷺ طوعا ، ولم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ، ولا تعب فى ذلك ، بل أزالت عنه كل نصب ، وآنسته من كل وحشة ، وهونت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون بيتها الذى بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها »[2] .

والمقصد من الحديث قوله : « فأقرئها من ربها السلام » إلى آخره ، لأن الله ــ تعالى ــ خاطب جبريل بذلك حينما أرسل معه السلام إليها ، والبشارة فهذا من كلام الله المتضمن الإكرام والإفضال على زوج سيد المرسلين ﷺ ورضى الله عنها وعن سائر أزواجه وأصحابه أجمعين ، وهذا من كلام الله المتعلق بمشيئته الذى أكرم به من شاء من خلقه وهو غير القرآن ، وغير خلقه فإن الخلق لا يرسل به .

١٢٤ ــ قال : « حدثنا معاذ بن أسد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا

---

(١) المصدر من ١٣٨ ملخصا .

(٢) الفتح جـ ٧ ص ١٣٨ .

معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : قال الله : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(١) .

فلا يعلم بما أعد الله لهم من الكرامة والنعيم إلا الله تعالى الذى خلقه ولذلك قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فلا أحد يستطيع وصفه لأنه لم يره ، ولم يسمع بمثله ، ولا يتصوره أحد ، وإنما يعلمه الله وحده .

روى مسلم فى صحيحه ، من حديث المغيرة بن شعبة ، يرفعه ، قال : « سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : هذا لك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول هذا لك ، وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب .

قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر قال : ومصداقه فى كتاب الله — تعالى — ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٢) .

قال القرطبى : « وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلا ، كما بينه

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٧٦ .

هذا الحديث »[1] .

والمقصود قوله : « أعددت لعبادى الصالحين » إلى آخره ، فهو من قول الله تعالى الذى خاطب به عباده ، مخبرا إياهم بما أعده ـ تعالى ـ لعباده الصالحين .

والصالح : هو الذى يفعل ما أمره الله به ، ويجتنب ما نهاه عنه ، وإن فرط منه معصية ، بادر بالتوبة والإنابة إلى ربه .

وقول الله وكلامه لا يختص بالكتب المنزلة على رسله كهذه الأحاديث فهى من كلام الله ، وكلامه غير خلقه .

١٢٥ ـ قال : « حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرنى سليمان الأحول ، أن طاووسا أخبره ، أنه سمع ابن عباس يقول : كان النبى ﷺ إذا تهجد من الليل قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

تقدم شرح هذا الحديث فى باب قول الله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وبعض ألفاظه تختلف عما سبق ، كما هى عادته إذا أعاد الحديث ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٠٤ .

وسبق التنبيه عليه .

وفى هذا الحديث ما كان عليه النبى ﷺ من المداومة على قيام الليل لأن لفظة « كان » تدل على ذلك غالبا .

وفيه إخباته ﷺ فى قيامه ، واجتهاده فى الدعاء والتضرع ، والإخلاص ، والثناء على الله — تعالى — والتوسل إليه تعالى بالإيمان بوعده ووعيده ، وقوله ، والتسليم له .

والإنابة : الرجوع إلى الخير خاصة ، أما الرجوع إلى الشر فلا يكون إنابة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾(١) أى عودوا إلى ما يرضى به عنكم من التوبة والانقياد لأوامره ، والانتهاء عن زواجره .

والمراد من الحديث قوله : « وقولك الحق » أى الثابت الذى فيه الهدى والعدل . فمحاولة المنافقين والكافرين والمفسدين تبديله ، عدول منهم عن الحق ، ولا يضرون بذلك إلا أنفسهم ، كما أن من زعم أن الله لا يقول ولا يتكلم قد جانب الحق واستبدل به الباطل ، وكلام الله تعالى لانفاد له ، وهو غير خلقه .

١٢٦ — قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا عبد الله بن عمر النميرى ، حدثنا يونس بن يزيد الأيلى ، قال : سمعت الزهرى ، قال : سمعت عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرَّأها الله مما قالوا ، وكل حدثنى طائفة من الحديث الذى حدثنى ، عن عائشة ، قالت : ولكن والله

(١) الآية ٥٤ من سورة الزمر .

ما كنت أظن أن الله ينزل ببراءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها ، فأنزل الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا۟ بِٱلْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات » .

« الإفك » : أبلغ ما يكون من الكذب ، والافتراء ، وقيل هو البهتان ، لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله : الإفك ، وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه .

فبرّأها الله مما قالوا ، أى بين براءتها من ذلك الإفك ، الذى قاله المنافقون وروجوه فى مجتمع المدينة ، فآذوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته وأصحابه .

ولا يزال إلى اليوم فريق ممن يتستر بالإسلام ــ وهو يحاربه ــ ينمّى ذلك الإفك ، ويشيعه ، ويلفق الكذب والزور ، ويحاول أن يلبس على السذج والمغفلين .

ولا شك أن من يفعل ذلك أنه معاند لله ورسوله ، وسالك غير سبيل المؤمنين ، ومؤذن لله ورسوله والمؤمنين بالحرب ، وليس هو من الإسلام فى شىء ، بل هذا من أعظم الكفر والتكذيب لله ولرسوله .

قال الزمخشرى : « نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية ، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها »[1] .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٣ .

وقال أيضا : « ولو قلبت القرآن كله ، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله — تعالى — قد أغلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة — رضوان الله عليها — ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفننة كل واحد منها كاف فى بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى ، حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا ، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وبأن ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب[1] الذى هم أهله »[2] .

وقال ابن القيم : « فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها ، وسأل وهو أعلم بالله ، وبمنزلته عنده ، هلا قال : سبحانك هذا بهتان عظيم » .

فالجواب : أن هذا من تمام الحكم التى جعل الله هذه القصة سببا لها ، وابتلاءً لرسوله ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ، ليرفع بها أقواماً ، ويضع آخرين .

ومن تمام الابتلاء أن تأخر الوحى ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، والمنافقون إفكا ، ونفاقا ، وليظهر لرسوله والمؤمنين من سرائرهم ، وتتم العبودية والمنة على الصديقة وأبويها .

---

(١) قوله الواجب إشارة إلى أن نفاذ الوعيد واجب ، كما هو مذهب المعتزلة ، وهو غير مسلم ، فإن الله تعالى أخبر أنه يغفر الذنوب ما عدا الشرك لمن يشاء ، فلا يجوز الحكم على الله تعالى بأنه يجب أن يعذب العصاة .

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٥٦ — ٥٧ .

والرسول ﷺ كان هو المقصود بالأذى ، فلذلك تولى الله تعالى الدفاع عنه ، والرد على أعدائه ، وذمهم ، وتوعدهم بالعذاب العظيم »[1] .

قولها : « ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتى وحيا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم فىّ بأمر يتلى » كانت رضى الله عنها فى نفسها صغيرة ، ولكنها عند الله ، وعند المؤمنين عظيمة كبيرة ، لأنها زوج رسول الله ﷺ وحبيبته ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه — حينما سئل أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، فقال السائل : ومن الرجال ؟ قال : أبوها ، قلت ثم من ؟ قال : عمر »[2] .

وقال ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » أخرجاه فى الصحيحين[3] .

وهكذا أهل الفضل يحتقرون أنفسهم ، ويزدرونها فى حق الله — تعالى — وذاك مما يعلى منازلهم عند الله — تعالى — .

وفيه التصريح بأن الله يتكلم بما يوحيه إلى نبيه ، وكلامه تعالى منه ما يتعبد بتلاوته كالقرآن ، وغيره كهذه الأحاديث التى ذكر البخارى شيئا منها ، وفيه أن كلامه ينزل من الله فالله فوق خلقه ، وكلامه غير مخلوق ، وغير محصور فى الكتب المنزلة ، وهذا هو وجه الدليل منه وقولها : « ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها » وذلك ليقينها ببراءتها ، وثقتها بأن ذلك سوف يظهر لرسول الله ﷺ فكانت تطمع

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ٢٦١ — ٢٦٣ ملخصا .

(٢) رواه مسلم جـ ٧ ص ١٠٩ .

(٣) البخارى جـ ٥ ص ٣٦ ومسلم جـ ٧ ص ١٣٨ .

قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » أى أن المرض يزول ، ويكون ذلك مكفرا لخطاياك ، أو أنه لا بأس عينك فى مستقبلك ، لأن المرض يطهرك من ذنوبك ، فإن حصلت العافية اكتسب فائدتين ، وإلا حصل له التكفير ، وهذا دعاء خرج مخرج الخبر ، ولهذا علقه بالمشيئة لأنه أمر مستقبل ، وكل ما يأتى يقيد بمشيئة الله — تعالى — أما ما وقع فقد علم أن الله شاءه .

وقول الأعرابى : طهور ؟! ، كأنه رد لقول رسول الله ﷺ واستبعاد له ، ولهذا قال : « بل هى حمى تفور » أى تغلى فى جسمه « على شيخ كبير » والشيخ الكبير يكون ضعيفا لا يتحمل ما يتحمله الشاب القوى « تزيره القبور » أى يموت منها ويذهب به إلى المقبرة .

فلما رد ما قاله رسول الله ﷺ ولم يقبله ، واختار ما ذكره هو ، قال النبى ﷺ « فنعم إذًا » أى إذا لم تقبل ما قلت لك ، فالأمر كما تقول أنت .

قال الحافظ : « روى الطبرانى أن الأعرابى أصبح ميتا ، وأن النبى ﷺ قال : « أما إذا أبيت فهى كما تقول ، قضاء الله كائن ، فما أمسى من الغد إلا ميتا »[1] .

والمقصود من الحديث قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » وقد جاءت النصوص بأن المصائب كفارات للذنوب ، كما جاء ترتيب الجزاء على أعمال معينة ، فكل ذلك يكون مقيدا بمشيئة الله تعالى ، فعلى العبد أن يضرع إلى الله تعالى بذل وافتقار ، ويسأله من فضله أن يهديه لما يرضيه .

والأمور كلها بيده — تعالى — يتصرف فيها كيف يشاء ، والخلق عبيده ، وفقراء إليه ، ولا يظلم ربك أحدًا .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٦٢٥ .

٩٧ — قال : « حدثنا ابن سلام ، أخبرنا هشيم ، عن حصين ، عن عبد الله بن أبى قتادة ، عن أبيه ، حين ناموا عن الصلاة ، قال النبى ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء ، فقضوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت ، فقام فصلى » .

هذا الحديث مختصر ، وقد ذكره فى مواقيت الصلاة : باب الأذان بعد ذهاب الوقت ، وقد اختلف فى أى مسير كان ذلك .

قال الحافظ : « جزم بعض الشراح بأنه فى رجوعه من خيبر ، معتمدًا على ما وقع عند مسلم ، وفيه نظر لما بينته فى باب الصعيد الطيب »[1] .

وقال « فى باب الصعيد الطيب » اختلف فى تعيين هذا السفر ، ففى مسلم أنه وقع فى رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة .

وفى أبى داود : « أقبل النبى ﷺ من الحديبية ليلا ، فنزل ، فقال : « من يكلؤنا ؟ فقال بلال : أنا » الحديث[2] .

وفى الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلا : « عَرَّسَ رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة ، ووكل بلالا » الحديث[3] .

وفى مصنف عبد الرزاق مرسلا أن ذلك بطريق تبوك ، وفى الدلائل للبيهقى نحوه[4] ، وذكر أشياء غير ذلك ومال إلى تعدد القصة كعادته فى مثل هذا .

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٦٧ .
(٢) السنن جـ ١ ص ٣١٠ .
(٣) الموطأ جـ ١ ص ١٤ .
(٤) الفتح جـ ١ ص ٤٨٨ .

ولم أجد فى مصنف عبد الرزاق تعيين السفر ، فإنه قال : « أخبرنى عطاء أن النبى ﷺ بينا هو فى بعض أسفاره » فذكره[1] .

وكذلك ما فى الدلائل ليس فيه ذكر تبوك ، وإنما ذكر ما فى الموطأ ، وسنن أبى داود ، ومسلم . والصحيح أن ذلك فى مرجعه من خيبر ، كما قال عبد الرزاق : عن معمر ، عن الزهرى ، عن ابن المسيب ، قال : « لما قفل رسول الله ﷺ من خيبر ، أسرى ليله ، حتى إذا كان آخر الليل عدل عن الطريق ، ثم عَرَّسَ ، وقال : من يحفظ علينا الصلاة ؟ فقال بلال : أنا » وذكر الحديث[2] وهذا مرسل .

ورواه أبو داود موصولا ، عن سعيد ، عن أبى هريرة[3] .

ورواه مسلم فى صحيحه مطولا[4] .

قوله : « وإن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء » أى إن الله تعالى له ملك كل شىء ، فروح الإنسان التى بها حياته وتصرفه ، هى بيد الله إذا شاء قبضها قبضها من بدنها ، وأصبح الإنسان ميتا لايستطيع أى عمل ، وإذا شاء ردها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف ، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء ، ويستيقظ متى شاء إلا بمشيئة الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

---

(١) انظر المصنف جـ ١ ص ٥٨٨ .
(٢) المصنف جـ ١ ص ٥٨٧ .
(٣) انظر السنن جـ ١ ص ٣٠٢ .
(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ٤٧١ رقم ٦٨٠ .
(٥) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

قوله : « فقضوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت فقام فصلى » يعنى أنهم حين استيقظوا مع طلوع الشمس لم يستعجلوا بأداء الصلاة ، بل قضوا حوائجهم مما يحتاجه عادة من يقوم من النوم من بول ونحوه ، وتوضأوا ثم انتظروا حتى ابيضت الشمس ، ومعنى ابيضاضها ارتفاعها عن الأفق ، ثم قام وصلى بهم ، فهذا وقت صلاتهم ، لأن النائم وقت صلاته إذا استيقظ ، وكذلك الناسى والله أعلم .

٩٨ ـــ قال : « حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا إبراهيم ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة والأعرج .

وحدثنا إسماعيل ، حدثنى أخى ، عن سليمان ، عن محمد بن أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيب ، أن أبا هريرة قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذى اصطفى محمدا على العالمين ، فى قسم يقسم به ، فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودى ، فذهب اليهودى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذى كان من أمره ، وأمر المسلم ، فقال النبى ﷺ : « لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » .

قال الحافظ : « المسلم هو أبو بكر الصديق ، جاء مصرحا به فيما أخرجه سفيان بن عيينة فى جامعه ، وابن أبى الدنيا فى كتاب البعث من طريقه ، عن عمرو ابن دينار ، قال : هو أبو بكر الصديق »[1] .

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٥٠ .

ولكن يعارض ذلك ما فى الأنبياء فى هذا الحديث : « قال اليهودى لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه »[1] .

قوله : « استب » استب : افتعل ، من السب أى كل واحد منهما سب الآخر وهو الشتم وذكر العيوب والمثالب ، أو الدعاء عليه .

وسبب ذلك قول اليهودى حينما كان يعرض سلعته ، فأعطى فيها ما لا يرضى فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فغضب المسلم ولطمه ، لأنه فهم من كلامه تفضيل موسى على نبينا محمد ﷺ لأنه متقرر عند المسلمين أن محمدا أفضل البشر على الإطلاق .

وجاء فى رواية أبى سعيد أن المسلم لما دعاه النبى ﷺ وقال له : « أضربته ؟ » قال : سمعته بالسوق يحلف : والذى اصطفى موسى على البشر ، قلت : أى خبيث على محمد ﷺ فأخذتنى غضبة ضربت وجهه »[2] .

وفهم المسلم أن اليهودى بحلفه ذلك يتنقص محمدا ﷺ فلهذا غضب ، ولطمه ، ولما ذكر قول اليهودى للنبى ﷺ لم يعاقبه ، بل نهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فى مثل هذا المقام الذى يكون فيه الغضب والسب ، لأن ذلك مدعاة إلى هضم حق بعضهم ، أو التنقص لهم ، أو الافتخار وذلك من الكفر .

وأما ذكر الواقع للعلم به ، واعتقاده فلا يدخل فى النهى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) الفتح جـ ٥ ص ٧٠ .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1] .

وصح عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة »[2] .

قال البيهقى عن الخطابى : معنى النهى عن التخيير بين الأنبياء ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم ، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم والإيمان بهم .

وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم فى درجاتهم ، فإن الله — عز وجل — قد أخبر أنه فاضل بينهم فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

وقوله : « أنا سيد ولد آدم » إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل ، والسؤدد ، وتحدث بنعمة الله تعالى عليه ، وإعلام لأمته بعلو مكانه عند ربه ، ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك ، وبيان هذا لأمته من اللازم له ، والمفروض عليه »[3] .

قوله : « لا تخيرونى على موسى » أى لا تقولوا أنا خير من موسى ، وجاء النهى عن التخيير بين الأنبياء عامة ، وهذا خاص بموسى ، لأن المقام يقتضى ذلك لأجل ما وقع بين اليهودى والمسلم ، وسبق وجه النهى ثم ذكر ما يقتضى تفضيل موسى فى كونه يجده باطشا بجانب العرش ، فيكون قد أفاق قبله أو لم يصبه الصعق كما سبق بيانه والمقصود هنا قوله : « أو كان ممن استثنى الله ، أى فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[4] ففى هذه الآية أن الخلق لا ينجو أحد منهم

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الإسراء .
(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٨ .
(٣) دلائل النبوة جـ ٥ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .
(٤) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

من صعق نفخة الصور ، إلا من يشاء الله ، فدل على أن مشيئة الله عامة شاملة لكل شيء ، فلا يخرج عنها ما يعم الخلق كنفخ الصور ، ولا ما يخص بعضهم ، ومن أجل ذلك — والله أعلم — جاء قوله فى أهل الجنة وأهل النار : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[1] فما شاء الله كان كما يشاء ، وما لم يشأ لم يكن .

واختلف فى الذين استثناهم الله تعالى من صعقة الصور .

قال ابن جرير : « قال بعضهم : عنى به جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم روى ذلك عن السدى ، وروى فيه حديثا مرفوعا بسند فيه يزيد الرقاشى ، وهو ضعيف ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية فقيل له : من هؤلاء الذين استثنى الله يا رسول الله ؟ قال : جبريل وميكائيل وملك الموت » وذكره بطوله ، ثم قال :

« وقال آخرون : عنى بذلك، الشهداء ، وروى ذلك عن سعيد بن جبير .

واختار أن المستثنى من الفزع الشهداء ، ومن الصعق جبريل وملك الموت ، وحملة العرش ، واستدل لذلك بحديث الصور ، وهو ضعيف . وبأن الصعق فى هذا الموضع ، الموت ، والشهداء قد ماتوا فلا يذوقون الموت مرة أخرى ، وذكر أن بعض السلف توقف فيه »[2] .

وقال ابن كثير : « قال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : سألت جبريل عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .
(٢) انظر تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٢٩ — ٣٠ .

فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم الشهداء ، مقلدون أسيافهم حول عرشه ، تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت ، نمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال ، يسيرون فى الجنة ، يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا إلى ربنا — عز وجل — لننظر كيف يقضى بين خلقه ، يضحك إليهم إلهى ، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن ، فلا حساب عليه » قال ابن كثير : رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فهو غير معروف »[1] .

٩٩ — قال : « حدثنا إسحاق بن أبى عيسى ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس بن ماللك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها الدجال ، ولا الطاعون إن شاء الله » .

تقدم وجه تسمية الدجال .

قال الحافظ : « ومما يحتاج إليه فى أمر الدجال ، أصله ، وهل هو ابن صياد ، أو غيره ؟ وإذا كان غيره فهل كان موجودا فى عهد النبى ﷺ أو لا ؟ وما الذى يدعيه ؟ وما الذى يظهر عند خروجه ؟ ومتى يخرج ؟ وما سبب خروجه ؟ ومن أين يخرج ؟ وما صفته ؟ وما هى الخوارق التى تظهر على يديه ، حتى يكثر أتباعه ؟ ومتى يهلك ؟ ومن يقتله ؟ »[2] .

وقد تبين أنه ليس ابن صياد ، لأن ابن صياد قد مات فى المدينة ، وقد دخل مكة وولد له ، والدجال لا يولد له ، ولا يدخل مكة ولا المدينة ، ويقتله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٠٨ .

(٢) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٩١ .

عيسى بن مريم عليه السلام ، ويكون رئيسا لليهود ، وله خوارق عظيمة ، وفتنة هائلة ، ولم يحصل لابن صياد من ذلك شيء .

وحديث الجساسة فى صحيح مسلم يدل على ذلك ، وليس الأمر فيه مشكلا كما قاله النووى ـــ رحمه الله ـــ لأن ابن صياد أول الدجاجلة الذين يتقدمون الدجال الأكبر وأما كونه موجودا فى زمن النبى ﷺ فخبر تميم الدارى فى قصة الجساسة يدل على وجوده .

وأما سبب خروجه ، فجاء فى صحيح مسلم ما يدل على أن سبب خروجه غضبة يغضبها ، وسأذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وخروجه فى آخر الزمان إذ خروجه من علامات الساعة الكبار .

وهو خارج من المشرق ، كما سيأتى .

وأما صفته فقد أوضحها رسول الله ﷺ ، وقد تقدم أنه أعور العين اليمنى ، وأنه مكتوب بين عينيه كافر .

وإذا خرج ادعى أنه مصلح ، ويريد القضاء على الفساد ، كما هى عادة كل دجال وطاغوت من طواغيت العالم ودجاجلته الموجودين اليوم وقبله ، ثم يدعى الولاية ، ثم يدعى النبوة ، ثم يدعى أنه رب الخلق المتصرف فيهم .

قال الحافظ : « وأخرج الطبرانى من طريق سليمان بن شهاب ، قال : نزل علىَّ عبدُ الله بن المعتمر وكان صحابيا ، فحدثنى عن النبى ﷺ أنه قال : « الدجال ليس به خفاء ، يجيء من قبل المشرق ، فيدعو إلى الدين ، فيتبع ، ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة ، فيظهر الدين ويعمل به ، فيتبع ويحث على ذلك ، ثم يدعى أنه نبى ، فيفزع من ذلك كل ذى لب ويفارقه ، فيمكث بعد ذلك ، فيقول : أنا الله ، فتغشى عينه ، وتقطع أذنه ، ويكتب بين عينيه كافر ، فلا يخفى على كل مسلم ، فيفارقه كل أحد من الخلق فى قلبه مثقال حبة من خردل

من إيمان » قال : « وسنده ضعيف »[1] .

وأما ما ثبت فى الصحيحين ، عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إنى سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبى ﷺ فلم ينكره النبى ﷺ[2] .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : لقيته مرتين ، قال : فلقيته فقلت لبعضهم : هل تحدثون أنه هو ؟ قال : لا والله ، قال : قلت : كذبتنى ، والله لقد أخبرنى بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو — زعموا — اليوم ، قال فتحدثنا ، ثم فارقته ، قال : فلقيته لقية أخرى ، وقد نفرت عينه ، قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدرى ، قال : قلت : لا تدرى وهى فى رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها فى عصاك هذه ، فنخر كأشد نخير حمار سمعت . قال : فزعم بعض أصحابى أنى ضربته بعصا كانت معى حتى تكسرت ، وأما أنا فوالله ما شعرت .

قال : وجاء حتى دخل على أم المؤمنين ، فحدثها ، فقالت : ما تريد إليه ؟ ألم تعلم أنه قد قال : إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه »[3] .

قال النووى : « قال العلماء : قصته مشكلة ، وأمره مشتبه فى أنه هو الدجال المشهور ، أو غيره ، ولا شك فى أنه دجال من الدجاجلة .

وظاهر الأحاديث أن النبى ﷺ لم يُوحَ إليه بأنه الدجال ، ولا غيره وإنما أوحى إليه بصفات الدجال ، وكان فى ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبى ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ، ولا غيره »[4] .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٩١ .
(٢) البخارى جـ ٩ ص ٨٨ ومسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٣ رقم ٢٩٢٩ .
(٣) مسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٦ .
(٤) شرح النووى جـ ١٨ ص ٤٦ .

قلت : ابن صياد فيه كلام كثير للعلماء ، وفيه أحاديث بعضها فى مسلم .

وليس هو الدجال المشهور ، وإنما هو من جملة الدجالين كما سبق ، والله أعلم .

قوله : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها الدجال » .

قد أثبت إتيانه إليها ، ولكن لا يستطيع دخولها ، لأن الملائكة تصده عنها وذلك لأن سلطان المسلمين قد ضعف عن مقاومة الكفر وأهله ، فلهذا جعل الله تعالى الملائكة هى التى تصد الدجال عن مدينة رسوله وعن مكة .

وفى مسند الإمام أحمد عن محجن بن الأدرع أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ، يوم الخلاص وما يوم الخلاص ثلاثا » ، فقيل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : « يجىء الدجال ، فيصعد أحدا ، فينظر المدينة فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلتا ، فيأتى سبخة الجرف ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ، ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص »[1] .

قوله : « ولا الطاعون إن شاء الله » الطاعون من الطعن والوخز ، وهو الوباء ، وهذا من تكريم الله تعالى لرسوله حيث منع الوباء من مدينته ، وجاء فى بعض الروايات أن مكة كذلك لا يدخلها الطاعون .

والشاهد قوله : « إن شاء الله » يعنى أن ذلك معلق بمشيئة الله ، فلو شاء لم يحصل المنع .

---

(١) انظر المسند جـ ٤ ص ٣٣٨ وجـ ٥ ص ٣١ .

وذكر البخارى هذا الحديث فى فضائل المدينة بأبسط مما هاهنا ، ولفظه :

« ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق »[1] .

قال الحافظ : « هذا الخبر على ظاهره وعمومه عند الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : لا يدخل وجنوده ، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لقصر مدته ، وغفل عما فى صحيح مسلم أن بعض أيامه كسنة »[2] .

وقوله : ثم ترجف المدينة ، أى يحصل لها زلزلة بعد أخرى حتى يخرج منها من ليس مؤمنا ويبقى المؤمنون الصادقون ، فلا يسلط عليهم ولا ينالهم شره وفتنته .

ولا يعارض هذا ما فى حديث أبى بكرة : « لا يدخل المدينة رعب الدجال » لأن المراد برعبه ما يحدث من الفزع من فعله وعتوه ، لا الرجفة التى تقع لإخراج المنافقين والكافرين ، وحمل بعض العلماء حديث « إنها تنفى الخبث » على هذا ، والصحيح أنه خاص بناس ، وبزمان ، فلا مانع أن يكون هذا الزمان هو المراد ، ولا يلزم من كونه مرادًا ، نفى غيره »[3] .

١٠٠ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبى دعوة ، فأريد ــ إن شاء الله ــ أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » .

---

(١) انظر الفتح جـ ٤ ص ٩٥ .
(٢) المصدر المذكور ص ٩٦ .
(٣) المصدر المذكور ص ٩٦ .

أى لكل نبى من أنبياء الله دعوة مستجابة ، كدعوة نوح ــ عليه السلام ــ على قومه بقوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1] فاستجاب الله دعوته فأغرق أهل الأرض عموما ، وكدعوة صالح ، وشعيب ولوط ، وغيرهم مما ذكره الله ــ تعالى ــ فى كتابه .

والصحيح أن لكل نبى دعوة عامة مستجابة فى أمته ، وأما الدعوات غير العامة فكثيرة ، منها ما يستجاب ، ومنها ما لا يستجاب .

قال النووى : « معناه أن لكل نبى دعوة متيقنة الإجابة ، وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقى دعواتهم ، فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب »[2] .

قوله : « فأريد إن شاء الله أن أختبيء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » .

هذا من رحمة الله ــ تعالى ــ بهذه الأمة حيث ألهم رسوله ﷺ أن يجعل دعوته العامة المستجابة فى أمته ، شفاعة له فيهم .

وقد بين أنها للموحدين ، فلا نصيب لمشرك فى هذه الدعوة العامة ، كما فى رواية مسلم « فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا »[3] .

قال النووى : « فى هذا الحديث كمال شفقة النبى ﷺ على أمته ورأفته بهم ، واعتناؤه بالنظر فى مصالحهم المهمة ، فأخر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم »[4] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح عليه السلام .
(٢) شرح مسلم جـ ٣ ص ٧٥ .
(٣) انظر مسلم جـ ١ ص ١٨٩ رقم ١٩٩ .
(٤) المصدر المذكور جـ ٣ ص ٧٦ .

وقال فى قوله : « إن شاء الله — تعالى — هو على جهة التبرك والامتثال لقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾[1] .

قلت : ليس كما قال — رحمه الله — إن التعليق للتبرك وامتثال الأمر ، ولكنه تعليق حقيقة إذ لو شاء الله لم يقع ذلك ، غير أنه تعالى شاء وقوعه فأخبر به على لسان رسوله ﷺ وخبره حق ، والمقصود أن كل شيء بمشيئة الله .

١٠١ — قال : « حدثنا بسرة بن صفوان بن جميل اللخمى ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب فنزعت ما شاء الله أن أنزع ، ثم أخذها ابن أبى قحافة ، فنزع ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا من الناس يَفْرِى فَرِيَّه ، حتى ضرب الناس حوله بعطن » .

هذه رؤيا منام ، ورؤيا الأنبياء نوع من أنواع الوحى ، كما فى حديث عائشة : « إن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة » .

والرؤيا : هى ما يراه الإنسان فى نومه .

قوله : « بينا » هى بين الظرفية الزمانية ، والألف للإشباع .

« رأيتنى على قليب » أى رأيت نفسى على قليب ، وهى البئر المحفورة لاستخراج الماء منها ، وقال النووى : « هى البئر غير المطوية »[2] .

---

(١) المصدر السابق . والآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف .

(٢) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٥٩ .

قوله : « فنزعت ما شاء الله أن أنزع » النزع هو استخراج الماء من البئر بالدلو ، وهذا محل الشاهد من الحديث حيث أسند كمية النزع إلى مشيئة الله تعالى ، وقد سبق أن مشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء ، والإنسان وإن كان له مشيئة ، فهى داخلة تحت مشيئة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾(١) .

قوله : « ثم أخذها ابن أبى قحافة » أبو قحافة هو عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم ، والد أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

« فنزع ذنوبا أو ذنوبين » الذنوب الدلو المملوء ماء .

« وفى نزعه ضعف والله يغفر له » فى رواية مسلم « وفى نزعه والله يغفر له ضعف »(٢) .

وفى رواية له : « بينا أنا نائم أريت أن أنزع على حوضى أسقى الناس ، فجاء أبو بكر ، فأخذ الدلو من يدى ليريحنى ، فنزع دلوين ، وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ، فجاء ابن الخطاب ، فأخذ منه ، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآن ينفجر » وهذا يفسر الرواية المذكورة هنا .

والضعف المذكور إشارة إلى قلة المال من المغانم ونحوها فى وقته بالنسبة إلى زمن النبى ﷺ وزمن عمر ، وذلك لما حصل من انتكاسة الناس وارتداد أكثر العرب عن الإسلام ، فانشغل فى قتالهم ، وإدخالهم فى الإسلام مرة أخرى ، وهذا العمل أفضل مما حصل فى وقت عمر ومن بعده من الخلفاء ، من الفتوح .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .
(٢) انظر مسلم جـ ٤ ص ١٨٦٠ .

وقوله : « والله يغفر له » إشارة إلى أن ما يقع فى الأمة من صدود عن الله أو انحراف فإن الإمام قد يكون مسئولا عن ذلك ، إذ هو القائد الذى يجب أن يقودهم إلى الصلاح والخير ، ويحملهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ولذلك أخبر أن هذه المسئولية مغفورة لأبى بكر ، لأنه بذل جهده فى ردهم إلى الإسلام حتى استقاموا على الحق ، والعلم عند الله .

قوله : « ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا » أى الدلو تحولت إلى غرب ، والغرب بفتح الغين المنقوطة وإسكان الراء هى الدلو العظيمة المتخذة من جلود الإبل أو البقر ، والمعنى أن الدلو التى كنت أنزع بها وأخذها منى أبو بكر ، لما أخذها عمر بعد أبى بكر صارت غربا كبيرا يتسع لماء كثير .

« فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريَّه » العبقرى : الكامل من كل شيء .

قال فى القاموس : العبقرى : الكامل من كل شيء ، والسيد من الرجال ، قال الأصمعى : سألت أبا عمرو ابن العلاء ، عن العبقرى ؟ فقال : يقال هذا عبقرى قوم ، كقولك هذا سيد قوم ، وكبيرهم ، وشديدهم ، وقويهم ونحو ذلك .

وقيل العبقرى : الذى ليس فوقه شيء — يعنى من جنسه .

قال أبو عبيد : وأصل هذا فيما يقال أنه نسب إلى « عبقر » وهى أرض يسكنها الجن ، فصارت مثلا لكل منسوب إلى شيء رفيع »[1] .

وقال الراغب : « عبقر : قيل : هو موضع للجن ، ينسب إليه كل نادر من إنسان ، وحيوان ، وثوب ، ولهذا قيل فى عمر : لم أر عبقريا مثله ، ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ هو ضرب من الفرش فيما قيل جعله الله تعالى مثلا

---

(١) تاج العروس جـ ١٢ ص ٥١٤ .

لفرش الجنة »[1] .

« يفرى فريه » بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الراء وفتح الفاء الثانية وكسر الراء وفتح الياء المشددة ، قال ابن الأثير : « أى يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ويروى « يفرى فَرْيَهُ » بسكون الراء الثانية والتخفيف ، وحكى عن الخليل أنه أنكر التثقيل ، وغلط قائله .

وأصل الفرى : القطع ، يقال : فريت الشيء أفريه فريا ، إذا شققته وقطعته للإصلاح ، فهو مفرى »[2] .

وقال النووى : « أما يفرى ، فبفتح الياء ، وإسكان الفاء ، وكسر الراء ، وأما فريه فروى بوجهين ، أحدهما : فريه بإسكان الراء وتخفيف الياء ، والثانية بكسر الراء وتشديد الياء ، وهما لغتان صحيحتان ، وأنكر الخليل التشديد ، وقال : هو غلط واتفقوا على أن معناه : لم أر سيدا يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ثم ذكر ما ذكره ابن الأثير »[3] .

والمعنى : فلم أر رجلا كاملا ، قويا يستخرج الدلاء من البئر مثله ، حتى كثر الماء وشرب الناس ، وجلسوا حول الحوض الذى يصب فيه الماء لا حاجة لهم فيه ، وهذا معنى قوله : « حتى ضرب الناس حوله بعطن » كما فى رواية مسلم .

« فلم أر نزع رجل قط أقوى منه ، حتى تولى الناس ، والحوض ملآن ينفجر »[4] .

---

(١) المفردات ص ٣٢٠ .
(٢) النهاية جـ ٣ ص ٤٤٢ وانظر الفتح جـ ٧ ص ٤٦ ومشارق الأنوار جـ ٢ ص ٦٤ .
(٣) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٦٢ .
(٤) تقدم تخريجه .

قال النووى : « قال القاضى عياض : ظاهره أنه عائد إلى خلافة عمر خاصة ، وقيل : يعود إلى خلافة أبى بكر وعمر جميعا ، لأن ذلك تم بنظرهما ، وتدبيرهما ، وقيامهما بمصالح المسلمين ، وضرب الناس بعطن ، لأن أبا بكر قمع أهل الردة وجمع شمل المسلمين ، وألف بينهم ، وابتدأ الفتوح ، ومهد الأمور ، وتمت ثمرات ذلك وتكاملت فى زمن عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما »[1] .

وقال أيضا : « قال العلماء : هذا المنام مثال واضح لما جرى لأبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — فى خلافتهما ، وحسن سيرتهما ، وظهور آثارهما ، وانتفاع الناس بهما ، وكل ذلك مأخوذ من النبى ﷺ ، ومن بركته ، وآثار صحبته ، فكان النبى ﷺ هو صاحب الأمر فقام به أكمل قيام ، وقرر قواعد الإسلام ، ومهد أموره وأوضح أصوله وفروعه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأنزل الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، ثم توفى ﷺ فخلفه أبو بكر — رضى الله عنه — سنتين وأشهرًا ، وهو المراد بقوله : « ذنوبا أو ذنوبين » وهذا شك من الراوى ، بل هما ذنوبان ، كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وحصل فى خلافته قتال أهل الردة ، وقطع دابرهم ، واتساع الإسلام وعودة قوة المسلمين وهيبتهم .

ثم توفى فخلفه عمر — رضى الله عنه — فاتسع الإسلام فى زمنه ، وتقرر لهم من أحكامه ما لم يقع مثله ، فعبر بالقليب عن أمر المسلمين لما فيها من الماء ، الذى به حياتهم وصلاحهم ، وشبه أميرهم بالمستقى لهم ، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدبير أمورهم .

وأما قوله ﷺ فى أبى بكر — رضى الله عنه — : « وفى نزعه ضعف » .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٥ ص ١٦٢ .

فليس فيه حط من فضيلته ، ولا إثبات لفضل عمر عليه ، وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما ، وكثرة انتفاع الناس فى ولاية عمر لطولها ، ولاتساع الإسلام وبلاده وكثرة الأموال ، وغيرها من الغنائم والفتوح ، وتمصير الأمصار ، وتدوين الدواوين .

وأما قوله : « والله يغفر له » فليس فيه تنقيص له ، ولا إشارة إلى ذنب ، وإنما هى كلمة كان المسلمون يقولونها ــ افعل كذا والله يغفر لك .

قال العلماء : وفى كل هذا إعلام بخلافة أبى بكر وعمر ، وصحة ولايتهما ، وبيان صفتها ، وانتفاع المسلمين بها »[1] .

أما ما ذكره من أنه إعلام بصحة ولايتهما ، فهو أمر متفق عليه عند أتباع رسول الله ﷺ الذين آمنوا به ، ولم يخالف فيه إلا الذين دخلوا الإسلام تسترا لأجل هدمه ومحاربته أمثال الرافضة والإسماعيلية والنصيرية وهم ليسوا من المسلمين فى شىء ، ومن نظر فى كتبهم تيقن أنهم من أبعد الناس عن الإسلام .

وأما ما ذكر من أن قوة نزع عمر لطول مدته ، وضعف نزع أبى بكر لقصر مدته فهو خلاف ظاهر الحديث ، وإنما قوة نزع عمر كناية عن قوته فى الحق وصلابته وقوة عزيمته ، وضعف نزع أبى بكر كناية عن لينه ورقته ، ولا يلزم من ذلك أن عمر أفضل من أبى بكر إذا فضله فى خصلة من الخصال .

وأما المدة ، فعبر عنها بالدلاء ، فأبو بكر لم ينزع إلا ذنوبين ، بينما عمر نزع حتى روى الناس ، وتركوا الحوض ملآن .

١٠٢ ــ قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، قال : كان النبى ﷺ إذا أتاه

---

(١) شرح النووى على مسلم جـ ١٥ ص ١٦١ .

السائل ، وربما قال : جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال : « اشفعوا فلتؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ما شاء » .

الرسول ﷺ معلم الخير والداعى إليه ، فلم يترك طريقا يوصل الخلق إلى اكتساب الخير إلا دلهم عليهم ، وحضهم على سلوكه ، حتى الأمور التى قد يظن بعض الناس أنها أمور عادية ، لا تدخل فى العبادة مثل ما فى هذا الحديث ، وخصوصا عند رسول الله ﷺ فلا يتصور مسلم أن النبى ﷺ يمنع أحدا ما يستحقه ، أو يبخسه شيئا من ذلك ومع ذلك أمر بالشفاعة عنده ، وأخبر أن شفاعتهم لا تأثير لها فى مشيئة الله تعالى ، بل المقصود حصول الثواب للشافع .

وأما ما يقع للمشفوع له فهو ما يقضيه الله تعالى ويشاؤه ، ولهذا قال : « اشفعوا فلتؤجروا ، ويقضى الله على لسان رسوله ما يشاء » .

والشاهد فيه أن مشيئة الله تعالى لا تؤثر فيها شفاعة ولا غيرها ، بل ما شاء فعله ، فعله ، وما شاء تركه ، تركه ، لاراد لما أراد ، ولا يمنع ذلك فعل الأسباب ، ولا كون المسببات مرتبة على أسبابها ، فكلها بمشيئة الله .

١٠٣ ــ قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، سمع أبا هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، ارحمنى إن شئت ، ارزقنى إن شئت ، وليعزم مسألته ، إنه يفعل ما يشاء ، لا مكره له » .

تقدم هذا الحديث من رواية أنس وبينا الحكمة فى النهى عن ذلك .

قال النووى : « قال العلماء : عزم المسألة ؛ الشدة فى طلبها ، والجزم من غير ضعف فى الطلب ، ولا تعليق على المشيئة ونحوها .

وقيل : هو حسن الظن بالله تعالى فى الإجابة . ومعنى الحديث : استحباب

الجزم فى الطلب وكراهة التعليق على المشيئة .

قال العلماء : كراهة ذلك أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله تعالى منزه عن ذلك ، وهو معنى قوله ﷺ فى آخر الحديث فإنه لا مكره له .

وقيل : سبب الكراهة أن فى هذا اللفظ صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه »[1] .

وقال الحافظ : « النهى لأن التعليق بالمشيئة إنما يحتاج إليه إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشىء ، فيخفف الأمر عليه ، ويعلمه بأنه لا يطلب منه الشىء إلا برضاه ، والله تعالى منزه عن ذلك ، فلا فائدة للتعليق . وقيل : لأن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب ، والمطلوب منه ، والأول أولى »[2] .

قلت : كلا الأمرين دل عليهما النهى ، ويدخلان فيه كما تقدم .

وكلام النووى رحمه الله ظاهره أن النهى للكراهة ، وليس للتحريم ومثله كلامه فى الأذكار ، فإنه قال : « ويكره أن يقول فى الدعاء : اللهم اغفر لى إن شئت ، أو إن أردت ، بل يجزم بالمسألة »[3] .

وهذا خلاف ظاهر الحديث ، ولا أدرى ما دليله على ذلك ، وقد جاء فى رواية فى الصحيحين ، قال النبى ﷺ : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم فى الدعاء فإن الله صانع ما شاء »[4] ، وهذا ظاهر فى التحريم ، والقاعدة أن النهى يحمل على التحريم ما لم يدل دليل على أنه لكراهة التنزيه .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٧ ص ٧ .
(٢) الفتح جـ ١ ص ١٤٠ .
(٣) ص ٤٩٦ .
(٤) انظر الفتح جـ ١١ ص ١٣٩ ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٣ رقم ٢٦٧٩ .

قال ابن عبد البر : « لا يجوز لأحد أن يقول : اللهم أعطنى إن شئت [سواء] من أمور الدين أو الدنيا ، لأنه كلام مستحيل لا وجه له ، إذ لا يفعل إلا ما يشاء » .

قال الحافظ : « وظاهره أنه حمل النهى على التحريم ، وهو الظاهر ، وحمله النووى على كراهة التنزيه ، وهو أولى »[1] .

قلت : بل الأولى مادل ظاهر النص عليه ، وهو التحريم .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « إنه يفعل ما يشاء لا مكره له » أى أنه تعالى لا يحمله دعاء ولا غيره على فعل ما لا يريد ، فلا يمكن أن يقع فى الوجود إلا ما شاء ، أما المخلوق فإنه قد يكره على فعل ما لا يريد .

١٠٤ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو حفص عمرو ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى ، فى صاحب موسى ، أهو خضر ، فمر بهما أبى بن كعب الأنصارى ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى ، الذى سأل السبيل إلى لقيه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك ؟ فقال موسى : لا ، فأوحى إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل : إذا فقدت الحوت

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٤٤ .

فارجع ، فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر ، فقال فتى موسى : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، قال موسى : ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله » .

المراء : المجادلة ، يقال : ماريته ، أماريه مماراة ، ومراء ، ولا يكون المراء إلا اعتراضا بخلاف الجدال ، فإنه يكون ابتداء ، واعتراضا ، فهو أعم »[1] .

فقوله : « تماريت » أى جادلت معترضا عليه ، وهو كذلك ، فى أن صاحب موسى هو الخضر ، وكان الحر بن قيس يرى أنه غيره .

قال الحافظ : « لم يذكر ما قال الحر بن قيس ، ولا وقفت على ذلك فى شىء من طرق الحديث ، والخضر : بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، أو بكسر أوله ، وإسكان ثانيه »[2] .

وفى ذلك جواز المجادلة فى العلم ، إذا كان بغير تعنت وازدراء لغيره .

وفيه إنصاف الصحابة وأدبهم فى طلب العلم .

وقد جاء فى بعض طرق الحديث فى الصحيح ، أن ابن عباس لما رأى أبيا قام إليه وسأله .

وفيه الرجوع إلى العلماء عند التنازع ، وقبول الحق ممن قاله ، وقبول خبر الواحد الصدوق ، وفضل العلم وأهله .

قوله : « بينا موسى فى ملأ بنى إسرائيل » أى فى أشرافهم ، ورؤسائهم

---

(١) المصباح جـ ٢ ص ٧٨٢ .
(٢) الفتح جـ ١ ص ١٦٩ .

قال فى المصباح : « الملأ مهموز : أشراف القوم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف ، وجودة الرأى ، لأنهم يملؤون العيون أبهة ، والصدور هيبة »[1] .

وقال الراغب : « الملأ : جماعة يجتمعون على رأى ، يملؤون العيون ، رواءً ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا »[2] .

وجاء هذا اللفظ فى كتاب الله تعالى كثيرا .

« إذ جاءه رجل ، فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك » كأن هذا الرجل أعجبه ما سمعه من موسى — عليه السلام — من العلم ، فدعاه ذلك إلى هذا السؤال ، ويدل لذلك ما ذكره فى التفسير .

« أن موسى ذكر الناس يوما ، حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولّى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله ، هل فى الأرض أحد أعلم منك »[3] .

وفى صحيح مسلم : « بينما موسى عليه السلام فى قومه ، يذكرهم بأيام الله — وأيام الله نعماؤه — إذ قال : ما أعلم فى الأرض رجلا خيرا ، أو أعلم منى »[4] .

« فأوحى إلى موسى : بلى عبدنا خضر » قال الحافظ : « ظاهر هذا أن الخضر نبى ، بل نبى مرسل ، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالى على الأعلى ، وهو باطل » .

---

(١) جـ ٢ ص ٧٩٧ — ٧٩٨ .

(٢) المفردات ص ٤٧٣ .

(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٤١١ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ١٨٥٠ .

ثم قال : « والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص ، لقوله بعد ذلك : « إنى على علم من علم الله ، علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله ، لا أعلمه » ، والمراد بكون النبى أعلم أهل زمانه — أى ممن أرسل إليهم ، ولم يكن موسى مرسل إلى الخضر ، فلا نقص على موسى ، إذا كان الخضر أعلم منه .

ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ وينبغى اعتقاد كونه نبيا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل فى دعواهم أن الولى أفضل من النبى »[1] ، وهذا لا يكفى لاعتقاد كونه نبيا ، بل يجب الاعتماد على الأدلة الشرعية ، وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ دليل على أنه فعله عن أمر الله بالوحى إليه ، ومن يوحى إليه فهو نبى .

« فسأل موسى السبيل إلى لقيه » أى سأل ربه أن يدله على الطريق إليه ، ويهيىء له أسباب ذلك .

« فجعل له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه » .

جاء بيان ذلك فى الرواية الأخرى ، أنه حمل حوتا بمكتل ، ووكل موسى — عليه السلام — ذلك إلى غلامه ، وقال له : إذا فقدته فأخبرنى ، فنزلا مكانا فيه صخرة على سيف البحر ، فاضطرب الحوت ودخل البحر ، ونسى الغلام أن يخبر موسى ، حتى تعبا ، وقبل ذلك لم ينلهما تعب ، عند ذلك « قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر سربا » يعنى الحوت كان طريقه يقف الماء عنه فيبقى لا ماء فيه .

---

(١) الفتح جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

« قال موسى : ذلك ما كنا نبغي » أى هو الذى نريد حيث جعل فقد الحوت علامة لنا على وجود الخضر .

« فارتدا على آثارهما قصصا » أى رجعا يتبعان آثارهما ويقصانها فلما وصلا الموضع الذى فقدا فيه الحوت وجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله » . يعني من خرق السفينة ، وإقامة الجدار بدون أجر ، وقتل الغلام .

وقد اختصر البخارى الحديث ولم يذكر محل الشاهد منه وهو قوله : « ستجدنى إن شاء الله صابرا » فوعد بأنه يصبر على ما يراه منه ، وأن يطيع أمره وعلق ذلك بمشيئة الله — تعالى — وهو عازم على ذلك ، ولكن الله — تعالى — لم يشأ لموسى الصبر على ما يراه من الخضر ، فلم يصبر .

فمهما كان عند المخلوق من القوة والعزم فإنه لا يستطيع فعل شيء إلا أن يشاء الله تعالى .

١٠٥ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى .

وقال أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « ننزل غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر يريد المحصَّب » .

ذكر هذا الحديث فى كتاب الحج بلفظ يوضح ما هنا ، حيث قال : « قال النبى ﷺ من الغد يوم النحر — وهو بمنى — نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر — يعنى بذلك المحصب ، وذلك أن قريشا ، وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى ﷺ » .

فهذا هو تقاسمهم على الكفر ، وفى هذا أن هذا القول وهو بمنى فى اليوم

الثانى عشر ، وذلك فى حجة الوداع . ويخالفه ما فى الفضائل : « قال رسول الله ﷺ حين أراد حنينا : « منزلنا غدا ـــ إن شاء الله ـــ بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »[1] .

وفى أخرى : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله ، الخيف حيث تقاسموا على الكفر » فهذه والتى قبلها صريحتان فى أن ذلك فى فتح مكة ، ولهذا قال بعض العلماء بتعدد هذا القول منه ﷺ فى غزوة الفتح ، وفى حجة الوداع ، فإنه ﷺ نزل هناك بعد ما خرج من منى »[2] .

« وكان تقاسمهم على الكفر فى أول يوم من محرم السنة السابعة من البعثة كما ذكر ذلك أصحاب المغازى والسيرة ، وذلك لما رأت قريش أن الصحابة الذين هاجروا قد وجدوا أرضا أمنوا فيها الافتتان والأذية ، وأن أمر الرسول ﷺ يقوى ويزداد ظهورا ، فقد دخل فى الإسلام عمر بن الخطاب ، وفشا الإسلام فى القبائل ، لذلك اجتمع رأيهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ .

فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ومنعوه ممن أراد قتله .

لذلك كتبت قريش عهدا بينهم بمقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب بأن لا يبايعوهم ، ولا يناكحوهم ، ولا يتعاملوا معهم ، وكتبوا ذلك فى صحيفة ، وعلقوها بالكعبة .

قال ابن اسحاق : فأقاموا على ذلك ثلاث سنين ، حتى اشتد الأمر عليهم ، فسعى فى نقض هذا العهد بعض رجالات قريش ، فهذا هو تقاسمهم على

---

(١) انظر الفتح جـ ٧ ص ١٩٢ .

(٢) انظر الفتح جـ ٨ ص ١٤ .

الكفر »[1] .

قال الحافظ : « ويختلج فى خاطرى أن ما بعد قوله : « يعنى المحصب » مدرج من كلام الزهرى » .

والخَيْف بسكون الياء : ما ارتفع من الوادى قليلا من مسيل الماء ، ولا يكون إلا بين جبلين ، ومنه مسجد الخَيْف بمنى ، لأنه فى خيف الجبل ، والأصل : مسجد خيف منى ، فخفف[2] .

وكنانة : هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، وهو الجد الرابع عشر للنبى ﷺ ، وأولاد كنانة أربعة ، النضر ، ومالك ، وعبد مناة ، وملكان .

والنضر : هو قريش ، فما كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى ، ولذلك قال فى الحديث : « إن قريشا وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى عبد المطلب » .

وقيل : قريش هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، فمن كان من ولد فهر فهو قرشى ، وإلا فليس بقرشى ، فالله أعلم[3] .

والمقصود من الحديث قوله : « ننزل غدا إن شاء الله » حيث علق ما هو عازم على فعله ، وقد توافرت أسباب ذلك لديه على مشيئة الله ــ تعالى ــ فإنه لو شاء لجعل الممكن الميسور عسيرا ممتنعا ، وليس قول ذلك لمجرد التبرك ، بل لأن حصول ذلك مشروط بمشيئة الله ــ تعالى ــ .

---

(١) المصدر المذكور جـ ٧ ص ١٩٢ .

(٢) انظر المصباح جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٣) انظر مختصر السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٩٦ .

على بنى فلان درهما درهما ، أى لكل واحد درهم[1] .

قوله : « ثم عجزوا » لا يلزم ما نقله الحافظ ، عن الداودى من الإشكال ، فى أنه إذا كان المراد من مات مسلما فلا يوصف بالعجز ، وإن أريد من مات بعد التبديل والتغيير ، فهو كافر لا يعطى أجرا . وهذا غير لازم ولا مراد ، ولا داعى لتكلف الجواب عليه ، لأن المقصود ضرب المثل لهذه الأمة مع أهل الكتاب مجموع هؤلاء مع أولئك ، ولا يقصد كل فرد بعينه ، وهذا واضح .

قال ابن العربى : « المثل بفتح الميم والثاء : عبارة عن تشابه المعانى المعقولة .

والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء : عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ويدخل أحدهما على الآخر »[2] .

والقيراط النصيب المقدر ، وهو فى الأصل نصف دانق ، والدانق سدس درهم ، وقد يقصد بالقيراط الشىء لكثير ، كما فى الحديث « من شهد الجنازة ، حتى يصلى عليها ، فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراط ؟ قال مثل الجبلين العظيمين »[3] .

قوله : « ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس » مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل ، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر ، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر ، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو نهاية الدنيا ، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر ، وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم : هل ظلمتكم من عملكم شيئا ؟ قالوا : لا قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٣٩ .
(٢) طرح التثريب جـ ٨ ص ٢٢١ .
(٣) رواه مسلم جـ ٢ ص ٦٥٢ رقم ٩٤٥ والترمذى جـ ٢ ص ٣٥٨ رقم ١٠٤٠ .

وهذا هو المقصود من الحديث ، أن مشيئة الله نافذة ، لا يحكمها عرف أو نظر أو غير ذلك ، بل ما شاء فعله فعله ، وما لم يشأ لا يقع .

وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة ، ومن سلك طريقهم ، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة ، بأنه يجب أن يفعل كذا ، ويمتنع أن يفعل كذا ، كقولهم : يجب أن يعذب العاصى ، ويثيب المطيع بحكم العقل قياسا منهم على المخلوق ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

٩٤ ــ قال : « حدثنا عبد الله المسندى ، حدثنا هشام ، أخبرنى معمر ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس ، عن عبادة بن الصامت ، قال : بايعت رسول الله ﷺ فى رهط ، فقال : « أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فأخذ به فى الدنيا فهو كفارة وطهور ، ومن ستره الله فذلك إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم ، الأنصارى ، الخزرجى ، أحد النقباء من أعيان البدريين ، وسادة الصحابة وكبارهم ، شهد مع رسول الله ﷺ غزواته كلها ، وكان من حفظة كتاب الله ــ تعالى ــ مات بالرملة سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة رضى الله عنه وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ (١) .

المبايعة عبارة عن المعاهدة على فعل شىء أو تركه ، سميت بذلك تشبيها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٥ ، الاستيعاب جـ ٢ ص ٨٠٧ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ١٦ ، تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ١١١ ، الإصابة جـ ٥ ص ٣٢٢ .

بالمعاوضة المالية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1] .

بدأ بما هو أعظم المحرمات ، وهو الشرك بالله بأن يجعل ما هو لله من العبادة لغيره ، أو شيئا منها ، ولكونه أعظم المحرمات حرمت الجنة على المشرك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[2] ومنع صاحبه المغفرة إلا إذا تاب منه ، لهذا وجب على العبد أن يهتم بمعرفته حتى لا يقع فيه وهو لا يشعر ، كما هو حال كثير من الناس .

وقوله : « شيئا » نكرة فى سياق النهى فيعم جميع أنواع الشرك ، كبيره وصغيرة فعلا كان أو قولا .

والسرقة : هى أخذ مال غيره المحرز ، على وجه الخفية ، والخيانة فيه ، وهى من الجرائم الكبيرة ، فقد نفى الإيمان عن السارق .

وأما الزنا فهو أيضا جريمة شنيعة موجبة لسخط الله تعالى ومقته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[3] .

وقوله : « وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ » خص قتل الأولاد لأنه أشنع قتل وأعظمه ذنبا ، ولأن بعض العرب كان يستسيغه ، خوفا من العار ، أو الفقر ، ولأن الأولاد ليس لهم من يدافع عنهم إذا كان والدهم هو الذى يقتلهم .

والمقصود جميع أنواع القتل بغير حق ، فإنه من أكبر الكبائر ، وفاعله متوعد بالخلود فى النار ، ولعنة الله وغضبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

---

(١) الفتح جـ ١ ص ١٦ .
(٢) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

عَظِيمًا ﴾[1] .

وقوله : « ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم » البهتان : الكذب الذى يبهت سامعه ، لأنه خلاف الواقع .

قال الحافظ : « وخص الأيدى ، والأرجل بالافتراء ، لأن معظم الأفعال تقع بهما ، إذ هى العوامل ، والحوامل للمباشرة والسعى ، ولذلك يسمون الصنائع ، الأيادى .

وقد يعاقب الرجل بجناية قولية ، فيقال : هذا بما كسبت يداك ، ويحتمل أن يكون المراد : لا تبهتوا الناس كفاحا ، وبعضكم يشاهد بعضا »[2] والأول أولى .

قوله : « ولا تعصونى فى معروف » المعروف : ما عرف حسنه . وما جاء به الرسول وأمر به فهو معروف ، وحسن ، والشرع لا يأتى مخالفا للعقل والفطرة .

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف .

قال النووى : « يحتمل أن يكون المعنى : ولا تعصونى ، ولا أحدًا ولِىَ الأمر عليكم فى المعروف ، فيكون التقيد بالمعروف متعلقا بشىء بعده .

وقال غيره : نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان غير معصية لله »[3] ودخل فى قوله : « ولا تعصونى فى معروف » فعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ﷺ .

---

(1) الآية ٩٣ من سورة النساء .
(2) الفتح جـ ١ ص ٦٥ .
(3) الفتح جـ ١ ص ٦٥ .

قوله : « فمن وفى منكم » أى ثبت على العهد الذى أخذ عليه ، ووفى به ، دون وقوع فى مخالفة « وفى » بالتخفيف ، وفى رواية بالتشديد ، وكلاهما بمعنى واحد .

وقوله : « فأجره على الله » أطلق الأجر ، ولم يعينه لتفخيمه ، وجاء فى رواية تعيينه بالجنة ، وهى الغاية التى يتسابق إليها العاملون .

قوله : « ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به فى الدنيا ، فهو كفارة له وطهور » يعنى إذا وقع فى معصية مما ذكر أنه لا يفعله ، ثم أقيم عليه الحد فى الدنيا ، فإن إقامة الحد عليه تكون كفارة له ، وطهورا يطهره ، وهذا كما قال النووى مخصوص بالشرك ، فإنه لا كفارة له إلا بالتوبة منه .

قال النووى : « فيه تحريم هذه المذكورات ، وما فى معناها ، وفيه الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصى غير الكفر ، ولا يقطع لصاحبها بالنار ، إذا مات ولم يتب منها ، بل هو بمشيئة الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه ، خلافا للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يكفرون بالمعاصى ، والمعتزلة يقولون : لا يكفر ، ولكن يخلد فى النار ، وفيه أن إقامة الحد تكفر »[1] .

قوله : « ومن ستره الله ، فذلك إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وهو أن الله يفعل ما يشاء ، لا يحكمه شىء ولا يمنعه عما يريد شىء ، وهو حكيم عليم ، فمن أصاب معصية مما ذكر أو غيره فاستتر ، ولم يؤخذ بها فى الدنيا ثم مات بدون توبة ، فإن أمره إلى الله إن شاء أن يعذبه عذبه ، وإن شاء أن يعفو عنه عفا عنه .

وقد تقدم التنبيه أن هذا فيه رد لمذهب المعتزلة ، مشبهة الأفعال ، نفاة

---

(1) شرح مسلم جـ ١١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

الصفات ، الذين يحكمون على الله بمثل ما يحكمون به على الناس تعالى الله عن قولهم ، وفيه الرد على إخوانهم فى الضلالة ، الخوارج الذين يكفرون المؤمنين بالمعاصى .

٩٥ ــ قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن أبى أيوب ، عن محمد ، عن أبى هريرة أن نبى الله سليمان ــ عليه السلام ــ كان له ستون امرأة ، فقال : لأطوفن الليلة على نسائى فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل فى سبيل الله ، فطاف على نسائه ، فما ولدت منهن إلا امرأة ، ولدت شق غلام ــ قال نبى الله ﷺ : لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا يقاتل فى سبيل الله » .

قال فى كتاب الجهاد : « باب من طلب الولد للجهاد » ، ثم ذكر هذا الحديث يعنى أن الذى ينوى عند جماع زوجته حصول الولد لأجل أن يجاهد فى سبيل الله يحصل له بذلك أجر نيته ، وإن لم يولد له ، أو ولد له و لم يجاهد .

قوله : « كان له ستون امرأة » ، جاء فى رواية سبعون ، وفى أخرى : تسعون ، وفى أخرى : تسع وتسعون ، وفى أخرى مائة ، وكلها صحيحة .

قال الحافظ : « يجمع بينها بأن له ستين حرائر ، والزائد سرارى ، أو بالعكس وأما السبعون فللمبالغة ، وأما التسعون ، والمائة فما كان دون المائة وفوق التسعون ، فمن قال : تسعون ألغى الكسر ، ومن قال : مائة جبره »[1] .

قوله : « لأطوفن الليلة على نسائى » يقصد وطأهن ، وقد استدل المصنف

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٦٠ .

به على جواز مثل هذا الكلام أمام الناس .

وفيه : ما أعطى سليمان عليه السلام من القوة .

قوله : « فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل فى سبيل الله » قال هذا على سبيل التمنى للخير ، وإنما جزم به لأنه غلب عليه الرجاء ، لكونه قصد الخير وأمر الآخرة ، لا عرض الدنيا .

قال بعض السلف : نبه ﷺ فى هذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض ، ولذلك نُسّى الاستثناء ليمضى فيه القدر »[1] قلت : جاء فى رواية ذكرها البخارى فى الجهاد والأنبياء ، أن سليمان عليه السلام لما قال ذلك قال له صاحبه : قل : إن شاء الله ، وفى أخرى قال له : الملك ، فلم يقل إن شاء الله ، وهذا يدل على أنه لم ينس ، وأنه جزم بذلك لحسن قصده ، وقيام السبب ، فجوزى بعدم حصول المراد ، وهذه الرواية أظهر فى المقصود بهذا الباب ، وجاء فى رواية أخرى : ونسى أن يقول : إن شاء الله فيحمل على أن معنى النسيان : تركه مع علمه ، غير قاصد خروج ذلك عن مشيئة الله تعالى .

قوله : « فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام » الشق : النصف ، أى أنها جاءت بغلام ناقص ، لا يستطيع أن يعمل شيئا . وهذا يدل على أنه ليس لأحد مهما ملك من الأسباب أن يخرج عن مشيئة الله ــ تعالى ــ ، سواء كان نبيا ، أو ملكا ، أو غير ذلك ، فمشيئة الله هى النافذة فى كل شىء ، ومشيئة الخلق مقيدة بها ، لا يعملون شيئا ، ولا يتم لهم إلا بعد أن يشاءه الله تعالى .

قوله : « لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا ، يقاتل فى سبيل الله » .

---

(١) المصدر المذكور ص ٤٦١ .

فى رواية : لو قال : « إن شاء الله » فهذا هو الاستثناء المراد هنا .

وفى هذا قدرة الله — تعالى — على تغيير الواقع إلى ضده ، وما علم تعالى أنه لا يكون ، وما يمتنع صدوره عنه فلعدم إرادته ، لا لعدم قدرته عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[2] ونحو ذلك مما يبين فيه أنه — تعالى — لو شاء أن يفعل أمورًا لم تكن ، بل كان خلافها لفعل ، فدل ذلك على أنه قادر على ما علم أنه لا يكون .

وإذا قيل : هذا ممتنع ، قيل : امتناعه لعدم مشيئة الرب تعالى له ، لا لكونه ممتنعا فى نفسه ، ولا لكون الله تعالى غير قادر عليه . ووجه الاستدلال بالحديث ظاهر .

٩٦ — قال : « حدثنا محمد ، حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابى يعوده ، فقال : لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله ، قال : قال الأعرابى : طهور ؟ بل هى حمى تَفُورُ ، على شيخ كبير ، تُزِيرُه القبور ، قال النبى ﷺ : نعم إذًا » .

كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويتفقد أحوال المؤمنين ، وهذا الأعرابى يجوز أنه مهاجر إلى المدينة فمرض ، أو أنه جاء لحاجة .

والأعرابى : ساكن البرارى ، وأما العربى فهو أعم منه لأنه من ينتسب إلى العرب أو من يتكلم العربية .

---

(١) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٢) الآية ١١٨ من سورة هود .

﴿ فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾[1] .

فالأمة كل جماعة يجمعهم أمر من الأمور ؛ إما دين ، أو زمان ، أو مكان .

ويراد بها الملة والدين كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾[2] .

ويراد بها الطائفة من الزمان ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[3] أى بعد حين .

ويراد بها الإمام القدوة المتبع كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾[4] . والمقصود أن جماعة من هذه الأمة تبقى ظاهرة على دين الله ، منصورة إلى قيام الساعة وهذا من فضل الله تعالى أن جعل الحق باقيا ، لا يذهب ولا يضمحل وإن كثر محاربوه وأعداؤه ، كما هو الواقع والحمد لله على ذلك .

قوله : « لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم » هذا من نصر الله تعالى ، وتأييده لهذا الدين ، ومن آياته بقاء هذه الأمة ظاهرة ، منصورة على عدوها ، مع كثرة الأعداء ، ومحاربتهم لها بأنواع الأسلحة المادية والمعنوية ، ومع خذلان من هم على دينها من المسلمين .

فقوله : « من كذبهم » يقصد بهم الكفار من جميع الأجناس ، من ملاحدة ، ويهود ، ونصارى ، ومشركين ، ومرتدين وغيرهم .

وقوله : « ولا من خذلهم » يقصد بهم من قعد عن نصرتهم ممن هو على

---

(1) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(2) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .
(3) الآية ٤٥ من سورة يوسف .
(4) الآية ١٢٠ من سورة النحل .

دينهم ممن آثر الحياة الدنيا ، وركن إلى الدعة والراحة .

قال النووى : « المراد بقوله : « حتى يأتى أمر الله » الريح التى تأخذ كل مؤمن ومؤمنة ، ورواية « حتى تقوم الساعة » أو « إلى يوم القيامة » ، يعنى قربها وهو خروج تلك الريح .

وأما هذه الطائفة فقال البخارى : هم أهل العلم .

وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث ، فلا أدرى من هم .

وقال القاضى عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف ، وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض .

وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبى ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتى يأتى أمر الله المذكور . وفيه دليل لكون الإجماع حجة »(١) .

روى مسلم فى الصحيح من حديث سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة »(٢) .

قال النووى : « قال على بن المديني : هم العرب ، والمراد بالغرب الدلو

---

(١) شرح مسلم جـ ١٣ ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٥ رقم ١٩٢٥ .

الكبيرة وهى خاصة بهم .

وقال آخرون : المراد الغرب من الأرض . وقال القاضى عياض : المراد بأهل الغرب : أهل الشدة والجلد »[1] .

قال الحافظ : « ذكر يعقوب بن شيبة ، عن على بن المدينى ، قال : المراد بالغرب الدلو ، أى العرب ، لأنهم أصحابها ، لا يستقى بها أحد غيرهم .

لكن فى حديث معاذ : « وهم أهل الشام » ، فالظاهر أن المراد بالغرب البلد لأن الشام غرب الحجاز ، كذا قال ، وليس بواضح[2] .

ووقع فى بعض طرق الحديث « المغرب » وهو يرد التأويل ، ولكن يحتمل أن يكون بعض الرواة نقله بالمعنى الذى فهمه .

وقيل هم أهل القوة ، والاجتهاد .

ووقع فى حديث أبى أمامة ، عند أحمد أنهم ببيت المقدس[3] ، وعند الطبرانى نحوه ، وله أيضا فى الأوسط ، عن أبى هريرة : « يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس ، وما حوله ، لا يضرهم من خذلهم ظاهرين إلى يوم القيامة » .

قلت : « ويمكن الجمع بأن المراد ، قوم يكونون ببيت المقدس ، وهى من الشام ويسقون بالغرب ، وتكون لهم قوة فى جهاد العدو » ، ثم ذكر كلام النووى المتقدم ، ثم قال : « ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل

---

(١) شرح مسلم جـ ١٣ ص ٦٨ ملخصا .

(٢) يعنى أن الشام ليست غرب الحجاز ، وإنما هى شماله كما هو معلوم .

(٣) فى المسند عن أبى أمامة ، قال : لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق ، وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشام » المسند جـ ٥ ص ٢٤٩ ، فلعل الحافظ لديه نسخة فيها ما ليس فى المطبوعة فإن فيها سقطا .

يجوز اجتماعهم فى قطر واحد ، وافتراقهم فى أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد ، وأن يكونوا فى بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم ، أولًا ، فأولًا ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله »[1] .

وقوله : « فإذا انقرضوا جاء أمر الله » هذا خلاف ظاهر الحديث ، فإن أمر الله يأتى عليهم .

والمقصود من الحديث قوله : « حتى يأتى أمر الله » أى الأمر الذى يكون بقوله « كن » فأمره هنا مأموره ، الصادر عن قوله ، فقوله الذى هو « كن » يصدر عنه ذلك الأمر الآتى والفرق بينهما واضح فإن قوله صفة له لا يدخل فى المخلوقات ، وأما مأموره كالريح التى تقبض كل مؤمن ومؤمنة ، والساعة التى هى النفخ فى الصور فإن ذلك مأموره ، والله أعلم .

٨٧ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن عبد الله بن أبى حسين ، حدثنا نافع بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : وقف النبى ﷺ على مسيلمة فى أصحابه ، فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » .

ذكر هذا الحديث فى علامات النبوة ، وفى المغازى بأبسط مما هاهنا ، ولفظه « عن ابن عباس ، قال قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : لو

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٢٩٥ ملخصا .

سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت وهذا ثابت يجيبك عنى ، ثم انصرف عنه .

قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ : « إنك أرى الذى أريت فيه ما أريت » فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما العنسى ، والآخر مسيلمة »[1] .

وهذا كان فى آخر حياة رسول الله ﷺ كانْ فى سنة عشر من الهجرة وكان مسيلمة مع وفد قومه بنى حنيفة .

قال الواقدى : كانوا بضعة عشر رجلا ، وكان معهم الرحال بن عنفوة ومسيلمة بن حبيب الكذاب ، وكان فى رحالهم ، فلما أسلموا ، وأعطاهم جائزتهم ، ذكروا له أن مسيلمة فى رحالهم ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكانا » يعنى لكونه بقى يرصد رحالهم ، ويخدمهم فى ذلك .

فأخبروه بما قاله رسول الله ﷺ فتعلق بهذه الكلمة ، وقال : إنما قال ذلك لأنه عرف أن الأمر لى من بعده ، واشتدت فتنته لما شهد له الرحال ، بأنه شريك فى النبوة ، وقد كان تعلم شيئا من القرآن ، فكان يلقى على مسيلمة مما يحفظه من القرآن ، فيدعى مسيلمة أنه أوحى إليه ، فعظمت بذلك فتنته »[2] .

هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون ، عن ابن إسحاق وغيره .

قال الحافظ : « وسياق ما ذكره البخارى يخالف ما ذكره ابن إسحاق :

---

(١) البخارى جـ ٥ ص ١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٥ ص ٥٩ .

أنه قدم مع وفد قومه ، وأنهم تركوه فى رحالهم يحفظها لهم ، وذكروه له إلى آخر ما ذكره ، وهذا مع شذوذه ، ضعيف السند لانقطاعه .

وأمر مسيلمة كان عند قومه أكبر من ذلك ، فقد كان يقال له : رحمن اليمامة لعظم قدره عندهم .

وكيف يلتئم هذا الخبر الضعيف مع قوله فى هذا الحديث الصحيح أن النبى ﷺ اجتمع به ، وخاطبه ، وصرح له بحضرة قومه أنه لو سأله قطعة الجريد التى كانت بيده ما أعطاه إياها .

ويحتمل أن مسيلمة قدم مرتين ، الأولى كان تابعا ، والرئيس غيره ، ولهذا أقام فى رحالهم يحفظها ، ومرة متبوعا ، وفيها خاطبه النبى ﷺ ، أو القصة واحدة ، وكان تخلفه فى رحلهم أنفة منه واستكبارا »[1] والظاهر أنها مرة واحدة ، والمعتمد ما ثبت فى الصحيحين ، كما ذكر فى هذا الحديث .

ولما علم النبى ﷺ أن قصده الرئاسة والعلو ، وأنه ليس أهلا لما يطمع فيه ، وأن ذلك يخالف ما جاء به ﷺ ، فلم يأت لتأسيس حكم يورث من بعده ، وإنما جاء بالنبوة ، كما أخبر أن خلافة النبوة بعده تكون ثلاثون سنة ثم يكون ملكا »[2] .

ولهذا قال له : « لو سألتنى هذه القطعة من الجريد التى لا تساوى شيئا لم أعطكها ، لأنها خير منك ، ولأنك ليس لك من الأمر شيء ولا تستحق ، وما أنت بأهل لذلك .

قوله : « ولن تعدو أمر الله فيك » يعنى حكمه وقضاءه ، من شقاوتك التى حكم بها عليك قبل وجودك ، وأمر الله هنا هو أمره الكونى القدرى

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٨٩ ــ ٩٠ .
(٢) انظر المسند جـ ٥ ص ٤٤ وسنن أبى داوود رقم ٤٦٣٥ .

وهذه الجملة هى المقصود من الحديث كما مر التنبيه على ذلك .

قوله : « ولئن أدبرت ليعقرنك الله » أى أعرضت عن الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ فإنك لا تعجز الله فسوف يأخذك أخذ عزيز مقتدر ، وقد فعل ، فقتل شر قتلة ، فقطع دابر القوم الذين لا يؤمنون والحمد لله رب العالمين .

٨٨ ـــ قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن عبد الواحد ، عن الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة ، عن ابن مسعود ، قال : بينا أنا أمشى مع النبى ﷺ فى بعض حرث المدينة ، وهو يتوكأ على عسيب معه ، فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه أن يجىء فيه بشىء تكرهونه .

فقال بعضهم : لنسألنه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه النبى ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه .

فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتـوا مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال الأعمش : « هكذا فى قراءتنا » .

تقدم أن هذه الواقعة كانت فى المدينة ، وفى هذه الرواية نص على ذلك وفى هذا دليل على أن اليهود يعلمون أنه نبى ، لعلمهم أن الروح لا يعلم حقيقتها إلا الله ، ولأنهم قالوا : لا تسألوه أن يجىء فيه بشىء تكرهونه وهذا لا يأتى إلا بالوحى ، والذى منعهم من متابعته الحسد ، والبغى والكبر والعناد ، وقد تقدم شرح هذا الحديث .

والمقصود هنا قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أى مأموره الذى قال له كن فيكون ، فهو تعالى أوجد الأرواح بقوله ، فقوله غير الذى أوجده به كما تقدم إيضاح ذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾(1) .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾(2) .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(3) سخر ذلل » .

هذه ثلاث آيات ، أما الأولى والثانية فمعناهما واحد .

قال الحافظ : « جاء فى سبب نزولها ما أخرجه ابن أبى حاتم بسند صحيح ، عن ابن عباس ، فى قصة سؤال اليهود عن الروح ، ونزول قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة .

فنزلت : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق فى تفسيره من طريق أبى الجوزاء ، قال : لو كان كل شجرة فى الأرض أقلاما ، والبحر مداد ، لنفد الماء ، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات الله .

---

(1) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .
(2) الآية ٢٧ من سورة لقمان .
(3) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

وعن معمر ، عن قتادة ، أن المشركين قالوا : فى القرآن : « يوشك أن ينفد فنزلت »(١) .

وقال ابن جرير : « يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ﴾ للقلم الذى يكتب به « كلمات ربى لنفد » ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » يقول : ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مددا من قولك : جئتك مددا لك »(٢) .

وقال فى تفسير آية لقمان : « يقول تعالى ذكره : لو أن شجر الأرض كلها ، بريت أقلاما « والبحر يمده » يقول : والبحر له مداد ، والهاء فى قوله « يمده » عائدة على البحر ، وقوله : « من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » فى هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه عنه ، وهو « يكتب كلامه بتلك الأقلام ، وبذلك المداد ، لتكسرت تلك الأقلام ، ولنفد ذلك المداد ولم تنفد كلمات الله »(٣) .

وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن عظمته ، وكبريائه ، وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » أى ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت وجعل البحر مدادا ، ومده سبعة أبحر معه ، فكتب بها كلمات الله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدد ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، ولا أن هناك سبعة أبحر تحيط بالأرض .

فليس المراد بقوله : « بمثله » آخر فقط بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٥ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٣٩ .

(٣) المصدر المذكور جـ ٢١ ص ٨٠ — ٨١ .

هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته »[1] .

ففى هاتين الآيتين أكبر دليل على أن كلام الله غير مخلوق ، وأنه من صفاته ، إذ المخلوق لا بد أن يكون له نهاية ونفاد ، فإنه مسبوق بالعدم فلا بد أن يلحقه العدم .

أما كلام الله تعالى فلا نهاية له ، ولا نفاد ، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلاما يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر ، وأمسحت الأقلام ، وكلمات الله كما هى لم تنقص .

وليس معنى قوله : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى ﴾ أن كلمات الله لها نهاية ، وأنها يمكن أن تنفد ، بل المعنى أنها لا نهاية لها أبدا ، لأنها من صفاته تعالى .

وليس هذا وصف المخلوق ، وهذا وجه استدلال البخارى بهاتين الآيتين .

ومراده الرد على القائلين بخلق كلام الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآية .

ففيها يُعْلِمُ تعالى عباده بأنه ربهم ومالكم ، المتصرف فيهم كيف يشاء ، وهو الذى يصلح لهم حياتهم ، ويربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة .

وأنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وقد جاء بيانها فى السنة أن أولها الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، وأنه بعد خلقه السماوات والأرض استوى على عرشه ، وهو السرير العظيم ، وهو سقف المخلوقات ، وقد تقدم الكلام فيه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥١ ملخصا .

ويعلمهم تعالى أنه يدخل الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، أى يجعل أول هذا متصلا بآخر هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[(1)] فكل واحد يطلب الثانى أى يتبعه حثيثا أى سريعا .

ويعلمهم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » أى منقادة طائعة لأمره فجميع الكون بما فيه يسير حسب مشيئته ، فالخلق والأمر له وحده .

وفسر البخارى كلمة « مسخر » بأنه مذلل أى هى خاضعة له منقادة لأمره وهو تعالى لا يمتنع عليه شيء فكل شيء من حس وجامد فى الأرض والسماوات وما بينهما مسخر لأمره الكونى القدرى .

﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أى تعاظم وتقدس عن قول الظالمين الذين لم يقدروه حق قدره ، و « العالمين » جميع الخلق ، فكل ما سواه تعالى عالم ، وهو ربهم الذى يتصرف فيهم كيف يشاء .

والمقصود من الآية قوله : « ألا له الخلق والأمر » فهو دليل على أن الخلق غير الأمر ، لعطف الأمر على الخلق ، لأن العطف كما هو معلوم يقتضى المغايرة وبهذه الآية استدل الأئمة على أن الكلام غير الخلق ، وبها وأمثالها ردوا على المعتزلة الذين قالوا بخلق الكلام .

قال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق ، لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ فبين أن الخلائق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات ، بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

---

(1) الآية ٦ من سورة الحديد .

قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾(١) وكقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢) وكقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾(٣) ولم يقل بخلقه .

حدثنا أصبغ ، أخبرنى عبد الله بن وهب ، أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : ما القدر ؟ قال : يا مجاهد ، أين قوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾(٤) .

٨٩ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته ، أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى مسكنه ، بما نال من أجر أو غنيمة » .

تقدم هذا الحديث فى باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وتقدم شرحه هناك .

والمقصود منه هنا ، قوله : « وتصديق كلمته » إذ هى غير الجهاد فى سبيله ، وغير التصديق سواء قيل : هى كلمته الدينية الشرعية ، أو الكونية القدرية ، فكلمته من صفاته كما تقدم ، وهى غير خلقه ، هذا ما أراده البخارى رحمه الله من الحديث ، والله أعلم .

---

(١) الآية ٤ من سورة الروم .
(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٥ .

قال البخارى : قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شيء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه إنما يقول للشيء كن ، فيكون ، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »[1] .

قال : « باب فى المشيئة والإرادة » .

أى مشيئة الله وإرادته ، وهذا مما يتعلق بربوبيته — تعالى — وهو رب كل شيء وخالقه ومالكه ، يدخل فى ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها مثل أفعال العباد ، فإنه — تعالى — خالق العبد وفعله ، كما سيأتى — إن شاء الله تعالى — بيان ذلك .

وهو سبحانه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون فى الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولا يمتنع عليه شيء يريده ، بل هو القادر على كل شيء .

كما أنه سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد ذكر الله — تعالى — مشيئته عامة فى القرآن ، فى ما يقرب من أربعمائة موضع .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[3] وقوله : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[5] .

وقوله : ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ

---

(1) خلق أفعال العباد ص ٣٤ تحقيق عميرة .
(2) الآية ٣٥ من سورة الأنعام .
(3) الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(4) الآية ١٤٩ من سورة الأنعام .
(5) الآية ٩٩ من سورة يونس .

وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] وقوله : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾[5] ففى هذه الآيات ونحوها الرد على طائفتى الضلال ، نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة الله لأفعال العباد وحركاتهم ، وهداهم ، وضلالهم ، وهذا هو مراد البخارى من هذا الباب وسيذكر تفصيلا لهذا الباب فى الأبواب الآتية .

والله سبحانه وتعالى علق وجود كل شىء وعدمه بمشيئته ، فمرة يخبر أن كل ما فى الكون بمشيئته ، وأخرى يخبر أن ما لم يشأه لم يكن ، ومرة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع ، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذى قدره وكتبه ، وأنه لو شاء ما عصى ، ولو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة .

فكل ما وجد من عين أو حركة ، أو موت أو حياة ، أو مصيبة أو عز أو ذل أو غير ذلك فهو بمشيئته ، وكل ما لم يوجد ، ولم يقع فهو لعدم مشيئته لوجوده ، وهذا معنى كونه على كل شىء قدير ، وهو حقيقة ربوبيته لكل شىء ، ومعنى كونه القيوم بتدبير عباده ، فلا خلق ، ولا رزق ، ولا عطاء ولا منع ، ولا قبض ، ولا بسط ، ولا ضلال ، ولا هدى ، ولا سعادة ، ولا شقاء إلا بمشيئته وتكوينه ، إذ لا مالك غيره ولا رب سواه[6] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
(٢) الآية الأخيرة من سورة التكوير .
(٣) الآية ٣٩ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .
(٥) الآية ١٣٣ من سورة النساء .
(٦) انظر شفاء العليل ص ٤٤ .

فمشيئته تعالى تتعلق بخلقه ،وأمره الكونى والشرعى ، بما يحب وما يكره ، كل شيء داخل تحت مشيئته ، فقد شاء وجود إبليس والشياطين ، والكفار والفساق ، وهو يكره ذلك ويبغضه .

وكذلك ما يحبه ويرضاه كوجود الرسل والصديقين ، والشهداء والصالحين والطاعات ، وأمثال ذلك من امتثال أمره الدينى الشرعى فهو أيضا بمشيئته .

وأما الإرادة فقد بين الله تعالى أنها نوعان :

أحدهما الإرادة الكونية القدرية ، وهى مرادفة للمشيئة ، وهذه الإرادة تستلزم وقوع المراد ولابد ، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوبا لله مرضيا له .

بل قد يكون مكروها مسخوطا له ، ككفر الكافرين ، ومعاصى العاصين ، ووجود المفسدين .

وقد يكون مرادها محبوبا مرضيا لله تعالى كوجود إيمان المؤمنين ، وطاعات الطائعين ، ووجود رسل الله وعباده المخلصين ، والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣٤ من سورة هود .

مِن ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات الدالة على عموم إرادته لما يشاء ، وأنه لاراد لمراده تعالى ، ولهذا صارت هذه الإرادة مرادفة للمشيئة ، فالإرادة الكونية القدرية هى المشيئة ، ولهذا لابد أن يقع مرادها .

والنوع الثانى : الإرادة الدينية الأمرية الشرعية ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[4] وأمثال ذلك من الآيات فهذه الإرادة يحب الله مرادها ، ويأمر به ويرضاه ، ولا يلزم أن يقع المراد بها إلا أن يتعلق به الإرادة الكونية .

وقد أشار البخارى ـــ رحمه الله ـــ إلى نوعى الإرادة بالمثال ، فأشار إلى الإرادة الكونية بقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ، لأن الإرادة الكونية هى المشيئة العامة التى لا يخرج عنها شىء .

وأشار إلى النوع الثانى من الإرادة بقوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٦ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٢٦ ـــ ٢٨ من سورة النساء .

بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ فهذه الإرادة الدينية الأمرية ، التى تتضمن الأمر والمحبة والرضى ، فهذا ما دلت عليه نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومذهب أهل السنة وبه تتفق الدلائل ، وتنحل الإشكالات ، وتفصيل ذلك أن يقال :

الأشياء كلها لا تخرج عن أربعة أقسام :

• أحدها : ما تعلقت به الإرادتان ، الكونية ، والدينية ، وهو ما يقع فى الوجود من الأعمال الصالحة الموافقة لأمر الله وشرعه ، فإن الله أرادها دينا وشرعا ، فأمر بها ، وأرادها كونا ، وقدرا ، فوجدت ، ولولا إرادته إياها كونا لم توجد ، لأنه لا يوجد ما لا يريد وجوده ، ولا يمتنع عليه ما يريد وجوده كما تقدم .

والثانى : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى أمره فيها الكفار ، والفساق ، فلم يفعلوها ، فتلك الأعمال تعلقت بها الإرادة الدينية فقط ، لأنه أمر بها ، وطلب فعلها ، ولم يردها كونا وقدرا ، ولهذا تخلف وجودها ، وإن كان يحب وجودها ، ويرضاه ، ولكن لا يلزم وجود ما يحب ، ويرضى .

ولا يقال : هذا يخالف كونه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لأنه تعالى يريد قدرا وكونا ما لا يحب ويرضى ، كوجود إبليس ، وجنوده المفسدين فى الأرض بالمعاصى والكفر والفسوق ، وذلك لحكم عظيمة يعلمها تعالى ، ويطلع على ما يشاء منها من يشاء من عباده .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها ، كالمباحات والمعاصى ، فإنه لم يأمر بها ، ولم يرضها ولم يحبها ، إذ هو — تعالى — لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا إرادته الكونية ، وقدرته ، وخلقه لذلك لما كان شيء منها ، فإنه — تعالى — ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابع : ما لم تتعلق به الإرادتان ، فهذا ما لم يكن ، ولن يكون من الأفعال والأعيان[1] .

وبهذا البيان والتفصيل تزول الإشكالات التى يوردها أصحاب الشكوك والأهواء ، الذين لم يستنيروا بنور كتاب الله تعالى .

قوله : ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ يخبر تعالى أن الملك بيده ، فيعطى ملك الدنيا من يشاء من عباده ، وينزعه ممن يشاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] فبين أن جميع التصرف فى الكون ، ومن فيه بيده ، وأنه على كل شىء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾[3] فى هذه الآية الكريمة الرد على طائفتى الضلال ، القدرية ، والجبرية ، حيث أثبت ــ تعالى ــ للعباد مشيئة تتعلق بأفعالهم ، وأخبر أن مشيئتهم ، وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم ، فلا تحصل لهم المشيئة ، ولا الفعل حتى يشاء تعالى ذلك وسيأتى تفصيل ذلك ، وبيان بطلان قول القدرية الذين يقولون : إن العباد يخلقون أفعالهم ويوجدونها استقلالا دون مشيئة الله وقول الجبرية ، الذين يجعلون العبد بمنزلة الآلة التى لا تصرف لها ولا خيار .

قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[4] هذه الآية نزلت فى عم النبى ﷺ أبى طالب ، ففى الصحيحين

---

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .
(٢) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٣٠ من سورة هل أتى على الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .
(٤) الآية ٥٦ من سورة القصص .

عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب ــ آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(1) الآية ، وأنزل الله فى أبى طالب : وقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ ﴾(2) .

قال ابن كثير : « يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد « لا تهدى من أحببت » أى ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ ﴾(3) .

وقال : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾(4) .

وهذه الآية أخص من ذلك كله ، فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ ، أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب »(4) .

---

(1) الآية ١١٣ من سورة التوبة .
(2) انظر البخارى جـ ٦ ص ٦٥ ومسلم فى الإيمان جـ ١ ص ٢٤ .
(3) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .
(4) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٥٧ .

٩٠ ــ قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الوارث ، عن عبد العزيز ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعوتم فاعزموا فى الدعاء ، ولا يقولن أحدكم : إن شئت فأعطنى ، فإن الله لا مستكره له » .

الدعاء عبادة للمدعو بالرغبة والرهبة ، والذل والاستكانة والافتقار ، ولهذا صار صرفه لغير الله شركا أكبر ، لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

والله جل وعلا هو رب الخلق وإلههم ، خلقهم وتعبدهم ، وجعل مصيرهم إليه وهو يملك كل شيء ، حتى أفعالهم الاختيارية لا يمكن أن تقع إلا بمشيئته .

ويملك هداية قلوبهم وإزاغتها ، وهو الذى يحبب الإيمان إلى من يشاء ، ويكرهه إلى من يشاء ، ويكره الكفر والفسوق والعصيان إلى من يشاء ، ويحببه إلى من يشاء ، وبهذا يعلم شدة حاجة الإنسان إلى دعاء الله ــ تعالى ــ بصدق وإلحاح ، وعزم قوى ، ورغبة شديدة ، لأنه فقير فقرا ذاتيا لا ينفك عنه لحظة واحدة إلى ربه ، ولاخلاص له من العذاب السرمدى إلا إذا منّ الله عليه وتفضل بهدايته ، لذلك وجب أن لا يعلق الدعاء على مشيئته ــ تعالى ــ فهذه علة النهى ، والعلة الثانية ما ذكره ﷺ بقوله : « فإنه لا مستكره له » فإن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله تعالى يعطى ما لا يريد ، كما يحصل لابن آدم ، وهذا لا يجوز اعتقاده فى الله .

والمقصود أنه يحرم تعليق الدعاء بالمشيئة لعلتين : إحداهما ، إشعار ذلك باستغناء الداعى عما يدعو ، وهو خلاف الواقع ، وخلاف العبودية الواجبة على العبد .

والثانية ، إشعار ذلك بأن الله قد يعطى ما يكره عطاءه ، فيجب على العبد أن يدعو ربه بعزم لا تردد فيه ، وبرغبة وإلحاح وإظهار الافتقار والفاقة .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم فى الدعاء ، فإن الله صانع ما يشاء ، لا مكره له » .

وفى رواية : « ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شىء أعطاه » .

قال النووى : « قال العلماء : عزم المسألة : الشدة فى طلبها ، والجزم من غير ضعف فى الطلب ، ولا تعليق على مشيئته ونحوها .

وقيل : هو حسن الظن بالله — تعالى — فى الإجابة .

قال العلماء : سبب كراهته : أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله — تعالى — منزه عن ذلك ، وقيل : لأن فى هذا صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه »[1] .

وكلا المعنيين مشعر به الحديث ، والظاهر منه تحريم ذلك ، فالحديث ظاهر فيه ، ولا صارف له عنه ، والله أعلم .

٩١ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، ح .

وحدثنا إسماعيل ، حدثنى أخى عبد الحميد ، عن سليمان ، عن محمد بن أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن على بن حسين بن على ، أخبره أن على بن أبى طالب أخبره ، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال لهم : « ألا تصلون ؟ » قال على :

---

(١) شرح النووى لمسلم جـ ١٧ ص ١٧ .

فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ، ويقول : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ .

على بن أبى طالب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، كان من السابقين إلى الإسلام ، وعمره لم يجاوز العشر ، وكان فى بيت رسول الله ﷺ شهد مع رسول الله ﷺ سائر مشاهده مع الكفار ما عدا تبوك ، خلفه ليقوم بمصالح أهله ، ولما قال المنافقون : إنه استثقله لحق به فقال له : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

هلك فيه طوائف من الرافضة ، غلوًا فيه بين قائل بألوهيته ، وقائل بأنه وصى معصوم ، قتل سنة أربعين فى رمضان رضى الله عنه وعن سائر صحابة النبى ﷺ[١] .

« طرقه » أتاه ليلا ، وكل آت ليلا فهو طارق ، وقد يطلق على من يأتى نهارا كما فى قوله ﷺ : « وأعوذ بك من طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير »[٢] ولهذا قال : « طرقه وفاطمة بنت رسول الله » ، وهى زوجه لأنهما كانا نائمين .

« فقال لهم ألا تصلون » الخطاب لعلى وفاطمة ، وقد جمع الضمير العائد إليهما فى قوله لهم : « ألا تصلون » ، وهو سائغ فى اللغة .

---

(١) انظر الرياض المستطابة ص ١٦٣ ، أسد الغابة جـ ٤ ص ٩١ ، الإصابة جـ ٢ ص ١٠٥ ، تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٠ ، طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١١ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٢٤٤ .

« ألا تصلون » عرض عليهما يدل على أن الأمر غير واجب ، وإنما هو التماس يدل على الاستحباب .

« فقلت : يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا » إلى آخره .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وأراد بيان أنه لا يجوز معارضة الأمر الشرعي بالقدر كما صنع سلف القدرية المشركون فى قوله : ﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا ﴾(1) .

ففي هذا الحديث بيان أنه لا ينبغي معارضة الأمر بالقدر ، فإن قوله : « إنما نفوسنا بيد الله » إلى آخره استناد إلى القدر فى ترك امتثال الأمر ، وهذا القول فى نفسه حق ، ولكن لا يصلح لمعارضة الأمر ، بل معارضة الأمر بهذا من باب الجدل المذموم الذى قال الله فيه : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾(2) .

ولهذا انصرف عنه النبى ﷺ كارها لمقالته ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ ، وضربه فخذه يدل على كراهته لذلك أيضا ، وتعجبه من على كيف يعارض قوله له : « ألا تصلون » بتلك المقالة .

ومعلوم أن كل شيء بمشيئة الله ، فلو أن كل من أمر بأمر قال : إذا شاء الله فعلته ، وإذا شاء لم أفعله ، لتعطلت الأوامر كلها ، وساد هوى النفوس قال الحافظ : « فيه أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل ، وأنه ينبغي له أن يجاهد نفسه لقبول النصيحة ولو كان فى غير واجب »(3) .

---

(1) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .
(2) انظر مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٢٤٤ .
(3) الفتح جـ ١٣ ص ٣١٤ .

٩٢ ـ قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال ابن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفىء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها ، فإذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الكافر ، كمثل الأرزة ، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » .

قال فى المصباح : « الخامة الغضة من النبات ، والجمع خام ، وخامات ، والخام من الثياب الذى لم يقصر ، وثوب خام أى غير مقصور »[١] .

وقال الحافظ : « هى الطاقة الطرية اللينة ، أو الغضة ، أو القضبة ، قال الخليل : « خامة الزرع : أول ما ينبت على ساق واحد »[٢] .

قلت : قول الخليل هو الصواب فالزرع فى أول أمره يكون على ساق واحد ، ويكون لينا طيعا للريح ينثنى معها حيث أتت ، ولا تؤثر على صحته واعتداله ، فإذا سكنت رجع على ساقه قائما كأن لم يصبه شىء ، بل ربما ازداد قوة ونضارة ، وهذا هو المقصود من المثل ، فإن المؤمن تأتيه المصائب من نواح شتى ، ففى كل مرة يقال : هذه تهلكه ، ثم تنجلى ويعود إلى صحة إيمانه قويا سليما ، كأن لم يصب بأذى .

قال البكرى : الخامة الغضة من الزرع ، أول ما تستقل على ساق ، وألفه منقلبة عن ياء ، قال أبو عبيد : هى الغضة الرطبة وأنشد :

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده[٣]

---

(١) المصباح جـ ١ ص ٢٥١ .
(٢) الفتح جـ ١٠ ص ١٠٦ .
(٣) فصل المقال ص ٧ ، ٨ .

ومعنى « يفىء » يميل مع الريح ثم يرجع إلى اعتداله .

ومعنى « تكفئها » تميل بشدة .

قوله : « ومثل الكافر ، كمثل الأرزة صماء معتدلة » إلى آخره ، فى رواية « ومثل المنافق » ، وفى أخرى : « الفاجر » والمثل يصدق على الكافر والمنافق ، والفاجر هو الكافر ، وكلهم أريد بالمثل .

والأرزة هى شجرة الصنوبر ، وهو شجر قوى معتدل ، ولا بد له من نهاية ، فإذا شاء الله قصمه ، وأهلكه ، فإذا انثنى انكسر فلا يعود إلى اعتداله كخامة الزرع .

وكذلك الكافر والمنافق غالب حاله أنه معافى من المصائب ، كالمرض وغيره من مصائب المال والولد ، لأنه يعطى نصيبه من السعادة فى الدنيا ، ثم يوافى الآخرة مفلسا صفر اليدين ، فتكون حسرته أشد ، وهلاكه أنكى وأعظم ، وقد يصاب أيضا فى الدنيا .

أما المؤمن فمن رحمة الله — تعالى — به أن قدر عليه المصائب فى الدنيا ، حتى يكتسب بذلك الثواب ، أو يكفر عنه به من ذنوبه ، ليسلم له جزاء عمله فى الآخرة .

قال البكرى : « الأرزة ، شجرة معروفة ، وهى من أصلب الخشب ، قال أبو عبيد : وأهل العراق يسمونها الصنوبر ، وإنما الصنوبر ثمر الأرز .

ومعنى الحديث والله أعلم : أنه شبه المؤمن بالخامة التى تميلها الريح ، لأنه مرزٌّ فى نفسه ، وأهله ، وماله ، وولده ، وأما الكافر ، فمثل الأرزة التى لا تميلها الريح ، والكافر لا يرزُّ شيئا حتى يموت ، وإن رزئ لم يؤجر عليه ، فشبه موته بانجعاف تلك [الشجرة] حتى يلقى الله بذنوبه كملا ، والانجعاف السقوط والانقلاب »[1] .

---

(١) فصل المقال ص ٨ .

والشاهد قوله : « حتى يقصمها الله إذا شاء » فكل شيء ينتهي إلى مشيئة الله تعالى ، فلا يحدث حدث صغير أو كبير إلا إذا شاء الله ، كما تقدم أن مشيئة الله عامة لكل شيء ، وهو معنى أنه على كل شيء قدير .

٩٣ ـــ قال : « حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر ، يقول : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطي أهل التوراة التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطيتم القرآن ، فعملتم به حتى غروب الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا ؟ قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا فقال : فذلك فضلي أوتيه من أشاء » .

قوله : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » أي أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم ، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس ، إلى بقية النهار ، و « في » في قوله « فيما قبلكم » بمعنى إلى .

قوله : « أعطي أهل التوراة ، التوراة » إلى آخره ، شرح وبيان لما تقدم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها .

قوله : « قيراطا قيراطا » كرره ليدل على تقسيم القراريط على العمال ، لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته ، فيقولون : أقسم هذا المال

خلقه فيها جمعا خفيا »[1] .

وهذا الذى ذكره ابن رجب وشيخه ابن القيم ـــ رحمهما الله تعالى ـــ يكاد يكون متفقا مع ما يقرره الأطباء حديثا ، وقد أصبحت الأجنة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة ، وعندهم التخليق يبدأ مبكرا من أيام الأربعين الأولى ، وأحاديث رسول الله ﷺ لا تخالف الواقع ، وإنما يأتى الغلط من عدم فهم مراده ﷺ .

وقد ذكر خلق الإنسان فى مواضع عديدة من القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[3] وحديث عبد الله يتفق مع هذه الآية الكريمة .

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه ، وعظيم قدرته ، وعلى إعادته بعد موته ، وعلى وجوب عبادة الله وحده أكثر الله تعالى من ذكره فى كتابه ، وأمر عباده بالاعتبار به .

والملك الذى يرسل إلى النطفة فى الرحم خلقه الله لذلك وجعل ذلك وظيفته ، وقد جعل الله تعالى لملائكته أعمالا يختص بها كل فريق منهم .

قوله : « فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » .

---

(١) التبيان ص ٣٣٧ .
(٢) الآية ١٤ من سور نوح .
(٣) الآيتان ١٢ ـــ ١٤ من سورة المؤمنون .

قال الحافظ : « المراد بالكلمات : القضايا المقدرة ، وكل قضية تسمى كلمة »[1] .

وهذا هو الذى عناه العلماء بقولهم فى هذا الحديث : وجوب الإيمان بالقدر ، فكل ما سيجرى على هذه النطفة التى ذكر تكوينها فى أول بدايتها ، مكتوب مفروغ منه ، قبل وجودها ، فما تأكله مكتوب مسجل ، لا يزيد ولا ينقص ، وما تعمله كذلك ، وبقاؤها حية فى هذه الدنيا كذلك ، ونهايتها ومصيرها مسجل معلوم لله تعالى : فالسعادة ، والشقاوة قد سبق بهما الكتاب ، غير أن ذلك مقدر بحسب الأعمال التى يعملها هذا المخلوق ، ومرتب عليها ، بمعنى أن الله علم ذلك فكتبه ، وكل ميسر لما خلق له .

وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام ، لا يمكن أن يستقيم لأحد دينه إلا بالإيمان به ، وهو محل الشاهد الذى ساقه البخارى من أجله ، فقد سبقت كلمة الله لعباده السعداء بالسعادة قبل وجودهم ، وذلك فضل من الله ورحمة تفضل عليهم بذلك .

وظاهر حديث عبد الله بن مسعود هذا أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأخيرة وحديث حذيفة بن أسيد ظاهر فى أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى .

قال ابن رجب : « جمع بعضهم بينهما بأن الكتابة تكون مرتين ، ثم قال : وقد يقال : إن إحداهما فى السماء ، والأخرى فى بطن أمه .

والأظهر أنها مرة واحدة .

ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة ، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٨٢ .

الأولى ، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة »[1] .

وقال ابن القيم : « ما فى حديث ابن مسعود تقدير ثان بعد التقدير الذى ذكره فى حديث حذيفة ، فأول تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الإنسان .

والتقدير الثانى : تقدير عند كمال خلقه ، ونفخ الروح ، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره ، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره »[2] .

قوله : « ثم ينفخ فيه الروح » فى رواية لمسلم : « ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ». قال الحافظ : « ويجمع بأن هذه الرواية صريحة فى تأخير النفخ ، للتعبير بقوله « ثم » ، والأخرى محتملة ، فترد إلى الصريحة ، ولأن قوله فى رواية مسلم : « ويؤمر بأربع كلمات » معطوفة بالواو ، وهى لا تقتضى الترتيب فيكون عطف جملة على جملة ، والتقدير : « يجمع خلقه فى هذه الأطوار ، ويؤمر الملك بالكتابة » ، وجاء قوله : « ينفخ فيه الروح » متوسطا بين الجمل »[3] .

وقال ابن رجب : « إما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذى يفهمونه ، وإما أن يكون المراد ترتيب الأخبار فقط ، لا ترتيب ما أخبر به » .

وعلى كل فحديث ابن مسعود يدل على تأخير نفخ الروح فى الجنين وكتابة الملك [ما أمر به] إلى ما بعد أربعة أشهر ، حتى تتم الأربعون الثالثة .

فأما نفخ الروح فقد روى صريحا عن الصحابة — رضى الله عنهم — أنه

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٢٩ .
(٢) التبيان ص ٣٤٥ .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ٤٨٥ بمعناه ملخصا .

إنما ينفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر ، كما دل عليه ظاهر حديث ابن مسعود »[1] .

وقال عياض : « اختلفت ألفاظ هذا الحديث فى مواضع ، ولم تختلف أن نفخ الروح فيه بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس ، وهذا موجود فى الشاهد ، وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام ، وقيل إنه الحكمة فى عدة الوفاة »[2] .

والحديث يدل صراحة أن الملك هو الذى ينفخ فى الجنين الروح ، التى تحصل بها الحياة ، وتسرى فى الجسد ، وهى سر من الله ، لا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[3] .

قوله : « فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها » .

هذا مما يدل على ما أراده البخارى - رحمه الله — لأن سبق الكتاب لما سيكون صريح فى هذا النص ، وهو دليل على كمال علم الله — تعالى — وكمال قدرته ، وإحاطته بكل شيء ، فهو تعالى ، يعلم الأشياء قبل وجودها ، وكتب كل ما هو كائن ، فكل الحوادث تقع وفق علمه وكتابته .

فإذا وضعت النطفة التى يتكون منها الإنسان فى رحم المرأة ، وأراد تعالى تكوينها مخلوقا أمر بكتابة ما يعمله هذا المخلوق ، وما يكون له من رزق ، وما سيلاقيه فى حياته ، وما يؤول إليه وينتهى ، من سعادة أو شقاوة .

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٢) من الفتح جـ ١ ص ٤٨٥ .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

وهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق ، المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾(١) .

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » ونحو ذلك من النصوص .

وليس فى كتابة الله تعالى وتقديره كل شىء قبل وجوده منافاة لمشيئة الإنسان واختياره ، كما يتوهمه بعض الناس .

لأن الله تعالى كتب علمه بما يعمله هذا المخلوق ، وما يترتب على عمله ، ولم يجبره على فعل المعاصى ، بل نهاه عنها وزجره وحذره من فعلها وتوعده على ذلك وخلى بينه وبين نفسه ليختار ما يريد من غير إكراه وإلزام .

والمقصود أن هذا يدل على سبق الرحمة من الله لأهل السعادة قبل وجودهم حيث قدر ذلك وكتبه تفضلا منه وإحسانا ثم هيأهم للعمل لذلك ويسره لهم ، فيدخل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم هذا يدل على أن الجزاء مرتب على العمل ، فلا يدخل أحد الجنة إلا إذا عمل بعمل أهل الجنة ، ولا يدخل أحد النار إلا إذا عمل بعمل أهل النار .

قال ابن رجب : « فيه أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما ، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال ، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال التى هى سبب السعادة أو الشقاوة »(٢) .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الحديد .
(٢) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٣٢ .

وفيه أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة ، وهو فى الحقيقة من أهل النار ، فلابد أن يعمل بعمل أهل النار قبيل موته ، فيختم له بذلك وبالعكس لأن الكتاب سبق بذلك ، والحقيقة أن الذى سبق هو علم الله بأنه سوف يكون كذلك ، وقد كتب الله ذلك .

وهذا هو الذى أزعج كثيرا من السلف ، وأقلقهم .

قال ابن رجب : « بكى أحد الصحابة عند موته ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال : هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، ولا أدرى فى أى القبضتين كنت » .

وقال بعض السلف : الذى أبكى العيون أشد البكاء هو الكتاب السابق » .

وقال عبد العزيز بن أبى رواد : حضرت رجلا عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله ، فقال فى آخر ما قال : هو كافر بما تقول ، ومات على ذلك فسألت عنه ، فإذا هو مدمن خمر .

فكان عبد العزيز يقول : اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته .

وقال سفيان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال ذلك الرجل : تركتنى لا أفرح أبدا .

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق ، والخواتيم ، فكان يبكى ، ويقول : أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيا ، ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضا على لحيته ويقول : يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، ففى أى الدارين منزل مالك ؟

وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار ، فهو مغتر ، فلا يأمن الشقاء :

الأول : خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء فى الجنة ، ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ، ولا أبالى ، فلا يعلم فى أى الفريقين كان .

والثانى : لما خلق فى الظلمات الثلاث ، حين نادى الملك بالشقاوة أو السعادة ولا يدرى ، أمن الأشقياء هو أم من السعداء .

والثالث : ذكر هول المطلع بعد الموت ، فلا يدرى أيبشر برضاء الله ، أم بسخطه .

والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتا ، فلا يدرى مع أى الفريقين يسلك به .

وقال سهل التسترى : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

وكان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ، ويشتد قلقهم وجزعهم منه .

فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ،ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر .

وقد كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقيل له : يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟

فقال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ــ عز وجل ــ يقلبها كيف يشاء »(١) .

وفى الجملة فالخواتم ميراث السوابق ، فكل شىء سبق فى الكتاب السابق .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند جـ ٣ ص ١١٢ ، ٢٥٦ وجـ ٦ ص ٩١ ، ٣١٥ والترمذى من حديث أنس وأم سلمة وعائشة انظر الترمذى جـ ٥ ص ٥٣٨ .

وقد قيل : إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتم ، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق ، يقولون : ماذا سبق لنا »[1] .

٨١ ـ قال : « حدثنا خلاد بن يحيى ، حدثنا عمر بن ذر ، سمعت أبي يحدث ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ عن النبى ﷺ قال : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال كان هذا الجواب لمحمد ﷺ » .

المقصود أن كل شيء بتصريف الله وتدبيره ، فلا أحد يملك معه شيئا حتى يملكه هو ما يريد ، فله الأمر من قبل وجود الخلق ، ومن بعد وجودهم ، وما بين ذلك فلا يخرج من قبضته شيء ، فإذا وقع فى خلقه خير وفضل فبرحمته التى سبقت منه لهم ، وإن وقع غير ذلك ، فبعدلـه وسبب ذنوب خلقه ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأمره تعالى غير خلقه وأفعاله ، فلهذا قال ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فالتنزل فعل جبريل ، ولا يقع إلا بأمر الله تعالى فأمره تعالى سابق خلقه وما يفعلونه .

ذكر ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ قال :

احتبس جبريل عن النبى ﷺ حتى تكلم المشركون فى ذلك ، واشتد ذلك على نبى الله ، فأتاه جبريل ، فقال : اشتد عليك احتباسنا عنك ، وتكلم فى ذلك المشركون ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، إذا أمرنى بأمر أطعته ، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ أى بقول ربك ، ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ معناه : له ما بين أيدينا من أمر الآخرة لأن ذلك لم يجئ [وهو

---

(١) شرح الأربعين جـ ١ ص ١٣٧ ـــ ١٣٩

آت] ، فهو بين أيديهم ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وذلك ما قد خلفوه فمضى ، فصار خلفهم بتخليفهم إياه ، وما بين ذلك ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة »[1] .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى أنه تعالى علم كل شيء فلا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه صغير أو كبير ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا فى كتاب مبين ، قد كتبه قبل وجود خلقه لا من خشية نسيان أو فوات .

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث : أن الأمر الذى قال جبريل عنه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ يدخل فيه الأمر الكونى القدرى الذى سبق كل ما هو كائن ، والأمر الشرعى التكليفى ، ونزول جبريل إلى النبى ﷺ لا يكون إلا بالخير والبركة والنصر والتأييد للمؤمنين فهو مما سبقت به كلمته تعالى لرسوله ومن معه والله أعلم .

وقال البخارى فى كتابه خلق أفعال العباد : « قال الله — عز وجل — عن جبريل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر »[2] وتقدم أن أمر الله سابق لخلقه .

٨٢ — قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث بالمدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فسألوه ، فقام متوكئا على العسيب ، وأنا خلفه ، فظننت

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ٤٠١ — ٤٠٥ ببعض التصرف .
(٢) ص ١٨٣ تحقيق بدر البدر .

أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فقال بعضهم لبعض ، قد قلنا لكم لا تسألوه » .

قال ابن جرير : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعنى أنه من الأمر الذى يعلمه الله دونكم ، فلا تعلمونه ، ويعلم ما هو .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . خرج الكلام خطابا لمن خوطب به ، والمراد جميع الخلق ، لأن علم كل أحد سوى الله ــ تعالى ــ وإن كثر فهو فى علم الله تعالى قليل ، والمعنى : وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلا من كثير مما يعلم الله »[1] .

قوله : « فى حرث بالمدينة » فى رواية لابن أبى مردويه : « فى حرث للأنصار » ، وعند مسلم « كان فى نخل » وكل هذه الألفاظ تؤكد أن هذه الواقعة كانت فى المدينة ، ومعلوم أن سورة الإسراء مكية ، فإما أن يقال : إن هذه الآية مدنية ، وهو الأوجه ، فكثير من السور المكية يكون فيها آيات مدنية ، أو يقال : إنها نزلت مرتين للتأكيد ، كما قيل فى الفاتحة ، وغيرها .

وأما كونه ﷺ لم يجبهم بها من أول وهلة ، فلعله كان ينتظر الأمر يأتيه من الله ، إما بزيادة بيان أو بغير ذلك والله أعلم .

قوله : « وهو متكىء على عسيب » أى معتمد عليه وهو يمشى ، والعسيب بوزن عظيم هو جريد النخل ، بمنزلة الغصن من الشجرة ، ويسمى عسيبا إذا كان فيه خوصه ، فإذا أزيل الخوص فهو جريدة .

قوله : « فظننت أنه يوحى إليه » فى الرواية الأخرى « فعلمت أنه يوحى

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٥٧ .

إليه » وقد يستعمل الظن بمعنى العلم .

قال ابن كثير : « قوله ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء — تبارك وتعالى — .

والمعنى : أن علمكم فى علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه — تعالى — .

وقد اختلف فى الروح المسئول عنها هنا ، فقيل : المراد أرواح بنى آدم ، قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل فيه شيء فلم يحر إليهم جوابا ، فأتاه جبريل ، فقال له : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فأخبرهم النبى ﷺ بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : « جاءنى به جبريل من عند الله » .

وقيل : المراد بالروح هنا جبريل — عليه السلام — قاله قتادة .

وقيل : المراد : ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يقول : الروح ملك عظيم .

وقيل : المراد طائفة من الملائكة »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١١٢ — ١١٣ طبعة الشعب .

وقال الحافظ : « قال الأكثر : سألوه عن الروح التى تكون بها الحياة فى الجسد ، وقال أهل النظر : سألوه عن كيفية مسلك الروح فى البدن ، وامتزاجه به وهذا هو الذى استأثر الله بعلمه .

وقال القرطبى : الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان ، لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله ، ولا تجهل أن جبريل ملك ، وأن الملائكة أرواح .

وقال الرازى : اختار أنهم سألوه عن الروح الذى هو سبب الحياة ، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه .

وبيانه : أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيته ، أو عن صفته ، أو عن كيفية تعلقه بالبدن ، أو غير ذلك ، وقد سكت السلف عن البحث فى هذه الأشياء »[١] .

وقال ابن القيم : « فى المراد بالروح فى هذه الآية خلاف بين السلف والخلف .

وأكثر السلف ، بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم ، بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم »[٢] .

قال الحافظ : « الراجح أنها روح الإنسان » . وهذا هو الظاهر أن المراد : الروح الذى تحصل به الحياة ، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من المتأخرين وشراح الحديث .

وأما قول ابن القيم رحمه الله : « ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٤٠٢ بتصرف .

(٢) الروح ص ٢٣٧ .

إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله ، لا يعلمها الناس ، وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس ، من أهل الملل ، وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة »[1] .

فيقال : بل الروح من الغيب الذى لا يعلمه الناس ، فإن هذه الروح التى فى بنى آدم وإن تكلم فيها طوائف من الناس فهى مجهولة الحقيقة ، لا يعلمها إلا الله ، والذين تكلموا فيها تكلموا بالظنون ، و لم يصلوا إلى معرفة شىء من حقيقتها .

« قال بعض السلف فى تفسيرها : جرى بأمر الله فى أجساد الخلق ، وبقدرته استقر ، وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان »[2] .

« قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ من المعلوم قطعا أنه ليس المراد بالأمر ها هنا الطلب الذى هو أحد أنواع الكلام ، فيكون المعنى : إن الروح كلامه الذى يأمر به ، بل المراد بالأمر هنا : المأمور ، وهو عرف مستعمل فى لغة العرب ، وفى القرآن منه كثير ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أى مأموره الذى قدره ، وقضاه وقال له : كن فيكون ، وقوله : ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[3] أى مأموره ، الذى أمر به ، من إهلاكهم »[4] .

ومقصود البخارى من الحديث ، قوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعنى أنها كانت ووجدت بأمر الله ، فأمر الله ليس هو الروح ، وإنما وجدت الروح

---

(١) كتاب الروح ص ٢٣٧ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .
(٤) المرجع المذكور .

بأمره ، وهو سابق لما وجد به .

٨٣ ــ قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

« تكفل » معناه ضمن له حصول ما ذكر ، فلا يمكن فواته ، لأن الله ــ تعالى ــ إذا ضمن شيئا فلابد من حصوله لمن ضمنه له .

وفى رواية بدل « تكفل » « انتدب الله لمن خرج » ، ومعناه سارع بثوابه وحسن جزائه ، وقيل : أجاب إلى المراد ، ففى الصحاح : ندبت فلانا فانتدب أى أجاب إليه ، وقيل : معناه تكفل بالمطلوب ، ويدل عليه رواية « تكفل »[1] .

قلت : المعنى الأخير هو الصواب ، والمعنيان الأولان يدخلان فيه ، وقد جاء فى رواية مسلم « تضمن الله لمن خرج فى سبيله » ، والمعنى واحد .

وهذا من باب التأكيد ، وإلا فوعد الله لابد من وقوعه ، فإن الله لا يخلف وعده ، والتكفل : وعد وزيادة تأكيد لوقوعه بالضمان .

قوله : « لمن جاهد فى سبيله » الجهاد ، والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ، فهو بذل للجهد بالنفس والمال .

قال الراغب : « الجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَجَـٰهِدُواْ

(١) الفتح جـ ١ ص ٩٣ .

فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾[1] ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2] و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

والمجاهدة تكون باليد ، واللسان »[4] .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة : المشقة ، يقال : جهدت جهادا بلغت المشقة . وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس ، والشيطان ، والفساق .

فأما مجاهدة النفس ؛ فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ؛ فعلى دفع ما يأتى به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ؛ فيقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق ؛ فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب »[5] .

« سبيل الله » طريقه الذى شرعه لعباده المؤمنين ، وهو دينه وشرعه .

قوله : « لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلماته » أى ليس له أى دافع غير ذلك ، بل الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بوعده للمجاهدين فى سبيله هو الحامل له على الخروج ، وهذا هو الإخلاص لله تعالى فى الجهاد ،

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧٢ من سورة الأنفال .
(٤) المفردات ص ١٠١ .
(٥) الفتح جـ ٦ ص ٣ .

والإخلاص هو الذى يجعل العمل القليل كثيرا عظيما ، مع أنه شرط فى قبول العمل .

والتصديق بكلمات الله ــ تعالى ــ يشمل الإيمان بكلماته الأمرية الشرعية والعمل بها ، والإيمان بكلماته الكونية القدرية ، وهى التى سبقت بتقدير الأشياء كلها قبل وجودها .

وهذه الجملة هى المقصودة من الحديث هنا ، لهذا المعنى المذكور .

قوله : « بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » هذا هو الذى كفله الله لمن يخرج مجاهدا فى سبيله .

وسبيل الله تعالى هو الجهاد لإعلاء كلمته التى هى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أى عبادة الله وحده ، ومتابعة رسوله ﷺ وأن لا يحكم إلا بشرعه ، ولا يتعبد إلا بما جاء به رسوله .

فهذا هو غاية المجاهد فى سبيل الله ، فمن خرج مجاهدا لهذا الغرض ، فإن قتل ، أو مات فى مخرجه ذلك فهو فى الجنة ، وإن فاته ذلك فلا بد أن يصل إلى مسكنه الذى خرج منه بما نال من الأجر ، والغنيمة ، فهو متحصل على إحدى الحسنيين على كل تقدير ، وهذا هو الربح .

٨٤ ــ « حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن أبى موسى ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟

قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

الحمية : مأخوذة من الحم : وهو الحرارة المتولدة من الجواهر المتوقدة ، كالنار والشمس .

وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية .

وإذا كانت من أجل الباطل ، ومدافعة الحق ، فهى حمية الجاهلية .

والمقصود بالحمية : هنا القتال لأجل القومية ، أو الدنيا من أرض أو ملك أو غير ذلك لا لأجل إعلاء دين الله تعالى .

وأما الشجاعة : فهى الجرأة والإقدام على العدو بقوة ، ودون تهيب ، وهى من الصفات المحمودة ، إذا كانت فى الحق ، وهى من المفاخر التى يفتخر بها الناس فقد يقدم المرء على القتال لأجل إظهار شجاعته ، وحبه للقتال فقط .

وأما الرياء ، فهو : مراءاة الناس للأعمال الحسنة ، حتى يثنى عليه أو يحبوه ونحو ذلك ، وهذا كله من الشرك ، فقد يكون شركا أكبر ، وقد يكون أصغر على حسب الدافع وما يقوم بالنفس .

وقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » جواب جامع شامل لما ذكر فى السؤال وغيره ، من الأغراض ، والدوافع التى قد تدفع الإنسان إلى القتال ، فمن كان قصده فى قتاله ، رفع دين الله وإعزازه ، وأن لا يعبد معه غيره ، ولا يحكم إلا بشرعه ، فهو فى سبيل الله ، وإلا فليس فى سبيل الله .

والمقصود من الحديث قوله : « لتكون كلمة الله هى العليا » والذى يقاتل لذلك هو الذى سبقت له كلمة الله الكونية أنه من المنصورين ، لأنه من أتباع المرسلين فهو منهم فى هذا الحكم ، وهذا وجه الشاهد ، والله أعلم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء ، وإنما إذا أمر به مرة واحدة كان من غير تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى

لا يمانع ولا يخالف »[1] .

قال ابن بطال : « غرضه الرد على المعتزلة ، فى زعمهم أن أمر الله مخلوق ، فبين أن الأمر هو قوله للشىء « كن » ، فيكون بأمره له ، وأن أمره ، وقوله بمعنى واحد ، وأنه يقول : « كن » حقيقة ، وأن الأمر غير الخلق ، لعطفه عليه بالواو »[2] .

وقال الحافظ : « قال ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية :

حدثنا أبى قال : قال أحمد بن حنبل : دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة « أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب » الحديث ، وإنما نطق القلم بكلامه لقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فكلام الله سابق على أول خلقه ، فهو غير مخلوق .

وعن الربيع بن سليمان ، سمعت البويطى يقول : خلق الله الخلق بقوله : « كن » فلو كان « كن » مخلوقا ، لكان قد خلق الخلق بمخلوق ، وليس كذلك »[3] .

وقال البخارى : « قال سفيان إن كل شيء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه يقول للشىء « كن » فيكون ، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »[4] .

وقال : « وقيل لأبى عبيد : إن المريسى سئل عن ابتداء خلق الأشياء ، وعن قول الله — عز وجل — ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) تفسير ابن كثير ملخصا جـ ٤ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .
(٢) من الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٣ .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٤ .
(٤) خلق أفعال العباد ص ٣٤ .

فَيَكُونُ ﴾ ؟ فقال : كله صلة[1] فمعنى قوله : ﴿ ان نَّقُولَ ﴾ صلة ، كقوله : قالت السماء فأمطرت ، وكقوله : قال الجدار فمال ، قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[2] والجدار لا إرادة له ، فمعنى قوله : إذا أردناه كوناه ، فكان .

لم يكن عند المريسى جواب أكثر من هذا ، يعنى أن الله ـــ تعالى ـــ لا يتكلم .

قال أبو عبيد ، القاسم بن سلام : أما تشبيه قول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ إِذَا أَرَدْنَٰهُ ﴾ ، بقوله : قالت السماء فأمطرت ، أو : قال الجدار فمال .

فإنه لا يشبهه ، وهذه أغلوطة أدخلها ، لأنك إذا قلت : قالت السماء ، ثم سكت ، لم يدر ما معنى « قالت » ، حتى تقول : فأمطرت .

وكذلك إذا قلت : أراد الجدار ، ثم لم تبين ما معنى : أراد ، لم يدر ما معناه ، وإذا قلت : « قال الله » اكتفيت بقوله « قال » . فقال : كاف ، لا يحتاج إلى شىء يستدل به على « قال » ، كما احتججت ، « إذا قال الجدار فمال » ، وإلا لم يكن لقال الجدار معنى .

ومن قال هذا فليس شىء من الكفر إلا وهو دونه .

ومن قال هذا ، فقد قال على الله ما لم يقله اليهود ، والنصارى ، ومذهبه التعطيل للخالق »[3] .

يعنى أن القول إذا أسند إلى ما لا يعقل فلا بد أن يقيد بالفعل الذى يصدر من ذلك المسند إليه ، لأن القول عبارة عن ذلك الفعل .

---

(١) يعنى زائدا ليس له معنى .
(٢) الآية ٧٧ من سورة الكهف .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٥ .

فالمراد بقوله : قال الجدار ، فمال : الإخبار عن ميل الجدار ، وقوله حسب ما يليق به ، أما إذا أسند القول إلى من يتكلم حقيقة فلا يحتاج إلى أى قيد ، بل إذا قلت : قال أبو بكر ، فهم السامع أنه نطق بكلام ينتظر أن نذكره له .

وأراد البخارى أن يبين أن القول غير الشيء الذى أراد الله إيجاده ، فالقول صفة لله — تعالى — وبه يوجد الأشياء التى يريد وجودها ، فإذا قال لها : « كونى » كانت بلا مهلة ولا امتناع ، والقول والأمر سواء .

٨٥ — قال : « حدثنا شهاب بن عباد ، حدثنا إبراهيم بن حميد ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله » .

فى رواية مسلم عن المغيرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »[١] .

وفيه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[٢] .

وفيه أيضا من حديث جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة »[٣] .

قوله : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين » أى يستمرون فى الظهور على

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٣ رقم ١٩٢١ .
(٢) المرجع المذكور رقم ١٩٢٠ .
(٣) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٤ رقم ١٩٢٣ .

الناس يعنى أنهم يكونون على الحق منصورين ظاهرين على عدوهم .

قوله : « حتى يأتيهم أمر الله » أى حكمه وقضاؤه ، إما بقيام الساعة كما فى حديث جابر : « إلى يوم القيامة » أو بالريح التى يموتون منها ، كما جاء فى الحديث .

قال الحافظ : « أى غالبون من خالفهم ، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين ، بل مشهورون ، والأول أولى ، لما فى مسلم « لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين ، حتى تقوم الساعة » ، وفيه أيضا من حديث عقبة بن عامر ، « لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة »[1] . والمراد بالساعة الريح التى تقبض روح كل مؤمن ، وذلك قبيل الساعة ، فلا يبقى إلا شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة ، وهذا معنى الذى فى مسلم : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

وهذه الطائفة هم أتباع سنة رسول الله ﷺ .

قال البخارى ـــ رحمه الله ـــ : « هؤلاء هم أهل العلم »[2] أى العلم الشرعى الذين علموا ما جاء به الرسول ﷺ وعملوا به .

وقال الترمذى بعد روايته لهذا الحديث : « سمعت محمد بن إسماعيل يقول : سمعت على بن المدينى يقول : هم أصحاب الحديث »[3] .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله ، محمد بن على بن عبد الحميد الأدمى بمكة يقول :

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٢٤ ـــ ١٥٢٥ رقم ١٩٢٢ و ١٩٢٤ .
(٢) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٢٩٣ .
(٣) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٥٠٤ ـــ ٥٠٥ رقم ٢٢٢٩ .

سمعت موسى بن هارون ، يقول : سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن معنى هذا الحديث ، فقال : « إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدرى من هم » ، وهذا إسناد صحيح ، قال الحاكم : « فلقد أحسن أحمد ابن حنبل فى تفسير هذا الخبر ، أن الطائفة المنصورة ، التى يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة ، هم أصحاب الحديث »[1] .

والمقصود من هذا الحديث قوله : « حتى يأتيهم أمر الله » وهو أمره الكونى القدرى الذى قضاه ، وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فأوحاه الله إلى رسوله ليعلم أمته به فيؤمنوا به ، ويصدقوه ، فإذا وصل وقته قال الله تعالى : كن ، فيكون كما أراد .

ومراد البخارى أن أمر الله من صفاته ، فهو غير المخلوق ، وغير المأمور ، وهو مرادف للقول .

٨٦ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، حدثنى عمير بن هانئ ، أنه سمع معاوية ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

فقال مالك بن يخامر : سمعت معاذا يقول : وهم بالشام ، فقال معاوية : « هذا مالك يزعم أنه سمع معاذا يقول : وهم بالشام » .

« الأمة » تطلق على الجماعة من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) علوم الحديث ص ٣ .
(٢) الآية ٢٣ من سورة القصص .

فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة ، وكذب رسله قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[1] ولا يظلم الله أحدا من خلقه »[2] .

٧٧ ــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، يقال لهم : الجهنميون » .

« سفع » بفتح السين ، وسكون الفاء ، هو أثر تغير البشرة من حر النار أى يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم ، وتقدم أنهم يحترقون حتى يكونوا فحما .

قوله : « بذنوب أصابوها » أى أن إصابتهم بسفع النار جزاء على ما اقترفوه من الذنوب عقوبة لهم .

« ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته » أى يرحمهم الله تفضلا منه وجودا عليهم من غير استحقاق للجنة ، وهذا محل الشاهد من الحديث ، ووجهه أن هؤلاء لما كان معهم شيء من الإيمان صارت رحمة الله قريبة إليهم بالنسبة لمن هو فى النار ، وبقدر ما معهم من إيمان وإحسان .

والجهنميون نسبة إلى جهنم ، لأن أثر إحراقهم ظاهر عليهم .

قوله : « وقال همام : حدثنا قتادة ، حدثنا أنس » إلى آخره : يريد بيان أن عنعنة قتادة محمولة على السماع لأنه صرح بالتحديث من هذه الطريق . والله أعلم .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة تبارك الذى بيده الملك .

(٢) حادى الأرواح ص ٢٩٥ .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أن تَزُولا ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته العظيمة ، التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فلا تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ أى لا يقدر على إبقائهما بلا زوال ، واضطراب إلا هو — تعالى — ومع موجب زوالهما واضطرابهما من جرائم بنى آدم أمسكهما ، فحلم الله الواسع ، ومغفرته العظيمة تدعوه تعالى إلى إمساكهما ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فيحلم ويغفر ، ويستر ، ويصفح عن العظيم مما يبارزه به عباده من الجرائم ، كما ذكر تعالى عن بعض المجرمين ما يقتضى تفطر السماوات ، وتشقق الأرض ، وانهداد الجبال الراسيات منه ، ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴾[3] .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الحج .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٤٣ ط الشعب .
(٣) الآيات ٨٨ — ٩٢ من سورة مريم .

ومراد البخارى — رحمه الله — من هذا الباب إثبات جنس الفعل لله تعالى لقوله فى الآية « يمسك » وقوله فى الحديث « يضع السماوات على إصبع » إلى آخره وإن كان تقدم ذكر الأستوى المتضمن للعلو فهو من صفات الذات والفعل ، وأما هذا فهو نوع آخر من صفات الله تعالى الدالة على أنه تعالى فعّال لما يريد ، وهذا ما أنكره أهل الباطل من معتزلة وغيرهم ، فأراد البخارى أن ينبه على بطلان قولهم .

يعنى أن الله تعالى هو الممسك للسماوات والأرض بقدرته ، وإذا أراد أن يطوى السماوات ويضعها على إصبع من أصابع يده الكريمة فعل ، ولو أراد زوال السماوات والأرض لترك إمساكهما فزالتا ، فهو — تعالى — يفعل باختياره ما شاء ، وفعله غير خلقه ، وهذا يرد مذهب المعتزلة ومن قال بقولهم حيث قالوا إن أفعال الله تعالى مخلوقة .

قال المؤلف رحمه الله فى كتابه خلق أفعال العباد : « ادعت المعتزلة : أن فعل الله مخلوق ، وأن أفعال العباد غير مخلوقة ، وهذا خلاف علم المسلمين ، إلا من تعلق من البصريين بكلام سنسويه ، كان مجوسيا فادعى الإسلام »[1] ، يعنى أن المسلمين مجمعون على خلاف ما يقوله المعتزلة من أن فعل الله تعالى مخلوق ، ومراده بذلك أنه لا فرق عندهم بين الفعل والخلق ، فليس لله فعل يفعله باختياره وإرادته ، وإنما يخلق ، والخلق هو المخلوق المفعول .

وقوله : « إلا من تعلق بكلام سنسويه من البصريين » ، يقصد القدرية الذين أنكروا علم الله بالأشياء قبل وجودها ، وتقديره لها ، وخلقه إياها فهؤلاء شذوا عن المسلمين .

وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وأئمتها على أن الله تعالى متصف بصفات

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٧٥ تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة .

الأفعال كما أنه متصف بصفات الذات ، ولم يخالف فى ذلك إلا الجهمية والمعتزلة .

ولا ينبغى أن يعد خلاف هؤلاء خلافا ، لأنهم تركوا صريح الأدلة فى ذلك من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ، ومن العقل أيضا .

وقد علم أن الأفعال نوعان : متعد ، ولازم ، والله تعالى متصف بالنوعين .

فالمتعدى مثل الرزق ، والإحياء والإماتة ، والخلق ونحو ذلك .

واللازم مثل المجىء ، والنزول ، والإتيان ، والاستوى ونحوه .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[1] فجمع النوعين فى هذه الآية ، وكل ذلك واقع بمشيئته تعالى .

وهذا معنى قول أهل السنة : إن الله موصوف بالأفعال الاختيارية ، أى التى يفعلها باختياره تعالى ، وأدلة ذلك فى كتاب الله ، وسنة رسوله كثيرة جدا وسوف يذكر فيما يأتى طرفا من ذلك .

ومراده بيان أن أفعال الله من صفاته ، وهى ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع من أهل العلم والإيمان ، وبالعقل السليم ، وسيأتى فى الباب بعد هذا التفرقة بين الفعل والمفعول ، وما يأتى بعده إلى آخر الكتاب تفريع عليه .

٧٨ ــ قال : « حدثنا موسى ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : جاء حبر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إن الله يضع السماء على إصبع ،

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة .

والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر والأنهار على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول بيده : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

سبق هذا الحديث في باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ وذكره هناك من طريقين ، غير الطريق التى هنا ، وتقدم شرحه هناك ، وجريا على عادته ، إذا أعاد ذكر الحديث فلا بد أن يغاير بين لفظه اللاحق وبين السابق ، وبين سنديه ، فإن لم يمكن ذلك فعل ما أمكنه منه .

وهنا قد غاير بين لفظه هنا وهناك ، وكذلك فى الإسناد .

ففى الباب السابق « أن يهوديا جاء إلى النبى ﷺ » .

وفى الطريق الأخرى : « جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب » .

وهنا : « جاء حبر إلى رسول الله ﷺ » . قال الراغب : « الحبر الأثر المستحسن ومنه ما روى (يخرج من النار رجل قد ذهب حبره ، وسبره) أى جماله ، وبهاؤه ومنه سمى الحبر بالكسر ، والحبر العالم ، وجمعه أحبار — سموا بذلك — لما يبقى من أثر علومهم فى قلوب الناس ، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها »[1] وفى القاموس : الحبر : « العالم أو الصالح » .

قوله : « ثم يقول بيده : أنا الملك أى أنه تعالى يهزهن ، استخفافا لهذه المخلوقات واستصغارا لها أمام عظمة الله وقوته — جل وعلا — ، وقد جاء مصرحا بذلك فى الروايات الأخرى .

قال ابن جرير : « وحدثنا محمد بن الحسين ، قال حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن منصور ، عن خيثمة بن عبد الرحمن ،

---

(١) المفردات ص ١٠٦ .

عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه حبر من أحبار اليهود ، فجلس إليه ، فقال له النبى ﷺ : « حدثنا ؟ » قال : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والماء والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على إصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لما قال ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

ثم رواه من طريق أخرى ، وهو صحيح لا مطعن فيه ، وقد رواه أحمد ، والبخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ولفظه : « قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله — عز وجل — السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وهذا لفظ رواية مسلم[2] .

وقال ابن جرير : « حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال أخبرنى أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر ، يخطب الناس ، فمر بهذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يأخذ السماوات والأرضين السبع فيجعلها فى كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة : أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز » حتى لقد رأينا

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ وقد تقدم .

المنبر وإنه ليكاد يسقط به »[1] .

وقال أيضا : « حدثنا على بن داود ، قال : حدثنا ابن أبى مريم ، قال : أخبرنا ابن أبى حازم ، قال حدثنى أبو حازم ، عن عبيد الله بن مقسم ، أنه سمع عبد الله بن عمر ، يقول : رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه ، وقبض رسول الله ﷺ يديه ، وجعل يقبضهما ، ويبسطهما ، قال : ثم يقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وتمايل رسول الله ﷺ عن يمينه ، وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ »[2] .

وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث فى هذا ، ففى هذه ونحوها أن الرسول ﷺ كان يذكر صفات الله تعالى فى المجامع العامة ، ويخطب ببيانها على المنبر ، ويبالغ فى إيضاحها ، وتفهيم السامعين لها ، حتى إنه يقبض يديه ويبسطهما عند ذكره لقبض الله تعالى السماوات والأرض ، خلافا لمن زعم أنه لاينبغى ذكر صفات الله عند عامة الناس ، وهو زعم باطل مخالف للحق ، وطريق الرسول ﷺ حيث كان يعرف الناس بربهم ، ويذكر لهم صفاته ، وأفعاله وأقواله فى كل موطن ، ويكرر ذلك فى مجالسه ، وخطبه ، يعرف ذلك من سبر حاله ، وتتبع سنته صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الذى فعله رسول الله ﷺ لا يدع مجالاً للشك فى أن المراد من هذه النصوص هو ما دلت عليه ظاهرا ، وأن تأويلها وصرفها عن ظاهرها باطل قطعا ، وتحريف للكلم عن مواضعه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ ورواه البخارى جـ ٦ ص ١٠٤ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٤٧ رقم ٢٧٨٦ .

(٢) المرجع السابق .

ويزيد ذلك تأكيدا وبيانا أن أحدا من الصحابة لم يسأل رسول الله ﷺ ولم يستفسر عن شيء منها ، لأنهم فهموا المراد من ظاهر الخطاب ونصه .

ومما يزيد ذلك تأكيدا أيضا ، أن الرسول ﷺ لم يذكر ولا حرفا واحدا يدل على وجوب التأويل كما يقوله الموجبون للتأويل .

ومعلوم أن بيان ما أنزل الله إلى عباده واجب على رسول الله ﷺ وقد فعل بقوله ، وفعله ، كما كان يقبض يديه ويبسطهما عندما ذكر قبض الله — تعالى — لسماواته وأرضه بيديه ، تقريرا منه ﷺ لظاهر النص ، وتأكيدا لما يفهمه كل مخاطب عربي يسمع هذا الكلام ، ولو كان من أبلد الناس .

وهذا الذى فعله رسول الله ﷺ لو فعله أحد أمام من يدعون التحقيق ، وأنهم أهل السنة ، لصاحوا به ، وعدوه مشبها مجسما .

وكان ﷺ يفعل مثل ذلك كثيرًا عند ذكر صفات الله تعالى كما سبق أنه ﷺ لما قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وضع إصبعه على عينه ، والأخرى على أذنه ، زيادة إيضاح وتبيين أنه أراد ظاهر الخطاب ، وكما سبق أيضا أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ولا قتر » ، وغير ذلك .

وفى هذا الحديث ثبوت صفة الكف لله تعالى لقوله : « فيجعلهما فى كفه » .

وتقدم أن ضحك الرسول ﷺ لفرحه بما قاله الحبر حيث ذكر ما يصدق ما جاء به ﷺ مما أوحاه الله إليه ، ولهذا قرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] لأن هذه الآية مطابقة لما قاله الحبر ،

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وهو من العلم الموروث عن الأنبياء الذى أوحاه الله إليهم ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك ، لأنه إخبار عن شىء لم يقع ، وإنما سيقع كما هو ظاهر .

وقد تقدم ذكر الأدلة فى إثبات يدى الله ــ تعالى ــ وأصابعه ، وتفنيد تأويلات المنكرين لها ، وبيان أن تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه .

قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض ، وغيرهما من الخلائق » .

« وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره ، فالرب بصفاته ، وفعله وأمره [وكلامه] ، وهو الخالق ، هو المكوِّن غير مخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه ، وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون » .

التخليق : مصدر ، والمصدر هو الحدث الذى لم يقترن بزمن ، والحدث لابد له من محدث ، فتخليق السماوات والأرض هو فعل الله الذى وجدت به ، فالله ــ تعالى ــ هو الخالق ، والخلق ، والتخليق فعله الواقع منه على المخلوق فالمخلوقات وجدت بفعل الله .

والمخلوق ليس هو فعل الله ، وإنما هو مفعوله ــ أى مخلوقه الذى صدر عن تخليقه .

وأفعال الله نوعان ، لازم ، ومتعدى ، فاللازم نحو نزوله ، ومجيئه ، والمتعدى نحو خلقه ورزقه ، ولابد لهذا النوع من مفعول يتعدى إليه ، وهو المخلوق ، والمرزوق ، بخلاف الأول .

قوله : « وهو فعل الرب ــ تبارك وتعالى ــ وأمره » يعنى أن التخليق فعل الرب ــ تعالى ــ والمقصود بالأمر هنا قوله للمخلوق : « كنْ » .

قوله : « فالرب بصفاته وفعله وأمره ، [وكلامه] » يعنى أن صفاته وأمره وفعله ، وكلامه ، داخل فى مسمى اسم الرب ــ تعالى ــ لايكون شىء

منها غيره ، لأن صفة الشيء تقوم به ، وفعله يقوم به — لا بغيره — وكذا أمره وكلامه .

ولفظة « وكلامه » ثبتت فى بعض نسخ الصحيح ، وهى رواية أبى ذر ، أحد رواة الصحيح عن البخارى ، وهو من عطف الخاص على العام .

قوله : « وهو الخالق ، المكوِّن غير مخلوق » المكون بكسر الواو المشددة ، وهو بمعنى المصوِّر .

قوله : « وما كان بفعله وأمره ، وتخليقه ، وتكوينه ، فهو مفعول مخلوق مكوَّن » يعنى أن الفعل غير المفعول ، فالفعل من صفات الفاعل يقوم به . والمفعول هو ما وجد بالفعل ، فهو مفعول له محدث بعد أن لم يكن ، بخلاف الفعل ، فإنه قائم بالفاعل ، فهو صفته ، فالمفعول مخلوق ، مكون — بفتح الواو المشددة — بعد أن لم يكن .

ومراد البخارى — رحمه الله — الرد على من لم يفرق بين الفعل والمفعول ، كما بين ذلك فى كتابه « خلق أفعال العباد » فإنه قال فيه :

« اختلف الناس فى الفاعل ، والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : لـ « كن » مخلوق ، وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] يعنى السر ، والجهر من القول ، ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق »[2] .

---

(١) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .

وقال أيضا : « وأما الفعل من المفعول ، فالفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[1] ، فالسماوات والأرض مفعولة وكل شيء سوى الله بصفاته — فهو مفعول — فتخليق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله ، ففعله من ربوبيته ، حيث يقول : « كن فيكون » ، و « كن » من صفته ، وهو الموصوف به ، كذلك قال : رب السماوات ، ورب الأشياء ، وقال النبي ﷺ : « رب كل شيء ومليكه »[2] .

وهذا شرح لما ترجم به هنا ، وبيان لمراده ، وهو واضح .

وبه يتبين خطأ ابن بطال في قوله : « غرضه بيان أن جميع السماوات والأرض وما بينهما مخلوق ، لقيام دلائل الحدوث عليها » إلى آخره كما ذكره الحافظ عنه في الفتح[3] لأن هذا أمر ظاهر ، لا ينكره أحد .

٧٩ — قال : « حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي عمرة ، عن كريب ، عن ابن عباس ، قال : بت في بيت ميمونة ليلة ، والنبي ﷺ عندها ، لأنظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الأخير ، أو بعضه قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ثم قام فتوضأ ، واستن ،

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٣ تحقيق الدكتور عميرة .

(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٤٠ .

ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى للناس الصبح » .

هذا الحديث أكثر البخارى ــ رحمه الله ــ من تكراره ، فقد ذكره فيما يقرب من عشرين موضعا ، كما بينته فى دليل القارئ .

وميمونة : أم المؤمنين بنت الحارث الهلالية ، وهى خالة ابن عباس أخت أمه لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب .

وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير .

تزوجها رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء ، سنة سبع بسرف ، وهو حلال غير محرم ، وتوفيت ــ رضى الله عنها ــ بسرف سنة إحدى وخمسين ، وقيل غير ذلك وصلى عليها ابن عباس ، ودفنت هناك(1) .

قوله : « بت فى بيت ميمونة » فى رواية مسلم « فرقبت رسول الله ﷺ كيف يصلى » ، وفى أخرى له ، قال : « بعثنى العباس إلى النبى ﷺ » .

وكان العباس بعثه فى حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا بنى بت عندنا الليلة » ذكره الحافظ ، عن قيام الليل ، لمحمد بن نصر(2) ، فانتهز ابن عباس هذه الفرصة لينظر إلى عمل رسول الله ﷺ فى الليل ، فيتخذه قدوة .

قوله : « فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة » كان ﷺ خير الناس لأهله ، فكان يفعل ما يأنسون به من المحادثة ، والتعليم لكل خير ، من أمور الدنيا والآخرة .

---

(1) انظر الإصابة جـ ٨ ص ١٢٦ والاستيعاب جـ ٤ ص ١٩١٤ وأسد الغابة جـ ٧ ص ٢٧٢ وغيرها كثير .

(2) انظر فتح البارى جـ ٢ ص ٤٨٢ وانظر مختصر قيام الليل ص ١٠٥ وفيه : « بعثنى أبى العباسُ إلى رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة فى حاجة له ، فلما بلغته إياها قال لى رسول الله ﷺ : « أى بنى بت عندنا هذه الليلة » .. إلخ .

قوله : « فلما كان ثلث الليل الأخير » يجوز أن يكون التقدير : فلما كان النبى ﷺ فى ثلث الليل الأخير ، ويجوز أن تكون كان تامة ، والتقدير فلما جاء ثلث الليل ، وهذا هو الأظهر .

قوله : « أو بعضه » أى بعض الليل ، والبعض يصدق على كل فترة منه .

وقد جاء فى غير هذا الموضـع : « حتى انتصف الليل ، أو قريبا منه » .

قوله : « قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ » إلى آخره ، المعنى : أنه ﷺ حين استيقظ نظر إلى السماء معتبرا بخلقها ، ولهذا قرأ الآيات المذكورات ، وجاء فى روايات أنه قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب ، لأن فيها قوله : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، مع قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ ، فالمنظور إليه ، المشاهد ، المشار إليه بقوله : ﴿ مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ مفعول مخلوق وهو غير الفعل الذى هو صفة الفاعل ، والفعل نتج عنه المفعول المحدث ، هذا هو وجه الاستدلال الذى أراده البخارى ــ رحمه الله ــ .

قوله : « ثم قام فتوضأ واستن » أى استاك بالسواك دالكًا به أسنانه .

وكان ﷺ يفعل ذلك ، ويحث عليه ، وأخبر أنه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب تعالى .

قوله : « ثم صلى إحدى عشرة ركعة » هذه سنته ﷺ التى استمر عليها كما أخبرت بذلك زوجه عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة فى رمضان وغيره .

قوله : « ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين » هاتان الركعتان ، غير ما سبق ذكره من أنه صلى إحدى عشرة ركعة ، بل هما سنة الفجر ، لأنه صلاهما بعد الأذان ، وكان ﷺ يصليهما فى بيته ، ويحافظ عليهما حضرا وسفرا .

قوله : « وصلى للناس الصبح » أى صلى بهم إماما كما هو ظاهر ، وقد تقدم شرح بعض هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

قال : « باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول جل ذكره : ولقد سبق منا القول لرسلنا أنهم لهم المنصورون ، أى مضى بهذا منا القضاء ، والحكم فى أم الكتاب ، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة ، بالحجج » ثم روى عن قتادة : قال : سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم .

ثم ذكر أن بعضهم فسر السبق : بالسعادة ، أى سبق القضاء ، والحكم لهم بالسعادة ، وذكر أنه روى فى قراءة عبد الله ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فجعلت « على » مكان اللام ، فكأن المعنى : حقت عليهم ولهم ، كما قيل : ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، وفى ملك سليمان ، إذ كان المعنى فى ذلك واحدا »[1] .

والسبق هو التقدم على الشىء ، والكلمة المضافة إلى الله ــ تعالى ــ هى كلمته الكونية القدرية .

والقدر يتضمن علم الله بالشىء وكتابته لذلك ، ومشيئته له ، ثم إيجاده له وفق تقديره ، وهذا لا بد أن يكون بكلامه .

وقد علم أن كلام الله ــ تعالى ــ ينقسم إلى كونى قدرى ، وإلى شرعى أمرى ، وهذا الذى يخالفه أكثر العباد ، ويعصونه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٣ ص ١١٤ .

أما القسم الأول فلا يخالفه أحد ، بل لابد من وقوعه وحصوله ، وهو قد يكون متفقا مع الكلام الشرعى الأمرى ، وقد يكون مخالفا له ، وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله — تعالى — فى موضعه .

ومراد البخارى — رحمه الله — أن كلمة الله — تعالى — سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم فهى قبل الخلق الذى هو المخلوق ، وهى غيره ، لأنها صفة الله — تعالى — وأما نصر الرسل وإسعادهم فهو جزاء عملهم وطاعتهم ، فهو من إثابته لهم وفضله عليهم ، فهو مخلوق بكلمته — تعالى — .

وأما قول الحافظ : « أشار به إلى ترجيح القول بأن الرحمة من صفات الذات ، لكون الكلمة من صفات الذات ، فمهما استشكل فى إطلاق السبق فى صفة الرحمة ، جاء مثله فى صفة الكلمة ، ومهما أجيب عن قوله ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ حصل به الجواب عن قوله : « سَبقت رحمتى » ، وقد غفل عن مراده من قال : دل وصف الرحمة بالسبق على أنها من صفات الفعل »[1] .

فهذا بعيد كل البعد عن مراد البخارى وهو مبنى على مذهب الأشعرية القائلين بأن الكلام من صفات الذات ، وهو المعنى القائم بذات الله تعالى ، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، واعتقاد أهل السنة ، وإنما مراده ما ذكرت والله أعلم .

وأما صفة الرحمة فتكون صفة ذات وصفة فعل ، كما سبق الكلام فى ذلك .

وفى كتاب « خلق أفعال العباد للبخارى — رحمه الله — نقلا عن أبى عبيدة ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فأخبر أن أول خلقه بقوله وأول خلق هو من الشىء الذى قال ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ فأخبر

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٤٤١ .

أن كلامه قبل الخلق »[1] ، وهذا قريب مما ذكره هنا ، وهو يعين على فهم مراده .

قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

تقدم هذا الحديث في باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » لكن بلفظ يختلف عما هنا ، فلفظه هناك : « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه — وهو يكتب على نفسه — وهو وضع عنده على العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي » والمعنى لا يختلف ، والمقصود بالقضاء : التقدير ، ويأتي القضاء ، بمعنى الأمر والحكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[2] ، ويأتي بمعنى : قدر وأمضى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾[3] ويأتي بمعنى : فرغ من الشيء وأتقنه نحو قوله تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[4] والمعنى هنا : لما فرغ من تقدير الخلق ، كما في الرواية الآتية في باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ ؛ أن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق » .

ومراد البخاري من هذا الحديث ، أن الكتاب الذي كتبه قبل خلق الخلق فيه سبق رحمته لعباده المرسلين ، أي أن كلمته التي سبقت بنصرة عباده المرسلين قبل وجودهم .

---

(١) خلق افعال العباد ص ٤٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة فصلت .

وبهذا يتبين أن قوله غير خلقه ، ونصرته لعباده المرسلين من رحمته التى سبقت غضبه ، وتقدم الكلام على قوله « عنده فوق عرشه » ، وأنه يدل على استوائه على عرشه ، وعلوه على خلقه ، كما تقدم الكلام فى صفة الرحمة والغضب .

٨٠ ـــ قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا الأعمش ، سمعت زيد بن وهب ، سمعت عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه المَلَك ، فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ،وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها » .

علماء الأمة يعدون هذا الحديث أصلا كبيرا من أصول الإسلام ، لأن فيه بيان وجوب الإيمان بالقدر ، وهو أحد أركان الإيمان بالله ورسوله .

قوله : « الصادق المصدوق » وصف للنبى ﷺ مستمر ، أى أنه صادق فيما يخبر به ، وما يفعله ، فلا يخبر إلا بالحق المطابق للواقع .

والصدق يطلق أيضا على الفعل ، يقال : صدق القتال ، وهو صادق فيه .

والرسول ﷺ صادق فى أقواله وأفعاله .

« المصدوق » فيما يأتيه من الأخبار ؛ لأنه وحى من الله تعالى .

قوله : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة » يعنى

أنه فى هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة ، فيستمر هذه المدة ، وتغلب عليه هذه الصفة فى الأربعين الأولى ــ يعنى وصف النطفة ــ وفى الثانية وصف العلقة ، وفى الثالثة وصف المضغة ، وإن كانت خلقته قد تمت وتم تصويره .

قوله : « ثم يكون علقة مثله » يعنى بعد مضى أربعين على النطفة فى الرحم ، تصير علقة وهى قطعة دم جامد ، فتنقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة ، ومرور أربعين يوما إلى علقة ، بدون تخطيط ولا روح .

« ثم يكون مضغة مثله » يعنى بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة .

والمضغة : قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان فى فمه ، وفى هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه .

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب فى مائة وعشرين يوما فى ثلاثة أطوار ، فى كل أربعين يوما منها يكون فى طور ، فهو فى الأربعين الأولى نطفة وفى الثانية علقة ، وفى الثالثة مضغة ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله ، وشقاوته أو سعادته .

« ثم يبعث إليه الملك » جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن حذيفة ابن أسيد يبلغ به النبى ﷺ وقال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب أشقى أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أى رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص »[1] .

وفيه أيضا عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا مر بالنطفة اثنتان

---

(١) مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٤ .

وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده ، فلا يزيد على ما أمر ، ولا ينقص »(1) .

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبد الله بن مسعود ، لأن ظاهر حديث عبد الله كما تقدم أنه يبقى أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين أخرى علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة .

قال ابن رجب : « ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين ، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون فى الأربعين الثانية ، فيلزم أن يكون فى الأربعين الثانية لحما وعظاما ، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله .

وظاهره أنه يصورها ، ويخلق هذه الأجزاء كلها ، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام ، فلا يكون بين الحديثين اختلاف .

وتأول بعضهم على أن الملك يقسم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء ، فيجعل بعضها للجلد ، وبعضها للحم ، وبعضها للعظام ، فيقدر ذلك كله قبل وجوده ، وهذا خلاف ظاهر الحديث »(2) .

قال ابن رجب : « وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث ، قالوا : إن المنى إذا وقع فى الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام ، أو سبعة أيام ، وفى هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم(3) ثم بعد ذلك تستمد منه .

---

(1) المرجع المذكور .

(2) شرح الأربعين جـ ١ ص ١١٧ — ١١٨ الطبعة السعدية .

(3) تبين فى الطب الحديث أن نطفة الرجل تحمل حيوانات منوية كثيرة جدا وإذا صادف واحد من هذه الحيوانات بويضة المرأة يكون انعقاد التلقيح .

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام ، وقد يتقدم ويتأخر يوما ، ثم بعد ستة أيام ، وهو الخامس عشر من وقت العلوق ينفذ الدم إلى الجميع ، فيصير علقة ، ثم تتميز الأعضاء تميزا ظاهرا ، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض وتمتد رطوبة النخاع ، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الأصابع [ويتميز] تميزا يستبين فى بعض ، ويخفى فى بعض .

قالوا : وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يوما ، والزمان المعتدل فى تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوما ، وقد يتصور فى خمسة وأربعين يوما ، ولم يوجد فى الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثين يوما ، ولا أنثى قبل أربعين يوما .

فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة فى التخليق فى الأربعين الثانية ، ومصيره لحما فيها أيضا »(1) .

وقال ابن القيم : « إذا اشتمل الرحم على المنى ، ولم يقذف به إلى خارج ، استدار على نفسه وصار كالكرة ، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام ، فإذا اشتد نقط فيه نقطة فى الوسط ، وهو موضع القلب ، ونقطة فى أعلاه ، وهى نقطة الدماغ ، وفى اليمين ، وهى نقطة الكبد ، ثم تتباعد تلك النقط ، ويظهر بينها خطوط حمر ، إلى تمام ثلاثة أيام أخر ، ثم تنفذ الدموية فى الجميع بعد ستة أيام أخر ، فيصير المجموع سبعة وعشرين يوما ، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين ، وذلك فى تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما ، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا فى تمام أربعة أيام فيصير المجموع أربعين يوما تجمع خلقه .

وهذا مطابق لقوله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما » واكتفى ﷺ بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع

---

(1) شرح الأربعين جـ ١ ص ١١٨ ــ ١١٩ الطبعة السعدية .

والنهى عن الاعتداء والإفساد فى الأرض بالمعاصى ، ثم أمر تعالى بدعائه خوفا وطمعا ، وهذه حال المتقين ، الذين أحسنوا فى أعمالهم ، وأحسنوا إلى عباد الله بالنصح لهم ، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط الله التى هى الإفساد فى البلاد والعباد ، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة الله تعالى ومنها الجنة .

قال ابن جرير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يقول جل ذكره : إن ثواب الله الذى وعد المحسنين على إحسانهم فى الدنيا قريب منهم ، وذلك هو رحمته لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعد لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم .

ولذلك ذكَّرَ قوله : « قَرِيبٌ » وهو خبر عن الرحمة ، والرحمة مؤنثة ، لأنه أريد به القرب فى الوقت »[1] .

وقال ابن كثير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . أى إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[2] .

وقال : « قريب » ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله .

وقال مطر الوراق : « استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين » رواه ابن أبى حاتم[3] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٤٨٨ ط المعارف .
(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٢ .

٧٥ ــ قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم ، عن أبى عثمان ، عن أسامة ، قال : كان ابن لبعض بنات النبى ﷺ يقضى ، فأرسلت إليه أن يأتيها ، فأرسل : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل إلى أجل مسمى ، فلتصبر ، ولتحتسب » ، فأرسلت إليه فأقسمت عليه ، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وعبادة بن الصامت ، فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبى ، ونفسه تقلقل فى صدره حسبته قال : كأنها شنة ، فبكى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة : أتبكى ؟

فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ﴾ .

وتقدم شرحه هناك ، والشاهد منه قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى الذين جعل الله فى قلوبهم الرحمة ، التى يرحمون بها عباد الله فرحمة الله منهم قريب .

وسبق أن اللفظ الذى تقدم فى الباب المشار إليه أوضح وأظهر فى الدلالة على مقصوده هنا ، ولكنه عدل عنه كعادته إيثارًا للإشارة على التصريح فى العبارة ، حتى يروض ذهن القارئ على التفطن والاستنباط ، ولأن عادته أيضا إذا أعاد الحديث فلا بد أن يختاره بألفاظ غير لفظه المتقدم ما وجد إلى ذلك سبيلا فى المتن وفى رجال السند ، أو على الأقل فى أحدهما .

هنا السند أكثرهم غير من تقدم ، والمتن فيه تغاير عما سبق .

٧٦ ــ قال : « حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن صالح بن كيسان ، عن الأعرج ، عن أبى

هرَيرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة : يا رب . ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين ؟

فقال الله ـــ تعالى ـــ للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار ، أنت عذابى أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها .

قال : فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشىء للنار من يشاء فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ثلاثا حتى يضع فيها قدمه ، فتمتلىء ، ويرُدُّ بعضها إلى بعض ، وتقول : قَطْ قَطْ قَطْ » .

الاختصام : هو التنازع بين فريقين ، يذكر كل واحد منهما حجته أمام من يحكم بينهما .

وتقدم هذا الحديث فى التفسير بلفظ تحاجت الجنة والنار .

وفى صحيح مسلم : « احتجت » ، والمعنى واحد .

قال المهلب : « يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة ، بأن يخلق الله فيهما فهما ، وكلاما ، والله قادر على كل شىء ، ويجوز أن يكون هذا مجازا ، كقولهم : « امتلأ الحوض ، وقال قَطْنِى » ، والحوض لا يَتكلم وإنما ذلك عبارة عن امتلائه »(1) .

قلت : الأول هو المعتمد ، وتقدم الكلام فيه والاستدلال له فى شرح حديث أنس : « لا يزال يلقى فى النار ، وتقول : هل من مزيد » .

---

(1) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ .

وقال النووى : « هذا الحديث على ظاهره ، وأن الله ــ تعالى ــ يجعل فى النار والجنة تمييزا تدركان له ، فتحاجتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز دائما »[1] .

قال الحافظ : « وحاصل اختصامهما : افتخار أحدهما على الأخرى بمن يسكنها ، فتظن النار أنها بمن ألقى فيها من عظماء الدنيا أبر عند الله من الجنة .

وتظن الجنة أنها بمن أسكنها من أولياء الله ــ تعالى ــ أبر عند الله .

فأجيبتا : بأنه لا فضل لإحداهما على الأخرى من طريق من يسكنها ، وفى كلامهما شائبة شكاية إلى ربهما إذ لم تذكر كل واحدة منهما إلا ما اختصت به ، وقد رد الله الأمر فى ذلك إلى مشيئته »[2] .

قلت : الظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام الله ــ تعالى ــ من الطغاة والمجرمين الذين عصوا الله وكذبوا رسله ، وسخروا منهم وبارزوا الله بالجرائم والآثام .

وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم ، وأهل السيادة والقيادة فيهم ، وأهل التجبر والتكبر .

وأما الجنة فإنها اشتكت لكون من يدخلها الضعفاء والفقراء وأهل المسكنة غالبا ، ولهذا قالت : « مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قوله : « قالت الجنة » إلى آخره .

تقدم أن الصحيح أن هذا بلسان المقال أى أنه قول قالته الجنة حقيقة وأن الله جعل لها شعورا وتمييزا ، وعقلا ونطقا ، والله لا يعجزه شىء .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٧ ص ١٨١ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ .

وليس هذا خاصا بالجنة والنار ، فقد ذكر الله ــ تعالى ــ أن الجبال كانت تسبح مع نبى الله داود عليه السلام .

وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1] .

وقوله : « فقالت : يا رب مالها » . عدول بالخطاب من المتكلم إلى الغائب كأن الراوى كره أن يأتى به على أصله خشية أن يظن ظان أنه مضاف إليه ، وهذا كثير فى روايات الحديث .

والمقصود بضعفاء الناس فقراؤهم ، وأهل المسكنة والتواضع ، الذين لا يبغون فى الأرض علوا ولا فسادًا ، ولا يترفعون على عباد الله ، بل هم متواضعون لله خاضعون له ، أذلة على المؤمنين ، وإن كانوا عند ذوى السلطان حقيرين ساقطين فى أعينهم ، لا يؤبه لهم لديهم ، فهم عند الله عظماء رفعاء .

قوله : « قالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين » أى خصصت بأهل التكبر على عباد الله والتجبر والظلم للناس باحتقارهم ، وغمط حقوقهم .

قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء » .

هذا هو حكم الله بينهما ، يعنى أن الله تعالى خلق الجنة ليرحم بدخولها من شاء من عباده ، من يتفضل عليه ويجعله مؤهلا لذلك .

وأما النار فخلقها لمن عصاه وكفر به ، وبرسله ، يعذبهم بها .

وذلك كله ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ، ولكن لا يدخل النار إلا من استوجبها بعمله .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

وهذه الجملة وهى قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى » هى الشاهد للباب ، فالجنة قريب من المحسنين ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ثم قال : « ولكل واحدة منكما ملؤها » وهذا وعد من الله — تعالى — لهما بأن يملؤهما بمن يسكنهما ، وفى هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك وقد جاء الطلب من النار صريحا كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1] ، وأقسم الله تعالى ليملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

فهما يمتلآن من بنى آدم ومن الجن .

فمن آمن وعبد الله وحده ، واتبع رسله فمصيره إلى الجنة ، ومن عصى وبغى ، وطغى ، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى .

قوله : « فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشىء للنار من يشاء فيلقيهم فيها » ، تقدم حديث أنس فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، عن النبى ﷺ قال : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد بعزتك وكرمك .

ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشىء الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »[2] .

وفى صحيح مسلم فى هذا الحديث قال : « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله تقول قط قط قط فهناك تمتلىء ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم ربك من خلقه أحدا .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الشرح ص ١٥٤ .

وأما الجنة فإن الله ينشيء لها خلقا »[1] ، ورواه البخارى بهذا اللفظ فى التفسير[2] وبهذا يتبين أن قوله : « وأنه ينشيء للنار من يشاء فيلقيهم فيها » أنه خطأ ، وإنما انقلب على الراوى فصار ما للجنة للنار فإن إنشاء الخلق يكون للجنة ، وأما النار فإن الله تعالى يضع عليها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتتضايق على من فيها وبذلك تمتلىء ولا يظلم ربك أحدا ، ويؤيد ذلك أن هذا الحديث جاء فى التفسير من صحيح البخارى وجاء كذلك فى مسلم على الوجه الصحيح كما ذكرناه آنفا ، وبأنه خطأ قد انقلب على الراوى جزم به شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم ، ويؤيده أيضا قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى من ذريتك وممن تبعك من بنى آدم .

فلو دخلها أحد من غير أتباع الشيطان من ذريته وذرية آدم لم تمتلىء منهم .

قال الحافظ : قال أبو الحسن القابسى : « المعروف فى هذا الموضع أن الله ينشيء للجنة خلقا ، وأما النار فيضع فيها قدمه .

قال : ولا أعلم فى شيء من الأحاديث أنه ينشيء للنار خلقا إلا هذا » انتهى وقد مضى فى تفسير سورة ق . من طريق محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة : « ويقال لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ، فيضع الرب عليها قدمه ، فتقول : قط قط .

ومن طريق همام بلفظ : « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط ، فهناك تمتلىء ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا »[3] .

---

(١) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٧ رقم ٢٨٤٦ .
(٢) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٩٥ .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .

وقال : « وقد قال جماعة من الأئمة إن هذا الموضع من الحديث مقلوب ، وجزم ابن القيم بأنه غلط ، واحتج بأن الله ــ تعالى ــ أخبر بأن جهنم تمتلىء من إبليس وأتباعه من بنى آدم ، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقينى واحتج بقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . ثم ذكر تأويلات بعيدة جدا ، بل باطلة ، ثم قال : « وفى الحديث دلالة على اتساع الجنة والنار ، بحيث تسع كل من كان ، ومن يكون إلى يوم القيامة ، وتحتاج إلى زيادة ، وقد تقدم أن آخر من يدخل الجنة يعطى مثل الدنيا عشر مرات .

وقال الداودى : يؤخذ من الحديث أن الأشياء توصف بغالبها لأن الجنة يدخلها غير الضعفاء ، والنار قد يدخلها غير المتكبرين ، وفيه رد على من حمل قول النار : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ على أنه استفهام إنكار ، وأنها لا تحتاج إلى زيادة »(1) .

وقال شيخ الإسلام قوله : « وأما الجنة ، فيبقى فيها فضل ، فينشىء الله لها خلقا فيسكنهم » : « ووقع فى بعض طرق البخارى غلط ، قال فيه : « وأما النار فيبقى فيها فضل ، والبخارى رواه فى سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوى ، كما جرت عادته بمثل ذلك ، إذا وقع من بعض الرواة غلط فى لفظ ، ذكر ألفاظ سائر الرواة التى يعلم بها الصواب ، وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب »(2) .

وقال ابن القيم : « وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة : « وأنه ينشىء للنار من يشاء ، فيلقى فيها فتقول : هل من مزيد » فغلط من بعض الرواة ، انقلب عليه لفظه ، والروايات الصحيحة ، ونص القرآن يرده ، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه ،

---

(1) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٧ .
(2) منهاج السنة جـ ٣ ص ٢٥ .

قال الخطابى : « كانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير ، لأسباب تعرض لهم .

منها استعجال الحرب ، فيستحلون الشهر الحرام ، ثم يحرمون بدله شهرا غيره ، فتتحول بذلك شهور السنة وتتبدل ، فإذا أتى على ذلك عدة من السنين استدار الزمان ، وعاد الأمر إلى أصله ، فاتفق وقوع حجة النبى ﷺ عند ذلك »[1] .

فعلى هذا يكون المراد بالزمان مطلقه .

قوله : « أى شهر هذا ؟ » إلى قوله : « أليس يوم النحر ؟ » لما كان متقررا عندهم حرمة ذى الحجة وحرمة البلد الحرام ، وحرمة يوم النحر ، أراد ﷺ أن يؤكد تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بالتمثيل البالغ فى الحرمة منتهاها .

وفيه تعظيم شأن الدماء والأموال والأعراض وشدة حرمتها ، حيث قال : « فإن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » ، فهذا غاية ما يمثل به شدة حرمة الشىء وتعظيمه .

وقد صح أن أول ما يبدأ به فى المُقَاصَّة بين الناس يوم القيامة الدماءُ .

قوله : « وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم » هذا هو المقصود من الحديث ، لأنه ظاهر فى مواجهتهم لله ـــ تعالى ـــ ومخاطبته لهم ، فيدل على أنهم يرونه كما تقدم أن اللقى يتضمن المعاينة والرؤية .

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من ذكر حرمة الدماء ، وما عطف عليها ، إذ المعنى : إذا تأكد لديكم شدة حرمة ذلك ، فاحذروا أن تقعوا فيه فإنكم

---

(١) انظر فتح البارى جـ ٨ ص ٣٢٥ .

سوف تلاقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وهو أعلم بها منكم .

والسؤال يتضمن الجزاء .

وقوله : « فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » أى إياكم أن تعرضوا عما تركتكم عليه ، وحضضتكم عليه ، وهو التمسك بكتاب ربكم وسنة نبيكم ، فإنه الصراط المستقيم ، الذى يوصلكم إلى الجنة والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فإنكم إن ملتم عن ذلكم ضللتم الطريق السوى وارتكبتم أعظم ما حذرتكم منه ، وهو الوقوع فى الدماء فيصبح بعضكم يضرب رقاب بعض ، وهذا هو الضلال .

قوله : « ألا ليبلغ الشاهد الغائب » هذا من الواجب الذى لا يجوز الإخلال به أو التساهل ، لأن الأمة لا تصلح إلا بمعرفة ما جاء به ﷺ والعمل به ، كما قال الإمام مالك : « إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها » .

ولما جهلت الأمة طريق الرسول كثر الضلال فيها ، والتخبط فى ظلمات الجهل والخرافة ، فظهرت فيها الرافضة والصوفية ، والباطنية ، والملاحدة والزنادقة وكل منهم يدعى أن الحق معه لا يعدوه ، ومن خالفه فهو ضال أو كافر حلال الدم والمال ، وغالب ذلك بسبب الجهل بما جاء به الرسول ﷺ وإن كان رؤساء هذه الطرق بالغالب ملاحدة يتسترون بالإسلام ، هدفهم هدمه من أساسه ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ .

قوله : « فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » .
الوعى : هو الفهم والمعرفة ثم الامتثال ، والمراد تبليغ أقواله ﷺ المتضمنة لأحكام الدين الذى جاء به .

وقوله : « فلعل » مشعر بقلة ذلك ، ولهذا جاء فى رواية بدل « فلعل » « رُبَّ » المفيدة للتقليل .

قال الحافظ : « فيه الحث على تبليغ العلم ، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية ، وأن الفهم ليس شرطا فى الأداء ، وأنه يأتى فى الآخر من يكون أفهم من بعض من تقدم ولكن بقلة »[1] .

هذه النصوص التى ذكرها المؤلف - رحمه الله ـــ كلها دلت على أن الله ـــ تعالى ـــ يُرى فى الآخرة ، دلالة متنوعة .

منها ما هو نص جلى لا يحتمل أى تأويل مثل قوله ﷺ : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر » .

وقوله : « إنكم سترون ربكم عيانا » .

وقوله جوابا لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا ؟ قالوا : لا . قال : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون فى رؤيتهما » .

وقوله : « فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه » .

وقوله فى حديث الشفاعة : « فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى ، فإذا رأيته وقعت ساجدا » ، كرر ذلك مرارا ، كل هذه الألفاظ صريحة فى الرؤية ، غير قابلة لتأويل وصرف عن ظاهرها .

فلا عذر لمن خالفها ، ولا حجة له ، إلا اتباع الهوى ، والتقليد الأعمى أو التعصب ، أو الضلال البعيد ، أو الكفر والجحود .

فقد وضح مراد النبى ﷺ من هذه الأحاديث لكل عاقل ، عارف باللغة ،

---

(١) الفتح جـ ١ ص ١٥٩ .

لا يستريب فى ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعانى ؛ أن مراده بهذه الألفاظ المذكورة رؤيتهم إياه بأبصارهم ، وليس فى الممكن أوضح من هذه العبارات .

وهناك نصوص كثيرة غير ما ذكره هنا دالة على رؤية الله — تعالى — فى الآخرة دلالة ظاهرة ، استقصاها كثير ممن ألف فى هذا الموضوع .

قال ابن القيم : « اتفق [على أن الله يُرى فى الآخرة] الأنبياءُ ، والمرسلون وجميع الصحابة ، والتابعون ، وأئمة الإسلام ، على تتابع القرون .

وأنكرها أهل البدع المارقون ، والجهمية المتهوكون ، والفرعونية المعطلون ، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون ، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ، ومن حبل الله منقطعون ، وعلى مَسَبَّةِ أصحاب رسول الله عاكفون ، وللسنة وأهلها محاربون ، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون .

وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودن ، أولئك أحزاب الضلال ، وشيعة اللعين ، وأعداء الرسول وحزبه »[1] .

وقال شيخ الإسلام : « والذى يجب على كل مسلم اعتقاده : هو أن المؤمنين يرون ربهم فى الدار الآخرة ، فى عرصة القيامة[2] وبعد ما يدخلون الجنة ، على ما تواترت به الأحاديث ، عن النبى ﷺ عند العلماء بالحديث ، فإنه أخبر أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر ، والشمس عند الظهيرة ، لا نُضَام فى رؤيته »[3] .

---

(١) حادى الأرواح ص ٢١٢ .

(٢) عرصة القيامة ، أو عرصاتها : هى مواقفها التى يقف الناس فيها مجتمعين .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٤٨٥ .

واعلم أن الذين أنكروا رؤية الله ـــ تعالى ـــ اعتمدوا على شبه سموها براهين عقلية ، وتعلقوا ببعض الآيات والأخبار ، وهى فى الحقيقة مبطلة لقولهم .

ومن أعظم الفرق إنكارا لرؤية الله ـــ تعالى ـــ بالأبصار المعتزلة ، وبنوا إنكارهم لها على التشبيه المستكن فى نفوسهم ، لأنهم بنوا علمهم على الجدل . الذى أصله القياس المبنى على تشبيه الغائب بالمشاهد .

فإذا نظرت فيما ذكروه وجدت ذلك واضحا فى استدلالاتهم وتعليلاتهم إلى جانب التعصب للآراء .

قال عبد الجبار : « قال أهل العدل بأسرهم ، والزيدية ، والخوارج وأكثر المرجئة : لا يجوز أن يرى الله ـــ تعالى ـــ بالبصر ، ولا يدرك به على وجه ، لا لحجاب ومانع ، لكن لأن ذلك يستحيل »[1] .

١ ـــ ثم استدل « بأن الرؤية لا تصح إلا بحاسة البصر ، والله لا يجوز أن يوصف بأن له حواس »[2] فالله عنده لا يَرى ولا يُرى ـــ تعالى الله عن ذلك ـــ .

٢ ـــ « ولأن البصر لا يصح أن يرى إلا ما كان مقابلا ، أو فى حكم المقابل ، وهذا لا يكون إلا للجسم ذى الألوان ، وهو محال على الله »[3] .

٣ ـــ « ما يصح أن يرى ، لا يجوز أن يختص بصحة رؤيته بعض الرائين دون بعض ، كما أن ما يصح أن يعلم لا يجوز أن يختص بالعلم به بعض الأحياء دون بعض »[4] .

---

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار المعتزلى جـ ٤ ص ١٣٩ .
(٢) المصدر المذكور ص ٣٦ .
(٣) المصدر المذكور ص ١٤٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٨٩ .

٤ ــ « ولأن الموانع من الرؤية لا تختص بشيء تصح رؤيته دون شيء وهي القرب المفرط ، والبعد المفرط ، والحجاب ، واللطافة ، والرقة ، وأن يكون المرئى فى غير جهة محاذاة الرائى ، أو يكون حالا فيما هذا سبيله ، فإذا زالت هذه الموانع ، وجب أن يرى ما صحت رؤيته »[1] والحجاب عندهم مستحيل على الله كما تقدم .

فهذه جملة من أدلة هذه الفرقة ، التى يسمونها براهين ، إذا تأملها العاقل وجدها مبنية على قياس رب العالمين على المخلوق ، وتحكيم الآراء ، ولهذا ذهبت هيبة الله وعظمته من قلوبهم ، واستخفوا بكتابه فاجتهدوا فى تحريف معانيه وصرفه عما قصد به .

والمقصود ذكر بعض أدلتهم العقلية ــ كما يقولون ــ وهى فى الحقيقة شبه داحضة ، وضلالات بينة لمن عرف الحق .

وهم لا يقبلون أحاديث رسول الله ﷺ وإن كانت أسانيدها فى غاية الصحة والجودة ، ويقبلون قول فلان وفلان ، لأنهم يزعمون أن ذلك براهين عقلية .

فقوله : « إن الله لا يرى بالبصر ، لا لحجاب يحجبه ، أو مانع يمنع رؤيته لكن لأن رؤيته مستحيلة » فيقال له : هذا مجرد دعوى غير مقبولة وهو فى مقابلة قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقوله فى المعذبين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وفسر رسول الله ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم كما فى صحيح مسلم وهو أيضا مصادم لقول

---

(١) المصدر المذكور ص ١١٦ .

رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » كما سبق .

فأيهما أحق بالاتباع ، قول طائفة الاعتزال ، عباد الآراء والأهواء أم قول الله ورسوله ، إن المقارنة بين هذا وهذا غير سائغة ولا مقبولة ، لولا أن المسلمين قد بلوا بمن يعظم آراء المعتزلة ويرى لها وزنا .

وكل ما أشرنا إليه عن المعتزلة هو فى مقابلة النصوص الصحيحة الصريحة ، فلا يسوغ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر الاعتداد بها ، أو جعلها أدلة على أمر قد بان ووضح غاية الوضوح من كتاب الله وسنة رسوله .

« وقد ثبت اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وثبت فى النصوص المتواترة عن النبى ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته » .

وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب ، وكما ترون القمر صحوًا ليس دونه سحاب »[1] .

وقولهم : « إن ما يرى يجب أن يكون مقابلا للرائى ، وأن يكون متحيزًا فى جهة ، ولا يكون ذلك إلا الجسم ، والله يتعالى عن ذلك — لأن هذا صفة المحدث .

وهذا شيء لازم للرؤية ، ولهذا سخر المعتزلة وغيرهم ، من الأشعرية لما قالوا : إن الله يرى لا من جهة ، لأن هذه رؤية غير معقولة ؛ لإثباتهم الرؤية ونفيهم الجهة .

وأهل السنة يقولون : لا مانع من كون المرئى الذى هو رب العالمين —

---

(١) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٦ .

جل وعلا — فى مقابلة الرائين من عباده المؤمنين ، فهم يرونه من فوقهم ، كما صرحت به النصوص ، ولا محذور فيه .

وأما اللوازم الباطلة ، التى يدعيها المعتزلة وغيرهم ، فهى منتفية عن الله — تعالى — .

ونحن نستفسر منهم : ما هو مرادكم بكونه مقابلا للرائى ؟ هل تريدون أنه لا بد له من مكان يحويه ويحيط به ؟ فإن كان هذا ما أردتم فالله — تعالى — له مكان هو فوق عرشه ، ولا يحيط به شيء ، ولا يحويه شيء — جل وعلا — وهو أكبر من كل شيء وأعظم ، فهو — تعالى — يطوى السماوات كلها بيمينه ، ويقبض الأرض كلها بيده الأخرى ، وتكون كالخردلة فى يد أحدنا – ولله المثل الأعلى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وأما التحيز ، فإن أردتم أن الله مختلط بخلقه لئلا يلزم أن يكون متحيزًا ، فنحن نكفر بقولكم هذا ، ونتيقن أنه باطل ، والنصوص من الشرع ترده ، وكذلك العقل يرده .

وإن أردتم أن الله لا حقيقة له تميزه عن خلقه فكذلك هذا كفر وضلال .

وإن أردتم أن الله — تعالى — متميز من خلقه ، وأنه بائن منه فهذا حق والنصوص فيه أكثر من أن تحصى ، وهو ما يعتقده المسلمون ويؤمنون به ، واتفق عليه سلف هذه الأمة ، وأئمتها قبل ظهور المعتزلة والفرق الضالة ، ومثل ذلك يقال فى الجهة .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وتقدم من أدلة الكتاب والسنة ، والعقل ، وإجماع أهل الحق وأدلة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، على أن الله فى السماء مستوٍ على عرشه ، عالٍ على خلقه ما يكفى عن ذكر شىء من ذلك هنا .

قال شيخ الإسلام — رحمه الله تعالى — : « كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله فى جهة من الرائى أمر ثبت بالنصوص المتواترة ، كما فى قوله : « هل تضامون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ولا قتر ؟ »

قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » . وذكر الحديث بطوله .

قال أبو سعيد : أشهد لحفظته من رسول الله ﷺ .

فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه ، إخبارهم أنهم يرونه فى جهة منهم من وجوه :

أحدها : أن الرؤية فى لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون فى جهة منهم ، فأما رؤية ما ليس فى جهة فلم يكونوا يتصورونه — فضلا عن أن يكون اللفظ دالا عليه ، بل لا يتصور أحد من الناس وجود موجود فى غير جهة .

الثانى : أنه قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ، وكما ترون القمر صحوًا » فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر ، وهما يريان من جهة .

الثالث : أنه قال : « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب وهل تضارون فى رؤية القمر ليس دونه سحاب » .

فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائى ، يحول بينه وبين المرئى .

وفى لفظ فى الصحيح : « إنكم ترون ربكم عيانا »[1] .

---

(١) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ملخصا .

« فقد أخبرنا أنا نراه ، وأخبرنا أيضا أنه قد استوى على العرش ، فهذه النصوص يصدق بعضها بعضا ، والعقل أيضا يوافقها ، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته ، وأنه فوق سماواته ، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ، ولا مداخل له ، محال فى بديهة العقل .

فإذا كانت رؤيته تعالى مستلزمة هذه المعانى التى شنعتم بها — فهى حق ، وإذا سميتم أنتم هذا قولا بالجهة والتجسيم ، لم تكن هذه التسمية نافية لما علم بالشرع والعقل .

ثم يقال : ما تعنون بقولكم : إن هذا إثبات للجهة ، والجهة ممتنعة على الله ؟ أتعنون بالجهة أمرا وجوديا ، أو أمرا عدميا ؟

فإن أردتم الأول ، فقد علم أنه ليس هناك موجود إلا الخالق والمخلوق ، والله تعالى فوق مخلوقاته ، بائن منها .

وعليه فليس الله تعالى فى جهة موجودة .

وقولكم : إن المرئى لابد أن يكون فى جهة موجودة ، باطل ، فإن سطح العالم مرئى ، وليس هو فى عالم آخر .

وإن فسرتم الجهة بأمر عدمى — كما تقولون — : « إن الجسم فى حيز ، والحيز تقدير مكان ، وتجعلون ما وراء العالم حيزا » .

فيقال : الجهة والحيز إذا كانا أمرا عدميا فهو ليس شيئا ، وما كان فى جهة عدمية ، أو فى حيز عدمى فليس هو فى شىء .

ولا فرق بين قول القائل : هذا ليس فى شىء ، وبين قوله : هو فى العدم ، أو أمر عدمى .

فإذا كان الخالق — تعالى — مباينا للمخلوقات عاليا عليها ، وما ثم موجود إلا الخالق ، أو المخلوق ، لم يكن معه غيره من الموجودات — فضلا عن أن

يكون هو سبحانه فى شىء موجود يحصره ويحيط به »[1] .

« وقوله ﷺ « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب وهل تضارون فى رؤية القمر ليس دونه سحاب » تشبيه لرؤيتهم لربهم برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن بينهم وبينها حجاب منفصل عنهم يحول بينهم وبين المرئى .

ومن يقول : إنه يرى فى غير جهة يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل ، إذ الحجاب لا يكون إلا للجسم ، ولما يكون فى جهة .

والحجاب عندهم عدم خلق الإدراك فى العين كما تقدم .

الرابع : أنه أخبر أنهم لا يضارون فى رؤيته ، وفى رواية « لا يضامون » ، ونفى الضير ، والضيم إنما يكون لما يمكن لحوقه للرائى ومعلوم أن رؤية ما ليس بجهة من الرائى ، لا فوقه ، ولا فى شىء من جهاته — لا يتصور فيها ضير ، ولا ضيم حتى ينفى ذلك .

وقد روى ابن ماجه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم — فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة » قال : وذلك قول الله — تعالى — ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ .

قال فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته فى ديارهم »[2] وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند ، فإن الأدلة الصحيحة تؤيده .

الخامس : أن كون الله — تعالى — يرى بجهة من الرائى ثبت بإجماع السلف . ونصوصهم فى ذلك مشهورة .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ١٥٣ — ٢٥٤ ببعض التصرف .
(٢) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٥ — ٦٦ رقم ١٨٤ .

« فسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله يرى في الآخرة عيانا كما نرى الشمس والقمر ، وأنه لا يلزم من تعذر رؤية الشيء في حالٍ تعذرُها في حال أخرى ، بل قد يرى الشيء في حال دون حال ، كما أن الأنبياء يرون ما لا يراه غيرهم »[1] .

السادس : « أن كل موجود قائم بنفسه فلابد أن يكون في جهة ، والله تعالى هو الحق ، وهو فوق خلقه ، عال عليهم »[2] .

وأما ما تعلقوا به من مثل قوله : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ وقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ونحو ذلك ، فكله يدل على عكس ما قالوا .

والإدراك المنفي هو الإحاطة ، وليست الرؤية ، كما بين ذلك حبر الأمة ابن عباس ، ومثل ذلك بالسماء ، والشمس حيث قال للسائل : « ألستَ ترى السماء ؟ قال : بلى . فقال : أكلها ترى ؟ قال : لا . قال : فالله أعظم .

وما يذكر عنه أنه فسر الآية بنفي الرؤية كذب عليه .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[3] .

فأثبت الرؤية ونفى الإدراك ، فدل ذلك على أن الإدراك غير الرؤية . وبهذا أجاب العلماء عن استدلالهم بهذه الآية .

---

(1) درء تعارض العقل والنقل جـ ٥ ص ١٣٢ .
(2) نقض التأسيس جـ ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ملخصا .
(3) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء .

قال : « باب ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ إنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحسِنِينَ ﴾ .

الرحمة المضافة إلى الله — تعالى — تكون صفة له ذاتية كقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) . ونحو ذلك وهو كثير .

وتكون مفعولا له مخلوقا ، وهى من أثر صفة الرحمة الذاتية ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾(٨) وهو أيضا كثير .

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٢١ من سورة يونس .
(٦) الآية ٩ من سورة هود .
(٧) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .
(٨) الآية ٦٣ من سورة النمل .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : « خلق الله مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه ، وخبأ عنده مائة إلا واحدة »[1] .

ومثله ما يأتى من قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء » .

ومراده بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق ، فتكون مخلوقة لله مفعولا له ، وذلك من آثار رحمته التى هى صفته تعالى كما فى قوله ﷺ جوابا لسعد بن عبادة ، لما قال له : ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

ولكن أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح ، والاكتفاء بالتلويح .

وفى الآية التى ترجم بها إشارة إلى مراده ، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة ، وهى قريب من المحسنين ، كما فى الحديث الجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله ، والنار مثل ذلك — يعنى من المسيئين .

وبذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب والله أعلم » .

وقال الحافظ : « المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التى وعد المتقين برحمته وقد قال للجنة أنت رحمتى ، وقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة والعلم عند الله »[2] .

وليس هذا من التأويل المذموم ، لأنه من المعنى الذى دلت عليه الآية ضمنا ، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين جل وعلا .

ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعا وخفية

---

(١) رواه مسلم انظر جـ ١٧ ص ٦٩ بشرح النووى .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٧ .

والمقصود هنا أنه ليس بين العبد وربه أحد يبلغه عنه ، لا من الملائكة ولا من البشر .

بل الله ــ تعالى ــ هو الذى يتولى كلام عباده فى ذلك الموقف بنفسه ، فيحاسبهم على أعمالهم ، وقد بين ذلك فى لفظ الحديث ، لكن الإمام البخارى ــ رحمه الله ــ اختصره ، واقتصر على محل الشاهد منه .

ولفظه : « بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل ، فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل .

فقال : يا عدى هل رأيتَ الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد نبئت عنها .

قال : فإن طالت بك حياة لتَرَيَنَّ الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدا إلا الله .

قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طىء[2] الذين سعروا البلاد ؟

ولئن طالت بك حياة ، لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟

قال : كسرى بن هرمز .

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من الذهب أو الفضة ، يطلب من يقبله منه ، فلا يجد أحدا يقبله منه .

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى .

فيقول : ألم أعطك مالا ، وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى .

---

(١) الظعينة : الهودج فيه المرأة ، وهو شبه الغرفة الصغيرة يوضع فوق البعير ، فتركب فى وسطه المرأة ليسترها ، والظعن هو : الخروج من المكان والسير .

(٢) الدعار : بضم الدال مأخوذ من الدعارة ، وهى الخبث ، والتلصص وقطع الطريق .

فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم .

قال عدى : سمعت النبى ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى ﷺ يخرج ملء كفه »[1] .

وفى رواية : « كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجلان ، أحدهما يشكو العيلة ، والآخر يشكو قطع السبيل . فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فإنه لا يأتى عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير[2] .

وأما العيلة ، فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه .

ثم ليقفن أحدكم بين يدى الله ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، ثم ليقولن له : ألم أوتك مالا ؟ فليقولن : بلى ، ثم ليقولن : ألم أرسل إليك رسولا ؟ فليقولن : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[3] .

ففى هاتين الروايتين بيان جلى بأن الله ــ تعالى ــ يتولى كلام عباده ومحاسبتهم بنفسه بدون واسطة بينه وبينهم ، وفى ضمن ذلك رؤيته ــ تعالى ــ وسماع كلامه .

قوله : « ولا حجاب يحجبه » أى ليس بين العبد وبين ربه ما يمنع رؤيته ومشاهدته . وهذا ظاهر الدلالة على رؤية المؤمن ربه يوم يحاسبه ، وعلى سماعه كلامه .

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١١٠ وانظر فتح البارى جـ ٦ ص ٦١٠ .

(٢) الخفير : هو من يحمى سالك الطريق ويجيره ممن يريده بسوء .

(٣) انظر فتح البارى جـ ٣ ص ٢٨١ .

وفيه دليل على أن لله تعالى حجابا يحتجب به عن خلقه ، والأدلة على ذلك كثيرة ، وأهل البدع ينكرون حجاب الله تعالى ، فهو عندهم كما يقول الفخر الرازى : « هو عبارة عن الجسم المتوسط بين جسمين آخرين ـ وهذا محال على الله »[1] .

ونقل الحافظ عن ابن بطال ، أن الحجاب هو الآفة المانعة من النظر التى تكون على أبصار المؤمنين ، ومعنى رفع الحجاب : إزالة الآفة من أبصار المؤمنين المانعة لهم من الرؤية ، فيرونه لارتفاعها عنهم ، بخلق ضدها فيهم »[2] ومقتضى هذا الكلام أن الذى يمنع المؤمنين فى الدنيا من رؤية الله تعالى هو الآفة التى على أبصارهم ، ولو زالت تلك الآفة لرأوه .

فالحجاب عند هؤلاء : هو عدم الإدراك فى أبصار الخلق ، وما وصف به الله ـــ تعالى ـــ من الحجاب راجع إلى الخلق . وشبهتهم : أن ما ستر بالحجاب ، فالحجاب أكبر منه ، ويكون متناهيا ، ومحاذيا للحجاب ، وهذا لا يكون إلا للأجسام .

نقل ابن حجر ، عن العلائى قوله : « المراد بالحاجب ، والحجاب : نفى المانع من الرؤية » ثم قال : « وقد ورد ذكر الحجاب فى عدة أحاديث صحيحة .

والله ـــ سبحانه ـــ منزه عما يحجبه ، إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس ، ولكن المراد بحجابه : منعه أبصار خلقه ، وبصائرهم ، بما شاء متى شاء كيف شاء ، وإذا شاء كشف ذلك عنهم »[3] .

وهكذا شراح الحديث وغيرهم ـ الأشاعرة ـــ ساروا على هذا المنوال .

---

(1) تأسيس التقديس ص ٩٩ .
(2) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٠ .
(3) المرجع المذكور ص ٤٣١ .

ويلزم من ذلك أن الله ــ تعالى ــ وصف نفسه وكذلك رسوله وصفه بما يجب أن ينزه عنه ، فهؤلاء المبتدعة أعلم من الله ، ومن رسوله بالله ، وأحرص على تنزيه الله من الله ورسوله ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾(٣) وعدم الإدراك الذى زعموا ليس شيئا موجودا فيكون حائلا دون رؤيتهم ربهم ، بل هو عدم ، والعدم لا وجود له .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

فتجليه للجبل يدل على أنه محتجب بحجاب كشف للجبل منه ما جعله دكا

وفى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »(٥) .

---

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٤) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٢ الحديث رقم ١٧٩ .

ومعلوم أن بصر الله تعالى لا ينتهى دون شىء ، ولا يحول دونه شىء ، فهو بكل شىء بصير ، فلولا الحجاب الذى احتجب به لما بقى شىء من المخلوقات إلا ذاب واحترق ، فكيف جاز لهؤلاء الذين جعلوا أقيستهم وعقولهم هى الحكم على ما يوصف الله ــ تعالى ــ به ، وما يمتنع عليه .

وسيأتى حديث أبى موسى ، وفيه : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

وفى صحيح مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : « تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ــ عز وجل »[1] .

والنصوص فى إثبات الحجب لله تعالى كثيرة ، يؤمن بها أتباع رسول الله ﷺ ويعلمون بما ورثوه من نور النبوة بأن الله تعالى احتجب بالنور ، وبالنار وبما شاء من الحجب ، وأنه لو كشف عن وجهه الكريم الحجاب لما قام لنوره شىء من الخلق ــ بل يحترق ولكنه تعالى فى الدار الآخرة يكمل خلق المؤمنين ويقويهم على النظر إليه ــ تعالى ــ فينعمون بذلك ، بل هو أعلى نعيمهم يوم القيامة .

وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ إبطال شبه هؤلاء المنكرين لحجب الله تعالى ، فى كتابه « نقض تأسيس الجهمية ، وإبطال بدعهم الكلامية » بوجوه كثيرة ، أكثر من أربعين وجها ، كل وجه منها كاف فى إبطال قولهم .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٣ الحديث رقم ١٨١ .

قال ــ رحمه الله ــ : « أحدها : أنهم يقولون : إن الحجاب هو ما يخلقه الله فى العين من الرؤية المتعلقة به تعالى » .

وهذا باطل بالضرورة ، لأنهم فسروا الحجاب بعدم الإدراك فى أبصارهم ، والعدم لا يخلق ولا وجود له ، فهو ليس شيئا .

الثانى : أنه ثبت فى الحديث قوله : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » .

وكشف الشيء إزالته ورفعه ، وهذا لا يوصف به المعدوم ، فإنه لا يزال ، ولا يرفع ، وإنما الذى يزال ويرفع الموجود .

الثالث : أنه قال : « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فجعل النظر متعقبا لكشف الحجاب ، وعند هؤلاء المبتدعة : الحجاب هو عدم خلق الرؤية ، وضده خلق الرؤية ، فيكون زوال ذلك العدم هو عين الرؤية ، لا يكون شيئا يتعقب [كشف] الحجاب ، وتقدم أن العدم ليس شيئا .

الرابع : أن فى الحديث : « حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » .

ولو كان كما زعموا هو خلق الرؤية لم يكن كشف ذلك يحرق شيئا .

فالمؤمنون يرون ربهم فى عرصات القيامة ، وفى الجنة ولا تحرق رؤيتهم شيئا .

الخامس : [أنه] ثبت فى الصحيحين : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » .

وعلى قول هؤلاء : ما بينهم وبين أن ينظروا إليه إلا زوال ذلك العدم بخلق الرؤية فى أعينهم .

ومعلوم أن عدم خلق الرؤية فيهم ليس هو رداء الكبرياء ، ولا هو على وجه الله الكريم ، ولا هو فى جنة عدن ، ولا هو شيء أصلا حتى يوصف بصفات الموجود .

السادس : أن من تأمل نصوص الكتاب والسنة ، وما ورد فى ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين ، علم بالضرورة علما يقينيا لا يستريب فيه أن لله حجابا ، وحجبا منفصلة عن العباد ، يكشفها إذا شاء ، فيتجلى ، وإذا شاء لم يكشفها .

وإذا كان الحجاب كما يقول الرازى وذووه : « هو الجسم المتوسط بين جسمين » فلازم الحق حق ، لا يمكن أن يدفع حيث علم بالاضطرار من دين المرسلين فلا يدفع بما أحدثه سلف الرازى ، وأئمته ، ولا بما يشنعون به على أهل السنة من اصطلاحات ، وألفاظ ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان .

فإن من أعظم بدعهم : قولهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وهذا هو الصنم الأكبر الذى صدوا به عباد الله عن معرفته ، والإيمان به .

وهو الذى عُطل الله به من أسمائه وصفاته .

بل هو أساس الشرك والردة ، والنفاق ، وإن كان قد اغتر به طوائف من أهل الإيمان ، لم يعلموا ما قصده واضعوه الذين أفسدوا به فطرة العباد التى فطرهم الله عليها ، وأفسدوا به معانى كتاب الله ، وصدوا به عن سبيل الله .

وهو لهؤلاء المبتدعة كاللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى للمشركين القدماء .

فإن الله — تعالى — لم ينزل فى شيء من كتبه ، ولا قال أحد من رسله ، ولا أحد من ورثتهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وإن كان إثبات ذلك أيضا بدعة وضلالة ، إلا أن نفيه أعظم وأضل .

السابع : أن الله — تعالى — قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ومعلوم أن هذا التكليم مثل ما حصل لموسى ، وهو أرفع درجة من التكليم بالوحى ، وإرسال الرسول باتفاق المسلمين ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

فإذا كان الحجاب كما يقول هؤلاء : هو عدم خلق الرؤية ، فذلك مشترك بين الأقسام الثلاثة ، فلا يكون لمن كلم من وراء حجاب ميزة .

وبطلان ذلك ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ معناه من خلف حجاب ، وعدم خلق الرؤية عدم محض ، ليس له خلف ، ولا أمام ، فعلم أن الحق إثبات الحجاب لله حقيقة ، لأنه موجود .

والتقدير على قولهم : أن يقال : « أو من وراء عدم خلق الرؤية » وهذا يشبه كلام المجانين ، ولا يجعل هذا معنى كلام الله إلا زنديق متلاعب بالقرآن .

الثامن : أنه تعالى قال فى الكفار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾(١) فجعل حجابهم يوم القيامة ، ولو كان الحجاب هو عدم خلق الرؤية لكانوا محجوبين فى الدنيا والآخرة ، ولكان المؤمنون أيضا داخلين فى ذلك ، معذبين بهذا الحجاب الذى عذب به الكفار فى الآخرة .

ولكنه حجاب خاص يحجب الله به الكفار حين يتجلى للأبرار .

ثم هذا الذى قالوه فى الحجاب حمل للفظ على ما لا تحتمله اللغة بوجه من الوجوه فهو تبديل للغة ، كما هو تحريف للقرآن وتبديل لمعانيه »(٢) .

قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه » .

وفى رواية « حاجب » وهذا يدل على وجود الحاجب كما تقدم ، ويدل على جواز أن يكون له ترجمان يبلغ عنه .

---

(١) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٢) نقض التأسيس بتصرف وتلخيص وانظر بقية الوجوه فيه جـ ٣ ص ١٤٥ ــ ١٥٤ مخطوط .

وقد جاء نص القرآن بأن التكليم يكون من وراء حجاب ، وعلى قول المنكرين للحجاب لا يمكن أن يكون بينه وبين عباده حجاب حقيقى ، ولا ترجمان ، وهذا يلزم منه إما إنكار وجود الله ، أو أنه حال مع خلقه ، تعالى الله عن ذلك .

ومذهبهم فى المسألتين من أعظم الباطل ـــ أعنى الرؤية والكلام ـــ لأنهم يقولون : التكليم : هو خلق إدراك الكلام ، لأن كلام الله معنى قائم بنفسه .

كما أنهم يقولون : الرؤية هى رفع الموانع ، وخلق الرؤية فى العين ، فعلى هذا يكون الذى يراه المؤمنون فى الجنة شيئا مخلوقا . والنصوص تبطل ذلك ، وكذلك العقل والفطر إذا سلمت من الانتكاس ، والتغيير .

٧١ ـــ قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد ، عن أبى عمران ، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

قال الحافظ : فى رواية الحارث بن عبيد ، عن أبى عمران الجونى ، فى أول هذا الحديث : « جنان الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب » ... إلخ .

وهذا يبين أن الحديث قد حذف شيء من أوله .

وهو يدل على تفاوت منازل الجنة ودرجاتها ، فبعضها أعلى من بعض حسا ومعنى ، حيث يكون بناؤها من الذهب ، وأوانيها من الذهب ومعلوم أن الذهب هو أعلى المعادن وأنفسها لدى المخاطبين بالقرآن عند نزوله ، ويجوز أن يكون فيها ما هو أعلى من الذهب وأرفع ، لأن الله تعالى أخبر أن فيها ما لا عين رأته ، ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر ، وتقدم البحث فى درجات الجنة .

قوله : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

هذا الشاهد من الحديث للباب ، إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم فإذا أراد تعالى أن ينعمهم ويزيد فى كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه ، وفى الرواية التى ذكرها فى التفسير ، « رداء الكبر على وجهه »[1] .

لقد تخبط شراح الحديث هنا من الأشاعرة ــ تخبطهم فى كثير من صفات الله ــ تعالى ــ فأخرجوا كلام رسول الله ﷺ عن ظاهره إلى المجازات البعيدة ، وطلبوا له التأويلات المستكرهة ، تحريفا له وتعطيلا لله من أوصافه ، ظانين أن ما وصفه به رسوله فى مثل هذا الحديث فيه تجسيم وتشبيه ، كما هى طريقتهم .

نقل الحافظ كثيرا من كلامهم على هذا الحديث ، فنقل عن القاضى عياض قوله : « من أجرى هذا الكلام على ظاهره أفضى به إلى التجسيم » .

وقال الكرمانى : « هذا من المتشابهات ، فإما مفوض ، وإما متأول بأن المراد من الوجه الذات ، والرداء صفة من صفات الذات اللازمة ، المنزه عما يشبه المخلوقات » ، وقال المازرى : « عبر عن زوال الموانع ، ورفعها عن أبصارهم برداء الكبرياء »[2] .

ونحن نجيبهم عما قالوا بجوابين ، أحدهما مجمل ، والآخر مفصل .

أما المجمل ، فنقول : نحن لا نشك ، ولا يشك مسلم عرف رسول الله ﷺ وعرف قدره ، أنه أفصح منكم ، وأقدر على بيان الحق وإيضاح ما يريد

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٢١ تفسير سورة الرحمن .
(٢) انظر بقية كلامهم فى الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ فإنى اختصرته .

منكم ومن أئمتكم ، وأنه أنصح للأمة وأشفق عليها وأحرص على هدايتها ، وسد طرق الكفر والضلال عنها منكم ومن غيركم ، وأنه أعلم بالله وما يجب له وما يمتنع عليه ، وأنه أخشى لله وأتقى له ، فمع ذلك يمتنع أن يتكلم بما ظاهره الكفر والضلال ، أو بما يؤدى إلى الباطل ، بل كلامه فيه الهدى والنور والعصمة من الضلال والانحراف لمن آمن به واتبعه .

بخلاف كلام غيره من الناس فإنه لابد من عرضه على قول الله وقول رسوله ، فإن وافقه قبل ، وإلا رد على قائله .

فالحق قطعا فيما قاله رسول الله ﷺ وليس فى قول من خالفه ممن يتلقى عقيدته عن أهل الكلام والفلسفة المبنية على آراء الرجال وتخرصاتهم .

وأما الجواب المفصل : فمن وجوه :

أحدها : أن ما قالوه خلاف ظاهر النصوص ، كما صرحوا بذلك ، وليس فى اللفظ المذكور ولا فى غيره مما جاء عن الرسول ﷺ ما يدل على ما قالوه .

ومعلوم أن صرف اللفظ عن ظاهره يحتاج إلى دليل يدل على ذلك ، وإلا صار التأويل تحريفا وتلاعبا .

أما ما يدعون من قرينة دلالة العقل ، فمجرد دعوى تفتقر إلى برهان ، والحق أن العقل يدل على مادل عليه نص الشرع .

الوجه الثانى : أنه قال : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ، ومن المعلوم أن الكبرياء من صفات الله ــ تعالى ــ ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها ، فقد توعد الله المتكبر بجهنم ، كما قال تعالى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1] .

(1) الآية ٧٢ من سورة الزمر .

وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[1] .

فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء إلا وصفا لله ــ تعالى ــ فبطل قولهم : « إن المقصود من رداء الكبرياء ، زوال الموانع » .

الوجه الثالث : أنه أضاف رداء الكبرياء إلى وجه الله الكريم حجابا له .

فقال : « إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ، فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء ما فى أعين العباد من المانع الذى منعهم من رؤية الله كما يقوله هؤلاء ، وقيد ذلك فى جنة عدن .

وعلى مقتضى قولهم أنه لو زال المانع عن أعين العباد لرأوه فى الدنيا .

الوجه الرابع : أنه ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منها قذفته فى النار »[2] .

ورواه مسلم ، ولفظه : « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعنى عذبته »[3] .

ورواه ابن ماجه ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم »[4] .

ووصف الله تعالى بأن العظمة إزاره ، والكبرياء ردائه كسائر صفاته تثبت على ما يليق به ، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل .

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ٩٣ .
(٢) رواه أبو داود فى السنن جـ ٤ ص ٣٥٠ .
(٣) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ .
(٤) انظر ابن ماجه جـ ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .

قوله : « فى جنة عدن » قيد لكونهم ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم — جل وعلا — إلا رداء الكبرياء .

وهذا دليل على فضل جنة عدن ، وعلوها ، ومن لازم ذلك علو الله تعالى لأنهم ينظرون إليه تعالى من فوقهم ، وتقدم بحث ذلك بما فيه كفاية .

وأما قول ابن بطال : « لا تعلق به للمجسمة فى إثبات المكان ، لما ثبت من استحالة أن يكون جسما ، أو حالا فى مكان .

فيكون تأويل الرداء : الآفة الموجودة فى أبصارهم ، المانعة لهم من رؤيته ، وسماه رداء لتنزله فى المنع منزلة الرداء الذى يحجب الوجه عن رؤيته ، فأطلق عليه الرداء مجازا ، وقوله : « فى جنة عدن » راجع إلى القوم »[1] .

فيقال له : أولا من هم المجسمة ؟ ومعلوم أنه يقصد من أثبت أن الله فوق عرشه ، وأنه يراه أهل الجنة من فوقهم ، ولا شك أن نصوص الكتاب والسنة فى إثبات ذلك أكثر من أن يحاط بها .

وعلى اصطلاح ابن بطال وذويه ، كل من أثبت ذلك فهو مجسم .

والله تعالى قد أثبت ذلك لنفسه ، وأثبته رسوله له ، ونحن نتبع ذلك ، سواء سماه أهل البدع تجسيما وشنعوا على من اعتقده ، أو قاله ، أو لم يسموه ، فإنه هو الحق الذى لا مرية فيه عند أهله .

وأما قوله : « لما ثبت من استحالة أن يكون — سبحانه جسما ، أو حالا فى مكان » فكما سبق أن هذه البدعة هى التى عُطل رب العالمين من أسمائه وصفاته بها ، وأنها الصنم الذى عبده المتكلمون ، وصدوا به عباد الله عن معرفته وعبادته بأسمائه وصفاته .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ .

ثم هذا القول من ابن بطال ومن قال به مجرد دعوى ، لا برهان عليها ، فمن أين لهم استحالة أن يكون الله فى مكان ، وكتب الله وسنة رسوله ظاهرة فى ذلك جلية تنادى بأن الله فوق عرشه مستو عليه ، عال على خلقه .

أما يستحيون من الدعاوى الكاذبة ، التى يريدون بها التشنيع على أتباع الرسل .

وقد علم أن مقصودهم بالجسم : ما شغل مكانا ، أو ما يصح أن يقال أنه هنا أو هناك ، أو ما صحت الإشارة إليه ، أو ما كان له مقدار .

وتقدم من الأدلة على استواء الله تعالى على عرشه ، وعلوه على خلقه ، وأنه يشار إليه ، ويقال إنه فى السماء ما فيه مقنع لمن يريد الحق .

وأما قوله : « فى جنة عدن راجع إلى القوم » فمراده : أن القوم فى جنة عدن ، وأنه لا يجوز أن يقال : إن الله يرى فى جنة عدن ، وإنما معناه الإخبار بأن القوم فى جنة عدن .

فيقال : أولا هذا رد صريح لقول رسول الله ﷺ وكفى بذلك ضلالا ، وبعدا عن سبيل المؤمنين .

ويقال ثانيا : إن هذا من جنس تأويلات أهل البدع الباردة ، التى لا تصدر عن عربى يعرف معنى ما يقول ، فضلا عن رسول الله ﷺ الذى هو أفصح العرب ، وكونهم فى جنة عدن قد علم من أول الحديث ، لأنه قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » .. إلخ ، ثم أخبر أن رؤيتهم لربهم قريبة ، ليس دونها إلا رفع الحجاب ، فهم يرونه فى جنة عدن من فوقهم ، يوضحه الحديث المتقدم : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن » ، ومن أجل ذلك أورده البخارى رحمه الله فى هذا الباب مستدلا به على رؤية الله تعالى كما هو واضح وصريح فى ذلك .

٧٢ ــ قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الملك بن أعين ، وجامع بن شداد ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة لقى الله وهو عليه غضبان » .

قال عبد الله : ثم قرأ رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله جل ذكره : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

قوله : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة » « مَن » مِن أدوات العموم ، والأغلب أن تكون لخطاب من يعقل .

و « مال » نكرة ، أضيفت إلى نكرة موصوفة بالإسلام ، فشملت كل مسلم ، وكل ما يسمى مالا ، قليلا كان أو كثيرا .

روى الطبرانى من حديث جابر بن عتيك ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة ، وأوجب له النار » ، قالوا يا رسول الله : وإن شىء يسير ؟ قال : « وإن كان سواكا »[2] .

ورواه الحاكم ، ولفظه : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأدخله النار ، قالوا : يا رسول الله وإن كان شيئا يسيرا ؟

قال : « وإن كان سواكا ، وإن كان سواكا » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة[3] وقال الذهبى : صحيح .

---

(١) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .
(٢) معجم الطبرانى الكبير جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٣) المستدرك جـ ٤ ص ٢٩٥ .

« اقتطع » من القطع لأنه قطعه عن صاحبه ، أو أخذ قطعة من ماله بالحلف الكاذب .

قوله : « لقى الله وهو عليه غضبان » هذا محل الشاهد من الحديث الذى أورده من أجله ، وتقدم أن اللقاء يتضمن النظر والمعاينة ، وأن السلف استدلوا بلفظ اللقاء على الرؤية .

قال الحافظ : « فى حديث وائل بن حجر عند مسلم : « لقى الله وهو عنه معرض » .

وفى رواية كردوس ، عن الأشعث ، عند أبى داود : « لقى الله ، وهو أجذم » قال : وفى حديث أبى أمامة عند مسلم ، والنسائى نحو ما فى هذا الحديث : « فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة » ، وفى حديث عمران ، عند أبى داود « فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

وهذا وعيد شديد جدا لمن يفعل ذلك ، فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من أموال المسلمين بأى وسيلة كانت ، فإن ذلك من أسباب سخط الله تعالى .

قوله : « مصداقه من كتاب الله جل ذكره » إلى آخره ، أى الذى يصدق هذا الحديث ويوافقه .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدهم عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ، بالأثمان القليلة الزهيدة — وهى عروض الدنيا الزائلة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ أى لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها ، ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ برحمة منه لهم —

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٥٥٩ .

بمعنى : لا يكلمهم كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أى من الذنوب ، والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] مؤلم شديد الألم .

قال الحافظ : « يؤخذ من الآية تفسير قوله : « لقى الله وهو عليه غضبان » ، ومقتضاه : أن الغضب سبب لمنع الكلام ، والرؤية ، والرضا سبب لوجودهما »[2] .

وفيه وصف الله — تعالى — بالغضب ، وأنه يغضب على بعض عباده بسبب ذنوبهم ، وفيه أن الغضب غير العقاب ، وإذا كان يغضب فهو تعالى يرضى ، والأدلة على ذلك كثيرة .

٧٣ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أُعْطَى بها أكثر مما أُعْطِىَ وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ، ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله — تعالى — يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله » أى ثلاثة من أجناس الناس ، يعم الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد .

وعدم تكليم الله لهم يوم القيامة دليل على غضبه عليهم ، ومقتضاه : أنهم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١ ط الشعب .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ .

يذهب بهم إلى النار بدون سؤال ومحاسبة ، لأنهم قد تناهى جرمهم فى القبح ، فاستحقوا أليم العذاب ، مع الإعراض عنهم ، وإهانتهم من أول الأمر ، فيكون هذا الحديث مخصصا لحديث عدى السابق ، وهو قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

وقوله : « ولا ينظر إليهم » نظر الله — تعالى — إلى العبد يقتضى الرحمة ، وهؤلاء فعلوا أفعالا مقتهم الله عليها ، فأعرض عنهم ، ومن أعرض الله عنه فهو هالك ، الهلاك الأكبر .

والمقصود بالنظر المنفى هنا ، نظر خاص يتضمن الإحسان والرحمة ، ويفهم منه نظر العبد إلى الله — تعالى — لأن الله — تعالى — لا يحجب بصره شىء أبدا ، فى أى وقت كان .

وهذا القدر من الحديث : أعنى قوله : « لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة » هو محل الشاهد لما مر ، ولأن الكلام والنظر المقيد بيوم القيامة يدل على اللقاء ، واللقاء يتضمن المعاينة .

ثم ذكر أفعالهم التى استحقوا عليها هذا الوعيد الشديد ، وهى ثلاثة أنواع :

أحدها : الحلف على السلعة التى يريد بيعها ، أنه أعطى بها أكثر مما يريد المشترى أن يأخذها به ، وهو كاذب فى حلفه ، وذلك لأنه اشترى بيمينه ثمنا قليلا بخسا ، مما يدل على رغبته فى الدنيا وزهده فى الآخرة ، واليمين دين يتعبد الله به ، فمن خاف الله فى يمينه ، فلم يكذب فهو من المتقين فى ذلك .

ومن بذل يمينه بعرض من الدنيا ، فهو فاجر يستحق العقوبة ، مستخف بحرمات الله .

والسلعة هى كل بضاعة عرضت للبيع .

والنوع الثانى — وهو أخص من الذى قبله — وهو الحلف على يمين كاذبة

بعد العصر ، ليقتطع بها مال امرىء مسلم ، وهذا يكون عند من يحكم بين الحالف والمحلوف له ، وهو الحاكم ، لأن المحلوف له يلزم بأن هذا المال للحالف بمقتضى يمينه ، وهذا هو معنى الاقتطاع .

وخص المسلم لأن ماله أشد حرمة ، وحقه على أخيه المسلم أعظم ، وإلا فمال الكافر غير المحارب لا يجوز أخذه إلا بحق .

وخص وقت بعد العصر لفضله ، ولأنه آخر النهار الذى أثنى الله على المسبحين فيه لقرب نهاية النهار وختم عمله ، وقرب الليل الذى فيه النوم المذكر بالمصير إلى الله تعالى وهو وقت أصوات الداعين لله والمسبحين .

وهذه اليمين هى الغموس سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم فلا يخرج منه إلا أن يشاء الله ـــ تعالى ـــ فإنه يخرج الحى من الميت .

النوع الثالث : منع فضل الماء الذى زاد عن حاجته ، ويحتاج إليه سالك الطريق وذلك لأن الماء يتجدد بدله كلما أخذ منه ، ولا يضر بذله ، فمانعه لا يكون إلا لئيما خبيث النفس ، يقصد الأذية ، وليس لديه رحمة للخلق ، ولا رغبة فى الخير .

وفهم من قوله : « فضل ماء » أن ما يحتاجه لشربه هو ومن يلزمه إعاشته لا يلزمه بذله .

ولكون الماء يتجدد بما أخذ منه ، ولا صنع للإنسان فيه كالطعام مثلا واللباس الذى يحتاج معالجة وعملا ، لأجل ذلك يقول الله ـــ تعالى ـــ يوم القيامة :

« اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

ومن منع فضل الله فهو الخاسر الخسران الأبدى .

وقوله : « يقول الله » إلى آخره لا يعارض أول الحديث أن هؤلاء

لا يكلمهم الله ، لأنه لا يلزم أن يكون هذا القول مواجها به صاحب هذا العمل فقد يكون للملائكة الذين يتولون عذابه ، أو غير ذلك والله أعلم .

٧٤ ــ قال : « حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن محمد ، عن ابن أبى بكرة ، عن أبى بكرة ، عن النبى ﷺ قال : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورَجَب مُضَر ، الذى بين جُمَادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى .

قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس البلدة ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى .

قال : فإن دماءكم وأموالكم » ــ قال محمد : وأحسبه قال : « وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .

ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض .

ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » .

فكان محمد إذا ذكره ، قال : صدق النبى ﷺ ثم قال : « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت » .

هذا الحديث قاله ﷺ فى خطبته العظيمة يوم النحر ، فى حجة الوداع وفى هذا الحديث بيان وجوب الاجتماع على الحق ، والاعتصام بكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وعظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ووجوب سلوك طريقه ﷺ وبيان أن الله ـــ تعالى ـــ أتم عليهم نعمته بنبيه وأخذهم بما جاء به .

وحذرهم من ترك هذا الهدى والرجوع إلى الضلال وكفر النعمة والفرقة الداعية إلى التصارم والقتال ، فإن ذلك من الكفر .

وبين أن الزمان قد عاد كما خلقه الله ، بعد تبديل المشركين الشهور المحرمة بالتقديم والتأخير حسب أهوائهم ، حتى يستحلوا القتال فى الأشهر الحرم .

وفيه بيان تأكد حرمة الأشهر الحرم التى حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وحرمة مكة ، وأن هذا التحريم مستمر إلى يوم القيامة لا يستحله إلا من جانب طريق الرسل . وأحل شعائر الله والشهر الحرام والبلد الحرام وذلك من العظائم .

قوله : « الزمان قد استدار ، كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » كان المشركون لا يستحلون القتال فى الأشهر الحرم ، ولما كان منها ثلاثة متواليات ، طالت عليهم فتحيلوا على تأخير المحرم وتقديم صفر مكانه ، فيحلون المحرم عاما ويحرمون صفر بدله ويحرمونه عاما فيجعلون المحرم هو صفر فى هذا العام مثلا ، وفى العام الآخر يبقون المحرم وصفر على ما هما عليه ، يفعلون ذلك تحيلا على استحلال القتال ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

فيستحلون القتال فى الشهر الحرام ، ويسمونه بغير اسمه ، ويحرمونه فى

الشهر الحلال ويسمونه محرما ، ليتفق ذلك مع عدة ما حرم الله — تعالى — من الأشهر ، لأن توالى ثلاثة شهور محرمة يطول عليهم ، ففعلوا ذلك لأجل قتال أعدائهم ، ولغير ذلك من أغراضهم .

وفى السنة التى حج فيها النبى ﷺ اتفق أن الأشهر الثلاثة كلها محرمة ، لأنها السنة التى كانوا يحرمون القتال فى محرم على ما هو عليه ، ولهذا قال ﷺ : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » أى رجع تحريم الأشهر الحرم فى حساب المشركين وعملهم متفقا مع حكم الله وشرعه ، فقد جعل الله السنة اثنى عشر شهرا منها أربعة حرم ، يحرم القتال فيها ، والظلم فيها أعظم منه فى غيرها .

قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، « كان جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، يوافى الموسم فى كل عام ، وكان يُكْنَى أبا ثمامة ، فينادى : ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا إن محرم العام الأول هذا العام حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاما ويحرم المحرم عاما .

قال شاعرهم . وهو عمير بن قيس الذى يقال له : جذل الطعان : يفتخر بذلك :

لقد علمت معدٌّ بأن قومى كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما
فأى الناس لم ندرك بوتر وأى الناس لم نعلك لجاما

وقوله : « ورجب مضر » إضافة إليهم لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه وحرمة القتال فيه ، أكثر من غيرهم ، وكان بعض العرب يعمل فيه ما يعملونه فى محرم حسب حاجتهم إلى القتال .

وقوله : « الذى بين جُمَادَى وشعبان » تأكيد لتعريفه ونص عليه .

والمراد بالزمان فى قوله : « إن الزمان قد استدار » السنة .

فلما اجتمعوا قام النبى ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم ؟ » .

فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا ، حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبى ﷺ : « فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر ، أتألفهم .

أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » ، قالوا : يا رسول الله قد رضينا ، فقال لهم النبى ﷺ : « ستجدون أثرةً شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنى على الحوض »[1] .

وله ألفاظ وروايات متعددة ، من رواية أنس وغيره .

والأثرة : اختصاص غيرهم واستبدادهم بما يستحقونه هم ، والمعنى : أن الناس يختصون بالدنيا ، ويستأثرون بها ، دون الأنصار ، مع استحقاق الأنصار لها ، وهم الذين اجتمعوا على نصرة رسول الله ﷺ وآووه إلى بلادهم ، وعاقدوه على أن ينصروه ، ويمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأولادهم منه ، فلنصرهم لله ورسوله سموا الأنصار ، وهو أشرف أسمائهم ، وقد وقع لهم ما أخبرهم به رسول الله ﷺ وذلك تقدير الحكيم العليم ، حيث استأثر الناس عليهم بالدنيا ، مع أنهم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ، وهذا من فضل الله عليهم ، حتى يجازيهم ، على أعمالهم الدرجات العالية فى جنات عدن ، فتظهر هناك فضيلتهم ، ويغبطهم الناس الذين استأثروا عليهم بالدنيا أعظم غبطة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله : « جمعهم فى قبة من أدم » القبة : كل ما كان مقببا ، وفى الأصل

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٢ .

أن يكون عال الوسط متدانى الأطراف ، والأدم : الجلود .

وتقدم تفسير الصبر .

وقوله : « حتى تلقوا الله ورسوله » هذا هو محل الشاهد من الحديث لأن اللقاء يتضمن الرؤية والمعاينة كما قال أهل اللغة .

قال الأزهرى : « كل شيء استقبل شيئا ، أو صادفه ، فقد لقيه من الأشياء كلها »[1] .

وقال ابن فارس : « اللقاء : الملاقاة ، وتوافق الاثنين متقابلين ، ولقيته لقيا ، ولقيانا ، واللقية : فُعْلَةٌ من اللقاء ، والجمع : لقىً ، قال :

وإنى لأهوى النوم من غير نعسة　　لعل لقياكم فى المنام تكون »[2]

وقال الراغب : « اللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته معا ، وقد يعبر به على كل واحد منهما ، يقال : لقيه يلقاه لقاء ، ولقيا ، ولقية .

ويقال ذلك : فى الإدراك بالحس ، وبالبصر ، وبالبصيرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ] فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ] ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾[4] .

وملاقاة الله عبارة ، عن القيامة ، وعن المصير إليه ، قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾[6]

---

(١) تهذيب اللغة جـ ٩ ص ٢٩٩ .
(٢) مقاييس اللغة جـ ٥ ص ٢٦١ .
(٣) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران
(٤) الآية ٦٢ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٦) جزء من الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

واللقاء : الملاقاة قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾[2] وقال : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾[3] أى نسيتم القيامة ، والبعث والنشور »[4] .

وقد ذكر لقاء الله فى القرآن فى أكثر من عشرين موضعا ، كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ ٱللهِ ﴾[7] ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[8] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ ٱللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[9] وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ ﴾[10] وقوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ ٱلآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[11] وقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[12] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

---

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة يونس .
(٢) الآية ٦ من سورة الانشقاق .
(٣) الآية ١٤ من سورة السجدة .
(٤) المفردات ص ٤٥٣ .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ٧٧ من سورة التوبة .
(٧) الآية ٣١ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ١٥٤ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٤٥ من سورة يونس .
(١٠) الآية ٥ من سورة العنكبوت .
(١١) الآية ٢ من سورة الرعد .
(١٢) الآية الأخيرة من سورة الكهف .

ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾(1) وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾(2) وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾(3) وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾(4) .

فمن قرأ هذه الآيات ونحوها مما لم نذكره مؤمنا بها علم يقينا أن مضمونها إخبار الله تعالى بأن العبد سيلقى ربه ، لقاء يتضمن المحاسبة والكلام والمقابلة ، والمعاينة ، والجزاء بالعمل الذى كان العبد يعمله فى الدنيا .

ولم يزل أهل السنة من السلف ، وأتباعهم ، يستدلون بمثل هذه الآيات على رؤية الله تعالى .

وسيأتى حديث عدى بن حاتم ، وفيه : « واعلموا أن كل واحد منكم سيلقى ربه ليس بينه وبينه ترجمان »(5) .

فمن أنكر ذلك فقد خالف كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وسلك غير سبيل المؤمنين .

والله تعالى جعل التكذيب بلقائه كفرا ، لا ينفع معه عمل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(4) .

قال ابن بطة : « سمعت أبا عمر الزاهد اللغوى يقول : سمعت أبا العباس ، أحمد بن يحيى يقول : فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ

---

(1) الآية ٨ من سورة الروم .
(2) الآية ٥٤ من سورة فصلت .
(3) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .
(4) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .
(5) انظر ص ١٥٠ .

يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾[1] : أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار »[2] .

وقال شيخ الإسلام ، رحمه الله تعالى : « اللقاء » فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، والمشاهدة ، بعد السلوك والسير ، وقالوا : إن لقاء الله يتضمن رؤيته ــ سبحانه وتعالى ــ واحتجوا بآيات اللقاء على من أنكر رؤية الله فى الآخرة ، من الجهمية ، والمعتزلة وغيرهم .

وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين ، أحدهما : السير إلى الملك .

والثانى : معاينته ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾[3] .

فذكر أنه يكدح إلى الله ، فيلاقيه ، والكدح يتضمن السلوك والسير إليه ، واللقاء يعقبهما .

وأما المعاينة من غير سير إلى المعاين ــ كمعاينة الشمس ، والقمر ــ فلا يسمى لقاءً .

وقول الذين يجعلون المراد من اللقاء ، هو الجزاء ، دون لقاء الله ، معلوم الفساد بالاضطرار ، بعد تدبر الكتاب والسنة .

ويظهر فساده من وجوه .

أحدها : أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين .

الثانى : أن حذف المضاف إليه لابد أن يقارنه قرائن تبين ذلك ، كما فى

---

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٤٨٨ .
(٣) الآية ٦ من سورة الانشقاق .

قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾[1] ، ولو قال قائل : رأيت زيدا أو لقيته ، وأراد بذلك أنه رأى غلامه ، أو أباه ، أو لقيهما ، لم يجز ذلك فى لغة العرب بلا نزاع .

ولقاء الله — تعالى — قد ذكر فى كتاب الله وسنة رسوله فى مواضع كثيرة مطلقا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله بعض مخلوقاته من ثواب وغيره .

الثالث : أن اللفظ إذا تكرر ذكره فى الكتاب ، ودار مرة بعد مرة على وجه واحد ، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق ولم يبين ذلك كان تدليسا وتلبيسا يجب أن يصان كلام الله عنه . الذى أخبر أنه شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وأنه بيان للناس .

وقد علم أن الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وأنه بين للناس ما نزل إليهم .

وأما قول أهل البدع : إن القرينة الدالة على أن لقاء الله غير مراد من هذه النصوص : هو ما فى العقل من امتناع ذلك وإحالته .

فهو مردود من وجهين : أحدهما : أنه ليس فى العقل ما يمنع ذلك بل البراهين العقلية تتفق مع القرآن ، كما قال الله — تعالى — : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[2] .

وما يدعيه نفاة لقاء الله ورؤيته من الحجج العقلية التى تخالف مادل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ليست حججا ، وإنما هى شبهات فاسدة ، عند من له خبرة جيدة بالمعقولات ، وإنما تنطلى على المقلدين .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف .
(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .

الثانى : أنه لو فرض أن هناك دليلا عقليا ينافى مدلول القرآن لكان خفيا ، له مقدمات طويلة ، متنازع فيها ، ليس فيها واحدة متفق عليها ، والواقع أنها شبهات فاسدة ، أورثها صدودهم عن كتاب الله .

ومن الضرورى أن الذى أخبر أنه بيان للناس ، وأن كلامه هدى ورحمة ، وشفاء ، وبلاغ مبين ، إذا أراد بكلامه الموصوف بما ذكر ما يقوله هؤلاء المتكلمون ، فإنه بعكس تلك الأوصاف ، فيكون فيه الضلال ، واللبس ، لأنه لا يدل على قولهم .

واتفاق المسلمين على وجوب تنزيه كلام الله ورسوله من ذلك أمر ضرورى .

الوجه الرابع : أنه سيأتى فى حديث ابن عباس ، قول الرسول ﷺ : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق » . ففرق بين لقائه ، وبين الجنة والنار .

ومعلوم أن الجنة والنار ، تتضمن جزاء المطيعين ، والعصاة ، فعلم أن لقاء الله غير لقاء الثواب ، والعقاب .

الوجه الخامس : ما بينه رسول الله ﷺ فى أحاديث كثيرة أن العباد سوف يلقون ربهم ، وقد ذكر البخارى فى هذا الباب قليلا منها مثل حديث عدى ابن حاتم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه حاجب يحجبه ، ولا ترجمان » .

الوجه السادس : أنه لو أريد بلقاء الله ما يخلقه من ثواب أو عقاب أو غير ذلك ، لكان ذلك واقعا فى الدنيا والآخرة ، كما فى عقاب الأمم المكذبة ، ونصر المؤمنين ، وإسعادهم .

وقد علم أتباع رسول الله ﷺ أن لقاء الله ـــ تعالى ـــ لا يكون إلا بعد الموت .

كما علموا بطلان قول أهل البدع : أن لقاء الله هو لقاء بعض مخلوقاته .

وعلى قولهم ، فليس فى اللفظ ما يدل على تعيين مخلوق دون مخلوق ، فإذا قالوا : إن لقاء الله هو الجنة ، أو النار ، جاز أن يقال : بل هو بعض ملائكته أو بعض الشياطين ، أو غير ذلك إذ ليس دلالة اللفظ على تعين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا ، فبطل قولهم .

الوجه السابع : أن لقاء الله لم يستعمل فى لقاء غيره ، لا حقيقة ولا مجازا ، بل وفى المخلوق كذلك ، فلا يقال : لقيت زيدا ، وأنت تريد عمرا .

الوجه الثامن : النصوص الكثيرة التى تفرق بين لقاء الله وثوابه ، وجزائه كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[1] فلو كان لقاؤه هو لقاء جزائه ، لكان هو الأجر الكريم ، ولا يحسن أن يخبر بأنه أعده لهم بعد ما حصل لهم ، لأنهم لقوه ، فلقاؤه وسيلة ، وإعداد الأجر الكريم مقصود ، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود .

ومثل هذا يصان عنه كلام أوسط الناس ، فضلا عن كلام رب العالمين ، ولا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية ، التى لا تكون إلا فى اللقاء .

الوجه التاسع : ما فى الحديث من قوله ﷺ : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »[2] ، فلو كان لقاء الله هو جزاءه ، لامتنع أن يحب جزاء عبده ، ويكره جزاء آخر .

والله تعالى لا يكره جزاء عباده بما يستحقون ، بل يحب ذلك ، ولا يجزيهم إلا بما يستحقون ، والجزاء لا يلقاه الله ـــ تعالى ـــ ، ودلائل بطلان هذا القول

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٢) رواه البخارى انظر الفتح جـ ١١ ص ٣٥٧ فى الرقاق ورواه مسلم فى الذكر والدعاء جـ ٤ ص ٢٠٦٥ و ٢٠٦٦ و ٢٠٦٧ .

لا حصر لها »[1] فيكتفى بما ذكر ، وبذلك يتضح أن معنى قوله ﷺ للأنصار : « اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » يتضمن معاينتهم لربهم ، وتكليمه لهم ومجازاتهم ، وتكريمه لهم بمخاطبتهم قبل أن يدخلهم دار النعيم الأبدى .

فهو ﷺ يقول لهم : تسلوا عما فاتكم من الدنيا ، مما تستحقونه بما يكون لكم بعد البعث من الموت ، عندما تلقون ربكم ، فيكرمكم بتحيته لكم ومخاطبتكم ، ورؤيتكم إياه ، فذلكم اليوم الذى تسعدون فيه حقا .

وكذلك تلاقون نبيكم على حوضه ، الذى منّ الله به عليه ، فأكرمه به فى الموقف الذى يشتد فيه الظمأ ، فأنتم أحق من يرد ذلك الحوض ، فتشربون منه دون معوق ، أو مكدر ، فلا ينالكم بعد ذلك نصب ، ولا وصب ، ولا ظمأ ، ولا أذى .

٦٩ ــ قال : « حدثنى ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان النبى ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ، ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك خاصمت ، وبك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، لا إله إلا أنت » .

---

(١) مجموع الفتاوى بتصرف وتلخيص جـ ٦ ص ٤٦٢ ــ ٤٧٥ .

قال أبو عبد الله : قال قيس بن سعد ، وأبو الزبير ، عن طاوس : قيام .

وقال مجاهد : القيوم : القائم على كل شيء ، وقرأ عمر : القيام ، وكلاهما مدح » .

تقدم شرح هذا الحديث ، والمقصود منه هنا قوله : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » ففرق بين لقائه وجزائه ، بقوله : « ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والنار حق » .

فلقاؤه غير وعده ، وغير جزاءه ، الذى هو الجنة والنار .

فدل على أن تفسير لقائه بثوابه أو نحو ذلك تفسير باطل ، لم يدل عليه لا كتاب ولا سنة ، بل الأدلة من الكتاب والسنة تبين بطلانه .

وبذلك يتبين أن لقاءه ــ تعالى ــ يتضمن رؤيته ، ومعاينته ، وهو ما أراده البخارى من هذا الحديث ، وذلك ما قاله السلف ، وهو واضح .

٧٠ ــ قال : « حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الأعمش ، عن خيثمة ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حجاب يحجبه » .

قوله : « ما منكم من أحد » الخطاب للصحابة ، ويتناول جميع المؤمنين ، سابقهم ولا حقهم ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة .

والترجمان : هو الواسطة بين اثنين أو أكثر الذى ينقل الكلام من لغة إلى أخرى ، أو يبلغ عن المتكلم كلامه .

وما رووه من الحديث ، ووقفت على أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات ، أو أحاديثها بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، إلا فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ فروى عن ابن عباس ، وطائفة ، أن المراد به : الشدة ، أن الله يكشف عن الشدة فى الآخرة ، وعن أبى سعيد ، وطائفة ، أنهم عدوها فى الصفات ، للحديث الذى رواه أبو سعيد فى الصحيحين .

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات ، فإنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ نكرة فى الإثبات لم يضفها إلى الله ، ولم يقل عن ساقه ، فمع عدم التعريف بالإضافة ، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر »[1] .

وقال أيضا : « الصحابة قد تنازعوا فى تفسير هذه الآية ، هل المراد به الكشف عن الشدة ، أو المراد أنه يكشف الرب عن ساقه .

ولم يتنازع الصحابة ، والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات ، إلا فى هذه الآية بخلاف [قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ونحو ذلك فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون] ، وذلك أنه ليس فى ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله — تعالى — [يعنى قوله — تعالى — : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾] لأنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، ولم يقل عن ساق الله ولا قال : يكشف الرب عن ساقه ، وإنما ذكر ساقا نكرة غير معرفة ، ولا مضافة .

وهذا اللفظ بمجرده ، لا يدل على أنها ساق الله ، والذين جعلوا ذلك من صفات الله — تعالى — أثبتوه بالحديث الصحيح ، المفسر للقرآن ، وهو

---

(1) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

حديث أبي سعيد الخدرى ، المخرج فى الصحيحين ، الذى قال فيه : « فيكشف الرب عن ساقه » .

وقد يقال : إن ظاهر القرآن يدل على ذلك ، من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود ، والسجود لا يصلح إلا الله ، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه .

وأيضا فحمل ذلك على الشدة ، لا يصلح ؛ لأن المستعمل فى الشدة أن يقال : كشف الله الشدة — أى أزالها — كما قال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] .

وإذا كان المعروف من ذلك فى اللغة أنه يقال : كشف الشدة — أى أزالها — فلفظ الآية ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، وهذا يراد به الإظهار ، والإبانة وأيضا هناك ، تحدث الشدة ، لا إزالتها ، فلا تكشف الشدة يوم القيامة .

لكن هذا الظاهر [من كون القرآن دالا على الصفة] ليس ظاهرًا من مجرد لفظة « ساق » ، بل بالتركيب ، والسياق ، وتدبر المعنى المقصود »[3] وبهذا يتبين بطلان قول من يقول : المراد بالساق : الأمر الشديد المهول ، أو أنه ملك يجعله الله علامة يعرفونها ، ونحو ذلك من التأويلات الباردة السخيفة التى يجب أن ينزه عنها كلام العقلاء فضلا عن كلام رسول الله ﷺ .

وكل من جرد نفسه لله ، وطرح عنه التعصب ، والتقليد ، فإنه يعلم بطلان هذه التأويلات ، وسخافتها .

قوله : « فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .

(٣) نقض التأسيس جـ ٣ ص ١٥ — ١٦ .

كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » ، وهذا مما يدل على أن الساق صفة لله — تعالى — حيث عرفه المؤمنون بذلك فسجدوا له ، ومعلوم أن الشدائد فى ذلك اليوم متوالية ، من النفخ فى الصور ، وجمع الناس فى صعيد واحد من أولهم إلى آخرهم ، فيطول وقوفهم ، شاخصة أبصارهم ، حفاة ، عراة ، غرلا ، جياعا عطاشا ، ثم يؤتى إليهم بجهنم ، تُجر بسبعين ألف زمام فى كل زمام سبعون ألف ملك ، ثم تتوالى الأهوال من نصب الموازين ، والصراط والعبور على النار ، حتى ينجو المؤمنون إلى الجنة ، وأما من عداهم فلا يخرجون من شدة إلا إلى ما هو أشد منها ، وكل هذه الأمور وغيرها لم توجب للمؤمنين السجود .

فلما مثل لكل قوم ما يعبدون ، وأمروا باتباع معبوداتهم إلى النار ، وبقى المؤمنون ينتظرون معبودهم ، حتى إذا جاءهم فى صورة لا يعرفونه فيها ، وقال أنا ربكم ، فيتعوذون بالله منه ، خوفا أن يكون غير ربهم لأنهم لم يكونوا يشركون به شيئا ، ثم يقول لهم : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، الساق ، عند ذلك يكشف عن ساقه جل وعلا ، فيخرون له سجدا .

وأما المنافقون الذين يراءون الناس بعبادتهم ، فمنعوا من السجود ، وجعلت ظهورهم طبقا واحدا ، لا يستطيعون الانحناء ، ولا السجود ؛ لأنهم ما كانوا فى الحقيقة يسجدون لله فى الدنيا ، وإنما كانوا يسجدون لأغراضهم الدنيوية .

قوله : « ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة » المدحضة : الذى لا تستمسك فيه الأقدام ، ومزلة صفة لمدحضة ، يعنى أن القدم إذا وطىء عليه لا يثبت ، بل يزل ، والدحض : هو الموضع الذى فيه طين وأصابه الماء ، فأصبح يدحض ، من وطىء عليه — أى يزله ولا يثبت عليه قدم .

قوله : « عليه خطاطيف » هو الحديدة المعقوفة ، المحددة ، لأجل أن تمسك

من أريد خطفه بها ، فهى قريبة من الكلوب ، وتقدم شرحها وتفسير السعدان .

قوله : « المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب » يعنى مرورهم على النار ، يختلف باختلاف إيمانهم وأعمالهم ، فمن كان إيمانه كاملا ، وعمله صالحا خالصا لله ، فإنه يمر من فوق جهنم كلمح البصر ، ومن كان دون ذلك يكون مروره بحسب إيمانه وعمله ، كما فصل ذلك فى الحديث ، ومثل بالبرق ، والريح إلى آخره . قوله : « فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس فى نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا » جعل المارين على الصراط أربعة أصناف :

الأول : الناجى المسلَّم من الأذى ، وهؤلاء يتفاوتون فى سرعة المرور عليه كما سبق .

والثانى : الناجى المخدوش ، والخدش هو الجرح الخفيف ، يعنى أنه أصابه من لفح جهنم ، أو أصابته الكلاليب ، والخطاطيف ، التى على الصراط بخدوش .

والثالث : المكدوس فى النار ، الملقى فيها بقوة ، قال ابن الأثير : « كأن الإنسان تجمع يداه ، ورجلاه ، ويشد ، ويلقى فى النار ، وهو بمعنى المكردس وجاء فى بعض نسخ مسلم « مكدوش »[1] .

والرابع : الذى يسحب على الصراط سحبا قد عجزت أعماله عن حمله .

قوله : « فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق قد تبين لكم ، من المؤمن يومئذ للجبار » هذا من كرم الله ، ورحمته حيث أذن لعباده المؤمنين فى مناشدته وطلب عفوه عن إخوانهم الذين ألقوا فى النار ، بسبب جرائمهم التى كانوا

---

(١) جامع الأصول جـ ١١ ص ٣١٤ مطبعة أنصار السنة .

يبارزون بها ربهم ، ومع ذلك ألهم المؤمنين الذين نجوا من عذاب النار وهول الصراط ، ألهمهم مناشدته ، والشفاعة فيهم ، وأذن لهم فى ذلك رحمة منه لهم تبارك وتعالى .

« يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا » مفهوم هذا أن الذين لا يصلون مع المسلمين ، ولا يصومون معهم ، لا يشفعون فيهم ، ولا يناشدون ربهم فيهم .

وهو يدل على أن هؤلاء الذين وقعت مناشدة المؤمنين لربهم فيهم كانوا مؤمنين ، موحدين ، لقولهم : « إخواننا كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا »، ولكن ارتكبوا بعض المآثم ، التى أوجبت لهم دخول النار .

وفى هذا رد على طائفتين ، ضالتين ، الخوارج ، والمعتزلة ، فى قولهم إن من دخل النار ، لا يخرج منها ، وإن صاحب الكبيرة فى النار .

« فيقول الله تعالى : اذهبوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى فاقرأوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾[1] أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار ، وكيف يستطيعون الوصول إليها ؟ وكيف يعرفون من فى قلبه مثقال دينار ، أو نصف دينار ، أو مثقال ذرة من إيمان ؟ هذه كلها من أمور الآخرة ، التى لا تقاس بما تعارف

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

عليه الناس فى الدنيا ، ولا يستطيع عقل البشر الحكم عليها ، وإنما تعرف حقائقها يوم القيامة ، فهناك يأتى تأويلها ، وإنما يجب علينا تصديقها ، والتيقن منها .

وليس بمستنكر فى قدرة الله — تعالى — أن يجعل النار غير مؤذية لهؤلاء المؤمنين الذاهبين إلى إخوانهم فى النار ، كالملائكة الذين فيها .

والمقصود بالصور فى قوله : « ويحرم صورهم على النار » وجوههم ، وقد تقدم أن الله يحرم على النار مواضع السجود ، وذلك من آيات الله وعظيم قدرته .

واستشهاد أبى سعيد بالآية ظاهر فى أن العبد إذا كان معه مثقال ذرة من إيمان ، فإن الله يضاعفه له ، فينجيه بسببه .

قوله : « فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون » صريح فى أن هؤلاء الأقسام الثلاثة يشفعون ، ولكن يجب أن يعلم أن شفاعة أى شافع ، لا تقع إلا بعد أن يأذن الله فيها ، كما تقدم فى مناشدتهم ربهم وسؤالهم إياه ، ثم يأذن لهم فيقول : اذهبوا فمن وجدتم إلى آخره .

قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[1] .

ولا تقع أيضا إلا لمن يرضى الله — تعالى — عنه ، وهو تعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والإخلاص ، أما المشركون ، ومنهم عباد الأولياء والقبور فحرام عليهم الشفاعة ، كحرمة الجنة عليهم ، كما هو معلوم من نصوص الشرع .

قوله : « فيقول الجبار : بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

أقواما قد امتحشوا ؛ الله تعالى هو مالك الشفاعة ، والأمر له فى كل شيء ، والملائكة ، والرسل ، والمؤمنون ، يطلبون منه أن يشفعهم فى من دخل النار من المؤمنين بأن يخرجهم ، وهو ــ تعالى ــ الذى يلقى هذا الطلب فى نفوسهم كما سبق ، والمراد بشفاعته ــ تعالى ــ رحمته لهؤلاء المعذبين ، فيخرجهم من النار .

قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(1) .

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾(2) .

والعهد : هو شهادة ألّا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، صادقا مخلصا ، وعمل بما دلت عليه هذه الشهادة .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾(3) .

ففى هذه الآيات ــ ونحوه كثير ــ البيان الواضح فى أن الشفاعة لله وحده ، وأنها لا يمكن أن تقع من أحد عند الله إلا بعد أن يأذن لمن يشفع ، ويرضى عن المشفوع له ، وحقيقة الشفاعة أن الله يكرم الشافع بإذنه له فى ذلك ، ويرحم المشفوع فيه .

---

(1) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .
(2) الآية ٨٧ من سورة مريم .
(3) الآية ٤ من سورة الم السجدة .

قوله : « فيقبض قبضة » فيه إثبات القبض لله تعالى ، ومن لازمه إثبات اليد التى يقبض بها ، وكم فى كتاب الله ــ تعالى ــ وسنة رسوله ﷺ من نص يثبت ذلك ، ولكن أهل التأويل الفاسد المحرفون يأبون قبول ذلك ، والإيمان به ، وسوف يعلمون أن الحق ما قاله الله وقاله رسوله ، وأنهم قد ضلوا السبيل فى هذا الباب .

قوله : « قد امتحشوا » يعنى احترقوا ، وفى رواية مسلم : « قد عادوا حمما » أى صاروا حمما ، والحمم بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة هو الفحم .

والامتحاش : احتراق الجلد ، وظهور العظم ، وليس المقصود هنا أن عظامهم ظهرت ، وإنما المقصود احتراقهم ظاهرا .

وبهذا استدل على أن من يدخل النار من الموحدين يموتون فيها ؛ لأنهم احترقوا ، وصاروا حمما ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ، ولا يحيون ، ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم ــ أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما ، أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل »[1] .

قال ابن رجب : « وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة ، وتفارق أرواحهم أجسادهم ، ويدل على ذلك ، ما أخرجه البزار ، من حديث عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد بن مسلمة ، أخبرنى موسى بن جبير ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن أدنى أهل

---

(١) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٣٧ مع شرح النووى .

الجنة حظا — أو نصيبا — قوم يخرجهم الله من النار ، فيرتاح لهم الرب — تعالى — أنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا ، فينبذون بالعراء ، فينبتون كما تنبت البقلة ، حتى إذا دخلت الأرواح إلى أجسادها ، قالوا : ربنا كما أخرجتنا من النار ، وأرجعت الأرواح إلى أجسادها ، فاصرف وجوهنا عن النار ، فيصرف وجوههم عن النار »[1] .

قال النووى : قوله ﷺ : « لكنْ ناس أصابتهم النار » إلى آخره ، معناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله — تعالى — إماتة بعد أن يعذبوا المدة التى أرادها الله — تعالى — ، وهذه الإماتة ، إماتة حقيقية ، يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون فحما ، فيُحملون ضبائر ، كما تحمل الأمتعة ، ويلقون على أنهار الجنة ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فيحيون ، وينبتون نبات الحبة فى حميل السيل ، فى سرعة نباتها ، وضعفها ، فتخرج لضعفها صفراء ، ملتوية ، ثم تشتد قوتهم ، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم ، هذا هو ظاهر الحديث .

وحكى القاضى عياض فيه وجهين ، أحدهما : أنها إماتة حقيقية ، والثانى ليس بموت حقيقى ، ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالألم ، والمختار ما قدمناه »[2] .

قوله : « فينبتون فى حافتيه ، كما تنبت الحبة فى حميل السيل » المقصود نبات لحومهم وأبصارهم ، وعظامهم التى احترقت فى النار ، ولا يلزم عند من يقول أنهم لا يموتون موتا حقيقيا — أنهم ماتوا فى النار بحيث تفارق أرواحهم أجسامهم . والله أعلم .

---

(١) التخويف من النار ص ١٥٢ .
(٢) شرح النووى على مسلم جـ ٣ ص ٣٨ ..

و « الحبة » بكسر الحاء ، قال الحافظ : « هى بزور الصحراء ، وجمعها حبب بكسر الحاء ، وأما الحبة بفتح الحاء ، وهو ما يزرعه الناس فجمعها حبوب »[1] .

« فى حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان إلى الظل كان أبيض » يعنى بذلك سرعة خروج لحومهم ؛ لأن النبت فى حميل السيل — كما ذكر — يخرج بسرعة ، ولهذا يكون من جانب الظل أبيض ، ومن جانب الشمس أخضر ، وذلك لضعفه ورقته ، ولا يلزم أن يكون نبتهم كذلك ، كما قاله بعضهم : بأن الذى من جانب الجنة يكون أبيض ، والذى من جانب النار يكون أخضر ، بل المراد تشبيههم بالنبت المذكور فى سرعة خروجه ، ورقته ، ولذلك قال : « فيخرجون كأنهم اللؤلؤ » يعنى فى صفاء بشرتهم ، وحسنها .

قوله : « فيجعل فى رقابهم الخواتيم » خواتيم ، جمع خاتم ، وهذه الخواتيم يكتب فيها « عتقاء الرحمن من النار » ، كما ذكر فى الرواية الأخرى .

قوله : « فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة ، بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه » يعنى : أنهم لم يعملوا صالحا فى الدنيا وإنما معهم أصل الإيمان ، الذى هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمان برسولهم .

قال الكرمانى : « ليس معهم إلا مجرد الإيمان ، دون أمر زائد عليه ، من الأعمال والخيرات ، وعلم منه أن شفاعة الملائكة ، والنبيين ، والمؤمنين ، فيمن كان له طاعة غير الإيمان الذى لا يطلع عليه إلا الله »[2] وتقدم فى الحديث

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٥٨ .

(٢) شرح الكرمانى جـ ٢٥ ص ١٥٠ .

أنهم يخرجون من كان فى قلبه مثقال دينار من الإيمان ، ومن كان فى قلبه مثقال نصف دينار ، ومن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، والله أعلم .

قوله : فيقال لهم : « لكم ما رأيتم ، ومثله معه » يظهر أنهم يدخلون أماكن من الجنة خالية ، ولهذا قيل لهم ذلك .

ومحل الشاهد من الحديث قوله : « فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته ، التى رأوه فيها أول مرة » ، وقوله : « فيكشف عن ساق ، فيسجد له كل مؤمن » مع قوله : « فإنكم لا تضارون فى رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون فى رؤيتهما » جوابا لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة » وهى كما ترى أدلة واضحة صريحة وهذا من أوضح الأدلة على أن عموم أهل الموقف من الرجال ، والنساء ، والمنافقين ، والكفار ، يرونه ، فإن الناس يعمهم ، والحشر مشترك بينهم .

فقد ظهر مراد النبى ﷺ لكل عاقل عارف باللغة بقوله :

« إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب » أن مراده رؤيتهم إياه بأبصارهم ، لا يستريب فى ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعانى ، وليس فى الممكن عبارة أوضح من هذا .

٦٧ ــ وقال حجاج بن منهال : حدثنا همام بن يحيى ، حدثنا قتادة ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة ، حتى يهموا بذلك .

فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم .

فيقولون : أنت آدم أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء ، لتشفع لنا عند ربك ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » .

قال : فيقول : لست هناكم ، قال : ويذكر خطيئته التى أصاب ، أكله من الشجرة وقد نهى عنها ، ولكن ائتوا نوحا ، أول نبى بعثه الله ــ تعالى ــ إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب سؤاله ربه بغير علم .

ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن ، قال : فيأتون إبراهيم ، فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ، ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى ، عبد الله ورسوله ، وروح الله وكلمته .

قال فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدا ﷺ ، عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، فيأتونى فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، فيقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعط .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء ، وتحميد يعلمنيه ، فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة .

قال قتادة : وسمعته أيضا يقول : « فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال : ثم أشفع ، فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال قتادة : وسمعته يقول : فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

ثم أعود الثالثة ، فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعنى ، ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسى ، فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه .

قال : ثم أشفع فيحد لى حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال قتادة : وقد سمعته يقول : فأحرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، حتى ما يبقى فى النار ، إلا من حبسه القرآن — أى وجب عليه الخلود — ، ثم تلى الآية : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

قال : وهذا المقام المحمود ، الذى وعده نبيكم ﷺ » .

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد تقدم فى باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ .

وقد جاء من رواية عدد من الصحابة ، « وأول حديث أبى هريرة : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، يجمع الله الناس ، الأولين ، والآخرين ، فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون » .

وزاد فى رواية إسحاق بن راهويه ، فتدنو الشمس من رُءُوسهم ، فيشتد

عليهم حرها ، ويشق عليهم دنوها ، فينطلقون من الضجر والجوع مما هم فيه .

وأول حديث أبي بكر : « عُرض على ما هو كائن من أمر الدنيا ، والآخرة ، يجمع الله الأولين والآخرين ، فى صعيد واحد ، فيفظع الناس لذلك ، والعرق كاد يلجمهم » .

وفى حديث عبادة بن الصامت : « إنى لسيد الناس يوم القيامة — بغير فخر — ، وما من الناس إلا من هو تحت لوائى ، ينتظر الفرج ، وإن معى لواء الحمد »[1] .

وبهذا يتبين أن قوله فى رواية أنس : « يحبس المؤمنون يوم القيامة » أن قبله كلامًا محذوفًا ، وأن المقصود الخلق عامة ، ولهذا جاءت أكثر الروايات بالتعبير « بالناس » .

وفى هذه الرواية — زائدا على ما تقدم — ، ذكر الذنوب التى يعتذر بها الأنبياء وتقدم أن هذا من الأدلة على وقوع الذنوب فى الجملة من الأنبياء ، وتقدم الكلام فى هذه المسألة .

ومن ذلك قوله : « فأستأذن على ربى فى داره » ، وتكرر ذلك ثلاثا ، قيل : المراد الجنة ، والظاهر أن المراد مكان معين ، كما فى حديث الشفاعة الطويل « فآتى تحت العرش » ، وفى حديث الصور ، « فآتى مكانا تحت العرش ، يقال له الفحص » ، فيكون المعنى ، المكان الذى تحت عرشه .

وما ذكره الحافظ نقلا ، عن الخطابى أن قوله : « فأستأذن على ربى فى داره » يوهم المكان ، والله منزه عن ذلك ، وإنما معناه فى داره التى اتخذها لأوليائه ، وهى الجنة ، أضيفت إليه إضافة تشريف ، مثل بيت الله وحرم

---

(١) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٣٢ .

الله »[1] فيقال له : ماذا تقصد بالمكان ؟ إن كنت تريد مكانا يحويه ويحيط به ، فالله تعالى منزه عن ذلك .

وإن كنت تريد أنه ليس فوق عرشه ، عال على خلقه ، كما هو مذهب أهل الباطل من أشعرية ، ومعتزلة ، وغيرهم ، فقد أثبت الله تعالى ذلك لنفسه وأثبته له رسله ، واتفقت عليه كتبه ، وأجمعت عليه أتباع الرسل ، وفطر الله — تعالى — عليه خلقه ، فإنكار ذلك عناد ، ومكابرة للعقول السليمة من الانحراف ، ومخالفة للشرع ، وقد تقدم من الأدلة على ذلك ما يكفى بعضه لمن يريد الحق .

ومما لم يتقدم فى الرواية السابقة قوله : « فأخرج ، فأخرجهم من النار » يعنى يخرج من المكان الذى استأذن فى الدخول فيه .

وفيه ألفاظ أخر تختلف عما سبق ، ولكن المعنى متقارب .

والمقصود منه هنا قوله : « فأستأذن على ربى فى داره ، فإذا رأيته وقعت ساجدا » كرر ذلك ثلاث مرات ، وهو صريح فى أن الرسول ﷺ يرى ربه عيانا فى ذلك المكان ، فيسجد له ، وإذا رآه جاز أن يراه غيره .

وأما تلاوة الآية إلى آخر قول أنس ، فهو تفسير للمقام المحمود وسيأتى . وفى هذا الحديث إشكال ظاهر ، حتى قال الداودى : « أول هذا الحديث ليس متصلا بآخره ، بل بقى بين طلبهم الشفاعة ، وبين قوله : « فأستشفع » ، أمور كثيرة من أمور القيامة »[2] ، وقال : « وكأن راوى الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن أول الحديث فى ذكر الشفاعة ، فى الإراحة من كرب الموقف ، وآخره فى الشفاعة لإخراج بعض العصاة من النار ، وهذا إنما يكون

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٢٩ .

(٢) ذكره الحافظ فى الفتح جـ ١٣ ص ٤٢٦ .

بعد انتهاء الوقوف ، والقضاء بين الخلق ، وذهاب أهل الجنة إليها ، وأهل النار إليها » ، قال الحافظ : « وهذا إشكال قوى »[1] .

ثم ذكر جوابه ، عن القاضى عياض ، قال : وتبعه عليه النووى .

وحاصله : أن الحديث فيه اختصار ، وحذف ، وذكر بعض الروايات التى تبين ذلك .

منها ما فى حديث أبى بن كعب ، عند أبى يعلى : « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عنى ، ثم يؤذن لى فى الكلام ، ثم تمر أمتى على الصراط ، وهو منصوب بين ظهرانى جهنم ، فيمرون » .

ومنها ما فى رواية ابن عباس عند الإمام أحمد : « فيقول — عز وجل — يا محمد ما تريد أن أصنع فى أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » .

وذكر جواب القرطبى ، « بأن قوله فى حديث أبى هريرة : « أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب » ، فهذا يدل على الشفاعة فى تعجيل الحساب »[2] .

وذكر غير ذلك مما هو مخالف لظواهر الأحاديث ، فلا يعول عليه .

وقال ابن أبى العز : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، ولا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، فى إتيان الرب — تعالى — لفصل القضاء ، مع أنه المقصود من سياق الحديث .

فإن الناس يطلبون الشفاعة ليقضى بينهم ، فيستريحوا من عناء الموقف .

وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور المشهور ، فإن فيه

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ببعض التصرف

(٢) انظر الفتح جـ ١١ ص ٤٣٨

« فأذهب فأسجد تحت العرش ، فى مكان يقال له : الفحص ، فيقول الله : ما شأنك ؟ وهو أعلم ــ فأقول : يا رب وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول سبحانه ، شفعتك ، أنا آتيكم فأقضى بينهم ، قال : فأرجع فأقف مع الناس » ، ثم ذكر « انشقاق السماوات ، وتنزل الملائكة ، ثم يجىء الرب ــ تعالى ــ لفصل القضاء » إلى آخره . وكأن السلف اقتصروا على هذا القدر من الحديث ، للرد على الخوارج ، ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار ، بعد دخولها ، فذكروا القدر الذى فيه التصريح بذلك »[1] .

وبذلك يزول الإشكال ، فإن حديث الصور مشهور ، وإن كان سنده ضعيفًا ، ولكن له شواهد كثيرة صحيحة ، فيصلح أن يكون جوابا لهذا الإشكال ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فقال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : أقم الصلاة المفروضة ، فى أوقاتها التى أمرتك بإقامتها فيها ، ومن الليل فتهجد فرضا فرضته عليك ، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاما تقوم فيه محمودا ، تحمده ، وتغبط فيه .

قال أكثر أهل العلم : إنه الشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه ، من شدة ذلك اليوم ــ ثم ذكر الآثار فى ذلك .

وذكر بسنده ، عن مجاهد ، أن المقام المحمود أن يجلسه معه على عرشه .

ثم قال : الصواب ، ما صح به الخبر ، أنه الشفاعة ، وذكر بعض أحاديث الشفاعة ، ثم قال : « وما قاله مجاهد ، غير مدفوع صحته سندا ، ولا نظرا ،

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٩٣ .

إذ لا خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته ، ولا التابعين بإحالة ذلك »[1] .

قال الحافظ : « الجمهور على أن المراد بالمقام المحمود ، الشفاعة ، وبالغ الواحدى ونقل فيه الإجماع .

ثم قال : والراجح أن المراد به الشفاعة ، لكن الشفاعة التى وردت فى الأحاديث المذكورة فى المقام المحمود نوعان : الأول : العامة فى فصل القضاء .

والثانى : الشفاعة فى إخراج المذنبين من النار »[2] .

٦٨ ــ قال : حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنى عمى ، حدثنا أبى ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، قال : حدثنى أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ « أن رسول الله ﷺ أرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة ، وقال لهم : اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنى على الحوض » .

ذكر البخارى ــ رحمه الله ــ هذا الحديث من رواية أنس ــ رضى الله عنه ــ فى سبعة مواضع غير هذا الموضوع ، منها فى غزوة الطائف ، ولفظه : « قال ناس من الأنصار ــ حين أفاء الله على رسوله ﷺ ــ ما أفاء ، من أموال هوازن ، فطفق النبى ﷺ يعطى رجالا المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم .

قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة من أدم ، ولم يدع معهم غيرهم .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٤٣ ــ ١٤٧ ملخصا .
(٢) الفتح جـ ١١ ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧ ملخصا .